التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة فاطر
تفسير سورة يس
تفسير سورة الصافات

اعتنى به
أشرف بن كمال

الجزء الحادي عشر





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة الصافات

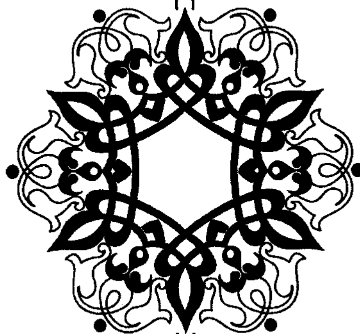


ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع : ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الإيداع : ١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨

رقم الطبعة : الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة فاطر

تفسير سورة فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر: ١]

التفسير

قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ جمع رسول، يقول المؤلف: [إلى الأنبياء]، والأصح إلى الأنبياء وغيرهم. يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] رسل الله - عز وجل - إلى هذا المحتضر؛ ليقبضوا روحه، فهم رسل إلى الأنبياء وإلى غيرهم، فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصورًا في التفسير.

قوله: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾، ﴿أُو۟لِىٓ﴾ بمعنى: أصحاب يعني: الملائكة لهم أجنحة، وهو جمع جناح، هذه الأجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة، أسرع من الجن، بدليل أن العفريت من الجن قال لسليمان لما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[النمل: ٣٨]، وكأن له عادة يقوم في وقت معين، فقال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. يعني: في الوقت المعين، وإلا لكان الأمر مبهمًا، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ يعني مثلًا: إن نظر إلى أبعد شيء ينظر هكذا قبل أن يرتد إليه طرفه فإنه يأتيه به، وفعلًا أتاه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾.

قال العلماء: إن الذي عنده علم من الكتاب كان يعرف اسم الله الأعظم، وأنه دعا باسم الله الأعظم فحملته الملائكة وألقته بين يدي سليمان.

وهذا يدل على أن الملائكة أسرع من الجن، ولا شك في هذا، أنهم أسرع وأقوى، فهم لهم أجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة عظيمة، جبريل عليه الصلاة والسلام كان له ستمائة جناح، ستمائة جناح[1]! كل جناح له قوة عظيمة في الحمل والطيران، فكيف تكون سرعته؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

لا شك أنها سرعة فائقة جدًّا؛ لأننا إذا رأينا الآن الطائرات النفاثة، وأجنحتها التي تحملها، وهي المراوح التي تُدخِل الهواء ليحمل الطائرة ما تبلغ هذا المبلغ ولا عُشْرَهُ، ومع ذلك تطير بهذه السرعة العظيمة وهذا الارتفاع العظيم.

فجبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح قد سد الأفق، وهذا يدلك على أنهم لهم سرعة فائقة عظيمة، هذه الأجنحة ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وأكثر.

قوله: ﴿مَّثۡنَىٰ﴾، ظاهرها أن ذلك في العدد لا في الصنف؛ لأن هذا هو الأصل، ويحتمل أن يكون في الصنف؛ لأننا - مثلًا - نرى الطائر مثلًا له أجنحة؛ له جناحان، لكن كل ريشة من هذه الأجنحة لها عمل خاص في تكييف الطيران، منها مثلًا ما ينصبه حتى يرتفع، ويخفضه حتى ينزل، ويفرشه حتى يستقر، هذا شيء مشاهد؛ ولهذا بعض الأحيان تنتف أشياء معينة من الجناح ثم لا يطير، مع أن الباقي في جناحها أكثر مما نتفتَ بكثير.

فيحتمل أن قوله: ﴿مَّثۡنَىٰ﴾ باعتبار الصنف، ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، ويحتمل أنه باعتبار العدد، وأن الملائكة بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ولا ينافي ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام له ستمائة جناح؛ لأن الله يقول: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾، ويكون مما زاده أن جعل لجبريل ستمائة جناح.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ فإذا قلت: هل نعرف كيفية هذه الأجنحة؟

فالجواب: لا نعرف كيفية هذه الأجنحة لا نعلمها، وهذا نظيره تمامًا ما جاء في صفات الله - عز وجل -، فإننا نعلم معنى الصفة ولكننا نجهل كيفية الصفة لله - عز وجل - وجه، نعلم ما معنى الوجه، لكن هل نعلم كيفيته؟ لا؛ لأن ما غاب عنك لا يخاطبك الله به إلا ببيان معناه فقط، وأما كيفيته فلا يمكنك إدراكها؛ لأنه غائب، ولا نظير له، والشيء لا يعرف إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه.

يقول: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾. ما إعراب مثنى؟

هي بدل أو صفة لأجنحة، يصلح أن تكون صفة وبدل المجرور مجرور وعلامة جره فتحة مقدرة على الألف نيابة عن الكسرة؛ لأن الاسم ممنوع من الصرف، والمانع من الصرف هو: الوصف والعدد، وكذلك نقول في ثلاث ورباع؛ ولهذا قال: ﴿وَثُلَٰثَ﴾ ولم يقل: ثلاثًا، ﴿وَرُبَٰعَ﴾ ولم يقل: رباعًا أو رباعٍ.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [في الملائكة وغيرها]، نعم يزيد في الخلق سواء كان في الملائكة أو غيرهم، يزيد ما يشاء مما تقتضيه حكمته - سبحانه وتعالى -؛ ولذلك تجد المخلوقات لها أيد وأرجل بحسب حاجتها إلى هذه الأيدي والأرجل، فبنوا آدم لهم أرجل يمشون بها ولهم أيد يبطشون بها ولا يمشون بها؛ لأن هذه الأيدى محل الأخذ والعطاء، فأكرم الإنسان بأن تكون يداه غير

مستعملة في المشي بخلاف الحيوان، الحيوان يداه مستعملة في المشي؛ لأنه يأخذ بفمه، ويعطي بفمه،وينقل بفمه حتى الهرة إذا أرادت أن تنقل أولادها تنقلهم بفمها، لكن الآدمي مكرم، فجعل الله تعالى يديه غير مستعملتين في المشي، فهو﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

على حسب ما تقتضيه الحكمة وحاجة ذلك المخلوق، وكل ما ذكره الله ـ عز وجل ـ مما هو معلق بمشيئته، فقد سبق لنا أنه مقرون بالحكمة،

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تعليل لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: كأن سائلًا يسأل وهل ذلك صعب عليه؟ فكان الجواب: من هذه الجملة – أنه سهل؛ لأن الله كل شيء قدير إذ كل شيء موجود قادر على إعدامه، وكل معدوم قادر على إيجاده.

لكن لو قال لك قائل: هل يقدر على أن يجعل المتحرك ساكنًا في آن واحد؟ يجعل المتحرك ساكنًا ويحرك الساكن، هذا واضح، لكن في آن واحد!هل يقدر؟ نحن نقول: يقدر أن يجعل المتحرك ساكنًا لكنه لا ساكن في حال تحركه؛ لأن المتحرك ساكن ممتنع.

يقدر – عز وجل – أَنَّه يطلع الشمس الساعة اثنا عشر من الليل، لكن ما جرت به العادة، لكن كلمة متحرك ضد أو نقيض ساكن، أنت لو وصفته بالمتحرك يقينًا ليس بساكن، وصفته بأنه ساكن يقينًا ليس بمتحرك، فلذلك قال العلماء: إن المستحيل غير وارد؛ لأن المستحيل يعني: ما يمكن وجوده، نعم ما يمكن باعتبار قدرة الله، لكن الله ـ عز وجل ـ إذا أراد أن يجعل هذا المتحرك متحركًا صار متحركًا لا ساكنًا، أما أن يكون متحركًا ساكنًا؛ كيف يكون متحركًا ساكنًا؟ المتحرك غير ساكن.

يُقال: إن الشيطان كان يفرح بموت العالم، إذا قيل: مات فلان العالم فرح واستأنس، لكن إذا قيل: مات عابد. يقول: هين ما يهم يموت أو لا يموت. فقال له جنوده: يا سيدنا لماذا تفرح بموت العالم هذا الفرح العظيم؛ وموت العابد ما يهمك؟ مع أن العابد منقطع عن الدنيا وزاهد في الدنيا، ويكثر الذكر والصلاة وغيرها، قال: لأن العالم أشد عليَّ من العابد. قالوا: كيف؟ قال: أنا أعرفكم الآن، اذهبوا للعابد، وقولوا له: هل يقدر الله ـ عز وجل ـ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟

فذهبوا للعابد، قالوا له: هل الله يقدر على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: لا هذا مستحيل هذه السموات والأرض على كبرهما ما يصيرا في بيضة، رأسي لو يصير في بيضة فقسها، ورأسي هو شيء بالنسبة للسماوات والأرض ما يصلح هذا ما يمكن هذا، ولا يقدر الله على هذا.

قال: قولوا له: هل يقدر الله أن يخلق مثله. أن يخلق مثل الله، فذهبوا له، قالوا: ما تقول؟ هل يقدر الله أن يخلق مثل الله؟ قال لهم: نعم بسيط هذا، إن الله على كل شيء قدير، يقدر الله أن يخلق ربًّا مثله.

إذن كفر هذا العابد سلبًا وإيجابًا، نفيه القدرة في الأول كُفْر، وإثباته القدرة في الثاني كُفْر:

اذهبوا للعالم اسألوه عن السؤالين فذهبوا للعالم فسألوه: هل يقدر الله ـ عز وجل ـ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: نعم، يقول: كن فيكون، إما أن تصغر السموات والأرض ولا تكبر البيضة، المهم إذا أراد قال فكان. قال: هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ قال: هذا مستحيل، هذا أمر مستحيل، والمثلية لا يمكن أن تتطابق أبدًا، لو لم يكن من الفارق العظيم إلا أن هذا حادث، وذاك واجب الوجود، هذا مستحيل.

فالمهم أن الله ـ عز وجل ـ على كل شيء قدير، لكن الشيء المستحيل الذي لا يتصور. وليس المراد هنا المستحيل عادة، المستحيل عادة يخلقه الله ـ عز وجل ـ لأنه خالق العادة وقادر على تغييرها، وهذه النار التي تحرق كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، وهذا الماء السيال صار جامدًا كالطود العظيم، والعادة ممكن أن الله يغيرها ـ عز وجل ـ، وبكل سهولة، لكن الكلام على الأمر الممتنع المستحيل، يقول العلماء: إنه لا تتعلق به القدرة؛ لأنه مستحيل؛ ولهذا قال السفاريني في العقيدة السفارينية: بقدرة تعلَّقت بمُمكن وهذا أمر متفق عليه عند العقلاء.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما فيه استثناء، كتب الجلال رَحِمَهُ اللهُ وهو السيوطي، على هذه الآية في سورة المائدة، قال: [وخص العقل ذاتَه فليس عليها بقادر]، يعني: على كل شيء قدير إلا على ذاته فليس عليها بقادر .

و هذا كذب لا شك أنه باطل؛ لأن الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ وقولك: إن العقل خص ذاته فليس عليها بقادر.

نقول: إن العقل لا يمكنه أن يخصص هذا الخبر بدون دليل، ولو ذهبنا نخصص مثل هذه العمومات بالعقول لأبطلنا كثيرًا من دلالات الكتاب والسنة، وماذا تريد بقولك: خص العقل ذاته فليس عليها بقادر؟ إن أردت أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن قادرًا على ذاته بمعنى أنه لا يقدر مثلًا أن يمرض نفسه، أو أن يعدم نفسه، ـ سبحانه وتعالى ـ، فهذا أصلًا لم تتعلق به القدرة؛ لأن هذا من الأمور المستحيلة، وإن أردت أنه لا يقدر على أن يفعل، ولعل هذا مراده، إن أردت أنه ليس قادرًا على أن يفعل؟ لأن الأشاعرة ومن شابههم ينكرون الأفعال الاختيارية، فهذا كذب، بل العقل يدل على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد.

هناك عبارة تقع كثيرًا بين الناس، يقولون: إن الله على ما يشاء قدير. فكأنه على غير ما يشاء غير قدير.

أولًا: نفي القدرة على غير مشيئة الله سبحانه هذا يوهم أن ما لا يشاؤه فليس قادرًا عليه .وأما قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾، هنا المشيئة عائدة على الجمع لا القدرة، إذا شاء جمعهم

فهو على ذلك قدير ردًا على من أنكروا البعث.

ثانيًا: أنك إذا قلت: إنه على ما يشاء قدير. فقد خالفت التعبير القرآني الذي أطلق الله به وعمم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثالثًا: أن هذا مأخوذ من مذهب القدرية؛ لأن القدرية يقولون: إن الله لا يقدر على عمل العبد فهو غير داخل في قدرة الله، وإذا لم يقدر عليه فإنه لا يشاؤه، وكذلك يقولون: إنه - سبحانه وتعالى - إذا كان فعل العبد في غير مشيئته فإنه غير قادر عليه؛ لأن الله قادر على ما يشاء فقط.

فلأجل هذا نقول: إن هذه العبارة لا تنبغي، وإن كان صاحبها يريد بها معنى صحيحًا، قد يريد بها معنى صحيحًا كما هو الظاهر في عبارة كثير من المسلمين اليوم تكون بهذا الشيء ونقول: إن الأكمل أن تقول: إن الله على كل شيء قدير.

فإن قلت: إنه ورد في قصة الرجل الذي يدخله الله الجنة، آخِر مَنْ يَدْخُل الجنة، فيقول الله له لما قال: «هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِه». قال الله له: «إِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1] هذا الحديث قدسي، فالجواب: أن هذا في قضية معينة، يعني: لو وقع شيء يستغرب الإنسان وقوعه ويستبعده، هل لنا أن نقول: إن الله تعالى إذا شاء شيئًا فهو قادر عليه، بمعنى أنه فاعله، كقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم: ٢٧]، بخلاف القدرة المجردة عن الفعل فإن هذه لا تقيد بالمشيئة.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من الآية الكريمة:** أن جميع الملائكة رسل، فهل هذا الظاهر المراد؟ تقول: غير مراد بدليل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

٢ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** بيان كمال الله - عز وجل -؛ حيث أثنى على نفسه بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٣ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - رحيم بعباده يعلمهم كيف يحمدونه؛ لأن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبر لكن معناه: الإرشاد والتوجيه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١]؛ ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنه كل ما جاءت الحمد لله فهي على تقدير: قل، حتى قالوا في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، المعنى: قل الحمد لله، ولكن الصواب خلاف ذلك، وأن هذا خبر من الله، ونحن نتلوه نثني به على الله، ولا حاجة إلى أن يأمرنا بذلك.

٤ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** إثبات اسم الله للرب - عز وجل -، وهو الاسم الخاص به لا يقال لغيره وهو أصل الأسماء؛ ولذلك تأتي الأسماء بعده في الغالب صفة له، ولا تأتي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٧).

سابقة عليه إلا نادرًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] وإلا فإن الغالب أن الأسماء تأتي تابعة له فهو أصل الأسماء؛ ولهذا لا يسمى به غيره أبدًا لا علمًا ولا صفة، بأي حال من الأحوال.

وهل هو مشتق أو اسم جامد؟ الصحيح - بلا شك - أنه: مشتق؛ لأن جميع أسماء الله تعالى مشتقة، بمعنى: أنها دالة على المعاني التي أخذت منها، فما مشتق (الله)؟ من الألوهية، الاشتقاقات تكون بمصدر، ما هو أصله؟ الإله، لكن الإله ليست مشتقة من الألوهية.

٥ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ هو فاطر السماوات والأرض، لم يشاركه أحد في ذلك؛ لقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** كمال قدرته وحكمته، حيث ابتدع خلق هذه السموات العظيمة والأرض على هذا النظام البديع من غير أن يسبق مثال يحتذيه ويقتدي به، ومعلوم أن مبدع الصنعة يُشهد له بالخبرة والقدرة، يعني: من أنشأ شيئًا جديدًا وصار هذا الشيء الجديد منتظمًا على تمام الانتظام وغاية الإحكام فإنه يشهد له بالكمال وبالخبرة، ففي كونه ابتدع السماوات والأرض دليل على القدرة وعلى الحكمة؛ لأنه خلقهما على غير مثال سبق.

٧ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن السماوات متعددة، وقد بين الله تعالى في آية أخرى أنها سبع، فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ [المؤمنون: ٨٦]. وأما الأرض فذكرت مفردة باعتبار الجنس، وهي سبع أراضين.، والدليل من القرآن والسنة:

من القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن السنة: «**مِنَ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يومَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِين**».

٨ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ .

٩ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن مِن الملائكة مَن اصطفاهم الله تعالى رسلًا إلى الخلق بالوحي، وغير الوحي؛ لقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

١٠ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن هؤلاء الرسل لهم أجنحة، أجنحة متعددة الأصناف، ومتعددة الأعداد، يعني: أنها متعددة كمية، وفي الكيفية لقوله: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ .

١١ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن فيها إشارة إلى سرعة تنقل الملائكة؛ لقوة أجنحتهم؛ لقوله: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾. وإنما قلت: بقوة أجنحتهم؛ لأنه لولا أن لهذه الأجنحة مزية عظيمة استحقت أن ينص عليها لَذَكَرَ غير الأجنحة كالرءوس مثلًا، ولكن ذكرَ الأجنحة بما فيها من القوة لحملها هؤلاء الملائكة؛ ولأنها تكون أسرع، وقد ضربنا مثالًا لذلك يدل على أن الملائكة أسرع من غيرها في الطيران في قصة عرش بلقيس.

١٢ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ يزيد على الاثنين والثلاثة والأربعة

ما شاء؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ .

١٣- **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أن الله تعالى فضل المخلوقات بعضها على بعض؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ والزيادة مقابلها النقص، إذن فهناك مفاضلة بين المخلوقات بعضها مع بعض، ولكن هل المراد القوة أو كبر الجسم، أو العقل، أو العلم أو بعضهم؟ الجواب: العموم؛ لأنه قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. فهذا يزيده قوة في الجسم، وهذا يزيده قوة في العقل، وهذا يزيده قوة في السمع، وهذا يزيده قوة في العلم إلى آخره.

١٤- **ويُستفاد من الآية الكريمة:** أنك إذا وجدت من نفسك نقصًا في خلقك فاطلبه ممن؟ اطلب كماله من الله، لأن قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. معناه: لا تسأل الزيادة في خَلق ولا خُلق إلا من الله - عز وجل -، لأنه هو المانُّ بما يزيد به - سبحانه وتعالى - .

١٥- **ويُستفاد من الآية الكريمة:** إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ وقد مر علينا أن المشيئة في كل ما وردت معلقة بالحكمة واستدللنا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان: ٣٠] .

١٦- **ويُستفاد من الآية الكريمة:** إثبات القدرة العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على أن يزيد في الخلق ما يشاء، وقادر على الإيجاد والإعدام.

١٧ - **ويُستفاد من الآية الكريمة:** الرد على القدرية الذين يزعمون أن أفعال العبد غير مخلوقة ولا مقدورة لله، من أين يؤخذ؟ ﴿مَا يَشَاءُ﴾؛ لأن كل (ما) عموم سواء نكرة أو معرفة؛ لعموم قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأفعال العبد من الأشياء.



قال الله تعالى:

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]

التفسير

يقول: ﴿مَا يَفْتَحِ﴾ ما شرطية تجزم بدليل الفعل بعدها يفتح، ولكن الفعل بعدها مكسور ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ﴾، فنقول: إن هذه الكسرة عارضة من أجل توقي التقاء الساكنين، وإلا فإنه مجزوم، فأصله ما يفتح، حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ﴾ [البيِّنة: ١]،(لم يكنِ الذين)، وأصلها لم يكنْ.

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ يفتح من رحمة، فتح الشيء: إزالة الحواجز دونه، يعني:

متى فتحت البيت يعني: أزلت الحاجز المانع من دخوله وهو الباب، والرحمة إذا فتحت فإن الإنسان يدخل إليها ويلج فيها.

وقوله ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ من بيان لـ (ما)، وما شرطية مفيدة للعموم، وعلى هذا فيكون في الآية عموم، أيْ: أيُّ رحمة يفتحها الله ـ عز وجل ـ للناس فلا أحد يستطيع إمساكها.

وقوله: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كالرزق، كرزق ومطر، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر؛ لأن رحمة الله أكثر من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨]، فنعم الله ـ عز وجل ـ لا تُحصى، ورحمة الله ـ عز وجل ـ لا تحصى في أنواعها فضلًا عن أفرادها.

وقوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يمسكها، ولا يردها أحد، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد الرفع من الركوع: «اللهمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيتَ وَلا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[1].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ»[2]. فلا أحد يستطيع أن يمسك رحمة الله مهما عمل، حتى لو حاول الحسد والتشويه ومنع الرزق ما يستطيع، إذا فتح الله الرحمة للعبد لا أحد يستطيع أن يحول بينه وبينها؛ ولهذا جاءت ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ولا نافية للجنس، وهي أنص شيء على العموم وهذا عموم لا النافية للجنس لا تخصيص فيه أبدًا، قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وهنا قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، والضمير في ﴿لَهَا﴾ يعود على الرحمة.

قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾. لأنك تتوقع أن يكون لفظ الآية الكريمة، وما يمسك فلا مرسل لها؛ لأن الكلام آتٍ في الرحمة، وفي الجملة الأولى بعد ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا يقتضي أن تكون الجملة الثانية كالأولى؛ أي: وما يمسك فلا مرسل لها، هكذا تتوقع، ولكن ليس الأمر كذلك؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لم يخصص بالرحمة، حتى نقول: إن المتوقع أن يقول: فلا مرسل لها.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ وحَذَفَ المتعلق؛ ليفيد العموم، أي: ما يمسك من رحمة وما يمسك من شر، فلا مرسل له، حتى الضرر الذي يمسكه الله ـ عز وجل ـ لا أحد يوْصله إليه أو يوصله إليه حتى الرحمة التي يمسكها الله عنك لا يمكن أن يوصلها أحد إليك؛ ولهذا أحيانًا يسعى الإنسان إلى ما يراه من رحمة الله من رزق أو غيره، ثم يحول القدر بينه وبينه، أحيانًا يتعرض الإنسان لأخطار ولكن يسلم منها، قد تحصل بالسيارة صدمة فيموت أناس أطول منك أجسامًا وأقوى منك منعة،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤).

وتبقى أنت، إذن الله أمسك عنك الضرر، ولولا هذا الإمساك لهلكت فيمن هلك.

إذن نقول: ما يمسك فلا مرسل له أي: لما أمسكه، فعاد الضمير في (لا مرسل له) على لفظ (ما)، ولكن لفظ (ما)مذكر، بخلافه في الأول فعاد على رحمة؛ لأنها مؤنثة.

الآن تبين لنا أن السياق على أتم ما يكون من البلاغة، وأن ما كنا نتوقعه من أن يقال: فلا مرسل لها ليس على ما نتوقع؛ لأن قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ لا يعني الرحمة ولهذا نقول: إن قول المؤلف: [وما يمسك من ذلك] فيه قصور؛ لأن قوله: من ذلك يعود إلى الرحمة، ولكن نقول: وما يمسك من ذلك وغيره ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال المؤلف: [أي بعد إمساكه]. وهذا لا شك أنه احتمال، وأنه يحتمل أن يكون الضمير راجعًا إلى إمساك المستفاد من قوله: ﴿يُمْسِكْ﴾ .

إذا قيل: هل لهذا نظير أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل قبله؛ لأنه من المعلوم أن مرجع الضمير لابد أن يكون اسمًا مذكورًا قبل أو بعد أو مقدر؟ المهم أن مرجع الضمير اسم، الاسم لا بد أن يذكر بلفظه الصريح مقدمًا أو مؤخرًا أو مقدرًا، وإما أن يؤخذ من مصدر فعل سابق، هنا أرى أن كلام المؤلف من بعده يقول: [أي: بعد إمساكه]، فنقول: أين كلمة إمساك؟ هل سبقت؟ نعم سبقت؛ لأن يمسك فعل مأخوذ من أين؟ من إمساك، إذن فقد تَضَمَّن الفعل ذلك المرجع، وهو إمساك، ونظيره: قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. هو أي: العدل المفهوم من قوله: ﴿اعْدِلُوا﴾ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

إذنْ نقول: الأصل في مرجع الضمير أن يكون اسمًا مذكورًا متقدمًا، مطابقًا أيضًا، وقد يتأخر، وقد يقدر، وقد يكون مفهومًا من مصدر فعل سابق، كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. وكما في هذه الآية على تقدير المؤلف، هل يمكن أن يحتمل عود الضمير على غير الإمساك؟ على الله - عز وجل - لأنه قال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾. أي: من بعد الله، وتكون كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]. ويكون الضمير في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، عائدًا إلى الله - عز وجل -، وهذا أقرب؛ لأنه أدل على كمال التصرف في حق الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال المؤلف: ﴿الْعَزِيزُ﴾ [الغالب على أمره]، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [في فعله]، أظن أن كل واحد منكم بإمكانه أن يقول: إن هذا التفسير قاصر، تفسير المؤلف الآن قاصر؛ لأن قولنا: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره هذا أحد معاني العزيز، فإن العزيز له ثلاث معانٍ:

عزة القَدْرِ والقَهْرِ والامتناع، القهر ما معنى قوله: الغالب على أمره؟ نقول: إنه يشمل الغالب على أمره الذي لا يغلب، وهذا هو القهر، ذو القدر الرفيع العالي، وهذا هو معنى قولنا: عزة

القَدْرِ، وعزة الامتناع يعني: أنه يمتنع أن يناله سوء أو نقص أو عيب، فللعِزَّة إذن ثلاثة معان وليس معنى واحدًا، أما الحكيم، فقال المؤلف: [في فعله]، وهذا أيضًا قصور، فإن الله تعالى حكيم في فعله وقوله وفي قدره وشرعه، في الكل، بل إن الحكيم لها معنى آخر؛ لأنها مأخوذة من الحكم والإحكام، فهو ذو حكم وذو إحكام، والحكم كوني وشرعي، والإحكام في الغاية أو في الصورة التي عليها الشيء، فالجميع أربعة أنواع، ولكن يقرن الله تعالى دائمًا بين العزة والحكمة، لما في ذلك من كمال عزته.



❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٣، ٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣] تصدير الخطاب، بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به؛ لأن النداء يتضمن التنبيه، ولهذا إذا قلت للطالب: يا ولد. فإنه ينتبه، فتصدير الحكم بالنداء يدل على العناية به؛ لأن النداء يفيد التنبيه.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال المؤلف: [أهل مكة]، وهذا بلا شك قصور؛ لأن ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عام، والواجب علينا في القرآن والسنة أن نبقي العام على عمومه، حتى يقوم دليل على إرادة الخصوص، وإلا فإن الواجب إبقاؤه على عمومه؛ لأنه ليس لنا حق في أن نتصرف بمدلولات الألفاظ المخالفة لظاهرها إلا بدليل من المتكلم، أو من يتكلم مبينًا كلامه كالرسول عليه الصلاة والسلام، فالنداء إذن عام لجميع الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ المراد بالذكر: هنا ذكر النعمة بالقلب، وذكرها باللسان، وذكرها بالفعل بالجوارح، ذكرها بالقلب: بأن يتأمل الإنسان من أين هذه النعمة أتت؟ من الذي خلقه؟ من الذي أمده بالرزق وهو في بطن أمه لم يخرج بعد؟ من الذي أعده لقبول ما يمر به وتصوره وتعقله وتمثيله؟

فالجواب: الله. فأنت إذن تذكرت في قلبك - ونسأل الله - أن يعافينا وإياكم من الغفلة - إذا تذكرت في قلبك هذه الأمور عرفت أن ما بك من نعمة فهو من الله - عز وجل - فذكرالنعمة بالقلب أن الإنسان يتأمل، ويقول: من الذي أوجدني؟ الله، من الذي أمدني بالنعم، وأنا في بطن أمي لا يستطيع أحد أن يوصل إليَّ لقمة العيش أو جرعة الماء؟ هو الله عز وجل. ثم من الذي

أعدني وهيأني لأن أكون قابلًا لما فيه منفعتي في الدنيا والآخرة؟ الله - عز وجل -. فالنعم إيجاد وإمداد، والشيء الثالث إعداد، إيجاد وإمداد وإعداد، كل ذلك من الله - سبحانه وتعالى -، هذا ذكرها بالقلب.

ذكرها باللسان: أن نثني على الله بها، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]. فيتحدث بالنعم، لا على سبيل الافتخار، ولكن على سبيل الثناء.

ذكرها بالجوارح: أن يرى أثر هذه النعمة عليه، فإن كانت هذه النعمة علمًا رؤي أثر هذا العلم عليه بحسن التصرف والوقار والسكينة والأدب ونشر العلم والدعوة إلى الله - عز وجل -، وإذا كان بمال يرى أثر النعمة عليه، بالإنفاق فيما يحبه الله - عز وجل -، من الزكاة والنفقات الواجبة والصدقات المستحبة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه، هذا ذكر بالجوارح، فصار الذكر يشمل ثلاثة أمور: الذكر بالقلب، واللسان والجوارح، ومن ذكر النعمة بالجوارح أيضًا: أن يقوم بشكرها، والله - عز وجل - أمرنا بذكر نعمته للغاية وهي قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]. ولابد من قرن هذا الذكر بالشكر، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نعمة هنا، مصدر مضاف، فيشمل جميع النعم، وهي واحدة أو أكثر، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، قال المؤلف: [بإسكانكم الحرم، ومنع الغارات عنه]، هذا التفسير بناء على أن المخاطب أهلُ مكة، ولكن نقول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالنعم التي لا تحصى، وهي كثيرة جدًّا، كما أسلفنا الأمثلة عليها، تكون نعمة بالإيجاد، والإمداد والإعداد، كل هذه من الله - عز وجل -، قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعني: إذا تقرر أن ذكرتم نعمة الله عليكم، فإننا نوجه إليكم هذا السؤال المتضمن للنفي: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؟ ﴿مِنْ﴾ زائدة، و﴿خَالِقٍ﴾ مبتدأ، ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ بالرفع والجر، نعت لخالقٍ لفظًا ومحلًا، وخبر المبتدأ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾، ﴿هَلْ﴾ أداة استفهام، و﴿مِنْ﴾ زائدة لفظًا، وزائدة للمعنى؛ لأنها تفيد توكيد النفي والتنصيص على العموم، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾، فخالق إذن مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره لاشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيه قراءتان؛ ﴿غَيْرُ﴾ و(غيرِ)، وكلاهما صحيح، أما على قراءة الجر (غيرِ الله) فهي صفة تابعة للفظ، لفظ خالق؛ لأن خالق مجرور، وأما على قراءة الرفع فهي صفة تابعة لمحل خالق؛ لأن محله الرفع على الابتداء، ولهذا قال المؤلف: [بالرفع والجر نعت لخالق، لفظًا ومحلًا]، في كلام المؤلف لف ونشر مشوش.

نقول: غير مرتب إذا صار في القرآن أو في الحديث، أما في كلام الناس، بالرفع والجر نعت

لخالق، لو كان مرتبًا، لقال: نعت لخالق محلًا ولفظًا؛ لأنه بالرفع يكون في المحل، بالجر يكون نعتًا للفظ.

إذنْ ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ فيها قراءتان ولكل منهما وجه في اللغة العربية.

وقوله: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يقول المؤلف: [خبر المبتدأ] هل الفعل نفسه خبر المبتدأ أو الجملة؟ الجملة، لكنهم عند الإعراب يتساهلون في تبيين هذا، فمثلًا يقول: فلان في المسجد، يقول في المسجد جار ومجرور خبر المبتدأ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ يقول: [يرزقكم خبر المبتدأ] وإن كانت الجملة قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾ هو استفهام بمعنى النفي، وقد ذكرنا سابقًا أن الاستفهام إذا كان بمعنى النفي فإنه مشرب معنى التحدي، يعني لو قال: لا خالق غير الله يرزقكم لاستقام الكلام، لكن قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ﴾ صار أبلغ؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأنه يقول: أروني خالقًا غير الله يرزقكم من السماء والأرض، ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] يقول: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ﴿خَالِقٍ﴾ الخلق في اللغة: التقدير، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ... ـضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

(تفري ما خلقت) يعني: ما قدَّرت، ولكنه يُطلق على الإيجاد المسبوق بتقدير، فهنا ﴿خَالِقٍ﴾ بمعنى: موجد إيجادًا مسبوقًا بتقدير ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ الجواب: لا خالق غير الله يرزقنا من السماء والأرض، وقد سبق لنا إيراد على نفي الخلق عما سوى الله، وقلنا: إنه قد جاءت نصوص تدل على أن غير الله يخلق، وأجبنا عن ذلك: بأن خلق غير الله، ليس إيجادًا، ولكنه تحويل من صورة إلى صورة، وأيضًا ليس عامًّا، وشيء ثالث: أن خلق غير الله هو من خلق الله في الواقع ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] خَلَقْتُ الشيءَ يعني أَوْجَدْتُه بمعنى: غيرته من حال إلى حال، فإن فعلي هذا مخلوق لله - عز وجل -، فعليه نقول: إن الخالق الحقيقي هو الله.

وقوله: ﴿يَرْزُقُكُم﴾ بمعنى: يعطيكم؛ لأن الرزق بمعنى: العطاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، وقوله: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ فسر المؤلف الرزق من السماء بالمطر، وهذا لا شك أنه داخل فيه، فإن المطر من الرزق النازل من السماء، وهل هناك غيره رزق ينزل من السماء؟ نعم، الوحي، وهنا الرزق معنا، وهناك شيء آخر وهو المنُّ والسَّلْوَى، على بني إسرائيل، ولماذا لا نقول: الطيور مطلقة، مثلًا ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [النحل: ٧٩] فهي تنزل من السماء، وهي رزق للعباد أيضًا، ومن الأرض، هي من الأرض ومن السماء، ممكن أن نقول: إن الطَّل من الرزق الذي دون المطر يعني: الرطوبة هي من السماء أيضًا، وهي رزق؛ لأنها تنفع الأشجار، وقوله: [﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطر ومن ﴿وَالْأَرْضِ﴾ النبات] قدر المؤلف [من] إشارة إلى أن

الأرض معطوفة على السماء لأن الرزق من الأرض أكثر من النبات، فهو يشمل النبات والمعادن والمياه وغير ذلك، كثير من الأرض، وقوله: [والاستفهام للتقرير أي: لا خالق رازق غيره]، قوله: للتقرير، ثم قال: [أي لا خالق]؛ هذا لأن قوله: (لا خالق) يقتضي أن يكون معناه: النفي، وهو كذلك، فهو للنفي المشرب التحدي، وأنه لا خالق إلا الله، إذا كان لا خالق إلا الله - سبحانه وتعالى - فمن الواجب أن نعبد الله وحده، قال الله عز وجل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو، وكيف تعلمون أنه لا رازق يرزقنا من السماء والأرض إلا الله ثم تذهبون تعبدون غيره؟ هل هذا إلا نقص في التصور؟ ونقص في العقل أيضًا والتصرف، نقص في التصور والعقل والتصرف، أليس كذلك؟ إذا كان لا رازق إلا الله؛ كيف تعبد اللات والعزى ومناة وهُبَل والأشجار والأحجار والشمس والقمر والبقر أيضًا؟ يوجد ناس يعبدون البقر في الهند، وأنه إذا مرت البقرة على طريق القطار الحديد، فإنه يجب أن يقف ولو تكسر كل من فيه.

فالبقرة تأكل ما شاءت وتعمل ما شاءت، المهم هل هذه عقول؟!! في الجاهلية يصنعون إلهًا من التمر، فإذا جاعوا أكلوه، أكلوا الإله، فإذا كان الله - عز وجل - هو الرازق وحده بإقراركم واعترافكم، فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، إعراب هذه الجملة العظيمة التي بها يدخل الإنسان في الإسلام أو يخرج، يدخل إن أقر بها، ويخرج إن أنكرها، إعرابها فيه ستة أوجه للنحويين، وألف بعض العلماء رسالة في ذلك، ولكن أحسن ما يقال في إعرابها:

أن (لا) نافية للجنس، و(إله) اسمها، وخبرها محذوف، تقديره (حق)، لا إله حق، و(إلا)أداة استثناء، و(الله) بدل من الخبر المحذوف، وهل النفي هنا مسلط على الوجود، أو الوجود بحق؟ على الوجود بحق؛ لأن هناك آلهة دون الله تعبد، لكن ليست بحق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]. وقال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]. فالآلهة موجودة لكنها لا تستحق أن تكون آلهة؛ لأنها ليس لها ربوبية.

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾، [من أين تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟] لو قال المؤلف: عن عبادته لكان أحسن؛ لأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه توحيد ألوهية، وكلمة توحيد تشمل: الربوبية أيضًا، ولو قال: فأنى تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم أنه الخالق وحده؛ لكان أحسن.

وقوله: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ قال: أي: تصرفون، فالأفك بمعنى: الصرف، ماضيه أَفِك، ومضارعه يأفَك، أفكًا، ما هي إفكًا، أفكًا بالفتح أما الإفك بالكسر فهو: الكذب، والكذب في الواقع يتفق مع الأفك من حيث المعنى؛ لأن الكذب هو الإخطار بخلاف الواقع، فهو صرف للشيء عن حقيقته، قال الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٩] أي: يصرف عن مَنْ صرف، إذن

﴿تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم بأنه الخالق وحده، والاستفهام في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ الاستفهام للتوبيخ وللتقريع، يعني: كيف تقرون بأنه الخالق وحده ثم تعبدون معه غيره؟

ثم قال المؤلف: [وإن يكذبوك يا محمد في مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب؛ فقد كذبت رسل من قبلك].

قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ إن هنا شرطية، وفعل الشرط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ وجوابه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، واقترن بالفاء لأنه مصدّر بقد، (إن يكذبوك) بأن ينسبوك إلى الكذب، فيقولون: إنك كاذب ولست رسولًا لله - عز وجل -، بل أنت ساحر ومجنون وكاهن وشاعر، وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب، إن كذبوك فهذا أمر ليس ببدع وليس ببدع من بني آدم، وليس غريبًا من صنيع بني آدم، ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، مَنْ كذبهم؟ كذبهم أقوامهم، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ والنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ والنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»**(١). ما معه أحد، حتى إن نوحًا عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ يدعوهم سرًّا وجهرًا، وبالتوبيخ وبالوعيد وبالوعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل.

وقوله: ﴿رُسُلٌ﴾ التنكير هنا للتكثير والتعظيم، يعني: رسل كثيرة، ورسل عظيمة أيضًا كُذِّبَتْ، وكُذِّبَ أيضًا نوح وكُذِّبَ إبراهيم وكُذِّبَ موسى وكُذِّبَ هارون وكذب عيسى، وهؤلاء أولوا العزم من الرسل، وأفضل الرسل كُذِّبُوا.

فتكذيبك إذن ليس ببدع، ويراد بهذا أمران أحدهما: تسلية النبي ﷺ فإن الإنسان إذا علم أن غيره أصيب بمثل مصيبته تسلى بذلك، فلو أن أحدًا أصيب بحادث ثم رأينا الحوادث، واحد منكسر يده، وواحد منكسر إصبعه، وواحد منكسر فخذه، وواحد انكسر صلبه، فقام الذي انكسر أصبعه يصيح ويتوجع، قلنا له: فلان انكسر صلبه، يخف عليه الألم وينساه؛ لأن تسلي النفس بالغير له أثر عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزُّخرُف: ٣٩]. اشتراككم في العذاب لن يخفف عنكم، كما هو الشأن في حال الناس في الدنيا، وقالت الخنساء تبكي أخاها صخرًا:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَولِي ... عَلَى إِخْوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

تقول: أسلي النفس عنه بالتأسي. أقول: هذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، وهذه مات

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٠).

أخوها، فأنتِ وغيرك سواء.

قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ الجار والمجرور متعلق بترجع، وقدم لإفادة الحصر، يعني: إلى الله لا غيره ترجع الأمور، وقد رأيته قدم أيضًا لفائدة لفظية وهي: مراعاة الفواصل، قال المؤلف: [﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في الآخرة فيجازي المكذبين وينصر المرسلين]، وهذا أيضًا من القصور؛ لأنه ترجع الأمور في الآخرة وفي الدنيا أيضًا، نعم فإن الله ينصر المرسلين في الدنيا، ويعاقب المكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، إذن (ترجع الأمور)، عام أمور الدنيا والآخرة، وأمور الشرع وأمور القدر، فكل الأمور ترجع إلى الله - عز وجل -، هو الأول والآخر، منه المبتدأ وإليه المنتهى، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. قال ابن عمر رضي الله عنهما: من كان له شيء فليأت به؛ لأن الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وماذا يبقى إذا كان الخلق وهو الإيجاد لله، والأمر في التصرف والتصرف لله؟ ما بقي شيء؛ ولهذا لم يبق شيء ما يمكنه الآخر لأحد أبدًا.

فالأمور كلها لله، والأمور هنا جمع أمر، وما معنى الأمر هنا؟ طلب الفعل على وجه الاستعلاء، الأمور بمعنى: الشئون؛ لأن الأمر الذي بمعنى طلب الفعل على وجه الاستعلاء جمعه أوامر، لا أمور، فالأمور هنا جمع أمر بمعنى: الشأن، أي: شئون الدنيا والآخرة، وشئون القدرية والشرعية كلها ترجع إلى الله - سبحانه وتعالى - إذا كانت ترجع إلى الله، وقد كذبت الرسل، فما مصير الرسل والمكذبين؟ مصير الرسل: النصر في الدنيا والآخرة، ومصير المكذبين الخذلان والخزي والعار في الدنيا وفي الآخرة والله أعلم.

الفوائد:

١ - وجوب ذكر نعمة الله - عز وجل - أشرنا إليها من قبل، بالقلب واللسان والجوارح.

٢ - ويستفاد منه أهمية ذكر النعمة؛ لأنها صُدِّرت بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا يدل على الأهمية؛ لأن ما صدر بالنداء معناه: تنبيه المخاطب على الاستماع.

٣ - ويستفاد من هذه الآية: أن الكفار مخاطبون بالشرائع، من أين يؤخذ؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وكما يجب على المسلم أن يذكر نعمة الله، يجب على الكافر أيضًا أن يذكر نعمة الله، وبناءً عليه فإنه يعاقب على عدم ذكر النعمة في الآخرة، وقد يعاقب عليه أيضًا في الدنيا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** بيان فضل الله - سبحانه وتعالى - على عباده بالنعم، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ وليس نعمة فقط، ولكنها جنس فيشمل جميع ما أنعم الله علينا من نعم الدين والدنيا، سواء البدن أو العقل أو العرض أو المال. .

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لا خالق إلا الله، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وجه

ذلك، إنه لا خالق إلا الله.

والاستفهام بمعنى النفي، كأنه قال لا خالق إلا الله.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرزق يأتي الإنسان من فوق ومن تحت، من أين يؤخذ؟ يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الله ـ عز وجل ـ له الإيجاد والإعداد والإمداد، من أين تؤخذ؟ ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

نعم هذه فيها الإمدا د، لأن الرزق إمداد للإنسان.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ هذا إيجاد.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ كيف ذلك؟

يعني: كما أنه خالق وحده فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ ولهذا نقول: توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية والأسماء والصفات، يتضمنها؛ لأنه لا يُعبد إلا من علم بأنه الرب الخالق الكامل في صفاته، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

٩ - **من فوائد الآية الكريمة:** بطلان ألوهية ما سوى الله.

أقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كيف تجمع بين هذا النفي وبين إثبات الآلهة لغير الله في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾؟ [هود: ١٠١].

أن الألوهية الحق ليست إلا لله، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سفاهة أولئك القوم الذين يعبدون مع الله غيره، مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لأن الاستفهام هنا بمعنى: الإنكار والتوبيخ.

ثم قال الله – عز وجل – : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن تكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس ببدع، فالرسل قد كذبت من قبل وهذا واضح.

٢ - **ومن فوائدها:** عناية الله ـ عز وجل ـ برسوله ﷺ من أين تؤخذ؟ تؤخذ من إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سلى رسوله بذكر من كذب من قبل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن سنن الله تعالى في خلقه واحدة، كيف هذا؟ أنهم كذبوا الرسل كما كُذب الرسول، هذه السنن؛ لأن التكذيب من فعل الغير ما هو من فعل الله قلنا: فيها تسلية للرسول وتهديد للكفار، ولا يمكن أن يثبت التهديد حتى نقول: إن سنن الله تعالى في الأمم

واحدة؛ لأنه لولا ذلك لقال الكفار: وإذا كذبت القوم وأهلكوا ما لنا ولهم، يعني: ما يمكن أن يصفه بأن في هذه الآية تهديدًا حتى نقول: إن سنن الله تعالى واحدة، فإذنْ نقول: يستفاد أن سنن الله تعالى في الناس واحدة؛ لأنه أهلك من كذبوا الرسل، وهدد من كذبوا محمدًا ﷺ وهل يستفاد من الآية أن محمدًا رسول الله؟

نعم من قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾. يعني: رسول وهم رسل. ولولا ذلك لم يكن لقوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فائدة.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن مرجع الأمور (الشئون) كلها إلى الله - سبحانه وتعالى - قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. وجه اختصاص هذا بالله؟ تقديم الجار والمجرور: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ وتقديم المعمول يفيد الحصر، إذن إلى الله لا إلى غيره ترجع الأمور.

٥ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان إذا أصابته الضراء أن يلجأ إلى ربه وأن يتعلق به.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كيف ذلك؟ إذا كانت الأمور ترجع إلى الله؛ فليكن طلب إزالة الضرر من الله.

٦ - **وفيه أيضًا:** وجوب تحكيم الكتاب والسنة، وأنه لا يجوز العدول عما دل عليه الكتاب والسنة؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

كيف ذلك؟ إن الأمور والشئون جميعًا ترجع إلى الله.ومنها الحكم بين الناس، فيجب أن يكون مرجعه إلى الله.

٧ - **ومنها:** أن من حكم بغير الكتاب والسنة فقد اعتدى على حق الله.

٨ - **ومنها أيضًا:** أنه لا يجوز للإنسان أن يسند ما رزقه الله من رزق؛ علم أو مال أو جاه أو ولد أو زوجة إلى نفسه، فيقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. لأنه إذا أرجعها إلى نفسه أو إلى غيره ما أرجعها إلى الله.

٩ - **ومنها:** إثبات نعمة الله - عز وجل - على العباد بإرسال الرسل، في قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾. والرسل إرسالهم من أكبر النعم؛ لأننا لا نستطيع أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الرسل، الإنسان يعرف بفطرته أن الله تعالى موجود، وأن له ربًا خالقًا مدبرًا، لكن لا يعرف كيف يصل إلى هذا الرب إلا عن طريق الرسل.

١٠ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** إثبات حكمة الله عز وجل؛ حيث جعل للرسل من يكذبهم؛ لأنه لولا تكذيب من كذب الرسل ما حصل الامتحان، فهذه من الحِكَم العظيمة أن يجعل الله للرسل من يكذبهم، لولا تكذيبهم لم يحصل الامتحان، إذ لو كان الناس كلهم على الطاعة ما تميز الخبيث من الطيب، ولا تميز المؤمن من الكافر، ولا قامت سوق الجهاد، ولا الأمر بالمعروف ولا

النهي عن المنكر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فهذه من الحكمة في وجود المكذبين للرسل.

فيه أيضًا: حكم كثيرة:

١١ - **منها أيضًا:** أنه لا يتبين الحق حتى يعرف الباطل، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الباطل الذي ينازع الحق ما عرفنا الحق، لكان كله سواء، ولا نعرف حقًا من باطل.



❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٥-٨]

❁ التفسير ❁

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. الخطاب هنا موجه، أو النداء موجه لعموم الناس، كل الناس، المؤمن والكافر، قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. قال المؤلف: [بالبعث وغيره]. وصدق فكل ما وعد الله به فإنه حق، سواء البعث أو العقاب أو الثواب أو النصر أو الخذلان أو غير ذلك مما وعد الله به فإنه حق، حق هنا بمعنى: صدق وثابت، فهو باعتبار الإخبار به صدق وأنه سيكون، وباعتبار وقوعه ثابت، وباعتبار وقوعه ثابت ولا بد، فالحق هنا بمعنى: الصادق من حيث الخبر به، الواقع من حيث ثبوته، وأنه أمر كائن لا محالة، ليس وعد الله - عز وجل - كوعد غيره.

والنهي هنا مؤكد بالنون ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾، ولولا تأكيده لقيل: فلا تغركم أي: تخدعكم، وهذا مفرع على ما قبله؛ لأن الإنسان الذي تخدعه الدنيا يكون إيمانه بوعد الله تعالى ضعيفًا إذن الدنيا تلهيه وتخدعه حتى ينجرف وراءها.

وقوله: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. لا شك أن ما نحن فيه الآن حياة، وضده الموت، وهي دنيا اسم تفضيل، مذكره: أدنى، مثل: عليا وأعلى، سميت الدنيا لوجهين؛ الأول: أنها متقدمة على الآخرة، فهي أدنى إلى الناس من الآخرة؛ ولهذا تسمى الحياة الأولى، وسميت دنيا أيضًا من دنو مرتبتها،

فهي دانية بمعنى: قريبة؛ لأنها الأولى، وهي دانية بمعنى: دنو المرتبة؛ لأن ما فيها من النعيم - إن قدر- فإنه ينغص، منغص تنغيصًا مستقبلًا، أو تنغيصًا حاضرًا؛ لأن نفس النعيم الذي تنعم به في الدنيا لا بد أن يشاب بكدر، كما قال الشاعر:

فَيَــومٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُــسَاءُ وَيَــومٌ نُــسَرُ

وهذا لو تأملته لوجدته كذلك، كل يوم في الأسبوع ناظر نفسك؛ في يوم منبسط ومسرور، ويوم تغتم، ويوم أشياء خارجية تفرحك، ويوم آخر بالعكس، ثم لو قدر أن صفوها خلا من ذلك - يعني لم يشب بأذى - فإن المستقبل ينغص عليك هذا الصفاء، كما قال الشاعر:

لَا طِيـبَ لِلْعَيشِ مَـا دَامَـتْ مُنَغَّـصَةً لَذَّاتُــهُ بِادِّكَــارِ المَــوْتِ وَالهَــرَمِ

فلابد من أحد الأمرين إما موت عاجل وإما هرم مذهل، فالإنسان إذا كبر إذا قدر أن الله تعالى مد له في العمر فإنه يرجع إلى حاله الأولى قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي: يرجع إلى حاله الأولى؛ فيسقط تمييزه، ويكون أشد من الصبي، يعني: كونه عالة على غيره؛ أشد من كون الصبي عالة على غيره؛ لأن الصبي ما عنده عقل وتمييز غاية ما هنالك أنه يصيح، لكن هذا الهرم عنده شيء من التمييز تجده يشرح على أهله مثلًا ويزعق عليهم ويصيح، ويقول: كيف تنسون حالتي أنا يومها شاب وأكد عليكم وآتي لكم بالطعام والشراب ويفزعهم أكثر، ثم هو أيضًا ثقيل، الصبي يقدر الواحد أن يحمله على يديه، ويمشي به يمينًا ويسارًا حتى يسكت، لكن هذا مشكل؛ لذلك إذا تذكر الإنسان أنه إما أن يموت أو يصل إلى هذا الحال فمهما كان عيشه فسوف يتنغص ولهذا نقول: هذه الحياة دنيا، مأخوذة من دنو الزمن ودنو المرتبة والقدْر ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [عن الإيمان بذلك]، أي: وعد الله، وما أكثر الذين غفلوا عن وعد الله، وما أكثر الذين اعتمدوا على الأسباب الظاهرة فنسوا الأسباب التي وراءها، كثير من الناس يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]. كيف إن الله ينصر المسلمين وهم قلة على أعدائهم الكفار وهم بهذه الكثرة وبهذه القوة، كيف هذا يكون؟ فيعتمد على الحياة الدنيا وعلى الأسباب المادية دون ما وراءها، والواجب علينا أن نؤمن بوعد الله، فالله وعد أن ينصر مَنْ ينصره، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

فيقول قائل: كيف أن الله يستخلفني في الأرض وعندنا الروس وعندنا الأمريكان وعندنا الانجليز وغيرهم من الأمم القوية الكثيرة، فما الجواب على ذلك؟

الجواب: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. لا تغرك الدنيا حتى بالنصر، أسباب النصر ليست هي المادة فقط، بل هناك شيء وراءها وهي قوة العزيز - عز وجل - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ [في حلمه وإمهاله]، ﴿الْغَرُورُ﴾ [الشيطان]، يعني: لا يخدعكم أيضًا من وصفه الخداع؛ ولهذا جاء في الوصف الغرور، وغرور فعول صفة مشبهة؛ لأن غروره كان وصفًا لازمًا له لزومًا وجوبيًّا والغَرورغير الغُرور بالضم، الغُرور بالضم مصدر، والغَرور صفة مشبهة دالة على المعنى، ومن قام به المعنى، فالغرور إذن هو الشيطان، أي الشياطين: الإنس أم الجن؟ كلهم، جميعًا ومن شياطين الجن من يغر، وهو معروف، وهو الشيطان الذي يلقي في قلبك ما يحتاله ومن شياطين الإنس أيضًا من يغر، وهم جلساء السوء، الذين يأتون الإنسان فيدخلون فيه كما يدخل الماء في المدر، أو النار في الفحم، ما يدري، يدخلون دخولًا بحيث يكون كالنائم أو كالميت بين يدي المغسل، فالله ـ عز وجل ـ حذرنا من هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

قال المؤلف: [في حلمه وإمهاله]. صحيح إن الإنسان قد يغتر بالله في حلمه وإمهاله، فيقول لنفسه: لو كنت على خطأ لعاقبني الله، وما دام الله ـ عزو جل ـ يرزقني ويعافيني فهذا دليل على أني على حق، لكن هذا من الأماني الباطلة، التي حذر منها رسول الله ص، فقال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيّ**»(١). وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيث الصحة لكن معناه صحيح بلا شك، فإن الكيس الحازم هو الذي يعمل لما بعد الموت.

قال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: لا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وغير ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه، لا ﴿يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: الخادع وهو الشيطان، قوله: الشيطان. على اسم للشيطان الذي هو إبليس، وهو مشتق من شاط يشيط إذا غضب، أو من شطن يشطن إذا (بعد)، والوصفان ثابتان للشيطان؛ لأن عنده طيش، وسوء تصرف كالغضبان، كالذي يشيط غضبًا، وهو أيضًا شاطن، أي: بعيد عن رحمة الله ـ عز وجل ـ، فإن الله تعالى لعنه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: ٧٨].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الجملة هذه مؤكدة بإن، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولم يقل: إن الشيطان عدوكم؛ لثبوت هذه العداوة، ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ولهذا أتى بالجملة الاسمية المكونة من مبتدأ وخبر، فعدو مبتدأ مؤخر، ولكم خبر مقدم، تقديمه للخبر هنا يفيد الحصر، يعني: كأنه قال: ليس عدوًّا إلا لكم. ومعلوم أن من انحصرت عداوته في شخص فإنه يجب عليه أن يحترز منه أكثر وأكثر، وقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾ على وزن فعول، فهي صفة مشبهة، والعدو ضد الولي فإذا كان الولي هو الناصر

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

المتولي لأمرك المعتني به، فالعدو هو الخاذل الذي لا يهمه أمرك لا يهمه أمركم، فالشيطان عدو، يقول الله عز وجل: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. لما أكد أنه عدوًا لنا؛ رتب على ذلك قال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، والفاء هنا يسمونها فاء التحريض، أي: فبسبب ثبوت كونه عدو اتخذوه عدوًّا، يعني: اجعلوه عدوًّا لكم بحيث تنفرون منه نفوركم من الأعداء.

فإذا قال قائل: ما الذي يدلنا على عداوته؟ أو كيف نتخذه عدوًّا؟

الجواب: أن نتخذه عدوًّا بكراهته وبغضه وبعدم الانصياع لأمره. وسوسته؛ لأنه هو كما قال الله عنه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. هو لا يأمر إلا بالفحشاء والسوء ومعصية الله ـ عز وجل ـ، فإذا أحسست من نفسك أنك تهوى المعصية؛ فاعلم أن هذا من إضلال إبليس من أبناء الشيطان، فيجب عليك أن تنفر من هذا؛ لأن هذا صادر من عدو لك لا يريد إلا إضرارك وخذلانك؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. قال المؤلف: [فاتخذوه عدوًّا بطاعة الله ولا تطيعوه]. يعني: أطيعوا الله ولا تطيعوا الشيطان، وأنتم إذا أطعتم الله فإن هذا أعظم سلاح يغيظ هذا الشيطان، الذي هو عدو لكم، فإذا أطعت الله ـ عز وجل ـ فإنك بذلك تغيظ الشيطان وتدحره وتذله، كما أنك تذل أولياءه أيضًا وتغيظهم، قال الله ـ عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾. إلى أن قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهؤلاء القوم بصفتهم المذكورة يغيظون الكفار، والكفار أولياء الشيطان، وإذا كانوا يغيظون الكفار فإنهم يغيظون أيضًا الشيطان، فأعظم شيء لإغاظة الشيطان هو أن تقوم بطاعة الله ـ عز وجل ـ.

يُرْوَى أن الشيطان يقول عن بني آدم: أهلكتهم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله، والاستغفار؛ فالتوحيد وسؤال المغفرة لا شك أنه يغيظ الشيطان.

يقول الله ـ عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾.[أتباعه في الكفر، ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الشديدة]، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ إنما: أداة حصر، تفيد إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما سواه، يعني: ما يدعو حزبه إلا لهذا الأمر؛ لأن يكونوا من أصحاب السعير، واللام في قوله: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ اللام هذه للعاقبة، يعني: يدعو حزبه للشر والفحشاء لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير، وقول المؤلف: [﴿حِزْبَهُۥ﴾: أي: أتباعه في الكفر].

قد يقال: إن فيه قصورًا؛ لأن حزب الشيطان، الحزب المطلق، لا شك أنهم الكفار لكن من عصى الله ـ عز وجل ـ ولو لم يكن كافرًا في معصية من المعاصي، فله من حزبية الشيطان بقدر ما عصى الله، لكن الحزب المطلق هم الكفار، قال: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. يعني: من أصحاب النار والسعير هو: النار الشديدة، وإنما يدعوهم لذلك؛ لأنه لما غوى والعياذ بالله وتكبر عن طاعة

الله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، لما خُذِلَ والعياذ بالله وطرد، وصار غاويًا، حرص على أن يكون له أتباع في غيِّه، وهذا أمر مشاهد، أهل الحق يودون أن يكون لهم أتباع في الحق، وأهل الباطل يودون أن يكون لهم أتباع في الباطل، فالشيطان والعياذ بالله لما كان من أصحاب النار أحب أن يكون الناس ـ أي بنو آدم ـ، كلهم من أصحاب النار، هؤلاء الذرية ذرية آدم، وشقاء إبليس إنما كان لتركه السجود لآدم، فلا زال أن يضلل ذريته، وأن يحاول بكل ما يستطيع إغواءهم حتى يكونوا من أصحاب النار.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ، خبره جملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. والعذاب: العقوبة، وأتى بالجملة الاسمية ؛ للتحقق من أجل ثبوت هذا العذاب واستمراره؛ لأن الكافرين مخلدون في نار جهنم، والشديد بمعنى: القوي، وأما غيرهم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. الإيمان محله القلب، أي: صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، فالإيمان ليس مجرد التصديق؛ بل هو تصديق مقرون بقبول وإذعان، قبول بما آمن به وإذعان يقتضيه هذا الإيمان، أما مجرد التصديق فليس إيمانًا، ولو شئتم لضربنا مثلًا بأبي طالب، فإن أبا طالب كان مصدقًا بالنبي ﷺ ولكنه لم يقبل ولم يذعن، فلم ينفعه هذا التصديق، فالذين آمنوا أي: صدقوا بما يجب الإيمان به تصديقًا مستلزمًا للقبول والإذعان.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. فلابد من العمل الصالح، حتى يتم الإيمان ويتحقق ويتبين.

العمل الصالح قال العلماء: هو الذي كان خالصًا صوابًا، خالصًا لله، صوابًا في موافقة شريعة الله، وهذا التعريف يعم هذه الكلمة وغيرها، فما كان خالصًا لله موافقًا لشريعته فهو صالح، ومالم يكن كذلك فهو فاسد، فلو فرغ الإخلاص من العمل لم يكن صالحًا، ولو وُجِدَ الإخلاص لكن لم يكن على وفق الشريعة لم يكن صالحًا، وعلى هذا فالأعمال البدعية وإن أخلص فيها صاحبها ليست بصالحة، والأعمال الشرعية إذا شاركها الرياء وإرادة الخلق لم تكن صالحة.

وقوله: ﴿عملوا الصالحات﴾. هذه تتكرر في القرآن كثيرًا، وهي على ما قال النحويون: من باب حذف المنعوت ووجود النعت للدلالة عليه؛ لأنه أصل، وعملوا الأعمال الصالحات.

قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر عملين لهم وذكر لهم جزائين، الذين كفروا ذكر عملًا واحدًا، وجزاءً واحدًا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ العمل الكفر، والجزاء العذاب الشديد، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهذا عملان، والجزاء: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. مغفرة لذنوبهم وأجر كبير على أعمالهم الصالحات، والمغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغفر، وهو: ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا إذا كان قويًا يمنع، وليست المغفرة مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر والعقوبة ليس

بمغفرة، بل لابد من أمرين؛ الستر، وعدم المآخذة.

وقوله: ﴿وَأَجۡرٞ﴾. الأجر: الثواب الذي يجازى به العامل، حتى الأجرة - مثلًا - إذا استأجرت رجلًا يعمل لك عملًا وأعطيته أجرة فهذا أجر، وسمى الله ـ عز وجل ـ الثواب أجرًا؛ لأنه لابد أن يناله العامل، فهو كأجرة المستأجَر، أو كأجرة الأجير، فلابد أن يناله العمال، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الحديد: ١١]. فسمى العمل لله قرضًا؛ لأن القرض يجب إيفاؤه، فمثل هذه الآيات تدل على أن الله ـ عز وجل ـ أوجب على نفسه أن يثيب العامل.

وقوله: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾. كبير في حجمه، أو كبير في معناه؟ الاثنين؛ لأن الإنسان في الجنة ينظر إلى أدناهم ما أوتي له بل ينظر إلى ملكه مسيرة ألفي عام، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، وهذا لا شك أنه كبير واسع، وكذلك في المعنى؛ لأنه دائم وثابت، قال المؤلف: [هذا بيان؛ بيان ما لموافقي الشيطان وما لمخالفيه]، موافقو الشيطان مَنْ هم؟ الذين كفروا، ومخالفوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إذن يجب علينا أن نتخذ الشيطان عدوًّا بالإيمان والعمل الصالح، وقال المؤلف: [ونزل في أبي جهل وغيره ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ إلى آخره].

أبو جهل كان يسمي في الجاهلية: أبا الحكم، يعني أنه ذو حكمة وعقل وروية، لكنه سمي في الإسلام أبا جهل؛ لأن أعظم الجهل أن يبقى على كفره ولا يؤمن بالله، نزل ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾ ﴿أَفَمَن﴾: الهمزة هنا للاستفهام، والفاء حرف عطف، والمعطوف عليه مختلف فيه؛ فمنهم من قال: إنه مقدر بين الهمزة وحرف العطف، ويكون بحسب السياق، ومنهم من قال: إنه المعطوف عليه ما سبق، فعلى الأول: نقدر المحذوف بما يناسب المقام، فمثلًا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. التقدير: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض، وهنا نقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ نقدرها بما يناسبه فنقول للتقدير: أتدركون هذا الشيء فمن زين له سوء عمله؟ أو نقول: أيستوي المؤمن والكافر كمن زين له سوء عمله، ولكن القول الثاني في المسألة أنه معطوف على ما سبق أحسن؛ لأن الأصل عدم التقدير، ولأنه في بعض الأحيان يصعب على الإنسان أن يقدر المحذوف، وعلى هذا القول يقولون: إن الفاء تقدر سابقة للهمزة، الحرف حرف العطف يقد ر سابقًا للهمزة، ويكون فيه تقديم وتأخير، والتقدير على هذا: فأمن زين له سوء علمه.

وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من المزين؟ ذكر الله ـ عز وجل ـ أن المزين الشيطان، وذكر أن المزين هو الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وفي بعض الآيات يكون المزين مبهما؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ إلى آخره،

فالمزين الله، والمزين الشيطان، فإذا قلت: كيف تجمع بين هذا وهذا؟

فالجواب: أن المزين المباشر هو الشيطان، أما الله - عز وجل - فهو مزين بالتقدير، يعني: هو الذي قدر على الشيطان أن يزين لهم، ومعلوم أن الله تعالى خالق الشيطان، وما نتج من أعماله فهو مضاف إلى الله، كما نقول في الإنسان: إنه مخلوق لله، وما نتج من أعماله فهو مخلوق لله - عز وجل - ، فيكون تزيين الله تعالى بحسب التقدير، يعني: هو الذي قدر أن يزين الشيطان لهم أعمالهم، وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عمل هو مضاف مفرد، مضاف فيشمل كل الأعمال، سواء كان الشرك أو العدوان على الغير، أو سوء السلوك وفساد الأخلاق، أو غير ذلك، المهم أنه شامل لكل الأعمال.

وقال المؤلف: [بالتمويه]. ومعنى بالتمويه؟ أنه يموه على الناس أن هذا العمل الذي يقوم به عمل حسن.

قوله: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: رأي سوء عمله حسنًا، وهذا أشد ما يكون أن يكون الإنسان على خطأ ويرى أنه على صواب؛ لأن مثل هذا لا يكاد يقلع عن غيِّه، حيث إنه يعتبره صوابًا، ومن ذلك مثلًا أصحاب الحيل المخادعون، فالمنافق مثلًا زين له سوء عمله؛ لأنه يرى أنه ذكي ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وهذا من سوء العمل، المتحيلون على الربا بأنواع الحيل هؤلاء أيضًا زين لهم سوء أعمالهم؛ ولهذا لا تكاد تجدهم يقلعون عما هم عليه؛ لأنه قد زين ذلك في نفوسهم فلا يقلعون عنه، المهم هذا له أمثلة كثيرة، بقي علينا أن نقول: مَنْ مبتدأ، فأين خبره؟

قال المؤلف رحمه لله تعالى: [من مبتدأ، خبره كمن هداه الله] ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. يعني: كمن لم يزين له سوء علمه، ورأى سوء عمله سيئًا، لأن الذي زين له سوء عمله سيستمر عليه، والذي رآه سيئًا سوف يتجنبه وهذا لما يقول المؤلف: [كمن هداه الله]، ومثل هذا التعبير يأتي في القرآن كثيرًا كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩]. فالخبر محذوف أي: كمن ليس كذلك، يعني: ليس هذا كهذا؛ لأن بينهما فرقًا، فإن مَنْ زين له سوء عمله سيبقى على ضلاله، ومَنْ لم يزين له سوء علمه ورآه سيئًا فسيتجنبه ولا يقع فيه، قال المؤلف: [لا دل عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾]دل عليه فسرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وعلى هذا فالفاء هنا ليست واقعة في خبر المبتدأ، بل خبر المبتدأ محذوف، لكنها عطف على ذلك الخبر، أي: فإن الله يضل من يشاء عن الحق، فلا يهتدي إليه، ويهدى من يشاء إلى الحق فيلتزمه، وهنا يقول: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ مر علينا كثيرًا تعليق الأشياء بالمشيئة، ولكننا قلنا ونقول: إن هذه المشيئة مقرونة بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله - عز وجل - أن يضل أضله، ومن اقتضت حكمته أن يهديه هداه، من الذي تقتضي حكمة

الله - عز وجل - أن يضله؟ هو الذي أراد الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فإذن إضلال الله تعالى العبد في محله، وذلك بأن يكون هذا الرجل لا يريد الخير وإنما يريد الشر، واعلم أن الهداية والضلال إما عدل وإما فضل، الضلال عدل؛ لأنه جُوزِيَ بحسب ما أراد، لما أراد الضلال - والعياذ بالله - وزاغ قلبه؛ أزيغ، وأما الهداية فإنها فضل؛ فضل من الله - عز وجل -؛ يتفضل به على من شاء من عباده.

ولهذا نقول: **لو قال قائل**: كيف يجعل الله تعالى هذا مهتديًا وهذا ضالًا، أليس هذا ظلمًا؟ فالجواب لا؛ لأن منع الهداية من هذا الضال إنما هو بمقتضى عدله، أما هداية المهتدي فهو بفضله، فنقول: إن منعك ما هو لك فقد ظلمك، وإن منعك فضله ففضل الله يؤتيه من يشاء، ولولا أنك لست أهلًا للهداية ما منعك الله الهداية.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. تقدم في هذه الآية أن هذه المشيئة تابعة للحكمة، فمن اقتضت حكمة الله أن يضله أضله وهو الذي لا يريد الخير؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. يهدي من يشاء المراد به: هداية التوفيق، وربما نقول: هداية التوفيق والدلالة، ولكن الأهم هداية التوفيق ولعل هذا هو المراد هنا؛ لأن الذين أضلهم الله قد هداهم الله هداية الدلالة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] وهذا عام، ولكن الهداية، قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فما كل الناس منهم مهتدٍ.

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ هذا نهي عما كان أم عما لم يكن؟ الظاهر أنه نهي عما كان وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحسر على هؤلاء المكذبين الذين كانوا يكذبونه، والنهي عن الشيء قد يكون نهيًا عما كان وقد يكون نهيًا عما لم يكن، فقوله للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣، ٢١٤] هذا نهي عما لم يكن؛ لأن الرسول ما دعا، قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].ما قتلنا أنفسنا هو يخاطب الواحد لا تقتلوا أنفسكم، إن كان المعنى لا يقتل بعضكم بعضًا فهذا صالح، نهي عما لم يكن وعما كان، لكن إذا كان نهي أن يقتل الإنسان نفسه فهذا قطعًا لم يكن؛ لأنه لا يمكن أن يقتل نفسه إلا وهو موجود.

الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتحسر على فوات هذا ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] يقول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾. أي: مهلك نفسك. ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣] فالرسول عليه الصلاة والسلام يتحسر لهؤلاء لعدم إيمانهم، يقول هنا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يعني: لا تذهب نفسك من أجلهم كما يقال: بكيت عليك الدهر أي: من أجلك، والمعنى لا تذهب نفسك من أجلهم حسرات، قوله: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ قيل: إنها حال على أنها مصدر أريد به اسم

الفاعل، أي: حاسرة، والحسرة: الهم الشديد والغم على ما فات، فكل من فاته شيء يحبه ويطلبه واهتم لذلك واغتم يقال: تحسر، وقيل: إن حسرات مصدر وأنه مفعول من أجله، المعنى: فلا تذهب نفسك. أي: تهلك من أجل الحسرات عليهم، قال: [﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ حيث نزين لهم حسرات كاغتمامك ألا يؤمنوا]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه، في هذه الجملة تهديد وتسلية؛ تهديد لهؤلاء المخالفين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام يعني: لا يهمنك أمرهم فإن حسابهم على الله وسوف يجازيهم.

الفوائد:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إلى آخره.

في هذه الآية فوائد عديدة:

١ - **فمن فوائد الآية الكريمة:** أهمية التصديق بوعد الله ـ عز وجل ـ، وجه ذلك لما صدره بالنداء، بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار مخاطبون بالفروض أو بفروع الدين وأصوله؛ لأن الخطاب هنا عام، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن وعد الله لابد أن يقع؛ لأنه خبر من صادق قادر، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صدق في حال الخبر عنه، وواقع في حال إيقاعه، فمن فوائدها هنا: أن ما وعد الله به فهو حق لابد أن يقع.

٤ - **ومن فوائدها:** أنه يجب على الإنسان ألا يغتر بالدنيا مهما حصل له من زهرتها ونعيمها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن مَنْ خُدِع في الدنيا فإنه مخدوع؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾. أي: تخدعنكم؛ لأن العاقل لا ينخدع بها.

٦ - **ومنها:** الإشارة إلى وجوب العناية بالآخرة؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وإذا نهينا عن الاغترار بالدنيا فمعناه: أننا نلزم أو نؤمر بالعناية بالآخرة؛ لأنها الحقيقة وهي المنتهى، أما هذه الدنيا فإن الإنسان يمربها عابرًا فقط، حتى القبور التي يبقى فيها الإنسان من السنوات ما لا يعلمه إلا الله هي محل عبور، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]. سمع أعرابي رجلًا يقرأ هذه الآية، فقال: والله ما الزائر بالمقيم، أي: إن الزائر لظاعن، والمعروف أن الزائر يبقى مدة ثم ينصرف.

٧ - **ومن فوائدها أيضًا:** دنو الدنيا مرتبة دناءةً؛ لقوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فهي وإن كانت الحياة؛ لكنها دنيا، ويستلزم ذلك الثناء على الآخرة؛ لأن وصف الضرة بعيب؛ يدل على وصف ضرتها بكمال، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تنعم الإنسان بالدنيا على وجه لا تغره؛ لقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾، ولم يقل: فلا تتنعموا في الدنيا بشيء، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾.

٩ - **ومنها أيضًا:** عظم الخطر من كثرة المال، ويسر العيش؛ لأن هذا قد يخدع المرء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**واللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُم وإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا**»(١).

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الحذر من الشيطان ووساوسه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. وسواء كان الشيطان إنسيًّا أو جنيًّا؛ لأن الشيطان الإنسي يغر الإنسان كما يغره الشيطان الجني.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر الشديد من هذا الذي يغرنا من شياطين الإنس والجن؛ لأنه وصفه بقوله: ﴿الْغَرُورُ﴾ والغرور كما قلنا: إما صفة مشبهة، وإما صيغة مبالغة، وإما صيغة مبالغة ما قلنا إنه مصدر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات الشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات عداوته المؤكدة للإنسان؛ لقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

٣ - **ومنها:** أهمية إيماننا بذلك، وجهه: كونه مؤكد صار إلى أهمية علمنا بذلك.

و مر علينا في البلاغة أن الخطاب الخبري هو الخطاب الذي يلقى إلى المخاطب بدون توكيد، وأنه لا يؤكد في مقام الخطاب الخبري إلا لسبب، والخطاب الخبري إذا ألقي إلى الإنسان الخالي الذهن، فإنه لا يحسه؛ لأنه لم يعرف توكيدًا، فالتوكيد ليس فيه إلا زيادة كلمات لا فائدة منها، لكن إذا كان الأمر ذا أهمية فإنه يؤكد، يؤكد ولو كان لإنسان خالي الذهن، فإذا كان عالمًا بالأمر صار أيضًا توكيده أدعى ولا نحتاج إلى التوكيد على كل حال.

فالآن نقول: كون الله أكد هذا الكلام والمخاطب خالي الذهن أو عالمًا به من قبل يدل على أهمية الإيمان بهذا الأمر الذي عليه الشيطان، وهو أنه لنا عدو، وقد قال قديمًا علماء البلاغة: إن الخبر إذا ألقي إلى عالم به مؤكدًا، كان ذلك من أجل أن هذا المخاطب نزل منزلة المنكر بكونه لم يقل بما يقتضيه هذا الخطاب ومثَّلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٥]. كلنا يعلم إنه سيموت، لكن لماذا أكد لنا الموت ونحن نعلم به ونتأكد منه؟ لأن فعلنا فعل المنكر بالموت؛ حيث إننا لا نصدق ولا نعمل لما بعد الموت، إذن نأخذ من هذه الآية أهمية إيماننا بأن الشيطان لنا عدو، ولكن من أين علمنا ذلك؟ بأنه أكد الخبر مع أنه ملقيّ إلى إنسان خالي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

الذهن لا يدري بأن الشيطان عدو، أو إلى إنسان عالمٍ به ولكنه نزل منزلة المنكر بكونه لم يتخذ الشيطان عدوًّا له.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب البعد عما يأمر به الشيطان، لقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** ذكر الأوصاف المذمومة إذا كان المقصود بها نصح المخاطب؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. فلو رأيت شخصًا مغترًّا بآخر، يحسبه صديقًا، وهذا الشخص الذي اغتر به صاحبه عدو له، نعلم أنه يريد أن يوقع به كل سوء، فإنه يجب علينا أن ننصحه عنه ونذكر معايب هذا الشخص، حتى إنه لا يغتر به، فنقول: إنك تصاحب فلانًا وهو عدو لك، حتى وإن كانت عداوته من كونه يهديه إلى صراط الجحيم.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان رحمة الله تعالى بعباده؛ لأن العلم بعداوة الشيطان غير مدرك لنا ولكنه تعالى هو الذي أخبرنا به ثم حثنا بل أمرنا بمخالفته؛ لقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشيطان له في بني آدم إرادات سيئة صريحة، لكن ما فيها دليل على أن من الناس من يدخل النار ولا يخلد فيها، فلا يكون من أصحابها، نقول: ممكن فإن الشيطان يريد من الناس أن يبلغوا الذروة في المخالفة، وإذا بلغوا ذروة المخالفة وكفروا حينئذ يكونون من أصحاب النار الذين يخلدون فيها، أما المعاصي التي دون ذلك فإن أصحابها وإن دخلوا النار كما دلت عليه النصوص لا يكونون من أصحابها.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ... إلى آخره.

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات الثواب والعقاب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** بلاغة القرآن؛ حيث يقرن بين الشيء وضده، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر: ٢٣]. قال العلماء معنى قوله مثاني: أنه تثنى به المعاني، وهنا لما ذكر عذاب الكافرين ذكر ثواب المؤمنين.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بلاغة القرآن من وجه آخر حيث بدأ بذكر عذاب الكافرين بعد أن ذكر: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. فبدأ بما فيه التحذير قبل ما فيه التوحيد من أجل المناسبة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر عذابه شديد، يعني: ليس بالعذاب السهل من أين يؤخذ؟ يؤخذ من كيفيته وكميته؛ لأنه دائم ولأنه عذاب لا نظير له.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأجر لا يثبت إلا باتصاف الفاعل بوصفين: أحدهما الإيمان، والثاني العمل الصالح.

٦ - **ومنها من فوائد الآية**: تقسيم الأعمال إلى صالح وفاسد يؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. فما هو الضابط؟ قلنا فيما سبق: إن الضابط أن ما كان خالصًا صوابًا فهو صالح، وما كان فيه شرك أو بدعة فليس بصالح.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ينالون أجرهم من زوال المكروه الثابت في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وحصول المطلوب الثابت في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا**: بلاغة القرآن؛ لأنه لما ذكر عملًا واحدًا في الكفار ذكر جزاءً واحدًا، ولما ذكر وصفين في المؤمنين ذكر وصفين في ثوابهم، وهذا ظاهر أيضًا في مثل سورة الإنسان، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]. إذا تأملتها وجدت الله - عز وجل - لم يذكر في الكافرين وعذابهم إلا قليلًا بالنسبة للأبرار، السبب ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤]، قال للكافرين فقط ولم يقل: شيئًا من عذابهم. فكان جزاءً مختصرًا سلاسل وأغلالًا وسعيرًا، وذكر الأبرار وأطال في ذكر ما لهم من النعيم؛ لأنه ذكر عدة أعمال من أعمالهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٥، ٦] فالأبرار عباد الله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ الإخلاص التام ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ فذكرعدة أوصاف من أوصافهم، فأطال في ذكر جزائهم، لما أطال في ذكر أعمالهم، بخلاف الكافرين، وهذا - بلا شك - من البيان من بلاغة القرآن.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأجور تختلف؛ لقوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. باختلاف أي شيء؟ تختلف باختلاف العمل، وتختلف باختلاف العامل، وإذا كانت متعدية؛ فإنها تختلف باختلاف من انتفع بها، فمثلًا تختلف باختلاف العمل: فأفضل الأعمال الصلاة على وقتها، الواجب أفضل من المستحب، وباختلاف العامل: مر علينا «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى**». وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ**»(١). هذا اختلافه باختلاف العامل، تختلف أيضًا: باختلاف المحل، إذا كانت متعدية فالصدقة على القريب صدقة وصلة، والصدقة على من هو أشد حاجة أفضل من الصدقة على غني وهكذا، فاختلاف الأعمال يستلزم اختلاف الأجور أيضًا.

وتحتمل أيضًا الوجه الرابع: باختلاف في الإخلاص، يعني: أنه كلما كان الإنسان في عمله أخلص كان علمه أفضل، ويمكن أن يقول أيضًا: تختلف باختلاف الاتباع، فكلما كانت عبادة الإنسان أتبع لله ولرسول الله كانت أكمل، وعلى كل حال فالاختلافات هذه يختلف بها الأجور

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ إلى آخره.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن من الناس من يعمى قلبه حتى يرى السيئ حسنًا، وفي مقابل ذلك يرى الحسن سيئًا لقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إبهام الفاعل ليشمل كل ما يمكن أن يقع منه هذا الفعل، لقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقد مر علينا أن المزين هو الله ـ عز وجل ـ في الأصل والشياطين في المباشرة.

٣ - **ومن فوائدها:** انقسام الأعمال إلى سيئ وصالح؛ لقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فأضاف العمل إليه، وهم يقولون: إن الأعمال لا تضاف للإنسان؛ لأنه مجبر عليها.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من هذه حاله لا يستوي مع من ليس كذلك بحيث يرى السيئ سيئًا والحسن حسنًا ونأخذها من أن المحذوف يكون مقابلًا للمذكور؛ لأن الهمزة هنا للتسوية يعني: أيستوي هذا وهذا؟ والجواب: لا يستويان.

٦ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الهداية والإضلال بيد الله؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** ـ وهي تتفرع على هذه الفائدة ـ أننا إذا علمنا ذلك فإننا نسأل الهداية من الله، ونستعيذ من الضلال بالله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** إثبات مشيئة الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾. ولكنه مر علينا أن كل فعل علقه الله بمشيئته فإنه مقرون بالحكمة ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

٩ - **ومن فوائدها:** الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. فإن القدرية يقولون: إن أفعال العبد من ضلالة أو هداية لا تتعلق بها مشيئة الله؛ لأن القدرية مذهبهم أن الإنسان مستقل بعمله ليس لله تعالى فيه تعلق إطلاقًا حتى إن غلاتهم يزعمون أن الله لا يعلم عمل العبد حتى يقع، ويقولون: إن الأمر أنف. أي: مستأنف أي: إن علم الله ـ عز وجل ـ يحدث بعد أن لم يكن.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن رسول الله ﷺ عز من أرسله، كان يحزن حزنًا عظيمًا، تكاد تذهب نفسه من شدته؛ لقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وجه ذلك أن الأصل في النهي أن يكون عما وقع، وقد يكون عما لم يقع، وهو كثير أيضًا، ويدل على أن هذا أمر واقع قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

١١ - **ومن فوائدها:** شفقة النبي ﷺ على أمته.

١٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يحزن لعدم إيمانهم أو طاعتهم لمصلحته هو؛ ولكن لمصلحتهم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

١٣ - ومنها: أن النبي ﷺ بشر يتأثر بما يتأثر به البشر من أسباب الفرح وأسباب الحزن، وهذا أمر واقع، وقد دخل النبي - عليه الصلاة والسلام - على عائشة ذات يوم مستبشرًا تبرق أسارير وجهه، فسألته عن ذلك، فقال: « **أَلَمْ تَرَي إِلَى مُجَزِّزٍ الْمُدْلِجِيِّ دَخَلَ عَلَى أُسَامَةَ بن زَيْدٍ وزَيْدِ بن حَارِثَةَ وهُمَا يعني: متغطيان برداء قد ظهرت أقدامهما فقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[1]، ففرح عليه الصلاة والسلام حتى ظهر ذلك على وجهه، فالأعراض البشرية تطرأ على النبي ﷺ كغيره من البشر؛ من الفرح والحزن والغم والاستبشار والنسيان وعدم العلم وغير ذلك؛ لأنه لا يتميز عن البشر إلا بشيء واحد؛ وهو الوحي، قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٦] فبشر تغني عن مثلكم، لكن هذا من باب التأكيد، لئلا يذهب ذاهب إلى أنه بشر قد خصص بشيء، فقال: ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. ثم ذكر الميزة، فقال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. وفي هذا رد واضح على أولئك القوم الذين يدعون أن للنبي ﷺ تأثيرًا في الخلق كتأثير ربوبية الله - عز وجل -؛ لأنه لو كان كذلك ما ذهبت نفسه عليهم حسرات لهداهم وسلم من هذه الحسرات التي تكون على نفسه.

١٤ - ومن فوائدها: إثبات علم الله - عز وجل - بكل من نعمل؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

١٥ - ومن فوائدها: عناية الله برسوله ﷺ في مثل هذه الجملة التي تفيد تسليته وتهوين الأمر عليه، وأنه ما من حساب هؤلاء عليه من شيء، كما أنه ليس من حسابه هو عليهم من شئ.



قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ٩، ١٠]

التفسير

ثم قال - عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [وفي قراءة: (الريح)] ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الله وحده هو الذي يرسل هذه الرياح دون غيره فلم يستطع أحد أن يرسل شيئًا من هذه الرياح،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٥٥)، ومسلم (١٤٥٩).

حتى الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن يرسلوا الريح ما استطاعوا، لو اجتمعوا على أن يهوِّنوا عصفها ما استطاعوا، ولكن ذلك بيد الله - عز وجل -، فالله وحده الذي يرسل الرياح، وتأمل قوله: يرسل. حيث جعلها رسولًا، أو أرسل حيث جعلها رسولًا، كأنها تبلغ أو كأنها تفعل ما أمرت به كما أن الرسول يبلغ ما أرسل به، فهي مرسلة؛ ولهذا ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام النهي عن سب الريح؛ لأن سب الريح حقيقة يعود إلى الله - عز وجل -، فإنه هو الذي أرسلها، فهي مدبرة مسخرة، وقوله: [﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ وفي قراءة: (الريح)]. والقراءة هنا سبعية والفرق بينهما أن الرياح جمع، والريح مفرد لكن هذا المفرد في معنى الجمع؛ لأنه مُحلاً بأل وهي للاستغراق فيشمل كل الرياح؛ سواء أتت من الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب، فالله تعالى هو الذي أرسلها.

واعلم أن الغالب أن الرياح مجموعة تكون في الخير، والريح المفردة تكون في ضده، هذا الغالب؛ ولهذا يُرْوَى عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعاء الريح: اللهُمَّ اجعلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا». ولكن مع ذلك تأتي هذه محل هذه، ويكون هناك قرينة، ففي قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١] هذه في الشر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] هذه في الخير؛ لأنها وصفت ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] هذه في الخير وهنا تكون في الخير أيضًا.

يرسل ﴿ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تثير، عطف المضارع على الماضي، وكان مقتضى النسق أن يعطف على الماضي ماضيًا مثله، ويقول: والله الذي أرسل الرياح فأثارت، لكن لماذا عدل عن الماضي للمضارع بينها المؤلف قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : [المضارع لحكاية الحال الماضية]، يعني: عبر بالمضارع للماضي حكاية للحال حين إرسالها؛ لأنه أبلغ في التصور، كأنها الآن أمامك تثير هذه السحاب، وهذا أبلغ في تصور الإنسان؛ لأنه يستحضر الحال الماضية كأنها الآن، إذن المضارع كما نعرف جميعًا يصلح للحال وللاستقبال، ولكنه قد يقترن به ما يعينه للحال، ويقترن به ما يعينه للاستقبال، ويقترن به ما يعينه للماضي، إنما الأصل فيه أنه للحاضر والمستقبل ولا يكون للماضي إلا بقرينة، فعليه نقول: عدل عن التعبير بالماضي هنا لحكاية الحال الماضية حتى كأنك تشاهدها الآن وهي تثير هذا السحاب.

وقال المؤلف في معنى تثير: [أي: تزعجه]. وهذا معنىً قد يناقش فيه؛ لأن الإزعاج أخص من الإثارة، وإنما الإثارة بمعنى: إنهاض الشيء، كما يقال: أثرت البعير أي: أنهضته حتى صار قائمًا بعد أن كان باركًا.

وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾. كأن هذا السحاب في الأصل في الأرض؛ ثم أثارته هذه الرياح ومعلوم أن السحاب يكون من بخار البحر ويكون أحيانًا من الجو المتلبب بالرطوبة، حسب ما

تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ، وهذا أمر يرجع إلى معرفة العلوم الطبيعية، وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ السحاب: هو هذا الغيم المعروف عندنا، ينسحب في الجو كما تشاهدونه فلذلك سمي سحابًا لانسحابه في الجو.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، وفيه - أيضًا - التفات من المضارع إلى الماضي، ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ عدل عن المضارع إلى الماضي لاختلاف الفاعل في الفعلين؛ لأن تثير الفاعل فيها الرياح، وسقناه الفاعل فيها الله، إذن يحسن أن تكون بلفظ الماضي عطفًا على قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾؛ لأن المرسل هو الله، فلما اتحد الفاعل في الفعلين [أرسل وسقنا] كان الأفصح أن يكون جميعًا بلفظ الماضي لكن فيه عدول عن لفظ الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ﴾. إلى التكلم في قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ لماذا؟ مر علينا أن الالتفات له فائدة دائمة، وهي التنبيه، كيف التنبيه؟ لأن سياق الكلام على نسق واحد يقتضي أن الذهن ينساب معه ولا يتوقف، لكن إذا اختلف السياق كأنه يقف الذهن، يقف لينظر ما الذي حدث، وحينئذ يكون في تغييره تنبيه للمخاطب، فهذا واحد، لكن هنا - أيضًا - فيه فائدة ثانية وهي: بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي: نحن فأضافه إلى نفسه لأنه أدل على القدرة فإن اجتمع الله الذي أرسل ثم هو - سبحانه وتعالى - ساقه هذا السحاب الذي أثارته الريح فهو أدل على القدرة مما لو جاء على نسق واحد ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد والتخفيف.

الفائدة الثانية: بيان تمام القدرة؛ لأنه إذا كان بالأول للغائب ثم جاء للمتكلم صار هذا أدل على القدرة وأعظم.

هذا من حيث الالتفات من الأصل، يقول: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾. فيها قراءتان: ميِّت وميْت. وقد قيل: إن الميْت لمن مات بالفعل، والميِّت لمن سيموت، وجعلوا على ذلك شاهدًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمر: ٣٠]. أي: ستموت، وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فميتا هنا لمن قد مات، هكذا فرق بعضهم، والظاهر أن اللغة العربية تأتي بالوجهين على المعنيين، ومنها هذه الآية؟ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد مات، ومع هذا قد جاءت بالتشديد ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [بالتشديد والتخفيف لا نبات بها]، هذا هو موت البلد، والمراد بالبلد هنا: ليس المسكون من الأرض؛ بل ما هو أعم فيشمل المسكون وغير المسكون، وتخصيص البلد بالمسكون تخصيص عرفي وإلا فإن كل الأرض بلد من بلادها وتسطحها؛ ولهذا نقول: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أحيينا به، سقناه فأحيينا، هنا الأفعال والضمائر على نسق واحد، وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [يقول من البلد]، معنى من البلد يعني: أرض البلد هذه التي كانت ميتة أحياها الله ـ عز وجل ـ أحياها بالنبات؛ ولهذا

قال: [﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها]، أي: أنبتنا به الزرع والكلأ، وهذا أمر مشاهد تأتي الأرض يابسة هامدة.. عيدان تتكسر،فينزل الله المطر عليها ثم تهتز خضراء فيها من كل زوج بهيج، من الذي أحياها؟ الله ـ عز وجل ـ، لا يستطيع الخلق أن يحيوها أبدًا، مهما كان، حتى الكلأ الذي ينبت بالمطر لا ينبته الماء الجاري، كما هو مشاهد، يعني: لو تسقي هذه الأرض، مهما سقيتها بالماء الجاري، فإن الكلأ الذي ينبت من المطر لا ينبت بهذا الماء، إذن فالله - عز وجل - هو الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها، أي: بعد أن كانت يابسة هامدة، ليس بها نبات، أحياها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقدرته.

قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. أي: البعث والإحياء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف هنا اسم بمعنى: مثل وهي خبر مقدم، ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ مبتدأ مؤخر، أي: النشورمثل ذلك، ويجوز أن تقول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف حرف جر ليست بمعنى مثل يعني: ليس على تقدير المثل وتجعلها جارًّا ومجرورًا، خبرًا مقدمًا، والنشور مبتدأ مؤخر، والتقدير: النشور كائن كذلك، والنشور: هو نشر الأموات على وجه الأرض وإحياؤهم بعد أن كانوا أمواتًا، والتشبيه هنا هل هو تشبيه للسبب والنتيجة أو للنتيجة فقط؟ أي: هل المعنى أن النشور الذي يكون للأموات يكون بواسطة ماء ينزله الله ـ عز وجل ـ فتنبت هذه الأجسام ثم تحيا أو أن التشبيه للنتيجة فقط، أي: أن إحياء الموتى كإحياء الأرض بقطع النظر عن السبب؟ الأول؛ لأنه ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى يرسل على الأرض مطرًا من تحت العرش مطرًا غليظًا حتى يصل إلى الأجسام فتنبت في القبور كما تنبت الحبة في الأرض فإذا تكاملت الأجسام نفخ في الصور فخرجت الأرواح إلى أجسامها، وعلى هذا فيكون التشبيه هنا عائدًا إلى السبب والنتيجة أيضًا، هذا هو المشهور عند أهل العلم، يقول: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ ﴿مَن﴾ شرطية الدليل: الجواب، والشرط فيها ظاهر، يعني: أيُّ إنسان يريد العزة فلله العزة جميعًا، ﴿مَن كَانَ﴾ لكنها عامة؛ لأن أسماء الاستفهام وأسماء الشرط والأسماء الموصولة كلها تفيد العموم، يعني: أي أحد يريد العزة أي: يطلبها ويحرص عليها والعزة هي: الغلبة والمنعة وقهر الأعداء، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها منه ما دامت العزة له ملكًا وتصرفًا فإنها لا تطلب إلا منه، كما لو قلت: من كان يريد المال فالمال عند زيد، والمعنى: فليطلب المال من زيد، هنا: من كان يريد العزة فليطلب العزة من الله لا من غيره، وهذا يراد به الرد. فالكفار يعبدون الأصنام لأجل أن يتخذوا منها العزة ففي هذه الآية إشارة إلى أنه لا عزة لهذه الأصنام ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، الجواب: ﴿كَلَّا﴾ [مريم: ٨٢]. لن يكونوا لهم عزًّا بل بالعكس سيذلونهم في موقع هم أحوج ما يكونون إلى العزة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]، فأين العزة في هذه الأصنام، أو في

هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله؟

وردت العزة في آيات كثيرة من القرآن، وردت في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ولا منافاة بينها وبين هذه الآية فإن العزة لله أصلًا، ولرسوله من أين؟ من الله، وللمؤمنين من الله، وحينئذ فالعزة كلها لله كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فكل مَنْ عنده عزة فإنها ليست عزة ذاتية له من ذات نفسه ولكنها من الله - عز وجل - وبماذا تكون العزة التي يكتسبها الإنسان وهي من الله؟ تكون بما علق الله العزة عليه وهي: الإيمان، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فمتى أراد الإنسان العزة فليكن مؤمنًا، وكلما كان أكثر إيمانًا بالله وأقوى إيمانًا بالله كان أكثر عزة وأقوى عزة.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إننا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمتى أردنا العزة بسواه أذلنا الله. وصدق رضي الله عنه، والعرب لما كانوا عربًا ليس عندهم إسلام ماذا كانوا؟ كانوا أذلة فقراء يذهبون إلى اليمن في الشتاء ليأتوا بالسلع منه، ويذهبون إلى الشام في الصيف ليأتوا بالسلع منه، فهم فقراء يأكلون من غيرهم، ولكن لما آمنوا صاروا هم الأغنياء وصارت كنوز كسرى وقيصر تأتي إلى المدينة لتنفق عليهم من المدينة، إذن نحن مهما أردنا العزة لن نستعز إلا بالإسلام، لن يكون أعداء الله سببًا لعزنا أبدًا، بل إن تولينا إياهم؛ وموالاتنا لهم سبب للذل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإذا تتبعت الواقع وجدته شاهدًا لقول الله تعالى هذا وأن أعداء المسلمين لا يمكن أبدًا أن يسعوا في إعزاز المسلمين بل يسعون بكل جهدهم إلى إذلال المؤمنين وخذلان المؤمنين، لكنهم يمكرون ويخادعون، يسخرون ويستهزئون لينالوا مآربهم ويضربوا الناس بعضهم ببعض، فالحاصل أنه إذا كانت العزة لله فمن أين نطلبها؟ من الله لا من غيره ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. ﴿جَمِيعًا﴾ هذه حال من العزة التي هي المبتدأ المؤخر وفي قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ فيها حصر العزة لله - عز وجل -، وجهه: تقديم الخبر،إذن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن لدينا قاعدة مرت علينا؛ وهي تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يراد به الأنواع، يعني: عموم الأنواع وعموم الأزمان وعموم الأمكنة، عموم الأنواع التي هي عزة القدر والقهر، والامتناع، الأحوال قصدي: الأزمان الدنيا والآخرة، المكان في مشارق الأرض ومغاربها لله العزة جميعًا، قال المؤلف: [أي في الدنيا والآخرة فلا تنال منه] أي: فلا تنال العزة من الله [إلا بطاعته فليطعه من عندكم]، أي: من كان يريد العزة، أفادنا المؤلف أن جواب الشرط محذوف وهو قوله: فليطعه، ولكن الصواب أن التقدير فليطلبها من الله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فليطلبها منه ويشمل الطلب بلسان

الحال وبلسان المقال، أما على رأي المؤلف، فإنه يختص الطلب بلسان الحال فقط، فالصواب إذن أن جواب الشرط محذوف تقديره فليطلبها منه ليشمل ذلك طلب الحال وطلب المقال، فطلب المقال أن تقول: اللهم أعزني، اللهم اجعل لي العزة على كذا. مثلًا على عدوي، وطلب الحال أن تقوم بطاعة الله، بل بطاعة الله مع تحقيق الإيمان؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] ذُكرت العزة في مواضع كثيرة من القرآن ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] آخر الآية، قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] والله أعلم

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ جار ومجرور مقدم على عامله، وهو يصعد والضمير في إليه يعود إلى الله - عز وجل -، لما ذكر أن العزة لله جميعًا، بين - سبحانه وتعالى - ما يكون من أسباب العزة، فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قوله: يصعد أي: يرتفع. ويعرج، ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يقول: المؤلف [يعلمه]، ففسر صعود الكلم الطيب: بعلم الله إياه، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل المراد بالآية ما هو ظاهرها؛ أن الكلم الطيب يصعد إلى الله، يعني: يعرج إلى الله - عز وجل -، لكن المؤلف - غفر الله لنا وله - أراد أن يبعد عن إثبات العلو الذاتي؛ فقال: يعلمه، ولو كان المراد العلم؛ ما قال إليه يصعد؛ لأن العلم لا يلزم منه الصعود، بل قد يكون العالم بالشيء أنزل من الشيء، أليس كذلك؟ كما لو كنت في أسفل البئر؛ وأنت تعلم ما فوق.

على كل حال، هذه هفوة من المؤلف - نسأل الله أن يعفو عنه -، ونقول: إلى الله يصعد أي: يرتفع الكلم الطيب؛ لأن الله - عز وجل - في العلو، وأدلة العلو قد بينت في العقائد؛ وأنها خمسة أنواع الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كلها متفقة على علو الله - سبحانه وتعالى - بذاته، وقد مر علينا في كتاب «الإقناع» أن شيخ الإسلام رحمة الله يقول: من زعم أن الله معنا بذاته بالمكان فهو كافر. يقول هنا: الكلم الطيب، كلم اسم جمع كلمة، فهو دال على الجمع، وما المراد بالكلم الطيب؟ الكلم الطيب: هو كل كلم يقرب إلى الله - عز وجل -، كل كلم يقرب إلى الله فهو كلم طيب، فلا إله إلا الله من الكلم الطيب، وسبحان الله والحمد لله والله أكبر كلها من الكلم الطيب، والقرآن من الكلم الطيب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الكلم الطيب، وقراءة العلم من الكلم الطيب، وكل قول يقرب إلى الله فهو من الكلم الطيب، والكلم الطيب يقابله نوعان من الكلام؛ كلم رديء خبيث، وكلم لا هذا ولا هذا، لا يوصف بأنه طيب ولا يوصف بأنه خبيث.

أما الكلم الخبيث فككلمة الكفر والسب والشتم واللعن لمن لا يحل سبه ولا شتمه ولا لعنه، وأما الكلم الذي لا هذا ولا هذا فهو أكثر كلام الناس، والصنفان جميعًا لا يُرْفَعَان إلى الله، أما

الأول: فلأنه خبيث، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأما الثاني: فلأنه لم يقصد به الله ـ عز وجل ـ حتى يرفع إلى الله، وهذا الثاني - أعني الذي ليس هذا ولا هذا - قد يكون طيبًا لا لذاته ولكن لغيره، لما يوصل إليه من المقاصد الحسنة، فإن الإنسان قد يتحدث إلى شخص كلامًا ليس هو خيرًا في نفسه؛ لكن يقصد به التأليف لهذا الرجل، وإدخال الأنس عليه والسرور، فيكون هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه يكون محمودًا لما قصد به، كما أن هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه إذا قصد به الإساءة إلى من لا تحل الإساءة إليه صار كلامًا خبيثًا لغيره أي: لما قصد به، وعلى كلٍّ، فالكلم الطيب لذاته أو لغيره يصعد إلى الله ـ عز وجل ـ.

فإن قلت: كيف يصعد الكلم الطيب؛ والكلم ليس جُرمًا؟ الكلم ليس جرمًا، بل أصوات تسمع بحركات معينة في الفم واللسان والشفة **فالجواب**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل المعقول شيئًا محسوسًا، كما ثبت في الحديث الصحيح أن الموت يؤتى به على صورة كبش أبيض فيذبح بين الجنة والنار، ويقال لأهل الجنة خلود ولا موت، ولأهل النار خلود ولا موت.

وقوله: ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ إنما جمعه لكثرة أنواعه، وكثرة الأنواع تدل على كثرة الأفراد من باب أولى، الأنواع كثيرة، والأفراد في كل نوع كذلك كثيرة فلهذا جمعه، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [يقبله]، أفادنا المؤلف بقوله: [يقبله] أن الفاعل في يرفعه يعود إلى الله، يرفعه يعني: الله، وأن الهاء في يرفعه تعود إلى العمل الصالح، يعني: والعمل الصالح يقبله الله، فكون الضمير يعود على الله، ضمير الفاعل، وضمير المفعول يعود إلى العمل، هذا لا نناقش المؤلف فيه؛ لأنه محتمل، لكننا نناقشه في تفسيره الرفع بالقبول، وكل هذا فرارًا من إثبات العلو الذاتي، غفر الله له.

بل نقول: معنى: ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ أي: يرفع هذا العمل، من الرفع الذي هو ضد النزول، يرفعه إليه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأنه فوق، وهذا التفسير في مرجع الضمائر - الذي ذكره المؤلف - هو أحد التفاسير المذكورة في هذه الآية.

التفسير الثاني: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، فجعل ضمير الفاعل يعود على الكلم الطيب، وجعل الهاء تعود على العمل الصالح، فيكون العمل الصالح مرفوعًا بالكلم الطيب، واحتج هؤلاء بأن العمل الصالح لا يقبل إلا بالإسلام، وهو الكلم الطيب الذي هو لا إله إلا الله، فإن الإنسان لو عمل من العمل الصالح الشيء الكثير ولكنه غير مسلم لا يرتفع هذا العمل، فلا يرفع العمل الصالح إلا الكلم الطيب.

والقول الثالث بالعكس يقول: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون الفاعل في (يرفع) العمل الصالح، والمفعول (الكلم الطيب)، عكس الذي قبله، ما وجه ذلك؟ يقول: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ لأن الكلم الطيب بدون عمل لا ينفع صاحبه، فلابد في

الكلم الطيب من عمل صالح؛ يرفع ذلك القول الطيب، والأقرب - والله أعلم - أن ما ذهب إليه المؤلف هو الصواب، أي: أن الله يرفع العمل الصالح، كما أن الكلم الطيب يصعد إلى الله، فإذا صعد الكلم الطيب إلى الله امتن الله على هذا المتكلم بأن رفع العمل الصالح الذي يعمله، إلا أننا لا نوافق المؤلف في تفسير الرفع بالقبول، نوافقه على مرجع الضمائر، لكن لا نوافقه على تفسير الرفع بالقبول، وحينئذ نقول: والعمل الصالح يرفعه الله - عز وجل -، العمل الصالح يرفعه الله، فيكون الله - عز وجل - في هذه الآية ذكر القول والعمل، فذكر أن القول يصعد، وأن العمل يرفع؛ لأنه - أي: رفع العملِ - كالجزاء على الكلم الطيب، فإذا تكلم الإنسان بالكلمة الطيبة فصعدت إلى الله - عز وجل - قبلها، ثم رفع العمل الصالح، ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾.

ويقول: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ﴾ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنبي] إلى آخره، الواو: للاستئناف، والذين: مبتدأ، وجملة: لهم عذاب شديد خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. فيه نوع من الإشكال؛ لأن السيئات لا تمكر وإنما يمكر بها، يعني: يمكر بسبب السيئات، فلماذا تعدى الفعل إليها؟ أفادنا المؤلف أن السيئات صفة لمصدر محذوف، التقدير: السيئات، فيكون الوصف هنا للفعل لا لما حصل به المكر للفعل؛ لأن فعلهم نفسه مكر سيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣] تكون هنا السيئات صفة لمصدر محذوف تقديره المكرات، وسمى الله - عز وجل - السيئات مكرًا؛ لأن الإنسان في الواقع يخدع نفسه بها، ويخدع غيره بها، فيمني نفسه بالتوبة، وأنه سيتوب، أو يمني نفسه سعة حلم الله ومغفرته وأن الله واسع الحلم والمغفرة والرحمة فلن يؤاخذه بهذه العقوبة، فتمني الإنسان في هذا الباب من وجهين: الوجه الأول: أنه يمني نفسه التوبة، وما يدريه فلعله لا يتمكن منها، لعل سيئاته تحيط به ثم لا يتمكن من التوبة، أو لعله يفجؤه الموت ثم لا يتمكن من التوبة.

والنوع الثاني من المكر بالنفس بالسيئات: أنه يتمنى على الله الأماني، فيقول: إن الله غفور رحيم، والله واسع الرحمة، وسوف يعفو عني، كما يوجد من كثير من الناس عندما تنهاه عن معصية ويقول لك؟ الله غفور رحيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾. بعضهم يحتج بالآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ ويقول: أنا لم أشرك، وما دون الشرك فإن الله تعالى يغفره، وجوابنا على هذا يسير جدًّا، وهو أن نقول له: أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؛ لأن الله - عز وجل - ما قال ويغفر ما دون ذلك وسكت، بل قيده لمن يشاء، فأنت أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له، وحينئذ يكون لك حجة، أما أن تفعل المعصية التي هي سبب العقوبة، ثم تتمنى على الله أمرًا لم يعدك الله به، بل قال: لمن يشاء، فهذا لا شك أنه ضلال منك.

وقوله: الذين ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ السيئات: هي ما يسوء الإنسان فعله، ما يسوء الإنسان فعله، مثل: معصية شرب الخمر والسرقة والزنا والربا وما أشبه ذلك، فإن قلت: هذا لا يسوء الإنسان فعله، فجوابنا على هذا أن نقول: إن أردت أنه لا يسوء الإنسان فعله أبدًا؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأنه يوم القيامة سوف يندم، وسوف يسوء الإنسان فعله في ذلك اليوم، أما في الدنيا فإنه يسوء الإنسان فعله، لأن للذنوب آثارًا على القلوب، فإن المعاصي تُكَوِّنُ نكتة سوداء في القلب، فإن تاب الإنسان انصقل قلبه وعاد إلى بياضه وإلا توسعت هذه النكتة السوداء، فأصبح القلب مظلمًا والعياذ بالله، بل يختم عليه حتى لا يصل إليه الخير، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، فللذنوب آثار عظمية على القلب، توجب أن يكون منقبضًا، وإذا تلذذ ببعض الشيء في هذه المعصية؛ فإنه يعقب ذلك حسرة عظيمة في القلب، وضيقًا، واقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٢]. يتبين لك أن المعصية تسوء فاعلها؛ وإن كان قد لا يشعر بها؛ لأنه قد ران على قلبه ما كان يعمل، إذن السيئات سيئات بكل حال، تسوء صاحبها في الدنيا، ولكن قد لا يظهر وقد لا يتبين له، وفي الآخرة يظهر له ويتبين، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحًا.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾. المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنبي في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذكر في الأنفال]. هذا في الحقيقة إن أراد المؤلف أنه المراد بالآية دون غيره فقصور، وإن أراد بذلك التمثيل فصحيح، فإنه لا شك أن هؤلاء مكروا بالنبي - عليه الصلاة والسلام - كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. معنى ليثبتوك أي: يقيدوك، ويحبسوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك من مكة، ولكن الله - عز وجل - قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. فهم - الحمد لله - ما أثبتوه ولا قتلوه ولا أخرجوه، كل هذه انتفت، ومع حرصهم الشديد على تنفذيها يحصل منها شيء.

قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. الجملة هذه جملة خبرية، وهي في محل رفع خبرالذين يمكرون، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ العذاب بمعنى: العقوبة؛ والشديد أي: القوي؛ قوي في إيلامه وإيجاعه، وفي أنواعه المتنوعة من حرور وبرد وعطش وجوع وغير ذلك من شدته، لهم والعياذ بالله سرابيل من قطران، و﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ قال الله تعالى: ﴿بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. وانظر إلى ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ﴾ يتبين لك أن الزيادة، تأتي فورًا والله - عز وجل - قادر على أن تبقى بزيادتها، لكنها تخبو ليكون في قلوبهم شيء من الطمع في خفة العذاب، أو الخروج، ثم يعود، فيكون هذا أشد، لأن ضرب الإنسان بعقوبة بعد الطمع في زوالها يكون أشد عليه مما لو كان الأمر

مستمرًّا، وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. هذا مفصل في الكتاب والسنة، فمن تتبعه من القرآن يكون جيدًا.

أما أنواع العذاب التي للكافرين في النار، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَمَكْرُ﴾ مبتدأ، أين خبره؟ جملة﴿هُوَ يَبُورُ﴾، و﴿هُوَ﴾ لا تصح هنا أن تكون ضمير فصل؛ لأن القاعدة أن ضمير الفصل يكون بين اسمين، لا بين اسم وفعل، لكنها مبتدأ خبرها جملة يبور، والجملة من المبتدأ والخبر خبر مكر، وأتى بها للتركيب من باب تعظيم هذا الشي وتهويله.

وقوله: ﴿مكر أولئك﴾. ولم يقل: مكر هؤلاء، إما استبعادًا لهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا لأن يقربوا، أو لأنهم جعلوا أنفسهم في محل العالين الذين يشار إليهم من بُعْدٍ، فبيَّن أن هؤلاء الذين تعالوا بمكرهم - وإن كانوا في القمة على حسب زعمهم - فإن هذا المكر يبور، والبوار بمعنى: الهلاك كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، فهؤلاء مكرهم يبور أي: يتلاشى ويضمحل، ولا يفيدهم شيئًا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد منها:** بيان قدرة الله - عز وجل - بإرساله هذا الرياح اللطيفة التي تحمل أو تثير هذا السحاب الثقيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: ١٢].

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات الأسباب، وأن المسببات مربوطة بأسبابها، لقوله: ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ﴾، فإن الفا هنا للسببية.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي في الأمور الهامة أن يصاغ الماضي بصيغة الحاضر استحضارًا له في الذهن، لقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾. فإن تصوير الماضي بصيغة الحاضر لا شك أنه يشد الإنسان إلى تصوره أكثر من الشيء الماضي.

٤ - **ومن فوائدها:** أن هذا السحاب يجري بأمر الله، لقوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

٥ - **ومنها:** أن هذا السحاب له شعور، يعني: يعرف ويدري، يمكن أن تؤخذ من قوله للرياح: ﴿فَسُقْنَاهُ﴾، كما تساق البعير، وعلى هذا جاء الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي سمع مناديًا من السحاب يقول: اسقي حديقة فلان، فإن توجيه الأمر إليه يدل على أنه ذو شعور، ولا شك أن جميع الكائنات بالنسبة لأمر الله - عز وجل - أنها ذات شعور، قال الله تعالى في الأرض والسماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: ١١].

٦ - **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - بإحياء الأرض بعد موته، من قوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

٧ - **ومنها**: صحة وصف الأرض بالحياة والموت، مع أنها ليست من الحيوان؛ لقوله: ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾.

٨ - **ومنها**: الرد على أهل الكلام الذين يقولون: إنه لا يوصف بالحياة والموت شيء من الجمادات؛ لأنه هنا أثبت الحياة والموت للأرض، وهي من الجمادات، وقال تعالى في الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١].

٩ - **ومن فوائدها**: بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- بإحياء الأرض بعد موتها، فإن هذه الأرض التي كانت يابسة هامدة تعود فتهتز خضرةً وازدهارًا؛ لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾، فأضاف الفعل إلى نفسه.

١٠ - **ومنها**: أيضًا إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾. فإن الباء هنا للسببية.

١١ - **ومنها**: جواز إضافة الشيء إلى سببه المعلوم، لقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وإضافة الشيء إلى سببه المعلوم أمر واقع في القرآن وفي السنة، بمعنى: أنه لا يشترط أن تقرن معه الله - عز وجل -، فإذا أضفت الشيء إلى سببه المعلوم وإن لم تقرن الله به فلا بأس، لكن المحرم أن يضاف إلى سبب غير معلوم لا شرعًا ولا حسًّا، أو أن يضاف إلى سببه المعلوم مقرونًا مع الله بحرف يقتضي التسوية مثال، فمثلًا: إضافة الشفاء إلى التمائم والحلق والخيوط وما أشبهها، هذا لا يجوز؛ لأن هذا السبب غير معلوم، فلا يصلح، وإضافة تليين البطن إلى العقار الذي تناولته حتى يلين بطنك صحيح لأنه سبب معلوم، معلوم بالحس، وإضافة الشفاء إلى قراءة الفاتحة جائز؛ لأنه سبب معلوم بالحس وبالشرع: «**وما يدريك أنها رقية**»[1]. فالمحظور إذن أن يضاف الشيء إلى غير سبب شرعي أو حسي، أو أن يضاف إلى سبب شرعي أو حسي مقرونًا مع الله بحرف يقتضي التسوية، مثل: لولا الله وكذا، فإن هذا لا يجوز؛ لأن هذا من الشرك؛ حيث قرن الله مع غيره بالواو التي تقتضي التسوية، ولكن قل: لولا الله ثم كذا.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات صحة القياس؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. وإثبات القياس كثير في القرآن، فكل مثل ضربه الله فهو دليل على القياس سواءٌ للدنيا أوللإنسان أو للأوثان أو لأي شيء، فإنه دليل على ثبوت القياس وصحته؛ لأن المقصود بالمثل قياس المضروب بالمضروب فيه، وهذا هو القياس.

١٣ - **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن إحياء الموتى كإحياء الأرض بعد موتها، أي: أن المطر ينزل - كما جاء في الآثار - على الأرض كمني الرجال، يبقى أربعين يومًا تنبت منه الأجسام، ثم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

بعد ذلك ينفخ في الصور، فتعود الأرواح إلى أجسامها.

ثم قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** الحث على طلب العزة من الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه ليس المعنى أن من أراد العزة فليطلبها من الله، يعني: أن المراد بذلك العرض فقط، كل أحد يريد العزة، لكن إذا أردت العزة فممن تطلبها؟ من الله، ففيه إثبات أن العزة تطلب من الله ـ عز وجل ـ.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا عزة بدون الله، وذلك بالقيام بطاعة الله والاستعانة به والاعتماد عليه، فإذا اعتز الإنسان بكثرته فإنه يهزم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. ولو اعتز الإنسان بقوته المادية؛ كقوة السلاح مثلًا فإنه يهزم، وإذا استعان بالله فإنه لا يهزم، اللهم إلا لحكمة تكون مقترنة بتلك القضية المعينة فقد يكون.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزة لله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن العزة لها كل وبعض، من أين تؤخذ؟ تؤخذ من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنه يدل على أن هناك كلاً وبعضًا، وذلك أن العلماء قسموا العزة التي اتصف الله بها إلى ثلاث أقسام؛ عزة امتناع وعزة قدر وعزة قهر.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات علو الله من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾؛ لأن الصعود هو العلو.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكلم غير الطيب لا يصعد إلى الله، لقوله: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»[1].

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى انقسام الكلام؛ لقوله: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ فإن هذا الوصف إخراج لما سواه، وقد ذكرنا أن الذي يقابل الكلام الطيب نوعان من الكلام: الخبيث، وما ليس بطيب ولا خبيث، أما الخبيث فمردود بكل حال؛ لأنه خبيث لذاته، وأما ما ليس بطيب ولا خبيث فقلنا: إن هذا القسم من الكلام قد يكون طيبًا لغيره، وخبيثًا لغيره، وسالمًا من الوصفين، إذا كان طيبًا لغيره فإنه يصعد إلى الله؛ لعموم قوله: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ عز وجل ـ لا يرفع من الأعمال إلا ما كان صالحًا؛ لقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. والعمل الصالح ما اشتمل على وصفين: الإخلاص والمتابعة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).

الإخلاص لله - سبحانه وتعالى - والمتابعة لشرعه، فإن فقد الإخلاص، فليس بعمل صالح؛ لأنه شرك، وإن فقدت المتابعة فليس بعمل صالح؛ لأنه بدعة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأعمال السيئة مكر؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذا إذا أخذناها على سبيل العموم، إما إذا قلنا: أن السيئات عام أريد به الخاص فالمكر الذي حصل من غزو قريش للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه يكون خاصًا، لكن الأصل في الكلام العام أن يكون مرادًا به العموم، وأن يكون باقيًا على عمومه حتى يرد دليل على أنه أريد به الخصوص أو على أنه مخصص.

١٠ - **من فوائد الآية الكريمة:** الوعيد الشديد على أولئك الذين يمكرون السيئات؛ لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

١١ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن مكر هؤلاء هالك زائل لا فائدة فيه؛ لقوله: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. حتى أعمالهم لا تنفعهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. هذه هي الفوائد الظاهرة من هذه الآية الكريمة وربما عند التأمل يجد الإنسان أكثر؛ لأن كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحاط به، ولكن الناس يختلفون في الفهم.



قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١١، ١٢]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ ما سبق من الآيات الدالة على قدرته من إرسال الرياح وإثارة السحاب وسوقه إلى الأرض الميت وإحياؤه بعد موتها، وأن الأعمال ترفع إلى الله - عز وجل - وكذلك الأقوال.

قال هنا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾. هذا باعتبار الأصل الذي هو آدم؛ ولهذا قال المؤلف: [بخلق أبيكم آدم منه].

فإن الله تعالى خلقه من تراب، وهذه الآية فيها أن الله خلقه من تراب، وفي آية أخرى أنه خلقه من طين، وفي آية ثالثة أنه خلقه من صلصال كالفخار، وفي آية رابعة من حمإ مسنون، فما هو الجواب عن هذا التغير؟ الجواب: أن هذا تغير أوصاف وليس تغير ذوات، وحينئذ فلا تناقض، إذ يجوز أن تتعدد الأوصاف على موصوف واحد.

قال الله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١، ٢، ٣، ٤]. مع أنه واحد، فالحاصل أن يقال: في هذا التغير تغير أوصاف، لا تغير ذوات وأعيان، فالعين واحدة، لكن أولها التراب فإذا أضيف إليها الماء فصارت طينًا، فإذا أبطأ وأخذ مدة صار حمأ مسنونًا متغيرًا، يعني: أي الطين أبقى فيه الماء فبه يسبق ويكون له رائحة. والرابع من صلصال كالفخار هذا بعد أن كان حمأ مسنونًا يبس وصار صلصالًا كالفخار فيكون هنا التغير، تغير أوصاف، والأصل فيه التراب.

قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. ثم أتى بثم الدالة على التراخي والترتيب، والفاء تدل على الترتيب بدون تراخي، هنا قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ لأنه لما خلق آدم - سبحانه وتعالى - وخلق ذريته تناسل هؤلاء الذرية بواسطة هذا الماء، الذي هو النطفة، والنطفة هي: الماء القليل.

قال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَني يخلق عندكم[بخلق ذريته منها]، أي: من هذه النطفة، والغريب أن هذه النطفة القليلة يذكر علماء الطب أنها تشتمل على ملايين من الحيوانات المنوية، وهذه الحيوانات التي يزعمون أنها ملايين - وهم أعلم منا بذلك - لا يصلح منها إلا واحد في الغالب، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، هذا أنهى ما سمعت، أنه يرد في المرأة أربعة أولاد في بطن واحد، والله على كل شيء قدير، قد ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

يقول: [﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكورًا وإناثًا].

قوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ فسر المؤلف هنا الأزواج بالذكورية والإناث، بقرينة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، فالأزواج هنا باعتبار الجنسين الذكر والأنثى، ويؤيد تخصيص الأزواج هنا بالذكور والإناث، والأنوثة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾، أما إذا نظرنا إلى لفظ أزواج فإن الأزواج معناها: الأصناف والأصناف أعم من الذكورة والأنوثة فإنه يشمل الشقي والسعيد والأسود والأبيض والطويل والقصير وغير ذلك، لكن الذي جعل المؤلف يحمل الكلام على الذكورة والأنوثة فقط قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾. فالله - عز وجل - بقدرته وحكمته جعل هذه الذرية التي خرجت من هذا الرجل الواحد ذكورًا وإناثًا، لبقاء النسل؛ لأنه لا يمكن بقاء النسل إلا بهذا، وإن كان الله - سبحانه وتعالى - قادرًا على أن يبقي النسل بدون هذا، فإنه يقال: إن البشرية منها ما خلق بلا أم ولا أب، ومنها ما خلق من أب بلا أم، ومنها ما خلق من أم بلا أب، ومنها ما خلق من أبوين.

فالذي خُلِقَ بلا أم ولا أب: آدم ومن أب بلا أم: حواء، ومن أم بلا أب: عيسى، وسائر الناس بين أبوين من ذكر وأنثى.

يقول - عز وجل -: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ (ما) هذه شرطية (من) زائدة (وأنثى) فاعل تحمل مرفوع بضم مقدر منع من ظهوره التعذرلكنه واقع من حيث اللفظ مجرور لفظًا.

قوله: ﴿مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: الأنثى ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾[حال أي: معلومة له].

انظر ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾، أي أنثى تحمل، من بني آدم أو منهم ومن غيرهم.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالله - عز وجل - يعلم ما تحمل كل أنثى، في ابتداء الحمل، وتطور الحمل، ومآل الحمل، وكل ما يتعلق به، ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ فأول ما ينشأ الحمل في الرحم معلوم عند الله، وإذا وضعت فهو معلوم عند الله - عز وجل - وقول المؤلف: [حال]، معنى حال يعني: أن الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، فمعنى ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: إلا معلومة له، ويمكن أن نقول: إن الباء هنا للمصاحبة والمقارنة، أي: لا يحصل الحمل ولا الوضع إلا بعلم الله - عز وجل -، ونرد على ذلك أيضًا أنه بعلمه وإرادته ،و فيها دليل على أن من أثبت العلم لزم أن يثبت الإرادة، ولهذا قال أهل السنة بالنسبة للقدرية قالوا:

ناظروهم بالعلم قال الشافعي وغيره: ناظروهم بالعلم فإن أنكروه كفروا وإن أقروه خصموا، إن قالوا: الله ما يعلم أعمال العباد كفروا وإن قالوا: يعلم خصموا؛ لأنه إذا علمه ذلك فإما أن يقع الشيء على خلاف معلومه أو على وفاقه، فإن كان على وفاقه فبإرادته وإن كان على خلافه فإنها لم ينكروا العلم.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما هذه نافية أيضًا بدليل قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾. ودليل آخر قطع الفعل له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يزاد في عمر طويل العمر ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: ذلك المعمر أو معمر آخر إلا في كتاب، قوله: ﴿يُعَمَّرُ﴾ أي: من معمر. معنى التعمير: الزيادة في العمر.

المعنى: ما يزاد في عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب.

فقوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾. من هذه زائدة داخلة على نائب الفاعل، فنقول في المعمر: نائب فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع ظهورها الاشتغال بحركة حرف الجر الزائد.

و قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ هنا يقول: من عمره قال المؤلف: [أي ذلك المعمر أو معمر آخر]، أما كون الضمير في قول المؤلف: يعود على معمر آخر فهذا لا إشكال فيه؛ لأنه يكون معمرًا فيكون الثاني ناقصًا، لكن إشكالًا إذا قلنا: إن الضمير يعود على نفس المعمر، فكيف

يكون معمرًا وهو في نفس الوقت منقوص من عمره، ما ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

هذا محل إشكال بما يظهر، إذا قلنا: الضمير يعود على ذلك المعمر فيكون زيد معمرًا منقوصًا من عمره إذا قلنا: إنه عائد على معمر آخر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عمر معمر آخر، لا يلزم هنا الأول فصار النقص يعود على شخص آخر فعندنا زيد معمر، وعمرو منقوص من عمره، وهذا لا إشكال فيه.

لكن الإشكال الأول اختلف المفسرون في توجيهه، فقال بعضهم: ما ﴿يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إن النقص هنا في مقابل الزيادة؛ لأن الإنسان كلما تقدم يومًا في الدنيا نقص عمره باعتبار آخر عمره، مثلًا أنا له أربع عشرة سنة إذا صار له أحد عشرة فقدر إنه سيموت في عشرين سنة نقص أم ماذا؟ كلما زاد من وجه نقص من وجه آخر، فالمعنى أنه يكتب نقصه كما تكتب زيادته، فيقال مثلًا:

يكتب مثلًا فلان بلغ من العمر عشر سنين، ونقص من عمره يعني: من آخر عمره عشر سنين، بلغ أحد عشر ونقص من عمره إحدى عشر، فبقي تسع، وهكذا، وإلى هذا ذهب بعض التابعين.

ولكن آخرين من أهل العلم من المفسرين قالوا: إن هذا فيما أخبر به النبي - عليه الصلاة والسلام - في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1].

يعني: أن الإنسان ينقص عمره ويزاد بحسب صلة الرحم، ثم ينقص من عمره إذا لم يصل رحمه ويزاد في عمره إذا وصله، والمعنى على هذا التفسير: أن زيادة العمر أو نقصه مكتوب عند الله - عز وجل - فمن قدر له أن عمره يطول بصلة رحمه فسوف يقدر له أن يصل رحمه، ومن قدر له أن ينقص عمره بقطيعة الرحم فسوف يكون قاطعًا لرحمه؛ لأن المسببات مربوطة بأسبابها، معلومة عند الله.

وهذا يزيل عنا الإشكال الذي أورده بعض العلماء في هذا الحديث، وحاولوا أن يفسروا زيادة العمر بالبركة في عمر الإنسان، بينما الله أنزل بركة في العمر وإن كان قصيرًا صار أحسن أو صار خيرًا من عمر طويل بلا بركة.

ولكن تقدم لنا أن هذا لا يخرجهم من الإشكال؛ لأن البركة أيضًا مكتوبة وكذلك نوعها مكتوب، فلا يخرجهم ذلك من الإشكال، لا يخرج من الإشكال إلا أن نقول: إن عمر الإنسان المطول بسبب صلة الرحم قد كتب أن يصل رحمه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٨٥)، ومسلم (٢٥٥٧).

إذن ما الفائدة من قول الرسول «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

الجواب: الفائدة من ذلك، الحث على صلة الرحم، كما أننا نقول: من أحب أن يدخل الجنة فليعمل عملًا صالحًا، فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة كيف إذا لم يعمل كتبت له الجنة ؟

نقول: هي مكتوبة من قبل أن يعمل لكن قد كتبت له الجنة وكتب أن يعمل لها عملها.

وعلى هذا كل ما حصل من تقديرات الله - عز وجل - فإنه لا يختص هذا بالعمر الإشكال وارد على الجميع، ولكن الجواب عنه بسيط: هو أن يقال: إن هذا المكتوب نتيجة لهذا السبب وهو معلوم عند الله، أما عندنا فليس بمعلوم.

إذن يكون أحسن احتمال في هذه الآية أن المراد من (عمره) أي: من معمر، وأن الإنسان قد يزاد في عمره لسبب من الأسباب وقد ينقص من عمره لسبب آخر.

قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ كتاب: فعال بمعنى: مفعول، كفراش بمعنى، مفروش، وغراس بمعنى: مغروس وبناء بمعنى: مبني، فكتاب بمعنى: مكتوب، فما هو هذا الكتاب؟

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : [هو اللوح المحفوظ]، اللوح المحفوظ هذا السند محفوظ من عدة أوجه:

محفوظ أن يناله أحد؛ لأنه خاص بتقدير الله - عز وجل - محفوظ من أن يغير أو يبدل، ولهذا لو كتب اختلاف المعمول فإنه سيكون كما قال الله تعالى للقلم: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1]، وكذلك أيضًا محفوظ عن الخلل، بحيث لا يجبر ما لا يكتب فيه ولا يتخلف ما يكتب فيه يعني: لا يأتيه السهو فهو متمم كل وجه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: هين.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كل ما سبق؛ الزيادة في العمر والنقص والكتاب، كله يسير على الله أي: هين عليه، وإن كان عند المخلوقين صعبًا وعسيرًا لكنه عند الله سهل ويسير؛ لأنه - عز وجل - إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾، ﴿وَمَا﴾ نافية، و﴿يَسْتَوِي﴾ بمعنى: يتساوى ويتلاقى ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾، وهذا كما ترون مجملًا، والبحر: هو الماء الكثير، فكل ماء كثير يسمى بحرًا، البحران هنا مجمل فصله - عز وجل - بقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ العذب: بمعنى: الحلو المستساغ شربه والفرات: يقول المؤلف: في تفسيره [شديد العذوبة].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: شربه، سائغ بمعنى: سهل وميسر؛ لأنه حلو وعذب وليس فيهما كدر من وساخة أو حرارة زائدة أو برودة زائدة، المهم أنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ .

الثاني؛ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: شديد الملوحة، ملح شديد الملوحة، هل يستويان؟ لا، وهل هذا يراد به الحقيقة أو هو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر؟

قيل: إنه يراد به الحقيقة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

وقيل: إن المراد به: مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن بمنزلة العذب الفرات، والكافر بمنزلة الملح الأجاج، ولكن لدينا قاعدة في الكلام؛ أنه إذا دار الأمر بين أن يكون حقيقة أو غير حقيقة؛ وجب أن يحمل على الحقيقة، فهو أيضًا حقيقة ويؤيده أيضًا قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

فإن مثل هذا الترشيح يدل على أنه حقيقة وليس بمجاز، على أننا نقول: إنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره، كما مر علينا كثيرًا، ولكن مع هذا لا بأس أن يتصل من نفي اتصال بين هذين البحرين، ونفي التساوي بين كل شيئين متغايرين.

قال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ متعلق بقوله: ﴿تَأْكُلُونَ﴾.

قوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو: السمك، الطري معناه: الذي لم يتغير بنتن وهذه من صفات السمك؛ أنه وإن مات فإنه طري كما قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: صيده ما أكل حيًّا وطعامه ما أكل ميتًا.

ثانيًا: من فوائد هذين البحرين ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من الملح وقيل: منهما ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي: اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢]، وقد اختلف الناس؛ هل هذا لا يخرج إلا من المالح أو يخرج من المالح والعذب، فأكثر المفسرين على أنه لا يخرج إلا من المالح، وحملوا قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] على أن المراد: من مجموعهما لا من جميعهما، من مجموعهما لا من الجميع، فهنا إذا قلنا: عندنا بحران عذب، ومالح يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، منهما أي: من المجموع لا من الجميع بحيث أن يكون من كل واحد، ولكن الصحيح أنه يخرج من الجميع؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن والله - سبحانه وتعالى - أعلم بما خلق.

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وقد ثبت الآن أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من هذا ومن هذا، ولهذا قال المؤلف: [وقيل منهما].

وقوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وذكر اللُّبس ؛ لأنه غاية ما ينتفع به من هذه الحلية، وأننا نستخرج هذه الحلية، ونتخذها تجارة، وتجارة اللؤلؤ والمرجان فيما سبق وإلى الآن لم تزل تجارة قوية، لكن التجار الذين يتجرون بها ماذا أرادوا بذلك؟ اللبس؛ لأن الذي يشتريها منهم يريد بها اللبس؛

يلبسها فذكر الله في هذين البحرين كسوة للبدن في باطنه وكسوة للبدن في ظاهره للبدن في الباطن أكل اللحم أكل اللحم كسوة للبدن في باطنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] ولم يقل: تظمأ، بل قال: ولا تعرى؛ لأن الجوع عري الباطن، والعري عري الظاهر.

ثم نقول: ذكر الله لباسين؛ اللباس الباطن بأكل اللحم، واللباس الظاهر في هذه الحلية.

[﴿وَتَرَى﴾: تبصر ﴿الْفُلْكَ﴾: السفن ﴿فِيهِ﴾: في كل منهما].

قال: ﴿وَتَرَى﴾ أي: تبصر الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب، والرؤية هنا بصرية، فإننا نشاهد البواخر في البحار تمخر الماء أي: تشقه، وقوله: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ﴿فِيهِ﴾ قال المؤلف: [في كل منهما].

أشار المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إلى إشكال؛ لأنه هنا يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ ومقتضى السياق أن يكون التعبير هكذا: (وترى الفلك فيهما)، ولكن الضمير هنا لا يعود على البحرين؛ وإنما يعود على ﴿كُلٍّ﴾، والكل كلمة لفظها مفرد، فعاد الضمير في هذه الآية على كل باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، ومن هنا قال المؤلف: [في كل منهما]، فزال الإشكال.

و قوله: ﴿مَوَاخِرَ﴾ قال: [تمخر الماء، أي: تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة، بريح واحدة].

وهذا من نعمة الله - عز وجل - أن سخر الفلك لنا تجري على هذا الماء، وتمخر عباب الماء حاملة أنواع الأرزاق، وحاملة البشر الكثير، ولذلك ترون الفلك الآن يعتبر بلدًا كاملًا إذا دخلتها فإذا هي كالبلد، هذا من نعمة الله - سبحانه وتعالى - .

فذكر ثلاث نعم:

الأولى: أكل اللحم، والثانية: الحلية، والثالثة: البواخر التي تعبر أو تشق الماء من ناحية إلى أخرى لتنقل الأرزاق والآدميين.

و تأمل قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ و﴿تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ لأن السمك أخذه هين ما يحتاج إلى كلفة، فذكر الأكل مباشرة، اللؤلؤ والمرجان يحتاج إلى كلفة وإلى تعب؛ لأنه يحتاج إلى غوص وطول نفس أو قل: أشياء تعين على النفس، ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: تطلبون حلية. الفلك قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ لأن مشاهدتها بالعين، وهي تشق الماء يرى الإنسان فيها من أعظم فضل الله - عز وجل - عليه.

قال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [﴿ف﴾: تطلبوا ﴿ف ﴾ تعالى بالتجارة ﴿ﻫ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك].

يعني: سخر الفلك وجعله مواخر في هذا البحر لأمرين، أولهما: لتبتغوا من فضله، أي: تطلبوا الرزق بما تحمله هذه البواخر، ولو تأملنا مثلًا الأرزاق من أمريكا ومن اليابان ومن المناطق الأخرى البعيدة؛ إلا بواسطة هذه البواخر التي تحمل الشيء الكثير، هذا من فضل الله عز وجل

أما قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن (لعل) تأتي للترجي، وتأتي للتوقع، وتأت للإشهاد

وتأتي للتعريض، فلأي المعاني كانت في هذه الآية؟ التعليل يعني: لأجل أن تشكروا الله - عز وجل -، إذا رأيتم هذه البواخر تمخر الماء، وتأتي بالأرزاق من ناحية إلى ناحية.

فإن هذا يستوجب أن تشكروا الله - سبحانه وتعالى - على هذه النعم والشكر؛ قال العلماء في تفسيره: هو القيام بطاعة المنعم، اعترافًا بالقلب، وتحدثا باللسان، وطاعة بالأركان جعل في مواضعه الثلاثة القلب واللسان والجوارح ولهذا قال الشاعر:

أَصَابَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّلِ

وهذا الشكر يكون بهذه المواضع الثلاثة، والحمد يكون باللسان،، فمتعلق الشكر أعم، وسببه أخص، ومتعلق الحمد أخص وسببه أعم، وأن الحمد يكون في مقابلة النعمة ويكون في مقابلة الكمال المحمود، فهو أعم من حيث المتعلق، فالشكر أعم في المتعلق وأخص في السبب والحمد بالعكس.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى آخره.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - بابتداء خلق بني آدم، فهو خلقهم من تراب ثم من نطفة إلى آخره.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله بحكمته ورحمته جعل بني آدم أزواجًا ذكرًا وأنثى وذلك لبقاء النسل وحصول المتعة.

٣ - **ومن فوائدها:** إحاطة علم الله بكل شيء، في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات القدرة لله - عز وجل - من قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، لأن الخلق لا يكون إلا بعد علم وقدرة.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الأعمار الطويل منها والقصير كله مكتوب عند الله - عز وجل - في كتاب.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات مرتبتين من مراتب القدر، وهما: العلم والكتابة.

٧ - ومن فوائدها أيضًا: سهولة هذا الشيء على الله سبحانه وتعالى، وهو الخلق والكتابة؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٨ - **فيها أيضًا:** من المرتبة الثالثة من مراتب القدر، وهي الخلق، إذن هي أربع مراتب: العلم والكتابة والخلق، والمشيئة، يمكن نأخذها من الآية، كيف ذلك؟ قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا كله بالمشيئة، فيكون المعنى بأن المراد في الآية: إثبات مواطن القدر الأربعة، العلم ثم الكتابة

ثم المشيئة ثم الخلق، وقد جمعت هذه المراتب الأربعة في بيت أنشدتكموه من قبل: علم كتابة مشيئة وخلقه وهو إيجاد وتكوين هذه مراتب القدر الأربعة.

الفوائد:

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى آخره في هذه الآية من **الفوائد:**

١ - من فوائد الآية الكريمة: أن الأشياء المفترقة لا يمكن أن تكون متساوية لقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى آخره يتفرع من هذه الفائدة: أنه لا يمكن التسوية بين الرجل والمرأة في الحقوق ولا في غيرها؛ لأن تكوين خلقة المرأة مختلف عن تكوين خلقة الرجل ولهذا جعل الله للمرأة أعمالًا تليق بها وللرجل أعمالًا تليق به.

٢ - من فوائد الآية الكريمة: فقد سألت عائشة النبي عليه الصلاة والسلام: هل على النساء جهاد قال: « **عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُ والعُمْرَةُ**»[1]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام « **لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَمْرَهُم امْرَأَةً**»[2]، ومنع النبي ﷺ من تزويج المرأة نفسها، إلى آخر ما تعرفون من الفروق بين الرجل وبين المرأة، وفي الميراث جعل للمرأة نصف الرجل إذا كان من جنسها، كالإخوة، والأعمام.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: أننا نعتبر المجموع لا نعتبر الجميع لقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع هذا هو إمضاء ظاهر القرآن يقول: من هذا ومن هذا أما السمك فهو موجود ما فيه إشكال، ولا أحد يقول: إنه ممنوع، لكن الذى فيه خلاف هو مسألة اللؤلؤ والمرجان، هل يخرج من واحد أم لا، وسيأتي - إن شاء الله - بيان أيضًا أنه ليس المراد اللؤلؤ والمرجان فقط قد يتحلى الناس مما يأخذون من البحر من غير هذين النوعين.

٤ - من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - حيث جعل من هذا الماء هذين الصنفين المتباعدين هما: بحران من الماء أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ والثاني: ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فهما شيء واحد ومع ذلك يختلف عنه هذا الاختلاف.

٥ - ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: أن الماء العذب يكون سائغ الشرب، ويتفرع على ذلك أنه لا ينبغي للإنسان أن يشرب ما لا يستسيغه؛ لأن ذلك يؤثر عليه ويضره.

كما أنه لا مانع من أن يتناول ما تشتهيه نفسه؛ وإن كان في بعض الحالات ضررًا عليه، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» أن لطلب النفس الشيء أثرًا كبيرًا في انتفاء مضرته، وضرب لذلك مثلًا بالميتة: فهى خبيثة مضرة، فإذا اضطر الإنسان إليها، واشتدت حاجته وضرورته صارت

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١٦٥)، وابن ماجه (٢٩٠١)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٩٨١).

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

النفس تقبلها وتستسيغها ثم تهضمها، فلا تضرها؛ لأنها لو كانت تضر - ميتة -؛ تضر المضطر ضرر غير المضطر، لكان حلها له يتضمن قتل نفسه، ولذلك لو اضطر إلى أكل وليس عنده إلا سم لم يحل له أن يأكل السم.

وضرب مثلًا لذلك أيضًا: بقصة صهيب الرومي كان أرمد يعني: عينه بها رمد، فجيء إلى النبي ﷺ بتمر فأكل منه النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب صهيب يأكل، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ أَرْمَدٌ» والمعروف أن الذي في عينه رمد لا يأكل التمر، فقال: يا رسول الله أمضغه من الجانب الآخر[1]. مثلًا إذا كانت عينه اليمنى فيها الرمد يمضغه على الجانب الأيسر، فضحك النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: «كُلْ».

قال لأن نفسه الآن كانت تطلبه طلبًا قويًّا وهذا الطلب يزيل ضررها فالمهم أن الشيء الذي لا يستساغ لا ينبغي للإنسان أن يتناوله ويكره نفسه عليه ولهذا قيل: «**كُل ما يشتهي بطنك ولا تأكل ما يشتهي فمك**» ما أدري هل يصلح هذا أم لا؟ نعم يصلح؛ لأن بعض الناس يتلذذ بنوع من الطعام، لكن بطنه لا تقبله، تجده إذا أكل يتعب بطنه، نقول: هذا لا تأكل لو اشتهته بطنك؛ لأن هذا ضرر عليك.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بما يستخرجونه من هذه البحار من اللحوم لقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ بدون مشقة، وبدون تعب ومع ذلك فإن لحوم السمك من أحسن اللحوم، وكذلك نعمة الله - عز وجل - بما نستخرجه من هذه البحار الحلية التي نلبسها.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان الفرق بين تناول اللحوم من هذ ه البحار وتناول الحلي؛ لأنه في اللحوم قال: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ولم يذكر العلاج الذي نتوصل به إلى هذا الأكل؛ لأنه سهل هين لا يبطىء لكن في الحلية قال: تستخرجون؛ لأنها تحتاج إلى مشقة وعناء.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - بحمل هذا الفلك الثقيل المملوء بالبضائع على متن الماء، ومع ذلك يستطيع أن يقطع الماء ويمخره لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وإلا فإن الماء ثقيل ليس بالهين، ولهذا عندما يسبح الإنسان في الماء يحتاج إلى قوة حتى يدفع الماء، لكن هذه السفن تمخر الماء، وتظهر هذه النعمة إذا تذكر الإنسان السفن القديمة التي تجري بالرياح.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله علينا بنيل ما نطلبه من فضله بواسطة هذه البواخر لقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

١٠ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان أن يفعل الأسباب التي يتوصل بها إلى المقصود لقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أما أن نقول: الإنسان يبقى في البيت ورزقه يأتيه ويقول: إنه متوكل على الله، هل نوافقه على قوله؟ لا. نقول: إذا كنت متوكلًا على الله، لا تكن متواكلًا، فرق بين التواكل والتوكل، افعل السبب.

هذا النبي عليه الصلاة والسلام سيد المتوكلين، ومع ذلك كان يفعل الأسباب الجالبة للخير الدافعة للشر، أليس كذلك؟ إذن ابتغ من فضل الله وافعل السبب، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة؛ وإنما يأتي الرزق بطلب الإنسان، والأمر أظهر من أن يحتاج إلى أمثلة: من فإن قال قائل: إذا كان الله قد قدر لي ولدًا فسيأتي ولم يتزوج، نقول: هذا الكلام كلام رجل مجنون، كيف يمكن أن يأتيك الولد وأنت لم تتزوج، ما علمنا أن الأولاد تنبت من السلالم أبدًا، وإنما تأتي بفعل أسبابها بالزواج ،لكن بعض أبواب الرزق يحتاج إلى طلب ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾

١١ - **ومن فوائدها:** وجوب شكر نعمة الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن الله جعل هذه النعم وسخرها لنا لنقوم بشكره سبحانه وتعالى، وقد مر علينا كثيرًا أن الشكر موضعه اللسان والقلب والجوارح.



قال الله تعالى:

﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]

التفسير

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - مبينًا كما ل قدرته ونعمته أيضًا، قال: [﴿يُولِجُ﴾ يدخل الله ﴿الَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فيزيد ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يدخله في الليل فيزيد]، انتبه لكلام المؤلف هل يوافق الظاهر أم لا ؟، ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فيزيد وما الذى يزيد؟ النهار

أدخل الله النهار زاد الليل، وإن كان يعود على أقرب مذكور وهو النهار، فيزيد، فهذا فيه نظر، لكن توجيهه: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أن شيئًا من الليل يكون جزءًا من النهار، هذا توجيهه،

أن شيئًا من الليل يكون جزءًا من النهار، فإذا كان شيء من الليل جزءًا من النهار؛ معناه: زاد النهار، يعني: كأنه يقول مثلًا: دخل الليل في النهار فصار نهارًا، وحينئذ، وما الذى يزيد؟ النهار، والعكس بالعكس.

لكن الظاهر من الآيات الكريمة: أنه يدخل الليل في النهار فيكون جزءًا من النهار ليلًا، الآن لو قلت: أدخلت هذه الساقية في هذه الأرض، أدخلتها في الأرض الجزء الذي دخل من الساقية جعل الأرض ساقية، إذن: أدخلت الليل في النهار، جعلت جزءًا من النهار ليلًا، وحينئذٍ يكون الليل هو الذي يطول.

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل لا شك أنه دال على تمام قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن يولجوا جزءًا يسيرًا من الليل في النهار أو بالعكس ما استطاعوا أبدًا ثم هذا الإيلاج أيضًا إيلاج بنظام معنى: بنظام؟ أي: أنه يأتي شيئًا فشيئًا، حتى تتكيف طباع البشر لهذا الإيلاج، ما ظنكم لو أنه جاء الليل بنهايته دفعة واحدة، يعني: مثلًا اليوم صار الليل ثمان ساعات وخمس وثلاثين دقيقة، في الليلة القادمة صار اثني عشر ساعة وخمس دقائق، ماذا تكون حال الناس؟ تضطرب، لكنه - سبحانه وتعالى - يولجه شيئًا فشيئًا، هذا من جهة الاضطراب.

من جهة أخرى لو ولج هكذا دفعة أنتم تعرفون أن سبب طول النهار غروب الشمس من(مستأنفة الرءوس) وإذا غربت الشمس من(مستأنفة الرءوس) فلابد أن تكون شديدة الحرارة، معنى ذلك: أن يكون اليوم هذا في عز الشتاء، واليوم الذى يليه في عز الصيف، وهذا ضرر عظيم.

لكنه - سبحانه وتعالى - يولجه شيئًا فشيئًا، وهذا من تمام القدرة والحكمة والرحمة.

أيضًا إيلاج الليل في النهار وبالعكس له تأثير عظيم على الجو؛ لأنه ينقلب الجو من بارد شديد على طول الزمن إلى حار شديد على طول الزمن أيضًا، ألم تعلموا أن هذه الحرارة الشديدة تقتل من الجراثيم الضارة مالا يعلم به إلا الله - عز وجل -، ولهذا نضرب مثلًا بسيطًا كلنا يشاهده البعوض إذا اشتد الحر مات، مات فلم يبق له أثر، ولهذا أكثر ما يكثر في الزمن الذي بين الحر والشتاء، الشتاء كذلك شدة البرودة تقتل جراثيم تعيش على الحرارة، ولا يعلم بها إلا الله عز وجل.

ومن ثم قال العلماء: إن أكثر أهل الأرض أمراضًا هم الذين على خط الاستواء وما قاربه؛ لأنه ليس عندهم شتاء يقتل أو صيف حار يقتل أيضًا، وهذا أمر مشاهد.

إذن إيلاج الليل في النهار فيه عدة حكم.

قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذللهما لعباده.

قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الشمس معروفة، والقمر معروف، فمعنى: سخرهما أي: ذللهما، ذللهما لمصالح العباد، فإن في الشمس والقمر من المصالح العظيمة للعباد ما يعرفه أهل العلم بهذا الشأن، مصالح عظيمة، هذه الشمس والقمر ما بين الله لنا ثقلهما، ولا حجمهما؛ لأن ذلك ليس بالعلم النافع المفيد لنا فالجهل به لا يضر، والعلم به من فضول العلم، إن لم يشغلك عما هو أهم منه فاشتغل به، إنما بيّن المصالح التي تترتب على تسخير الشمس والقمر، قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، فبالشمس يكون النهار والليل، ويكون أيضًا نضج الثمار، وتكون الأنوار العظيمة.

ماذا يتوفر للعالم من الطاقة بعد خروج الشمس؟ كثير، كثير لا يحصى؛ لأنها توفر الكهرباء، وتوفر أيضًا تليين الأشياء التى تحتاج إلى تليين، وإلى حرارة، ثم إنه في الأزمنة الأخيرة صاروا يستنتجون من حرارة الشمس طاقة كبيرة عظيمة. أما القمر فسخر لنا أيضًا بما يحصل من نوره في الليل، وبما يحصل منه من العلم بالحساب وعدد السنين، وما إلى ذلك، وإن شئتم مزيدًا من هذا فراجعوا كتاب« **مفتاح دار السعادة**»، ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر من مصالح الشمس والقمر أشياء عظيمة كبيرة، وذكر غيره أيضًا ذلك، لكن يجد الإنسان فرقًا بين بحث ابن القيم مثلًا وبحث العلماء؛ علماء الطبيعة؛ لأن علماء الطبيعة ينظرون إلى هذه الأشياء من زاوية مظلمة حالكة مادية محضة، لا يتربى فيها الإنسان تربية دينية، ولا يعرف بها قدرة الله ونعمته، لكن إذا تكلم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك يقرن هذا دائما برحمة الله وقدرته وحكمته، فيجد الإنسان مع علمه بهذا الفن من العلوم يجد مع ذلك خشية لله - عز وجل - وتعظيمًا له ومحبة له.

قال: [﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى﴾ في فلكه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة] كلٌّ من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِى﴾ يعني: يسير في فلكه لأجل مسمى، الفَلَك شبهه ابن عباس رضي الله عنهما بفلكة المغزل، فلكة المغزل عبارة عن قرص، قرص في أعلاه، وفي أسفله عود، عود ينطوي عليه الحبل الذي يغزل، هذه تدور لأن المرأة التى تغزل تبرمها هكذا حتى يدور ويحكم الحبل، الفَلَك هذا، للشمس فلك تدور به، وللقمر فلك يدور به.

وفي إسناد الجريان إلى كل منهما دليل على أنهما يسيران بذاتهما، ويدوران على الأرض، وهذا شيء مشاهد، أن الشمس تدور على الأرض، وكذلك القمر، وما ادعاه علماء الهيئة من أن الأرض هي التي تدور، والشمس لا تدور حول الأرض؛ فإننا نكذبه، حتى يقوم لنا دليل حسي؛ يكون لنا حجة أمام الله - عز وجل - في الخروج عن ظاهر كلامه، وإلا فالواجب علينا نحو هذه الأمور ألا نخرج عن ظاهر كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الخالق، والخالق أعلم بما خلق من غيره، هذا مُسَلَّم، ولأن كلام الله - عز وجل - أوضح الكلام وأبينه، فلا يمكن أن يكون فيه شيء من التعقيد، لا اللفظي ولا المعنوي، بل هو واضح في معناه ظاهر.

ولأن كلام الله - عز وجل - أصدق الكلام، فلا يمكن أن يخبرنا الله - عز وجل - بأمر لم يكن، أو بأمر يكو ن الواقع على خلافه، ولأن الله - عز وجل - أحبُّ أحد يكون البيان إليه، يعني: أنه يحب البيان لعباده أكثر من أي أحد، واقرأ قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] وما أشبهها من الآيات الدالة على أن الله - عز وجل - يريد أن يبين لعباده ما يهتدون به.

فإذا كان - سبحانه وتعالى - هو أحبُّ من تكلم إليه البيان أو هو أحبُّ من يكون البيان إليه، وهو الله - عز وجل -، فإن الله تعالى لا يمكن أن يقول في كلامه ما ليس فيه بيان لنا،إذن فنحن نكذبهم، ونقول: كذبتم أن يكون تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الأرض، بل تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الشمس على الأرض، ولا غرابة بذلك، هم يقولون: كيف أن الكبير يدور على الصغير؟ ما في مانع، نحن معكم بأن الشمس أكبر من الأرض، لكن ما المانع من أن يكون الجزء الكبير أو الجرم الكبير هو الذي يدور على الصغير، ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدنا أن الله - سبحانه وتعالى - يضيف هذه الحركة إلى الشمس نفسها، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧] ويقول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] وفي القرآن يقول: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] هذه ست مواضع.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨] مثل: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، كلها تدل على أن هذه الأفعال تقع من الشمس، لو كان هذا يأتي بدوران الأرض لقال: وترى الشمس إذا طلعوا عليها؛ لأنه إذا دارت الأرض؛ فنحن الذين نطلع على الشمس أم هي الشمس التى تطلع علينا، وأما قولهم: إن هذا خطاب للناس بما يشاهدونه بأعينهم؛ والأمر على خلافه، يعني: إذا طلعت حسب رؤية العين، وفي الواقع أننا نحن الذين نطلع عليها؛ فبماذا نجيبهم؟

نقول: هذاخلاف ظاهر اللفظ، ولا يمكن أن نحيد عن هذا الظاهر إلا بدليل محسوس، يمكننا أن نحتج به أمام الله - عز وجل -، لأن الله سيحاسبنا، يقول: لما ذا عدلتم عن كلامي إلى كلام غيري، والخطاب من الله سبحانه وتعالى، ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ تزاور هي أي: تميل، ولو كان ذلك بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تميل، وإذا غربت لو كان هذا بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تغرب عن الشمس.

أما في السنة فقد قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟**» أسند الذهاب إليها عندما غربت، ولو كانت الأرض هي التي دارت حتى اختفت الشمس؛ لكان يقول: أتدري أين تذهب الأرض مثلًا، والحاصل أنه يجب علينا، يجب علينا وجوبًا، أن نأخذ

بظاهر القرآن، وأن الشمس هي التي تدور على الأرض، وأنه بدورانها يحصل اختلاف الليل والنهار، هذا الواجب، ولا يجوز أن نحيد عن هذا أبدًا، إلا إذا قام الدليل الحسي على خلاف ذلك؛ فإنه حينئذ يتعين التأويل، وصرف الكلام عن ظاهره؛ لأننا نعلم علم اليقين أن القرآن لا يخالف الواقع، أما شيء يقولونه وأوهامهم، ويقدرونه، فإننا لا نوافقهم على ذلك، ولا يسع المؤمن أن يحيد عن ظاهر كلام الله لمجرد قولهم أبدًا، أما مسألة الأرض؛ هل تدور أو ما تدور ؟

فنحن نقول: لا نصد ق ولا نكذب،، فيمكن أن يكون لها دروة، ومع ذلك للشمس دورة، هم يقولون: إذا أقررتم بدوران الأرض؛ لزمكم أن تقولوا إن الشمس ثابتة، فنقول: ليس ذلك بلازم، يمكن أن يكون للشمس دورة، وللأرض دورة أخرى، ولا مانع من ذلك، ولكن مع هذا نقول: إن الكلام في دوران الأرض من فضول العلم؛ الذي لا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته به، إلا رجلًا يحتاج إلى معرفة ذلك، كما يذكر أنهم يحتاجون إليه في الصواريخ الموجهة، وما أشبه ذلك مما هو معروف عند أهله، فحينئذ إذا احتاج إليه فلا حرج أن يبحث فيه، أما إذا لم يحتج إليه فنقول: هذا ضياع وقت، وما الفائدة من أن تعلم إنها تدور أو لا تدور؟ احمد الله إن الله جعلها قرارًا سواء كانت تدور أو لا تدور.

قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، يحتمل أن تكون لام العاقبة، أي: كل يجري حتى ينتهي إلى هذا الأجل، ويحتمل أن تكون اللام بمعنى: إلى، كما جاءت به في موضع آخر، ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]و على كل حال، فهي تدل على أن لهذا الجريان غاية، وهو كذلك، هذه الغاية فسرها المؤلف، بقوله: [يوم القيامة]، [وقوله: ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: معين عند الله سبحانه وتعالى، وهو معلوم عنده، وليس معلومًا عندنا.

إذن: فهذه الشمس والقمر ليستا أبديتين لكنهما دائبان، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: مستمرين، لكن لهما أجل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الإشارة تعود إلى ما ذكر؛ من التسخير والجريان، أو تعود إلى الفاعل في قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾؟ إذن ذلكم المسخِّر الله، فالمشار إليه الآن مفرد مذكر، والمخاطب جماعة ذكور، وهنا نسأل ما ذا يراعى في اسم الإشارة وكاف الخطاب؟ هل يراعى المخاطب أو المشار إليه، نقول: أما اسم الإشارة فيراعى فيها المشار إليه، وأما الكاف فيراعى فيها المخاطب.

هل الأفصح في المخاطب أن يكون الضمير على حسب المخاطب، يعني: جماعة ذكور إذا كان المخاطب جماعة ذكور، جماعة إناث إذا كان المخاطب جماعة إناث، مثنى إذا كان المخاطب مثنى، مفرد مفتوح إذا كان المخاطب مذكرًا، مفرد مكسور إذا كان المخاطب مؤنثًا، أو الأفصح أن يكون بلفظ الإفراد دائما مفرد: مذكر ؟

نقول: فيه ثلاث لغات

أولًا: أن يكون باعتبار المخاطب مطلقًا، هذا واحد، ثانيًا: أن يكون بالفتح دائمًا، ثالثًا: أن يكون بالفتح لمفرد في المذكر، وبالكسر لمفرد في المؤنث مطلقًا

اللغة الأولى وهي المشهورة الفصحى، أن تكون الكاف بحسب المخاطب مطلقًا، تخاطب مفردًا مذكرًا تقول ذلكَ، مفردة مؤنثة ذلكِ، مثنى ذلكما، جماعة ذكور ذلكم، جماعة إناث ذلكن، هذا الأفصح، ثانيًا: أن تجعله مفردًا مفتوحًا في المذكر مطلقًا،

فتقول: ذلكَ سواء كنت تخاطب مفردًا أو مثنًى أو جمعًا، لكن بشرط أن يكون مذكرًا، وتقول في المؤنث ذلكِ، سواء كنت تخاطب واحدة أو جماعة أو مثنى، الثالث: أن تجعله مفتوحًا بصيغة المذكر دائمًا، أيًّا خاطبت، فتقول: ذلكَ، سواء كنت تخاطب رجلًا أو امرأة، جماعة أو مثنى أو مفرد . هنا يقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المشار إليه في الآية ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه ما نوعه؟ المشار إليه مفرد مذكر، والمخاطب جماعة؛ لأن الله يخاطب الناس جميعًا، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، الرب يطلق على معانٍ كثيرة في اللغة العربية، منها الخالق المالك المدبر، فالربوبية معناه: أن الله سبحانه خالق مالك مدبر، ولهذا قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملة خبرية قدم فيها الخبر للدلالة على الحصر، يعني: له وحده الملك دون غيره، الملك المطلق الشامل، الملك المطلق الشامل لله وحده، ملك الذوات والأعيان، وملك التصرف في هذه الأعيان، فهو المالك لكل مخلوق، وهو المتصرف في كل مخلوق.

فإذا قلت: كيف يصح الحصر مع أن الله – عز وجل – أثبت الملك لغيره فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور: ٣٣]فأثبت الملك لغيره وأنت تقول: إ ن هذه الجملة فيها حصر ؟

فالجواب: من وجهين، الوجه الأول: أن ملكنا ليس ملكًا مطلق؛ بل هو ملك مقيد بحسب الشريعة، فأنا مثلًا مالك لهذه الحقيبة، لكن لا أملك أن أتلفها، هل أملك أن أتلفها؟ أبدا، يعني: حرام على أن أتلفها مالك لهذه البعير مثلًا، لكن هل أملك أن أعذبها؟ هل أملك أن أجرحها؟ ما أملك هذا، إلا بإذن من الشرع، ولهذا لما أذن الشرع بالوسم، وسم البعير، مع أنه مؤذ لها، جاز، ولما أذن بإشعار الإبل والبقر في الهدي؛ جاز، والإشعار: أن يشق السنام، يشق السنام في السكين، في الهدي، حتى يسيل الدم على الشعر والجلد، وماالفائدة من هذا؟ الفائدة: ليعرف أن هذه هدي، ولذلك نحن نشعرها الإبل والبقر، ونقلد الإبل والبقر والغنم، الغنم ما فيها إشعار؛ فيها تقليد فقط وما هو التقليد؟ التقليد: أننا نضع عليها قلادة في العنق، نعلق فيها النعال، النعال القديمة المتقطعة، وآذان القرب، القرب معروفة، القربة واحدها قربة، آذان القرب يعني تقطع القرب

لتعلق بها، النعال يلقوه على هذه البعير أو البقرة أو الشاة، لماذا؟ ليعرف أنها هدي؛ لأن النعال المتقطعة وقطع القرب تدل على الرثاثة والفقر، إشارة إلى أن هذه للفقراء.

لكن قصدنا أن ملكنا للشيء مقيد، ثانيًا: أنه ملك قاصر، يعني: ليس شاملًا فأنا مثلًا أملك هذه الحقيبة لكن أنت لا تملكها، وأنت تملك هذا الكتاب وأنا لا أملكه،إذن فهو ملك قاصر، لا يتعدى، أما ملك الله - عز وجل - فإنه ملك مطلق، يتصرف في ملكه كما يشاء، وهو ملك عام شامل، أليس كذلك؟ الله - عز وجل - ينزل الأمراض، وينزل الجروح في مخلوقاته أليس الله تعالى يبتلي الإنسان، يظهر فيه الجروح تألمه وتزعجه، وآلام في أعصابه وفي عظامه لو أن أحدًا من المخلوقين أراد أن يفعل ذلك؛ لكان ممنوعًا ولا يجوز.

لكن الله - عز وجل - له أن يفعل ما شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، إذن الله هو الرب، وهو الذي له الملك، وهذا الملك أيضًا شامل للأعيان والذوات، وشامل للتصرف فيها، ومنه التصرف في الحكم، فالأحكام الشرعية لا تتلقى إلا من الله - عز وجل -، ويجب أن نؤمن ونطبق جميع أحكام الله، سواء كان ذلك في العبادات أو في المعاملات أو الأحوال، يجب أن يطبق الجميع، فإن قال أحد من الناس: العبادة حق الله فهي بيني وبينه، ولا أتجاوز ما شرع، والمعاملة حق الإنسان، له أن يتجاوز الشرع فيها، فأنا لي أن أعدل عن شريعة الله إلى حكم الطواغيت، يجوز أم لا؟ البيع والشراء لي أنا، لمصلحتي، فأي نوع من البيع والشراء يتفق مع المصلحة والكسب فلي أن أفعله، ربا غش مكر، كل شيء هذا التصرف لنا، المسجد لله والو طن للشعب أو للجميع!!!!

نقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ليس لأحد الملك، الملك لله - عز وجل -، يتصرف في هذا الملك كما يشاء، حلًا وحرمة وإيجادًا، ولا أحد يدخل في ذلك، والذي يقول هذا ويعمل بالشرع في العبادات وينكر الشرع في المعاملات نقول: إنه كافر، مرتد عن الإسلام، لا يجوز إقراره على هذا الشيء؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠] فالإيمان ببعض الرسل دون بعض، كالإيمان ببعض الشريعة دون بعض؛ لأن الأول تجزئته في الرسل، وهذا تجزئته فى المرسل به، ولا فرق، كالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه هو في الحقيقة كافر بالجميع؛ لأننا نقول: لو سلمت أنه من الله وأنه شرعه؛ ما كفرت به، فإذا كفرت به؛ فهو كفر بالجميع، وشرع الله تعالى لا يتبعض، ومن هنا نأخذ خطورة الأمر في كثير من بلدان المسلمين؛ الذين يحكمون فيما بينهم غير شريعة الله، ويرون أن هذه القوانين الوضعية الطاغوتية أفضل من شرع الله، وأقوم لمصالح عباد الله مما شرعه الله، نسأل الله العافية، وهذا بلا شك نقص في عقولهم،

وذهاب لأديانهم.

كيف يكون هذا الوضع الطاغوتي المحدث المبني على العقل القاصر أفضل وأنفع للعباد من شرع الله - عز وجل - الذي شرعه لعباده وهو أعلم بمصالحهم وأحكم بما يرشدهم ؟، أي إنسان عنده عقل فضلًا عن أن يكون عنده إيمان لا يمكن أبدًا أن يدور في فكره أن هذه الأحكام الوضعية المخالفة لشرع الله خير لعباد الله من شرع الله، إلا مخبل ومجنون، والعياذ بالله، وما ذلك بغريب على بني آدم، فالذين كانوا يعبدون الأحجار في الجاهلية مثل هؤلاء في السفه، هؤلاء أيضًا عبدوا آراء غيرهم، وقدموها على شريعة الله.

والقول: بأن الدين لله والوطن للخلق: هذا خطأ باطل، يقال: الدين لله والبلاد لله ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ما هي لك، الأرض لله، والشعب لله، والدين لله، وكل شيء فهو لله، وإذا كان لله ؛ فالواجب علينا أن نسير على هدي الله - والله الموفق.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ الواو إما استئنافية أوعاطفة من باب عطف الجمل بعضها على بعض، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خبرها وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾.

قال المؤلف: [تعبدون]؛ لأن الدعاء عبادة، والعابد لله - عز وجل - قد تتضمن عبادته الدعاء؛ كالصلاة مثلًا، منها دعاء وهي عبادة وقد تكون دعاءً بلسان الحال؛ لأن العابد ماذا يريد؟ الفوز بالجنة والنجاة من النار، فهو وإن لم يقل: أسألك الفوز بالجنة والنجاة من النار؛ فهو لا يريد إلا ذلك، إذن فهو داع بلسان الحال، ولهذا نقول: إن الدعاء عبادة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] بعد قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فدل هذا على أن الدعاء عبادة، هنا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال المؤلف: [يعبدون] إما بالعبادة بالفعل، كالركوع للصنم، والسجود للصنم، والذبح له، والنذر له، فما أشبه ذلك، أو يدعونه دعاء مسألة لا دعاء عبادة، فيأتون إلى الصنم وإلى القبر ويسألونه حاجاتهم ويستغيثون بهم فشمل قوله: يدعون دعاء المسألة ودعاء العبادة، وقلت: إن دعاء العبادة دعاء مسألة لكن بلسان الحال .

وكيف يدعون هؤلاء؟ أقول: يدعون هذه الأصنام على وجهين إما بدعاء المسألة وإما بدعاء عبادة ودعاء العبادة دعاء بالحال، بلسان الحال، قال: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غيره وهم الأصنام.

الأصنام تارة يعبر الله عنها بصيغة المؤنث، وتارة يعبر عنها بصيغة المذكر، هنا عبر عنها بصيغة المذكر العاقل، الذين يدعون، هذا للمذكر العاقل، وإنما وصف هذه مع أنها جماد ميتة؛ للتنزل مع هؤلاء العابدين لها، وذكرها على أكمل حال يعتقدونها فيها، يعني: هي مع كمالها على زعمكم، كونها من ذوات العقل لا تملك شيئًا، قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، من زائدة زائدة، ولهذا

نقول: قطمير مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على آخره يشتغل محل حركة حرف الجر الزائد، أي: ما يملكون قطميرًا، القطمير يقول: [لفافة النواة]، وسبق لنا أن في النواة ثلاثة أشياء يضرب بها المثل في الحقارة: قطمير ونقير وفتيل ويدل على هذا أنهم لا يملكون شيئًا قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ إن هذه شرطية، وفعل الشرط ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ وهو مجزوم بحذف النون، وجواب الشرط: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ وهو مجزوم أيضًا بحذف النون، يعني: هذه الأصنام إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، لو تدعون هذه الأصنام إلى يوم القيامة ما سمعوا؛ لأنها جماد.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ قال المؤلف: [فرضًا ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ ما أجابوكم]، يعني: لو سمعت هذه الأصنام دعاءكم ما استجابت لكم، أي: ما أجابتكم، سواء قلتم: يا لات، يا عزى، يا مناة، يا يعوق،ويا يغوث، يا نسرا، لو سمعت هذا الدعاء هل تجيبكم؛ لا ولا تعطيكم المطلوب أيضًا، حتى لو سكتت ما أصبتم المطلوب ولهذا قال: ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ يشمل الاستجابة بالقول، بأن تقول هذه الأصنام: نعم ماذا تريدون ؟، والاستجابة بالفعل وهي: إيصال المطلوب إلى هؤلاء الطالبين، لا تستجيب لا هذا ولا هذا، وقال المؤلف: ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: [أجابوكم] مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: أجابهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: فليجيبوني، وأمثال هذا كثير، فالاستجابة هنا بمعنى: الإجابة، أي: أن هؤلاء، هذه الأصنام لا تجيبهم.

وزيد على ذلك ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم إياهم مع الله، أي: يتبرءون منكم، ومن عبادتكم إياهم، إذن انتفى عنها إجابة الدعاء، ومع ذلك ليتهم سلموا من شرها، يوم القيامة في هذا الموقف العظيم المشهود[يكفرون بشرككم ويتبرءون منكم]، وهذا غاية ما يكون من الخذلان؛ لأن يوم القيامة الناس فيه أحوج ما يكونون إلى النصر والعزة، وهؤلاء الأصنام يوم القيامة تذلهم.

كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] يقوله من؟ إبراهيم، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

في هذه الآية أن هذه الأصنام لا تملك نفعًا لعابديها هذه واحدة، ثانيًا: وتزيد عابديها ذلًا وخذلانًا في الموضع الذي يكونون فيه أحوج ما يكونون إلى العز والنصر، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾،

ثم قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي: يخبرك بأحوال الدارين﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: عالم وهو الله تعالى، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ هذه جملة خبرية منفية، يعني: لا ينبئك أحد بأخبار هؤلاء

سواء في الدنيا أو في الآخرة، وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الآخرة: [بأحوال الدارين] يشمل يعني: أنه فسرها على ما هي عليه.

يعني: لا ينبئك بأحوال الدنيا والآخرة وما يكون لهؤلاء العابدين من هذه الأصنام، لا ينبئك أحد مثل من هو خبير بالأحوال، وليس خبير بالأحوال إلا الله.

وهذه الجملة صارت مصدر المثل عند العرب، إذا أرادوا أن يؤكدوا الشيء؛ قالوا: لا ينبئك مثل خبير، أو أحيانًا يقولون: على الخبير سقطتَ، يعني: إنك وصلت إلى العلم اليقين الذي يصدر عن خبرة، إذا كان لا ينبؤنا مثل خبير وهو الله وقد أنبأنا بحال هذه الأصنام مع عابديها، فهل يليق بنا ونحن عقلاء.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - في إيلاج الليل في النهار والعكس، وذلك لأن أحدًا من الخلق لا يستطيع أن يفعل ذلك، مهما عظمت قوته.

٢ - **ويستفاد منها أيضًا:** بيان رحمته بعباده؛ لأن في هذا الإيلاج من المصالح والمنافع ما لا يحصل مع عدمه، وقد ضربنا لكم مثلًا فيما سبق بالذين على خط الاستواء، الذين لا يزيد عندهم النهار والليل، ماذا يكون عندهم من الأمراض والفتور في الأجسام وعدم النشاط.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** نعمة الله - عز وجل - بتسخيره الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾

٤ - **ومنها أيضًا:** بيان هذه الآية العظيمة بل هاتين الآيتين العظمتين من آياته وهما الشمس والقمر، والليل أيضًا والنهار، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]، وظهور الآيات فيهما واضح، لما فيهما من تمام الحكمة والقدرة والرحمة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس والقمر يجريان، أي: يسيران، ففيها رد على أرباب الهيئة الجديدة، الذين يدعون أن الشمس والقمر لا يجريان على الأرض، ولا يدوران عليها، ونحن قلنا: إنه يجب علينا أن نتمسك بهذا الظاهر ما لم نجد دليلًا يقينيًّا يدل على أن هذا الظاهر غير مراد، وحينئذ لنا مساغ في مخالفة هذا الظاهر.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء مضبوط، ومحكم، ومقدر بأجل محدود، لا يزيد عليه ولا يتأخر؛ لقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا الأجل الذى تسير عليه الشمس والقمر، يقول المؤلف إنه يوم القيامة، ويمكن أن نجعله أعم، فنقول: يسيران إلى أجل مسمى حتى في الفلك،

فمثلًا الشمس تنزل عل مدار الجدي في أيام الشتاء، ثم تتنقل منه شيئًا فشيئًا إلى أن تصل إلى مدار السرطان، لا يمكن أن تتجاوز هذا ولا هذا؛ لأنها تسير إلى أجل معين، كل يوم محدد مكان الطلوع وزمان الطلوع، وهذا لا شك أنه سير إلى أجل مسمى.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن فاعل هذه الأشياء هو الله، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، ففيه إبطال لقول أهل الطبيعة؛ الذين يقولون: إن اختلاف الليل والنهار والشمس والقمر كان بمقتضى الطبيعة، طبيعة الأفلاك، فيرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: فاعل هذا ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** عموم ملك الله لكل شيء، لقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و(ال)هنا للعموم، وضابط (ال) التي للعموم أن يحل محلها كل، فإذا صح أن يحل محلها كل فهي للعموم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢] اجعل بدل(ال) إن كل إنسان لفي خسر ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨] اجعل بدلها كل، خلق كل إنسان ضعيفًا، فإذا كانت (أل) يحل محلها كل فهي للعموم، وهنا: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ هل يصح أن يحل محلها كل؟ نعم، نقول: (له كل ملك).

٩ - **ومن فوائدها أيضًا:** اختصاص الله تعالى بالملك لقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، حيث قدم الخبر وحقه التأخير، وقد ذكرنا في أثناء التفسير الجمع بين هذه الآية وبين إثبات الملك لغير الله، وبينا أنه لا تعارض بينهما؛ لأن الملك الذي لله له شأن، والملك الذي للآدميين له شأن آخر.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما يدعى من دون الله لا يجلب خيرًا لداعيه، بأي وجه من الوجوه؛ لأن الله نفى عنه كل طريق يمكن أن يصل به الخير أو يندفع به الضرر، قال: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا في انتفاء الخير، وعدم إزالة الضرر والشر، زد على ذلك أنه يوم القيامة يكفرون بشرك هؤلاء، وهذا ضرر أعظم.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء الواضح على سفه هؤلاء المشركين، وجهه أنهم يدعون ما لا يسمع دعاءهم، يدعون ما لو سمع دعاءهم على الفرض والتقدير لم يستجب لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] من أضل يعني: لا أحد أضل، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وما ملة إبراهيم؟ استمع إليها: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] هذه ملة إبراهيم: التوحيد، وعدم الشرك، هؤلاء سفهاء، يدعون مالا يستجيب ولا ينفع بل يضر.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من تعلق بغير الله خاب أمله، كيف ذلك؟ لأن هذه الأصنام لا تنفعه في الدنيا، ولا تنفعه يوم القيامة، إذن خاب أمله هم يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ولكن ما قربتهم، هذه ما زادتهم إلا بعدًا، فأملهم قد خاب - والعياذ بالله -

وخسروا الدنيا والآخرة. قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ وما وجه هذا الكفر؟ التبرؤ.

١٣ - **ويستفاد منه:** أن هذه الأصنام المعبودة تتبرأ من عابديها يوم القيامة، بل إن الله - عز وجل - يجمع الأصنام وعبادها ويلقيهم في جهنم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩] ولكنها ليست آلهة، ما تنفع، فإن قلت: قد يبتلى داعي هذه الأصنام فتستجيب له ظاهرًا، بمعنى: أن يدعو الصنم أن يشفيه من المرض الفلاني فيشفى، أو أن يجلب له الخير الفلاني فيجلبه، فما هو الجواب؟

الدعاء ما أفاد، لكن الله - عز وجل - جعل هذا الشيء يقع عند دعائه امتحانًا، امتحان لهؤلاء العابدين.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث لقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

١٥ - **ومنها:** إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

١٦ - **ومنها أيضًا:** إثبات علم الله وإحاطته بكل شيء لقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

١٧ - وهل نأخذ منها الرد على الجبرية؟ نعم، من قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾.

وهل نأخذ منها أن هذه الأصنام من العقلاء؟ لا.

لكن ذكرت على سبيل التنزل، وعلى ذكرها بأكمل أوصافها عندهم وهي العقل.



قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٥-١٨]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [في كل حال، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في صنعه بهم].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ هذا النداء عام، للمؤمن والكافر والبر والفاجر،

والصغير والكبير، والذكر والأنثى، الناس عمومًا، وصدر الله هذا الحكم بهذا الخطاب، الذي هو النداء؛ لأجل التنبيه وبيان الاهتمام به، وفي الحقيقة أنه قد يقال: كل أحد يعلم أنه فقير إلى الله، لكن هل نحن عملنا بمقتضى هذا العلم ؟لا.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧] فقرر الله تعالى هذه الحال الثابتة التي لا ينفك عنها الإنسان، وهي الفقر إلى الله، من أجل أن يعمل بمقتضى هذه الحال، فيلجأ إلى الله - عز وجل -، ولا يسأل إلا الله .﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الجملة هذه جملة اسمية مفيدة الحصر؛ لأن طرفيها معرفتان﴿أَنتُمُ﴾ هذا ضمير معرفة،﴿ٱلْفُقَرَآءُ﴾ مُحلى بأل فهو معرفة.

أنتم الفقراء وغير الناس أغنياء عن الله؟ لا، لكن لما كان الإنسان هو الذي قد يرى نفسه مستغنيًا عن الله؛ حصر الفقر فيه، كأنه يقول: إن لم يكن أحد فقيرًا إلى الله فأنتم فقراء.

وإذا كان الإنسان العاقل المدبر لنفسه فقيرًا إلى الله فما بالك بالبهيمة، أليست أشد فقرًا؟ بلى هي أشد فقرًا إلى الله - عز وجل - من الإنسان لكنه خاطب الإنسان بذلك؛ لأنه هوالذي يرى أنه قد استغنى عن الله، وأنه غني عن الله؛ بل بعض بني آدم عكس القضية، قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، والعياذ بالله، فعكس القضية والواقع الذي تشهد به الفطرة.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ إِلَى﴾ ﴿إِلَى﴾ هذه للغاية، أي: أن فقركم منته إلى الله - عز وجل -، لا يسد عوزكم إلا الله.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: ضد الفقر، هوالغني أي: المستغني عن غيره، كما قال الله تعالى في سورة التغابن: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، فالله - عز وجل - ذو الغنى الواسع، ومع ذلك فإن غناه مقرون بحمده، ولهذا قال: ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فهو غني يحمد على غناه؛ لأنه يجود به على غيره، لكن بنو آدم قد يكون الإنسان منهم غنيًّا ولكن ليس حميدًا، فإذا كان غنيًّا وتسلط بغناه على غيره، وفخر به على الناس ولم يقم بما يجب عليه صار غنيًّا غير حميد . لكن الله - عز وجل - غني حميد، وكلمة حميد يصح أن تكون بمعنى: اسم الفاعل، ويصح أن تكون بمعنى: اسم المفعول، اسم الفاعل؛ لأنه - سبحانه وتعالى - حامد، يحمد من عباده كل من يستحق الحمد منهم ولهذا يثني على رسله وأنبيائه وعباده الصالحين، والثناء عليهم هو الحمد، وهو أيضًا محمود، محمود على أمرين؛ على ما له من كمال الصفات، وعلى ما له من تمام الإنعام، فهو محمود لكمال صفاته، ومحمود لكمال إنعامه، وهنا نقول: الحميد محمود لكمال غناه، وكمال جوده بهذا الغنى؛ لأنه ليس كل غني يكون محمودًا بالذي عنده من الغنى، لكن الله - عز وجل - غني حميد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿هُوَ﴾ضمير فصل

وضمير الفصل له ثلاث فوائد: الحصر، وما معنى الحصر؟ الله هو الغني ليس غيره الله هو لا غير، كما إذا قلت: زيد هو الفاضل، يعني لا غير، الفائدة الثانية: يفصل بين الخبر والصفة يعني:

التمييز بينهما.

الثالثة: التوكيد، يقول: زيد هو القائم فهو أوكد من قوله: زيد قائم، فهذا فيه توكيد .

ثم قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، جملة شرطية، فعل الشرط: ﴿يَشَأْ﴾، وجواب الشرط: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: بالإهلاك ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يأت غريب أن تكون مكسورة وهي فعل مضارع !

مجزومة بحذف حرف العلة وأصله يأتي، لكن حذفت الياء؛ لأنها معطوفة على مجزوم؛ يذهبكم.

وقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [بدلكم]، ﴿بِخَلْقٍ﴾ أي: بمخلوق، بدليل قوله: ﴿وَيَأْتِ﴾ أي: بمخلوق جديد، فهذا مصدر أريد به اسم المفعول، كقوله عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)] وكقوله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] خلقه أي: مخلوقه.

وقد يراد بالخلق المصدر كما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] لكن هنا المراد به: اسم المفعول.

قال تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بمخلوق جديد غيركم، كيف يذهبنا ويأت بخلق جديد؟ بالإهلاك وإذا أهلكنا من يأت بخلق غيرنا؟ يخلقهم الله، يُخلق قبل الإذهاب أم بعده؟ من بعده.

الآن قدرنا أن فريق الأمس ذهب من الذى يأتى بعده؟ الله قادر على أن يأت بخلق جديد مستقل، ثم هو أيضًا يمكن أن يذهب الموجودين بعد أن يأتي خلفهم منهم يكون النشأ الصغار يعتبر خلقًا جديدًا بالنسبة للكبار الذين هلكوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيل: لما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة وقالوا: إن فيها قومًا جبارين، ابتلاهم الله - عز وجل - وقال: إنها ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] فضاعوا ما بين مصر والشام مسيرة شهر، جلسوا فيه أربعين سنة، ما اهتدوا إلى الطريق، تائهين.

قال: بعض العلماء ولاسيما المعاصر منهم: لأجل أن يفنى ذلك الجيل المتغطرس الذليل ويأتي جيل ناشئ في الصحراء قوي يريد أن يدخل البلاد المقدسة؛ لأنه ماش في الصحراء يريد مدنًا، فعنده قوة وإرادة تؤهله إلى دخول تلك الأرض؛ لأن الجيل الأول المتغطرس المعاند هانيء هكذا قال بعض العلماء ولا سيما المعاصرون منهم،

قالوا: إن الحكمة في أن الله تعالى ضربهم بهذا التيه لأجل أن يفنى الكبار، ويستجد الصغار،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

فالله أعلم، إنما الله - عز وجل - قادر على أن يمحو الناس ويذهبهم ويأت بخلق جديد، إما خلق مستقل أو من ذرية هؤلاء، أو يفني من في هذه الأرض مثلًا، يفني من في هذه الأرض ويأتي آخرون يحتلون الأرض.

فالآن لها ثلاثة وجوه: إما خلق جديد ومستقل، وإما ذرية القوم الذي ذهبوا، وإما قوم آخرون يأتون من بلاد أخرى ويحلون محل هؤلاء الذين ذهبوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]

قوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ ما حجازية، لتمام شروط عملها؛ لأن اسمها ذا، وخبرها عزيز، لكن دخل على خبرها الباء الزائدة في الإعراب، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم وإتيان بخلق جديد، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بعزيز، مقدم عليه، وقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ قال المؤلف: [شديد]، والصواب ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بمعنى: ممتنع؛ لأن عز تأتي بمعنى: امتنع، كما مر علينا، وتأتي بمعنى: غلب، وتأتي بمعنى: قهر، وغلب، وقهر معناهما واحد وتأتي بمعنى: العزة والقدرة هنا ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [بشديد]لأن الشديد في حد ذاته ممتنع، لقوته وصلابته، إذا لم يكن عزيزًا على الله فهو سهل، وعليه فنقول:

إن هذه الصفة من الصفات السلبية، التي نصف الله تعالى بها مع إثبات كمال ضدها، فنقول: وما ذلك على الله بعزيز لكمال سهولته عليه، فهو أمر هين عليه سبحانه وتعالى، أن يهلك هؤلاء ويأتي ببدلهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لما بين - سبحانه وتعالى - ما يؤول إليه أمر هؤلاء الكفار، وهدد من خرج عن طاعته، بأنه قادر على أن يذهبهم ويأت بخلق جديد، ذكر براءة غير الوازرين من الوازرين، يعني: أن شرك هؤلاء المشركين لا يؤثر على أولئك المؤمنين الموحدين قال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ قال المؤلف: [نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وازرة].

أفادنا المؤلف بالتقدير: [نفس] أن وازرة صفة لموصوف محذوف تقديره نفس.

وقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي: آثمة، وهل المراد آثمة بفعل أو أنها من ذوات الوزر والإثم، وهو المكلف أي: البالغ العاقل؟ يعني: أن من يكون أهلًا لأن يأثم إذا فعل لا يتحمل إثم غيره، ويكون الفائدة من ذكر الوازرة أن الصغير مثلًا لا يتحمل إثمًا لا له ولا لغيره، بخلاف الكبير الذي يتحمل الإثم، فهل يتحمل إثم غيره.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ قال المؤلف: [آثمة أي: لا تحمل]، كلمة ﴿تَزِرُ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [أي لا تحمل]، وهذا تفسير بالمراد لا بالمعنى المطابق للفظ؛ لأن المعنى المطابق للفظ في تزر أي: تأثم، إذ إن الوزر هو: الإثم، ولكن مر علينا كثيرًا أن تفسير القرآن قد يراد به التفسير

المطابق للفظ وقد يراد به التفسير بالمعنى المراد لا المطابق للفظ، أي: لا تحمل وزر نفس أخرى.

أفادنا أيضًا بقوله: [وزر نفس]، أن ﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: نفس، أي: أن زيدًا لا يحمل إثم عمرو وهندًا لا تحمل وزر فاطمة مثلًا، كلٌ يحمل وزره، قال الله تعالى مبينا ذلك في جملة تعتبر قاعدة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدَّثر: ٣٨] ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١﴾ [الطور: ٢١] من لم يكسب شيئًا فليس عليه من إثم الآخرين شيئًا، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1] لأن سَنَّهُ إياه يعتبر وزرًا؛ لأنه هو الذي شق الطريق له، ومهد له السبل.

فلهذا كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فالآية هنا لا تنافي الحديث.

قال: [﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ إن تدع نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالوزر ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ منه أحدًا ليحمل بعضه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾].

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ أي: تطلب، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليحمل عنها بعضه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾، وجملتا لا يحمل كما تعرفون جواب الشرط، الشرط قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾، وهو مجزوم بحذف الواو، والضم مقدر عليه و﴿لَا يُحْمَلْ﴾ هذا هو جواب الشرط، و﴿شَيْءٌ﴾ نائب فاعل، يعني: أنه كما أن الغالب لا يحمل عن الغيب وزره، فإنه حتى وإن دعي واستنجد ليحمل أو يخفف عن الوازر شيئًا، لم يك ذلك، في الدنيا ربما يؤخذ الإنسان بكبيرة غيره، في الدنيا أيضًا إذا استغاث بك إنسان قد حمل شيئًا ثقيلًا فقال إنسان أحمل شيئًا ثقيلًا هل تنجده؟ تنجده، لكن في الآخرة لو دعت نفس مثقلة إلى حملها أن يحمل أحد منه شيئًا فإنها لا تجاب إلى ذلك ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم القليل والكثير، وقوله: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ هي أيضًا نكرة في سياق النفي فتعم أي مثقلة، مهما كانت هذه المثقلة فإنها إذا دعت أحدًا من الناس أن يحمل عنها من أثقالها لا يحمل منه شيء، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان قال المؤلف: [المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ قرابة كالأب والابن]، قوله: [ولو كان المدعو] ألا يمكن أن نقول: ولو كان الداعي؟ يمكن لكن متلازمان؛ لأن المدعو إذا كان قريبًا للداعي كان الداعي قريبًا له، لكن أيهما أنسب من حيث السياق، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، المدعو.

لكن قول: إن تدع مثقلة المذكور هنا: الداعي ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ نقول: المدعو أقرب؛ لأنه لو كان المراد الداعي لكان والله أعلم الأنسب أن نقول: ولو كانت ذا قربى قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾، ومعلوم أن ضمير المؤنث ولو مجازًا يكون المؤنث مؤنثًا.

إذن: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كانت الداعية، لكن لما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ وذكر، علم أن الفاعل غير الداعية، كما قال المؤلف، وقوله: ﴿قُرْبَىٰٓ﴾ أي: قرابة، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] أي: القرابة، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فالقربى هنا بمعنى: القرابة، لو أن الأب استنجد بابنه يوم القيامة أن يحمل عنه من أوزاره ما يجيب، بل ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥، ٣٦] لماذا؟ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله]، قوله: [عدم الحمل في الشقين]، أين الشقان؟ قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾، وإذا كان من الله فإنه لا يمكن أحدًا أن يحمل عن أحد شيئًا ولو رضوا، فلو أن أحدًا قال لشخص: آثامك علي، يمكن يكون هذا؟ ما يصح؛ لأن الذي لا يحمل هو الله، فالحكم من الله - عز وجل -، لو أن أحدًا استنجد بأحد أن يحمل عنه ووافق على نجدته، هل له ذلك ؟لا؛ لأن هذا حكم من الله - عز وجل -، هذه الفائدة من قوله: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله]، أي: فليس لأحد أن يتجاوزه، يعني: الحكم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢] يعني: يقولون ذلك ولكنهم ليسوا بصادقين وإنهم لكاذبون.

ثم قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣] لا بالتزامهم ولكن؛ لأنهم هم الأسوة والقدوة فكانوا يحملون أثقالهم وأثقال من أضلوهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾هذه جملة فيها حصر، طريقه إنما، والحصر أي: حصر الشيء في الشيء.

وما معنى حصر الشيء في الشيء؟

إثبات الحكم في الشيء ونفيه عما سواه، إثبات الحكم في المذكور وإن شئت فقل: في المحصور فيه ونفيه عما سواه.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كأن يقال: ما تنذر إلا الذين يخشون ربهم، و﴿تُنذِرُ﴾ من الإنذار، وهو: الإعلام المقرون بالتخويف، هذا الإنذار، وإن شئت فقل: الإعلام المراد به التخويف؛ لأنه يظهر من هيئة الكلام والصياح مثلًا أنه للتخويف، فمنذر الجيش يقول: واصباحاه، فيعلم الناس أن هذا الإنذار للجيش، إذن الإنذار: معناه الإعلام المراد به التخويف، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول الله له: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾

وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ الخشية هي: الخوف النابع عن تعظيم المخوف والعلم به قال الله

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وقولنا: إنه الخوف النابع عن تعظيم المخوف؛ ليشمل من كان خائفًا ولو كان هو قويًّا، يعني معناه: القوي قد يخاف منه الآخرين فتكون هذه الخشية، فإن خاف الضعيف من قوي فهو خوف، ولهذا نقول: إن الخشية أعظم من الخوف قال الله تعا لى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: يخافونه خوفًا نابعًا من تعظيمهم له مع علمهم بأنه مستحق للتعظيم.

وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ الغيب ضد الشاهد والمعلوم أي: [يخافونه وما رأوه] فأفادنا المؤلف بالغيب أفادنا أن قوله: بالغيب حال من المفعول به، أي: يخشون ربهم حال كونه غائبًا عنهم، لم يروه، هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ حال كونهم غائبين عن غيره، فيكون الجار والمجرور حالًا من الفاعل؛ لأن من الناس من يظهر خشية الله أمام الناس لكنه إذا غاب عن الناس لم يخش الله، هل يمدح هذا على خشيته؟ لا لأنه مراءٍ لكن الذي يخشى ربه بالغيب هذا هو الذي يمدح، فإن قلت: هل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين ويكون هؤلاء الذين مدحهم الله يخشون الله مع أنهم لم يروه، ويخشون الله في حال الغيبة عن الناس؟ الجواب: نعم، وهذا من بلاغة القرآن، أن يعبر بتعبير صالح لمعنيين لا يتنافيان.

فهؤلاء القوم يخشون الله تعالى وهم لم يروه، ولكنهم يخشونه كأنهم يرونه؛ لأنهم يخشونه بالغيب والشهادة، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١) وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ لا ينافي أنه منذر لجميع الناس ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٣] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على عموم إنذاره؛ لأن المراد بالإنذار هنا: الإنذار النافع، أي: إنما يؤثر إنذارك في الذين يخشون ربهم بالغيب أما من لا يخشى الله بالغيب فإنه وإن أنذر لا ينتفع بالإنذار، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مشيرًا إلى ذلك: [لأنهم المنتفعون بالإنذار]، لأنهم أي: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، المنتفعون بالإنذار فلهذا خص الإنذار بهم، إذن الحصر هنا - حصر الإنذار في الذين يخشون ربهم بالغيب - المراد به: حصر الانتفاع به أو حصر نفعه، إنما يكون لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، أما من لا يخشى الله فإنهم لا ينتفعون به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿يَخْشَوْنَ﴾ على صلة الموصول وهنا قا ل: يخشون وأقاموا الصلاة فعطف الماضي على المضارع؛ لأن الخشية من عموم الأعمال كلها، إقامة الصلاة وغيرها، وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال المؤلف: [أداموها]، والحقيقة أن إقامة الصلاة أعم مما قال، ففي تفسيره قصور؛ لأن إقامة

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الصلاة تشمل إتمامها وإكمالها والمحافظة عليها والمداومة عليها،واقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[المؤمنون: ١، ٢] هذا من إقامتها، الخشوع فيها، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: ٩] هذا أيضًا من إقامتها، يحافظ عليها ويحرص عليها، على واجباتها ومكملاتها وأوقاتها، وقال في سورة سأل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: ٢٣] وفي آخرها قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ [المعارج: ٣٤]فإقامة الصلاة يشمل كل ما فيه إكمالها وإتمامها وإزانتها، فهو أعم مما قال المؤلف، وقوله: ﴿الصَّلَوٰةَ﴾ يشمل الفرض والنفل؛ لأن(ال) تفيد العموم أي: أقاموا كل صلاة، والصلاة معروفة هي في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله - سبحانه وتعالى - بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ الجملة هذه شرطية، وفعل الشرط فيها: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، وجوابه: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

وقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ قال المؤلف: [تطهر من الشرك وغيره]، ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من الشرك وغيره؛ لأن الزكاة تفيد معنى: الطهر والمراد بالتزكي هنا: هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] أي: من زكى نفسه، أي: طهرها من الشرك، وقول المؤلف: [وغيره] كإرداة السوء مثلًا والمعاصي وإرادة الإساءة إلى الخلق، وغير هذا مما يجب على الإنسان أن يطهر نفسه منه، فهي إذن عامة، هل يدخل في ذلك أداء الزكاة؟ نعم يدخل في ذلك؛ لأن أداء الزكاة تطهر من البخل فهي داخلة في قوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ والمراد بهذا: الحث على التزكي؛ لأنك إذا تزكيت فإنما تنفع نفسك ومن لم يتزك فضرره على نفسه، فأنت إذا تزكيت فالذي ينتفع بتزكيك أنت، نفسك، فالله - عز وجل - لا ينتفع بطاعتك، أما غير الله فقد ينتفع بطاعتك، لا لأن حسناتك له، ولكن قد ينتفع بطاعتك بالقدوة بك، وبما يحصل من علم، أو غير ذلك، مما هو داخل في التزكية.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فعليه أن يحرص على التزكي.

قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المصير بمعنى: المرجع، كما قال المؤلف، وجملة: ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ه مقدم،و ﴿الْمَصِيرُ﴾ مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنه قدم م فيها الخبر، وحقه التأخير، يعني: إلى الله وحده المصير، أي: المرجع.

هل هو في الدنيا، أو الدنيا والآخرة؟ في الدنيا والآخرة، إلى الله المصير في الدنيا والآخرة، فمرجع الأمور كلها إلى الله - عز وجل - في الدنيا وفي الآخرة، الأحكام الشرعية مرجعها إلى الله، ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] الأحكام الكونية مرجعها إلى الله، يرتبها على ما يريد الأحكام الجزائية التى تكون يوم القيامة مرجعها إلى الله، فمصير كل شيء إلى

من أبدع وأحدث كل شيء، فالذي أبدع الأمور، وأحدثها هو الله، إذن مرجعها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى، قال المؤلف تفريعًا على قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فيجزي بالعمل في الآخرة]، وهذا إشارة من المؤلف إلى أنه قصر المصير هنا في المرجع إلى يوم القيامة، والصواب العموم، وعلى هذا فهو - سبحانه وتعالى - يجازي ويحكم قدرًا ويحكم شرعًا بين عباده.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ في هذه الآية فوائد كثيرة:

١ - **منها:** أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - عز وجل -، مهما بلغوا في الغنى والقوة فإنهم مفتقرون إلى الله، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا لفظ عام لا يخرج منه شيء.

٢ - **ومنها:** بيان شدة حاجة الناس إلى الله لقوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ بأل، الفقراء، لو قال: فقراء لكان أهون، لكن الفقراء معناه: جميع أحوالنا، بجميع أحوالنا كلنا مفتقرون إلى ربنا - سبحانه وتعالى -.

٣ - **ومنها:** بيان غنى الله، غنى الله عن كل أحد، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾، ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

٤ - **ومنها:** أن لله الغنى المطلق من جميع الوجوه، يستفاد هذا من قوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾، (ال) الدالة على العموم والاستيعاب، فإن قلت: كيف تقول: إن الغنى لله وحده، هو الغني؟ لأن ضمير الفصل يدل على الحصر، ولعلنا نأخذ هذه الفائدة أولًا.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الغني الكامل المطلق خاص بالله سبحانه وتعالى، بدليل قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين ثبوت الغنى لغير الله في الكتاب وفي السنة، قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال النبي عليه الصلاة والسلام: « تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم»[1] فثبت بالكتاب والسنة أن البشر فيهم غني كيف نجمع ؟

الجواب: أن غنى البشر غنىً محدود نسبي قاصر قابل للزوال أما غنى الله فهو غنىً مطلق كامل أزلي أبدي، وما ثبت في الملك والخلق والتدبير وما أشبه ذلك.

٦ - **ومن فوائد الكريمة:** القرن بين قول الفقراء والغني، فيها نوع كمال الله - سبحانه وتعالى - يتبين به نقص البشر تجاه كمال الله، ونظيره قوله الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ثم قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فإن وصف المخلوق بالنقص ثم إثبات الكمال لله هذا فيه دليل على كمال الله - عز وجل -، وأن كماله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

واضح جدًّا؛ لأنك إذا ذكرت عيب الآخر تبين لك كما ل مقابله.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن غنى الله - سبحانه وتعالى - مقرون بالحمد؛ لقوله: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، بخلاف غنى البشر فإنه قد لا يكون محمودًا، كيف لا يكون محمودًا؟ يكون محمودًا، إما بالبخل وإما بكونه يأتي بدون استحقاق، كالسراق واللصوص قد يكونون أغنياء، لكن اكتسبوه على غير وجهه المباح، أما غني الله فهو غنى كامل يحمد عليه، إذن يحمد من جهة الغنى ومن جهة الكرم بما هو غني فيه.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الغني والحميد، كذا الغني يدل على صفة الغنى.

والحميد يدل على صفة، وهي: الحمد، ومجموعهما يدل على صفة ثالثة وهو كما ل غناه.

ذكرنا في« القواعد المثلى» أنه قد ينشأ من الجمع بين الاسمين أو الوصفين صفة ثالثة تحصل باقترانهما، ومثلنا هناك بالعزيز والحكيم، أنها تقترن دائمًا في كتاب الله؛ لأنه يحصل باجتماعهما وصف أكمل قوي.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** تمام قدرة الله - - عز وجل - -، حيث بين أنه قادر على أن يذهبنا ثم يأتي بخلق جديد .

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله ﴿إِن يَشَأۡ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** التحذير من مخالفته - تعالى - يعني: المقصود بهذا التهديد وتحذيرنا من مخالفته.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الخلق حادث، ليس أزليًّا لقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾هذه فيها دلالة، ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾فيها أيضًا دلالة أما الأولى فوجه الدلالة: أن من كان قابلًا لعدم فهو قابل للحدوث، وأما الثانية: فلقوله: ﴿بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

٥ - **هل نستفيد منها:** ثبوت حدوث أفعال الله باعتبار المفعولات؟ نعم؛ لأن كل مخلوق به كائن بالخلق، فإذا كان المخلوق جديدًا لزم أن يكون الخلق أيضًا جديدًا، فمثلًا خلق الله الجنين في بطن أمه حادث أم لا؟ حادث، ضرورة أن المخلوق حادث، أما جنس فعل الله فهو أزلي، فإن الله - تعالى - لم يزل فعالًا، فهناك فرق بين وصف الله - تعالى - بالفعل على الإطلاق وبين وصف الله - تعالى - بالفعل مقرونًا بالمفعول.

فالفعل المقرون بالمفعول لا شك أنه حادث، والفعل المطلق أن الله لم يزل فعالًا لما يريد هذا أزلي.

٦ - **هل نستفيد منها:** جواز تهديد الإنسان بالأشياء المحسوسة ليستقيم على أمر الله

؟نعم، من هذا تهديد من الله - - عز وجل - - لنستقيم على أمره، إذن نقول: إن العقوبات الحسية وإن حملت على الاستقامة فإنها محمودة، العقوبة لو حسية وإن حملت على الاستقامة فإنها محمودة، لأنها من فعل الله، ولهذا أوجب الله علينا أن نحد الزاني، ونقطع السارق حتى يرتدع، لا يقول قائل: إنك إذا فعلت ذلك فإنك قد حملت الناس على أن يتركوا الأمر لا لله؛ لأن بعض الناس يقول: كيف هذا؟ كيف تقع الحدود ؟هذا معناه: أن الإنسان ما يرتكب الزنا أو السرقة إلا خوفًا من العقوبة، ومعنى ذلك أنك تحمل الناس على أن يدعوا المحارم لا خوفًا من الله ولكن خوفًا من العقوبة.

فنقول: إن هذا فيه إصلاح، ووسيلة الإصلاح ما على المؤمن من نية الذي يحاول إصلاحه.

٧ - **هل يستفاد منها:** جواز إعطاء الجائزة تشجيعًا لمن عمل صالحاأم لا؟ يعني: بمعنى القياس العكسي؟ نعم

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩] لا تداهنون، هل يؤخذ من هذه الآية جواز إعطاء المكافآت لمن يعمل صالحًا من باب قياس العكس؟ نقول: فيه تفصيل

المكافأة على العمل ثابتة في السنة وفي غير السنة أيضًا، الرسول قال: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ**»(١) في الجهاد في سبيل الله، وسلبه: ما عليه من الثياب ونحوه وهذه مكافأة، والعلماء قالوا: يجوز أن يجعل لمن دلهم على حصن أو ما أشبه ذلك من الأمور التي فيها مصلحة للمجاهدين يجوز أن يجعل له جعلًا، كل هذا من باب المكافأة على فعل الخير، وهذا ثابت.

لكن أنا قصدي هل نأخذه من الآية؟ نقول: يمكن أن نأخذه من الآية، على سبيل القياس العكسي، فإن قلت: أثبت لنا قياس العكس، لأننا في شك من إثبات القياس أولًا، نقول: عندنا إثبات قياس العكس.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ**»(٢) يعني: أن الرجل إذا أتى أهله فذلك صدقة، الصحابة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: «**أَرَأَيتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي الحَرَام أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ**، قالوا: نعم، قال: «**كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**».

٨ - **وفي الآية أيضًا:** دليل على كمال القدرة لقوله: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

٩ - **وفيها:** صحة تقسيم أهل السنة لصفات الله إلى ثبوتية، وسلبية، وقد ذكرت لكم أن بعض الناس شك في كلمة سلبية وقال: ينبغي أن نقول منفية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إلى آخره.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان لا يحمل آثام غيره، لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وينبني على هذه الفائدة ثبوت كمال عدل الله - عز وجل - ، حيث لا يحمل أحدًا وزر أحد.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلًا له؛ لقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأن غير الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلًا عن إثم غيرها، لكن الوازرة تحمل إثم نفسها لا تحمل إثم غيرها.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** منع الاتكالية على الغير؛ لأن الإنسان قد يعمل وسيهيئ الله لي أحدًا يدعو لي أو يستغفر لي أو ما أشبه ذلك، فنقول: هذا لا تعتمد عليه، فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟

لأنهم قدوة في إضلال غيرهم، فباقتداء غيرهم بهم يحملوا أثقال غيرهم.

لأن أثقال غيرهم في الحقيقة ناشئة عن أثقالهم، فصاروا كأنهم هم الذين عملوه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** (قياس العكس)، إذا كانت النفس لا تحمل إثم غيرها فهل تلزم بالواجب على غيرها، أو تقوم بأوامر غيرها؟

معناه: كما أن الإنسان لا يحمل إثم غيره بالمعصية لا يحمل إثم غيره بترك الواجب، فإذا ترك أبوك أو ابنك أو خالك أو عمك واجبًا فليس عليك إثم فالإثم على نفس هذا الرجل.

٥ — **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الغير لا يحمل وزر الغير وإن دعاه إلى ذلك؛ لقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾، بخلافه في الدنيا فإنه في الدنيا إذا دعاك أحد أن تعينه على ما حمل أو أن تحمله عنه أجبته لكن في الآخرة، لا. إن ﴿تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ' وحتى ولو كان أقرب الناس إليك ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن رسول الله ﷺ نذير؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وأنه لا ينتفع به بإنذاره إلا من يخشى الله - - عز وجل - ، لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ إلى آخره.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الخشية التي هي محل الثناء: ما كانت خشية في الغيب، لقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾؛ لأن الخشية في الظاهر قد يكون الحامل عليها مراعاة عباد الله، لكن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

إذا كانت بالغيب فإن هذا دليل واضح على أن صاحبها مخلص في خشيته لله - - عز وجل - -.

٩ - **ومن فوائدها أيضًا:** فضيلة الصلاة، وأنها - أي: الصلاة - سبب للانتفاع بإنذار النبي ﷺ كالخشية لقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الرجل، أو إن شئت فقل: أن الإنسان إذا تزكى فإن نفع تزكيه لنفسه، ولا ينال الله - سبحانه وتعالى - من ذلك شيء، لا ينال الله من ذلك شيء، لقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، ويتفرع عن هذ ه الفائدة أن أوامر الله - عز وجل - ليس من أجل مصلحة ينالها بامتثالنا، ولكن من أجل رحمتنا ومصلحتنا نحن، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٧].

١١ - **ومنها:** الحث على تزكية النفس لقوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وكل إنسان عاقل إذا علم أن مصلحة العمل تعود إليه فإنه سوف يهتم به ويقوم به، فإذا علمت أن تزكيك لنفسك حرصت عليه غاية الحرص، والتزكي كما أشرنا إليه يشمل تزكية القلب من جميع الشرك والشك والضغائن والأحقاد والبغضاء وما أشبه ذلك.

وتزكية الأقوال من كل قول منكر، يعني: كل إنسان لا يقول إلا خيرًا، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[١]، وتزكية الأفعال أيضًا من فعل الفواحش والأخلاق السيئة وما إلى ذلك مما يجب على الإنسان أن يتطهر منه.

١٢ - فمن فوائد الآية الكريمة أيضًا: كمال هذا الدين الإسلامي حيث حث على تزكية النفس ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا بالأقوال والأفعال وباطنًا (بالفروض).

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مرجع الخلائق إلى الله في أحكامهم الكونية والشرعية والجزائية، أما الأحكام الكونية فظاهر أن المرجع إلى الله؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يرد قضاء الله الكوني، وأما للشرعية فكذلك، فإن العباد مربوبون، متعبدون لله - عز وجل -، فكان مقتضى ذلك أن يتمشَّوا على أحكامه الشرعية، وأما الجزائية فالأمر ظاهر، فإنه لا يجازي العاملين على عملهم إلى الله - سبحانه وتعالى -.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** منع الرجوع إلى غير الله فيما هو مختص بالله، لقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فلا يجوز أن نرجع إلى النظم الوضعية التي من وضع البشر وعندنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:١٩-٢٤]

❁ التفسير ❁

يعني: لا يستويان في إدراك المبصرات، ليس المعنى نفي التساوي مطلقًا؛ لأن الأعمى قد يفضل البصير في أمور أخر، لكن لا يستويان في إدراك المرئيات أو المبصرات وهذا ظاهر، الأعمى إذا قام يمشي وأمامه حفرة أو حجر؛ وقع في الحفرة وعثر في الحجر، البصير بالعكس، فلا يستوي هذا وهذا، فأيهما أكمل؟ البصير، وهذا مثل حسي يجب أن ننتقل منه إلى المثل المعنوي، وأما قول المؤلف: [المؤمن والكافر] ففيه نظر، يعني: كأنه يريد أن يقول: إن الأعمى هو: الكافر، والبصير هو: المؤمن ولكننا نقول: لا، الآية يراد بها: نفي المساواة في الأمور الحسية الظاهرة، التي لا ينكرها أحد، إذ إن الكافر والزنديق والمعاند والمستكبر لا يمكن أن يدعيا تساوي الأعمى والبصير، لكن قد يدعي تساوي المؤمن والكافر.

قال: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، قال المؤلف: [﴿الظُّلُمَاتُ﴾: الكفر و﴿النُّورُ﴾: الإيمان]، وهذا أيضًا فيه نظر. والظاهر إن الله - سبحانه وتعالى - أراد الظلمات الحسية والنور الحسي، لأن نفي الاستواء بين هذين أمر لا يمكن إنكاره، لأنه يدرك بالحس، فالظلمات لا تستوي والنور، ولكن لا شك أن المراد بذلك: ظلمات الكفر ونور الإيمان، يعني: أنها إشارة إلى هذا، ولذلك جمع الظلمات وأفرد للنور، لأن سبل الكفر كثيرة، وأما سبل الإيمان فسبيلهم واحد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وإنما كان الكفر ظلمات لأن فيه الجهل، الجهل بالله - عز وجل -، وبما يجب له، وفيه أيضًا أن الإنسان يسير على غير هدى، ويسير باتجاهات متعددة منحرفة، قلبه متشعب في كل واد، ولهذا تجد الكافرين أشد الناس قلقًا، وأبعدهم عن الثبات على خط مستقيم، بخلاف المؤمن، المؤمن مؤمن، خطه مستقيم وعارف، وعارف أنه يريد الوصول إلى مَن؟ إلى الله، فتجده يحول جميع الأفعال إلى طريق واحد، وهو الوصول إلى الله، حتى أنه إذا لبس ثوبه يشعر بأنه ينال بذلك مرضاة الله، إذا أكل أو شرب أو نام أو سافر أو تكلم كل ذلك يرى أنه في سبيل الله، لكن الكافر

متشعب ولهذا كان منهجه ظلمات، لأنه متشعب، ما هناك هدف واحد يسعى إليه أهدافه كثيرة، مغرور في الدنيا، مغرور في رؤسائه، مغرور بالناس، لا يهتم إلا برضاهم، نسأل الله السلامة والعافية، ولا يهمه أن يرضى الله - عز وجل -، فلهذا كان مستحقًا أن تجعل طريق الكافر على سبيل الجمع، لتشتتها وتفرقها.

قال: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ قال المؤلف: [الجنة والنار]، يعني المراد بالظل عند المؤلف: الجنة والمراد بالحرور: النار، ولكن كما قلت: الظاهر أن هذا مثل بأمر حسي لا يمكن إنكاره، لكن ينتقل منه إلى أمر معنوي، الظل والحرور لا يستويان، أيهما أحسن؟ ما في شك الظل، فالظل معروف، والفيء الذي تقلصت عنه الشمس، هذا ظل، وإن شئت فقل: الظل هو: المكان الذي ليس فيه أشعة للشمس، وإنما نقول ذلك؛ لأن الجنة ما فيها شمس وقد قال الله تعالى فيها: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠] مع أنه ليس فيها شمس، وأما الحرور، فالحرور على وزن فعول وهو: الهواء الحار.

وبعضهم يقول: إنه الهوا ء الحار في النهار، والسموم الهواء الحار في الليل، وبعضهم يقول: كلاهما بمعنى واحد، فالحرور والسموم هما الهواء الحار، وهذا معروف يكون في أيام الصيف، وإذا كان معه شمس ازداد شدة في الحرارة.

الآن عندنا الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، على كلام المؤلف، نقول: هذه المنفيات الثلاثة، أو هذا النفي في المواضع الثلاثة، الأول: يعود إلى ذات المؤمن والكافر، والثاني: يعود إلى عمل المؤمن والكافر، والثالث: يعود إلى مستقر المؤمن والكافر.

فالأول: نفي في الذوات، والثاني: نفي في الأفعال والمنهج، والثالث: في المستقر والمأوى.

الرابع: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [المؤمنون والكافرون]، فعلى كلام المؤلف يكون في الآية تكرار؛ لأنه فسر ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾: بالمؤمن والكافر وهنا قال: الأحياء والأموات: المؤمنون والكافرون، ولو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: الأحياء ذوي العلم، والأموات: ذوي الجهل، لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولأن الله - تعالى - جعل الوحي روحًا، أحيا به القلوب والنفوس، ولكني لا أسلك مسلكه، إنما لو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: العلماء والجهال؛ لأني إذا سلكت هذا المسلك فعندي على ذلك برهان، وهو قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ إلى آخره، إذا سلكت هذا المسلك سلمت الآية من التكرار.

ونحن نعلم جميعًا أن من القواعد المعروفة في الكلام، أنه إذا دار الأمر بين حمل الكلام على التأسيس أو على التوكيد؛ وجب حمله على التأسيس؛ لأنه هو الأصل، الأصل في الكلام أن يكون مستقلًا مؤسسًا لا مؤكدًا، التأسيس يعني: الأصل، والأساس، يعني: هذا معنى جديد

غير المعنى الأول.

فإذا قال قائل مثلًا: هذه جملة مؤكدة للأولى، وقال الثاني: هذه جملة مستقلة بنفسها فيحمل على أنها مستقلة بنفسها .

أنا أقول: إن الأحياء والأموات يراد به: الحياة الحسية، والموت الحسي، كل يعرف الفرق بين الحي والميت حتى الكفار يعرفون الفرق بين الحي والميت، ما يشابه هذه المعاني المحسوسة الأربعة من المعاني المعقولة فهو مثلها فالذي يماثل هذه الأشياء المحسوسة من الأمور المعقولة هو مثلها .

يقول: [وزيادة لا في الثلاثة التأكيد] هذه الجملة أفادت أن لدينا زيادة، وأن الفائدة من الزيادة التوكيد وأين الزيادة؟ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ما فيها شيء ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الاثنين ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: كم؟

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾

خمسة لكن جعلها المؤلف ثلاثة؛ لأن المتقابل فيها ثلاثة (الظلمات والنور) هذه يريد أن تكون واحدة،(والظل والحرور) واحدة، والأحياء والأموات واحدة.

المهم أن زيادة (لا)في المواضع كلها سواء قلنا: ثلاثة أو خمسة هي للتوكيد، إذ لو قيل: وما يستوي الأعمى والبصير والظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات لاستقام الكلام، لكن يؤتى بلا الزائدة للتوكيد، وفيها أيضًا فائدة ثانية وهي: عدم السآمة والملل؛ لأنها لو حذفت لطالت المعطوفات بعضها مع بعض، فكرر فيها عامل النفي ليكون أبعد عن السآمة.

فإن قلت: هل لذلك نظير في زيادة (لا)، قلنا: نعم لهذا نظير في مواضع كثيرة منها ما نقرؤه في كل صلاة وهي: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧] إذ لو قال: غير المغضوب عليهم والضالين لاستقام، لكن زيدت (لا) للتوكيد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ قال المؤلف: [هدايته فيجيبه] - أي: المسمع - [بالإيمان].

يعني: إن الله - تعالى - يدعو إلى دار السلام، كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، دعاء الله - تعالى - إلى دار السلام هل يسمعه كل أحد؟ أما من حيث الإدراك الحسي فإن كل أحد يسمعه، أما من حيث الإجابة فلا، من الناس من يجيب، ومنهم من لا يجيب، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] فالله - تعالى - يسمع من يشاء يعني: (لاتباع) هؤلاء الرسل، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (ما) هذه إعرابها نقول إنها: حجازية، واسمها: الضمير (أنت) والباء في﴿بِمُسْمِعٍ﴾ زائدة للتوكيد، و(مسمع) خبرها منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، ﴿مَن﴾ مفعول لمسمع؛ لأن مسمع اسم فاعل﴿بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ قال المؤلف: أي: [الكفار] شبههم بالموتى فيجيبون، يعني: ما أنت بمسمعهم[فلا يجيبون]؛ لأنها إذا كانت [(فيجيبون)] فيجب أن تحذف النون؛ لأنه جواب النفي في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾لأنها منفصلة عما قبلها أي: فهم في عدم إسماعهم[لا يجيبون].

على كل حال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ قال: [أي: الكفار]، والذي يظهر لي أن المراد بهم: الموتى حقيقة، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يسمع الموتى حقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠] .

فلو أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذهب إلى المقبرة - مقبرة الكفار - وقال: يا أيها الناس اتقوا الله واعبدوه وما أشبه ذلك، هل يسمعون هذه الموعظة فينتفعون بها؟ لا ما يسمعوها فينتفعوا بها.

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يسمع الكفار لموت قلوبهم ؛ لأن قلوبهم ميتة ومن قلبه ميت - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بما يسمع من المواعظ فكأنه لا يسمع.

ثم قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فسر المؤلف﴿إِنْ﴾ [بما]، وهذا يدل على أن ﴿إِنْ﴾نافية، وقد ذكرنا فيما مضى أن من علامات إن النافية الاستثناء بعده نعم أن تتبع بإلا، يعني: ما أنت إلا نذير قال: [منذر لهم].

والنذير كما سبق هو: المعلم إعلامًا يتضمن التخويف، فالإعلام المتضمن للتخويف يسمى إنذارًا، وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هل هذا الحصر حقيقي أو إضافي؟ إضافي؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نذير وبشير، لكن المقام هنا يقتضي أن يذكر الإنذار فقط؛ لأنه في مقارعة الكفار، ومقارعة الكفار تحتاج إلى الإنذار أكثر مما تحتاج إلى التبشير، وقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ كيف يكون مقابلة بينها وبين الجملة التي قبلها؟ كأنه يقول: أنت لا تستطيع أن توصل الهداية إلى قلوب الكافرين، ولكن تستطيع أن تنذرهم؛ لأن هذا المقام مقامك مقام إنذار، أما أن توصل الهداية إلى قلوب هؤلاء الكفار الذين يشبهون الموتى فهذا ليس إليك، وصدق الله - عز وجل -، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - ما استطاع أن يهدي أقرب الناس إليه، وأشفق الناس إليه، وهو عمه أبو طالب وشاء الله - عز وجل - أن يهدي أقوامًا من فارس والروم، من أبعد الناس عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نسبًا ومكانًا؛ لأن الأمر بيد الله - عز وجل - ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] .

قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإرسال بمعنى: الأمر بالتبليغ، أو بقضاء الحاجة، فمثلًا تقول: أرسلت غلامي يخبر فلانًا بكذا وكذا، يعني: أمرته بالتبليغ،أما: أرسلت غلامي يشتري كذا وكذا أي: أمرته أن يشتري لي حاجة، لكن معناه: بعث .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ هذه يحتمل أن تكون الباء للتعدية، أي: أننا أعطيناك حقًّا وأرسلناك به، ويحتمل أن تكون وصفًا للرسالة، يعني: أرسلناك رسالة حق، والمعنى يختلف.

فعلى المعنى الثاني يكون معنى الآية: أن رسالة النبي ﷺ حق، وعلى المعنى الأول: يكون معناها أن الرسول ﷺ جاء بالحق، وإن كان المعنيان متلازمين؛ لكنهما مختلفان من حيث المورد فعلى الأول: يكون مورده: الوصف نفس الرسالة، وعلى الثاني: يكون مورد ذلك مورد الوصف المرسل به .

﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: أعطيناك حقًّا تبلغه للناس، ﴿أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني: أن رسالتنا إليك حق، فيكون الوصف للرسالة نفسها، يعني: لست بكاذب بل أنت صادق، هذا على جعلنا الوصف عائدًا إلى الرسالة، أما إذا جعلناه عائدًا إلى المرسل به فالمعنى: أن ما جئت به ليس بباطل، بل هو صدق في الأخبار وعدل في الأحكام.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ قال المؤلف: [في الهدى، ﴿بَشِيرًا﴾ من أجاب إليه ﴿وَنَذِيرًا ﴾ من لم يجب إليه] ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ يعني: أنك تبشر وتنذر، لكن تبشر بالخير من أجاب، وتنذر العقوبة من لم يجب وعصى، وذلك؛ لأن الشرع يتضمن أوامر ونواهي فمن ارتكب النواهي أو ترك الأوامر واجهناه بالإنذار، ومن فعل الأوامر واجتنب النواهي قابلناه بالبشارة.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [﴿وَإِن﴾: ما] يعني: نافية، ﴿مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ من حرف جر زائد زائد: زائد لفظًا زائد معنى، و﴿أُمَّةٍ ﴾ مبتدأ، وجملة﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ خبره ما من أمة، ما هي الأمة؟ هي: الطائفة؛ الطائفة من الناس التي على منهج واحد كدين واحد، أو قومية واحدة كما أشبه ذلك هذه الأمة، ليست كل طائفة نسميها أمة، فمثلًا أنتم الآن ما نسميكم أمة إلا لأنكم على طريق واحد، لكن لو اجتمعت جماعة في المكان متشتتين كل واحد له منهج لا نقول: هؤلاء أمة، إلا إذا كانوا من قبيلة واحدة أو ما أشبه ذلك.

[﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا ﴾سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ينذرها]؛ لأن كل الأمم أرسل إليهم نذيرًا، لتقوم عليهم الحجة؛ لأنه إذا لم يكن للناس نذير فإن لهم حجةً على ربهم، يقولون: يا ربنا ما أرسلت إلينا رسولًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[طه: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥] .

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ في هذه الآية فوائد:

١ - منها: بلاغة القرآن حيث ينتقل بسامعه وقارئه من الأمثال الحسية إلى الأمثال المعنوية، ذلك لأن الأمثال الحسية لا يمتري بها أحد، فينتقل من المحسوس إلى المعقول المعنى.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة البصر؛ فضيلة البصر، لأن نفي الاستواء بين الأعمى والبصير معناه: تفضيل من؟ تفضيل البصير، ولهذا أكثر من دعاء الله - عز وجل -: اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أبقيتنا، وكذلك أيضًا نقول في ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ فإن فيها من بلاغة القرآن الكريم ما في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وفيها الانتقال من المثل الحسي إلى المثل المعنوي.

٣ - **فيها أيضًا:** تفضيل النور على الظلمة؛ لأن نفي الاستواء فيهما معناه: تفضيل النور على الظلمة.

٤ - **ومنها أيضًا:** إذا انتقلنا من المثل الحسي إلى المعنوي أن طريق الهدى واحد، وطرق الضلال متفرقة، لقوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر: ٢٠].

وذكرنا شاهدًا من القرآن على هذا، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] في طاغوت يجرهم إلى نوع من الكفر والفسق - نسأل الله العافية -.

٥ - **ومنها أيضا:** أنه لا يستوي الظل والحرور، وهذا مثل حسي انتقل منه إلى المثل المعنوي، وهو ظل الجنة وحر النار، لا يستويان، أيهما أفضل؟ معلوم ظل الجنة - اللهم اجعلنا منها -.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** التحذير من عمل أهل النار؛ لأن نفي الاستواء بين الظل والحرور أمر معلوم، وتأذي الإنسان بالحرور أيضًا أمر معلوم، ففيه التحذير من عمل أهل النار.

٧ - **هل يؤخذ من الآية الكريمة:** أنه لا حرج على الإنسان أن يطلب الظل؟ نعم، وأن يطلب النوركذلك؛ لأنه مادمنا ذكرنا أن هذا النفي معناه: تفضيل النور على الظلمات وتفضيل الظل على الحرور؛ فلا حرج على الإنسان أن يطلب الأفضل، بل قد يجب أحيانًا، ولهذا لما رأى النبي - عليه الصلاة والسلام - زحامًا ورجلًا قد ظلل عليه في صيام رمضان في السفر، ما قال: لا تظللوا عليه، ولكن قال: «لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فيها أيضًا ما سبق في نظائرها.

٨ - **وفيها:** فضيلة العلم، وهو كذلك وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] والعلم جهاد في سبيل الله، وإن شئت فقل على الأصح: العلم سلاح للجهاد في سبيل الله؛ لأنه قد يحمل العلم من لا ينتفع به ولا ينفع غيره، فهو سلاح لكن إذا نفعت نفسك وغيرك صرت مجاهدًا به، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

﴿٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢] فالعلم سلاح، سلاح يتوصل به الإنسان إلى الجهاد في سبيل الله.

٩ - **ومن فوائد قولنا:** الأحياء والأموات أن فيه الحث على طلب العلم، وأنه حياة الأمة، كما أنه حياة الفرد فلا يمكن أن تحيا الأمة حياة لا أقول حياة دنيا يمكن أن تحيا حياة دنيوية بدون علم، لكن لا يمكن أن تحيا حياة طيبة إلا بالعلم وكل الناس ينشدون الحياة الطيبة، لكن ما طريقها العلم إذا أثمر ثمرته، وهو الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾

١ - **من فوائدها:** أن الله - عز وجل - هو الذي بيده مقاليد الأمور، حتى أنت يا محمد لا تستطيع أن تسمع أحدًا، بل المسمع هو الله.

٢ - وفيه إثبات المشيئة لله، لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وفيه رد على القدرية الذين ينكرون أن يكون لأفعال العباد مشيئة لله - عز وجل - لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، ولكن هذه المشيئة المطلقة قلنا: إنها في كل موضع جاءت مطلقة مقيدة بالحكمة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان بل يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله - عز وجل - وحده في جلب المنافع ودرء المفاسد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ فإذا كان يسمعهم الله فلا تسأله إلا من الله، ولهذا ينبغي لنا دائما أن نكون داعين لله - عز وجل -، ونحن نشعر بأننا مفتقرون إلى الله، وأن الله - سبحانه وتعالى - قادرعلى أن يحقق لنا ما نرجوه وما ندعوه به، لا تعتمد على نفسك وتنسى الله، افزع إلى الله دائمًا في الدعاء، في السجود، وبين الأذان والإقامة، وفي كل مواطن الإجابة الزمنية والمكانية والحالية؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثم اعلم أيضًا أن الدعاء مع كونك تطلب حاجتك من الله هو نفسه أيضًا عبادة، عبادة تتقرب به إلى الله فهذا الدعاء فيه ثمرتان، الثمرة الأولى: الثواب على هذه العبادة والثمرة الثانية: حصول المطلوب أو دفع المكروه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول الله ﷺ لا يستطيع أن يسمع من في القبور، لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فلو أن الرسول ﷺ ذهب إلى أهل مقبرة ودعاهم وقال: يا أهل القبور آمنوا بالله ورسوله، يا أهل القبور اعملوا صالحًا، يسمعون؟ لا يسمعون، فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الصحيح من أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقف على قتلى المشركين في قليب بدر وجعل يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: « **يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ هَل وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِّي حَقًّا، فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أناس جيفوا** » أو كلام هذا معناه،

فقال: «مَا أَنْتُم بِأَسْمَعَ لما أَقُولُ مِنْهُم»[(١)] يعني أنهم يسمعون، فما هو الجواب؟

الجواب قول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الله أحياهم فأسمعهم كلام النبي ﷺ تنكيلًا لهم لما أماتهم، وتقول عائشة: إن أهل القليب لا يسمعون الرسول ﷺ ولكن يخاطبهم الرسول ﷺ لما يجدون من العذاب في القبر.

فإن قلت: ما الجواب عما ثبت في الحديث الصحيح أيضًا من أن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم وهم منصرفون عنه[(٢)]؟

الجواب: هذا عند الدفن وأيضًا لا يلزم من سماع قرع النعال أن يسمع الكلام والدعوة، فإن قلت: ما الجواب عما رواه أبو داود وغيره وصححه ابن عبد البر ووافقه أو لم يخالفه ابن القيم، من أنه ما من مسلم يسلم على قبر كان يعرفه في الدنيا إلا رد الله عليه روحه فرد عليه السلام؟

فالجواب: أن يقال هذا في حال مخصوصة دل عليها الحديث، ولا يلزم من هذا إذا رد السلا م عليك وهو دعاء له أن يرد السلام على من سلم أن يسمع كل ما تكلم عنده.

فإن قلت: ما الجواب على قول الفقهاء من أن الميت يتأذى بقول المنكر عند قبره أو فعل المنكر عند قبره؟ **فالجواب**: أن قول الواحد من الناس غير الرسول - عليه الصلاة والسلام - فليس بحجة، وإنما يحتج له لا به، ثم على رأيهم - رحمهم الله - يحملون معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: مسمع من تدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح، فإنك لا تسمعهم سماعًا يستجيبون له، وهذا هو الجواب الأخير عن قول من يقول: إن الموتى لا يسمعون ما يقال عندهم وما يخاطبون به لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: سماعًا ينتفعون به ويستجيبون له والله أعلم والواجب على المؤمن نحو هذه الأمور الغيبية أن يؤمن بما جاء به النص فقط، يجب عليه أن يقول: العلم عند الله، فلا يجزم بالنفي ولا يجزم بالإثبات، نعم له أن يجزم بالنفي ويجعل ما ثبت به الحديث من السماع مخصصًا؛ لأنه قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

٥ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن محمدًا رسول الله ﷺ ليس إلا مبلغًا ومنذرًا، وليس في يده جلب الهداية لأحد، ولا دفع الضرر عنه؛ لأنه قال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: ما أنت هادٍ للناس، أي: هداية توفيق ورشاد، ولكنك منذر فأنت هاد هداية دلالة فقط، يقول: ﴿إِنَّ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٣)، ومسلم (٢٨٧٠).

أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن فيها دليلًا على أن رسالة النبي ﷺ حق وأنه ليس بكاذب؛ لأنه قال: ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الرسول ﷺ أهل للرسالة إذا جعلنا بالحق حال من الفاعل فيكون فيه دلالة على أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أهل للرسالة، وهذا معلوم من أدلة أخرى كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤] لكن نريد أن نأخذها من هذه الآية.

٣ - **ومنها أيضًا:** أن ما جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - فهو حق ليس بباطل، فإذا نظرت إلى أخباره وجدتها صدقًا، وإذا نظرت إلى أحكامه وجدتها عدلًا، وهذا هو الحق؛ لأن الحق بالنسبة للخبر هو الصدق والحق بالنسبة للحكم هو العدل.

٤ - **ومن فوائدها:** أن رسالة النبي - عليه الصلاة والسلام - جمعت بين البشارة والإنذار، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإنسان يجتمع فيه الخصلتان، متضادتان في المعنى، وإن كانتا متفقتين في المراد، بشير ونذير؛ لأن المبشر هو الذي يعد الناس بالخير، ويفتح لهم والمنذر هو الذي يخوفهم الضرر فبينهما من حيث المعنى تقابل وهنا يجتمعان من عين واحدة.

٦ - هل ننتقل من هذه الفائدة إلى أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال كفر؟ نعم.

والمعروف من مذهب أهل السنة والجماعة وهو الحق أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال كفر، فيكون مؤمنًا بوجه وكافرًا من وجه، فقوله - عليه الصلاة والسلام -: «**خِصْلَتَانِ مِنَ الْكُفْرِ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**» وقال النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» مع أن قتاله لا يخرجه من الإيمان لقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[الحُجُرات: ٩] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

٧ - **فيها أيضًا من الفوائد:** أن الأمر كله لله، ليس لأحد مشاركة فيه، حتى أعظم الناس منزلة لا يشارك الله - تعالى - فيما يختص به، لقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ ومعلوم أن مقام المرسِل أعلى من مقام المرسَل، والله أعلم.

٨ - **ومنها:** بيان ما يشتمل عليه دين الرسول - عليه الصلاة والسلام - من الحق الذي ضده الباطل، والباطل إن كان في الأخبار فهو الكذب، وإن كان في الأحكام فهو الجور والظلم، وعليه فرسالة النبي ﷺ متضمنة للحق في الأخبار وبالأحكام، ففيه بيان أيضًا فضيلة هذه الشريعة الإسلامية التي جاء به النبي ﷺ.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل ما كان حقًّا فإن الشريعة جاءت به سواء نصت

عليه بمعناه الخاص أو بالمعنى العام، ومن ثم أثبت بعض الفقهاء أو بعض الأصوليين ما يسمى بالمصالح المرسلة، وجعلوها دليلًا مستقلًا والصواب أنها ليست دليلًا مستقلًا؛ لأن هذه المصالح إن شهد الشرع لها فهي من الشرع، ولا حاجة إلى أن نجعلها دليلًا مستقلًا، وإن لم يشهد لها فليست بمصلحة، وصاحبها الذي زعمها مصلحة يعتبر واهمًا، فكوننا نثبت دليلًا خامسًا نسميه المصالح المرسلة هذا خطأ؛ لأن هذه المصلحة إن شهد لها الشرع فهي من الشرع، دل عليها الكتاب والسنة، وإن لم يشهد لها فليست بمصلحة فلا تعتبر، ومن ذلك أيضًا زعم بعضهم إحداث دليل سادس وهو: استصحاب الحال، بمعنى: أن الأمر يبقى على ما كان عليه حتى يتبين ارتفاعه وانتفاؤه، هذا أيضًا ليست بصواب، يعني: لا يصلح أن نجعله دليلًا مستقلًا؛ لأنه قد دلت عليه السنة، فقد شُكِيَ إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - الرجل يخيل له أنه يجد الشيء في الصلاة فقال: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوتًا أَوْ يَجِدُ رِيحًا»[1] إذن: مبنى على بقاء الأصل، واستصحاب الحال، وحينئذ لا يحتاج أن يجعل هذا دليلًا مستقلًا.

و إنما جعل العلماء هذين دليلين مستقلين؛ لأن الإنسان ينقطع في ذهنه أن هذا شيء منفصل عن دلالة الكتاب والسنة، فيذهب ويجعله دليلًا مستقلًا، وإلا فلو تأمل لوجد أن ذلك موجود في الكتاب والسنة، وأنه لا حاجة إلى أن نثبته دليلًا مستقلًا.

ولقد تجرأ بعض المتأخرين على الدليل الأول وهو المصالح المرسلة، حتى أدخل فيه ما شهد الشرع ببطلانه، ومن ذلك قولهم: بإجازة الربا البنكي، وأنه يجوز بناء على ما يتوهمونه من المصالح المرسلة، وقالوا: إن اقتصاديات العالم في العصر الحاضر لا تتم إلا باستعمال هذه الطريقة، فالألفاظ والأساليب إذا جاءت على غير ما جاء في الكتاب والسنة يحصل بها مفسدة، فهنا أدخلوا شيئًا شهد الشرع ببطلانه، وإذا شهد الشرع ببطلانه فإننا نشهد أنه ليس فيه مصلحة، وأن المصلحة الموهومة منه يخلفها مفاسد كثيرة، فلهذا نحن نرى ألا يجعل دليلًا مستقلًا، وإلا ليس من الشرع وليس فيه مصلحة، والمصالح الموهومة فيه إذا كانت مخالفة للشرع لا بد أن يخلفها مفاسد كثيرة.

١٠ - **من فوائد الآية الكريمة:** إن رسالة النبي - عليه الصلاة والسلام - تتضمن من حيث الجزاء أمرين، هما البشارة والإنذار، البشارة لمن أطاع والإنذار لمن خالف، سواء كانت تلك الطاعة عامة أو في بعض الأشياء، وكذلك نقول في المخالفة.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مآل الناس إما إلى جنة وأما إلى نار، وليس ثمت دار ثالثة؛ لأن البشارة بالجنة والإنذار بالنار، وليس هناك دار ثالثة يصل الناس إليها.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الترغيب في طاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، والتخويف من مخالفته لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧)، ومسلم (٣٦١).

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** لطف الله تعالى بعباده بإرسال الرسل إلى جميع الخلق، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يعني: إلا لنرحم بك العالمين، وليس الرسول نفسه هو الرحمة، ولكنه أرسل لرحمة الخلق، ليرحم الله الخلق برسالته.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** بطلان الاحتجاج بالقدر على معصية الله لقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي والمخالفات، لو كان ثابتًا لم يرتفع بإرسال الرسل؛ لأن القدر لا يرتفع بإرسال الرسل، فالرسل أرسلهم الله تعالى إقامة للحجة على الخلق، ورحمة بهم أيضًا، لهذا ولهذا.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن النبي ﷺ ليس بدع من الرسل حتى تنكر رسالته، ويقال كيف جاء هذا الرجل برسالة من عند الله؟ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** قصور العقول عن معرفة ما يجب لله تعالى، لأنها لو استقلت بذلك ما احتاجت إلى إرسال الرسل .

١٧ - **ومنها أيضًا:** بطلان ما ذهب إليه المتكلمون من أهل البدع الذين بنوا عقيدتهم على ما يقتضيه العقل، وقالوا: ما اقتضى العقل إثباته لله أثبتناه، سواء كان مذكورًا في الكتاب والسنة، أم لم يذكر، وما نفاه العقل وجب علينا نفيه وإن ذكر في الكتاب والسنة، وما لم يدل العقل على نفيه وإثباته فإننا نتوقف فيه وأكثرهم قال: ننفيه؛ لأنه لابد من دلالة العقل على إثباته، فإذا لم يدل على إثباته وجب نفيه لعدم وجود الدليل. تؤخذ من قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ووجه ذلك أنه لو كانت العقول هي المرجع ما احتيج إلى إرسال الرسل.



❁ ثم قال الله تعالى:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].

❁ التَفْسِيرُ ❁

ثم قال الله تعالى: [﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: أهل مكة]، هذا تفسير للواو في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: فليس ببدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من

قبلهم كذبوا الرسل كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤] يعني: ليس الأمر مقتصرًا على التكذيب فقط؛ بل تكذيب وأذية بالقول وأذية بالفعل، بل أعظم من ذلك: القتل، فإن كثيرًا ممن أرسل الله إليهم الرسل قتلوهم.

يقول: [﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي: أهل مكة]، لماذا نخصه بأهل مكة؟ الصحيح أنه ليس خاصًا بأهل مكة؛ بل أهل مكة وغيرهم، فالرسول كذبه أهل مكة وكذبه أهل الطائف، وغيرهم من المشركين، فالصواب العموم.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ﴿الَّذِينَ ﴾: فاعل

فاعل، وأين المفعول؟ محذوف، أي: فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم .

قال: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ ومع ذلك كفروا، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ البا ء هذه للمصاحبة، ويحتمل أنها للتعدية، يعني: أتوا بالبينة التي تبين صدقهم، وقول المؤلف: [المعجزات] هذا هو تعبير كثير من المتأخرين، ولكن الصواب أن يقال: بالآيات وأن البينات هذه هي صفة لموصوف محذوف، تقديره: بالآيات البينات، أي: الظاهرة.

و الآيات التي جاءت بها الرسل حسية ومعنوية، فمن الآيات الحسية ما جاء به موسى - عليه الصلاة والسلام - من العصا واليد وغير ذلك، ومن الآيات المعنوية ما جاء به من التوراة، وكذلك عيسى وغيرهما من الرسل كل رسول لم يأت إلا ببينة، وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه ما من رسول أرسله الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وإنما كان كذلك؛ لأنه ليس من الحكمة ولا من الحجة ولا من الرحمة أن يرسل رسول إلى الخلق يستبيح دماء المخالفين له وأموالهم ونساءهم بدون، بينة، حتى لو فرض أن أحدًا كذبه وهو لم يأت ببينة لكان المكذب معذورًا؛ لأن البينة على المدعي، فكان من حكمة الله ورحمته وإقامة حجته أن يجعل مع الرسل آياتٍ تشهد بصدق ما جاءوا به.

وقد ذكر أهل العلم - رحمهم الله - أن الآيات التي جاءت بها الرسل ولا سيما الآيات الحسية تكون مناسبة لمكان في عصرهم، أو لأبرز الأمور في عصرهم، وضربوا لذلك مثلًا بأن موسى - عليه الصلاة والسلام -، جاء بالعصا واليد لأنه اشتهر في عصره، وبرز في عصره صناعة السحر، فجاء بأمر فوق ما تجيء به السحرة، السحرة إنما يموهون ويخيلون، وهو جاء بالحقيقة، وألقوا حبالهم وعصيهم فإذا هو يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، يخيل إليه ولكنه ليس بحقيقة، هو ألقى عصاه فصارت حقيقة فعلية تلقف ما يأفكون، قالوا: وعيسى - عليه الصلاة والسلام - أتى في وقت ترقت فيه صناعة الطب، فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء ولا يستطيعونه، جاء بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وخلق صورة من الطين ينفخ فيها فتطير، تكون طيرًا حقيقيًا، وهذا يعجز عنه الطب، لا يمكن لأي طبيب يكون أمامه رجل ميت فيقول قم فيقوم، أبدًا، لا يمكن

لأي طبيب يأتي إلى المقابر ويقف على القبر ويقول اخرج فيخرج، وعيسى يفعل ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[المائدة: ١١٠]، تخرجهم من مدافنهم، ولا يمكن لأي إنسان من الأطباء أو غيرهم أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، أبدًا، الأكمه والأبرص لا يمكن لأحد أن يبرئه من المرض الذي أصابه بمثل ما يبرئه عيسى - عليه الصلاة والسلام -، يؤتى إليه بذوي العاهات ويمسح بيده عليه فيبرأ يزول عنه ما به يعني هذا البرص الذي قد ملأ الجلد أو أكثره يمر يده عليه فلا تتعدى يده مكانًا إلا عاد إلى طبيعته، هذا لا يستطيع أحد من الأطباء مهما بلغ في الطب أن يصل إلى هذا الحال.

قالوا: ومحمد ﷺ أتى إلى قوم قد بلغوا في الغاية ذروتها، قد بلغوا في البلاغة ذروتها، فجاء بكلام لا يستطيعون مباراته أبدًا، وهو كلام الله، وتحداهم الله تعالى في عدة آيات أن يأتوا بسورة مثلها أو بعشر سور مثلها أو بحديث مثله، فلم يستطيعوا المهم أن جميع ما جاءت به الرسل آيات بينات.

يقول: ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ قال: [كصحف إبراهيم]، الزبر جمع زبور وهو ما يزبر ويؤثر، يعني: الكتاب، ولو أن المؤلف قال: كزبور داود لكان أنسب للآية؛ لأن صحف إبراهيم ما ذكر الله أنها زبرٌ ولكن ذكر ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ﴾ [هو التوراة والإنجيل]، الكتاب المنير الصواب: أنه ليس التوراة والإنجيل، بل كل كتاب بعث الله به الرسول ينير الطريق لأمته، فيشمل التوراة والإنجيل والزبور.

ما من رسول أرسله الله إلا معه كتاب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٢١٣] فلا يمكن أن نقول: إن نوحًا - عليه الصلاة والسلام - أرسل بدون كتاب، أبدًا، لا بد أنه أرسل بكتاب لكن لا يلزم من كونه أرسل به أن يذكر لنا هذا الكتاب، يقول المؤلف: [فاصبر كما صبروا] وهل صبر الرسول؟ نعم صبر صبرًا لا يصبره إلا أولوا العزم، قال الله تعالى: [﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبهم] في كلام المؤلف ﴿أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بماذا أخذهم؟ بالعقاب، فقوم نوح أغرقهم، وقوم هود أتلفهم بالريح وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط جعل عالي قراهم سافلها، كل المكذبين أخذهم الله - عز وجل -، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾،[أي: إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك]، أي: هو واقع موقعه، يعني: أن الاستفهام هنا للتقرير، يعني: فكان نكيري أي إنكاري عليهم بالعقوبة كان واقعًا موقعه.

و لهذا لو سألت كيف كان إنكار الله لهم؟ الجواب أن نقول: كان شديدًا، وكان واقعًا موقعه،

فهو مطابق للحكمة تمامًا وهو عقاب شديد لم يبق منهم أحدًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن تكذيب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس ببدع من البشر، فقد كَذبت الأمم قبله ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢ - **ومنها:** عناية الله تعالى بالرسول ﷺ بذكر ما يسليه ويهون عليه الأمر وذكر المصيبة المماثلة تقتضي تسلية الإنسان وتهوين الأمر عليه، ولهذا لو جئت إلى مريض، وقلت: والله أنت اليوم طيب، ومرضك أهون من مرض فلان، فلان أصيب بمرض فيه كذا وكذا، يتسلى يتسلى بلا شك، وكذلك لو أصيب بحادث، وقلت: إن فلا ن أصيب بحادث أعظم؛ يتسلى، إذن ففيه عناية الله تعالى برسوله ﷺ حيث يذكر له ما يهون عليه المصائب ويسليه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** إنذار المكذبين لرسول الله ﷺ؛ لأن الله ذكر كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكان عاقبتهم الدمار والهلاك، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠] يعني: لا تظنوا أن الدمار الذي لحق المكذبين السابقين لا تظنوا أنه خاص بهم، بل إذا كذبتم أصابكم ما أصابهم.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - لم يترك الرسل هملًا، بل آتاهم من البينات ما يؤمن على مثله البشر لقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٥ - **ومنها أيضًا:** تمام حكمة الله - عز وجل - ورحمته وإقامة حجته تؤخذ من قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنه إنما أعطى هؤلاء الرسل البينات لتمام إقامة الحجة والرحمة والحكمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من أعظم البينات ما جاءت به الرسل من الشرائع التي تضمنتها الكتب، وجه ذلك التنصيص عليها مع أنها من البينات أيضًا هو تنصيص أعيد معه العامل، بالبينات وبالزبر فكأنها مستقلة.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكتب السماوية متضمنة للنور، وأن كل من أخذ بها فقد أخذ بنور يمشي به في الظلمات؛ لقوله: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٨ - **ومنها:** أن المفرد إذا أريد به الجنس صار عامًّا؛ لأن قوله: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا مفرد ولكن هل الكتب التي جاءت الرسل كتاب واحد؟ لا، بل هي كتب كثيرة بحسب الرسل.



قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[فاطر:٢٧،٢٨]

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ إلى آخره، الاستفهام هنا للتقرير وهذا هو الغالب فيما إذا أتى حرف النفي، أو إذا أتت أداة النفي بعد همزة الاستفهام، أن يكون للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة٤٠] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداة النفي بعد همزة الاستفهام فالغالب أن يكون الاستفهام للتقرير.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حذفت الألف للجازم؛ لأن اللام تجزم، والفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة، وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم، وهو قوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾.

وقوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ صفة لجدد، وقوله: ﴿سُودٌ﴾ قيل: إنه على التقديم والتأخير أي: وسود غرابيب، وقيل: إنه على الأصل، وأن سود تقع موقع التوكيد مما قبلها؛ لأن الغرابيب هو: الشديد السواد.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال المؤلف: [تعلم] فالرؤية هنا علمية، وعلقت عن العمل بأن وما دخلت عليه، فإن (أن) وما دخلت عليه تعلق أفعال القلوب عن العمل، ويحتمل أن تكون الرؤية هنا بصرية، يعني: ألم تنظر وتبصر؛ لأن ما ذكر يرى بالعين، وما كان يرى بالعين فإنه يجوز أن يراد به الرؤية بالعين، لكن إذا جعلناها علمية كان ذلك أعم؛ لأن هذا الأمر قد لا تراه بعينك، ولكن تسمعه في بلاد أخرى غير بلادك.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسماء هنا: العلو، والمراد بالماء: المطر، وليس المراد بالسماء الأجرام السماوية المعروفة؛ لأن الماء إنما ينزل من السحاب، والسحاب عال ولكنه بين السماء والأرض.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ قال: [فيه التفات عن الغيبة]، ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، لو كان الكلام على نسق واحد لقال فأخرج به، بضمير الغيبة، لكنه صار فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، والالتفات فيه فائدة؛ بل فوائد، فيه فائدة مشتركة في جميع موارده ومواضعه، وهي: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان معه، ولم يكن هناك شيء يوجب أن ينتبه ويتفطن، فإذا اختلف السياق من غيبة إلى تكلم أو إلى خطاب أو ما أشبه ذلك فإن الإنسان ينتبه، يعني كأنه يقول: عَلَمًا على تغير الأسلوب لينتبه المخاطب.

الفائدة الثانية هنا قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فإن (نا) هذه تفيد التعظيم؛ لأن الإخراج أعظم من الإنزال بالنسبة للنعمة علينا، فإنه لو أنزل المطر ولم يخرج النبات لم نستفد من المطر، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «**لَيْسَتِ السَّنَةُ أَلَّا تُمْطَرُوا إِنَّمَا السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا فَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا**»(١) فلما كان إنعام الله تعالى بإخراجنا النبات أعظم، صار الالتفات إلى التكلم أولى بعظم المنة فيه.

قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾، وهنا قال: أخرجنا به ثمرات، ولم يقل: أخرجنا به نبات، وقد قاله في آية أخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩]، لكن هنا قال: ثمرات؛ لأن المقصود من هذا الخارج هو الثمرة، فبين الله - سبحانه وتعالى - الغاية المقصودة وهي: الثمرات.

قال: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها] وهذا يدل على قدرة الله، هذه الثمرات مختلفًا ألوانها، وكلمة ألوان يحتمل أن يكون المراد ما ذكره المؤلف وهو: اللون المختلف ذو الحمرة والصفرة والخضرة وما أشبه ذلك، ويحتمل أن المراد بالألوان: الأصناف، فإن الألوان تطلق على الأصناف، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في صلاة الليل في قيام رمضان، قال: روي في ذلك ألوان أي: أنواع وأصناف، وإذا نظرت إلى الخارج من الأرض وجدت أنه ذو ألوان في شكله، وذو ألوان في أنواعه وأصنافه، ما بين حلو ومر، ومتوسط وحامض، وغير ذلك مما هو معلوم، وهذا الأخير إذا قلنا: إن المراد بالألوان ما يعم الأنواع، أشمل مما إذا قلنا: إن المراد بالألوان الاختلاف في الشكل وقد مر علينا قاعدة بأنه كلما كان المعنى أشمل في التفسير كان أولى؛ لأن الأشمل يعم الأخص وغيره بخلاف الأخص.

قال: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ هذه جملة استئنافية، يبين الله - عز وجل - فيها كمال قدرته أيضًا بالنسبة للأرض وطبقاتها.

قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ جمع جُدَّة: طريق في الجبل وغيره، من الجبال جدد يعني: الطرق، يعني: الشيء يشبه الطرق لاختلافه عن بقية الجبل، وهو مختلف في اللون، ومختلف في الماهية - أيضًا -، نحن نرى بعض الجبال الآن، ولا سيما إذا فتح الجبل، نرى في أثنائه خطوطًا قد تكون سوداء وقد تكون حمراء وقد تكون بنية وقد تكون بيضاء، المهم أننا نجد فيه خطوطًا تخالف بقية الجبل، هذه الجدد التي ذكرها الله - عز وجل - هنا، فالجبال تختلف أيضًا ألوانها وهذا الاختلاف في اللون يعني الاختلاف في الماهية والحقيقة، ليست الحصاة السوداء كالحصاة البيضاء أو الحمراء أو ما أشبهها مما يخالفها في اللون، بل لابد أن يكون اختلاف في طبيعة هذه الحصاة، كما كان اختلاف في الثمرات في ألوانها يدل على اختلافها في طعومها وفي ماهيتها.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٩٤).

قال: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ ذكر الله - عز وجل - بيض وحمر وكان من المتوقع أن يقول: بيض وسود؛ لأن هذا هو المعروف في مقابلة البياض، أن يقابل بالسواد، لكنه قال: ﴿وَحُمْرٌ﴾؛ لأن الحمر أقرب إلى البياض من السود، وستذكر في قوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ هذه الجدد بيض وحمر، قال المؤلف: [وصفر]، ونحن ربما نقول أيضًا: وزرق، وغير ذلك من الألوان والله - عز وجل - لم يذكر هذين اللونين للحصر، وإنما هو علي سبيل التمثيل، قال: [جدد مختلف ألونها بالشدة والضعف]، هنا فسر المؤلف الألوان بماذا؟ بالماهية أم بالأشكال؟ بالماهية لأنه قال: [بالشدة والضعف] ولم يقل: باللون الذى هو أحمر وأبيض - على كل حال - الألوان كما قلنا آنفا تطلق على الأنواع أحيانًا .

هذا الاختلاف في ألوان أحجار الجبال كالاختلاف في ألوان الثمار ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطف على جدد أي: صخور شديدة السواد، يقال كثيرًا: أسود غربيب، ويقال قليلًا: غربيب أسود، أولًا الغرابيب جمع غربيب، والغربيب شديد السواد، وكان مقتضى الترتيب أن يقال: وسود غرابيب ولكن الله تعالى قدم، قال: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، فعلى هذا زعم بعضهم أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وقال بعضهم: بل هو على ترتيبه، ليس فيه تقديم وتأخير، ولكن الله - سبحانه وتعالى - بين الأسود الشديد السواد قبل بيان مطلق السواد، هذا أيضًا مشاهد ،نجد في الجبال طرقًا يعني: كالطريق أو كالخط أسود وإلى جانبه طريق أبيض أو أحمر أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله - عز وجل -.

فنجد نحن أن هذا الاختلاف في الجبال هو كالاختلاف في الثمرات .

الفوائد:

١ - **في هذه الآية:** التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يتفكر في خلق الله - عز وجل -، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ فإن هذا تقرير، والتقرير لا يكون إلا بعد أن ينظر المقرر في ما قرر به حتى يقر به ويعترف.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - عز وجل - وحكمته ورحمته، وذلك بإنزال الماء من السماء ففيه قدرة عظيمة أن ينزل هذا الماء الذي يكون بحارًا، أحيانًا يدمر ما مر عليه من البناء ويجترف الأراضي، مع أنه ينزل من هذا السحاب الرقيق الذي تخترقه الطائرة، كما نشاهد، ويتمزق عندما يمر بالجبال وبالبناء وما أشبه ذلك، تنزل منه هذه المياه العظيمة هذا تمام القدرة.

تمام الرحمة ما يحصل من هذا المطر من الآثار النافعة للعباد، تمام الحكمة؛ لأن هذ ا المطر ينزل من أعلى حتى يشمل المرتفع والمنخفض من الأرض، ولو كان يمشي مشيًا كالأنهار لكان الأسفل من الأرض يروى بالماء بل يغرق، وأما الأعلى فلا يصيبه شيء، وهذا من تمام حكمة الله - عز

وجل - أنه ينزل من فوق.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ فإن الباء هنا للسببية، ففي الآية إثبات الأسباب، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد قرن الأشياء بأسبابها، وهذا من تمام حكمته أن تكون الأسباب والمسببات متلازماتٍ، من المعلوم أن الله قادر على أن يخرج هذه الثمرات بدون ماء، ولكن قد جعل لكل شيء سببًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان قدرة الله - عز وجل - بإخراج هذه الثمرات المختلفة الألوان، مع أنها في أرض واحدة وتسقى بماء واحد، ويظهر لك ذلك جليًّا إذا نظرت إلى الزهور، كيف تجد هذا الاختلاف العجيب بينها، مع أنها تسقى بماء واحد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الحكمة في اختلاف هذ ه الثمرات؛ لأنه لو كانت هذ ه الثمرات طبيعتها واحدة لمل الناس منها ولم يحصل لهم كمال اللذة، فإذا اختلفت حصل كمال اللذة وعدم الملل والسآمة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: بيان قدرة الله - عز وجل - ورحمته وحكمته فيما نرى من الجبال أو فيما نرى في الجبال من الجدد المختلفة؛ لأن هذا دليل على القدرة حيث جعل هذا بين هذا، ودليل على الحكمة؛ لأن الغالب أن ما في بطون هذه الجبال يكون معادنًا مفيدة للإنسان، كذلك بيان الرحمة بالخلق لإيداع هذه الأشياء في بطون هذه الجبال.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا**: بيان قدرة الله - عز وجل -، حيث إنه يجعل بعض الجبال فيها السواد الخالص وقد يكون الجبل كله أسودَ، وأحيانًا نرى جبلًا أسودَ وإلى جانبه جبلًا أبيضًا، فهذا كله من تمام قدرة الله - عز وجل -.

٨ - **ومن فوائد الآية**: ما يترتب على النظر في هذه المخلوقات من الاعتبار والاستدلال بها على ما تتضمنه من صفات الله - سبحانه وتعالى -.

❁ ❁ ❁

❁ ثم قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]



❁ التفسير ❁

جملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ جملة خبرية قدم فيها الخبر على المبتدأ، و﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل ﴿مُخْتَلِفٌ﴾؛ لأن مختلف اسم فاعل، واسم الفاعل يعمل عمل فعله،

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة، لقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، يعني: مختلف كاختلاف ما ذكر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هي جملة أيضًا مكونة من فعل وفاعل ومفعول به، وفيها حصر وطريقه إنما وجملة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ كالتعليل لما قبلها كما سيأتي إن شاء الله.

قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ﴾، الناس هم: البشر، قالوا: وأصلها أناس، ولكنها حذفت الهمزة تخفيفًا، لكثرة الاستعمال، كما حذفت من شر وخير، وأصلهما أشر وأخير، وحذفت - أيضًا - من الله على قول كثير من علماء اللغة، وأصلها يقول: الإله، والمراد بالناس: بنو آدم، وسموا بذلك؛ لأنه يأنس بعضهم إلى بعض.

قال: ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ جمع دابة، وتطلق على عدة معان، تطلق على كل ما دب على الأرض كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥] وكما في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، يشمل كل ما دب على الأرض، من إنسان وحيوان وحشرات وغير ذلك، وتطلق الدابة على ما يدب على بطنه مثل الحيات، وتطلق الدابة على ذوات الأربع كالحمار، فما المراد بها في هذه الآية؟

نقول: المراد بها ما عدا الناس والأنعام، فتشمل كل ما دب على الأرض إلا الناس والأنعام، فإن قلت: لماذا لا تجعلها شاملة وتجعل هذا من باب عطف العام على الخاص بالنسبة للناس، ومن باب عطف الخاص على العام بالنسبة للأنعام، يعني لو قال قائل: المراد بالدواب: كل ما دب على الأرض، لكنها عطفت على الناس من باب عطف العام على الخاص، وعطفت الأنعام عليها من باب عطف الخاص على العام، قلنا: هذا ممكن لكن التقسيم يبعده، فيكون المراد بالدواب: ما عدا الناس والأنعام، والمراد بالأنعام: ما ينتفع الناس به، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١] فيكون المراد: بالأنعام هنا: ما ينتفع الناس به كالإبل والبقر والغنم والطيور الحلال وغير ذلك.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ هل المراد باللون الشكل أو الصنف أيضًا؟ يشمل، فالناس مثلًا تختلف ألوانهم، هذا أبيض وهذا أسود وهذا أحمر وهذا بين ذلك، واختلاف اللون ظاهر، تختلف أجناسهم أيضًا، هذا ذكر وهذه أنثى هذا عالم وهذا جاهل، هذا أحمق وهذا حليم، وعلى هذا فقس، الدواب كذلك، تختلف ألوانها بالشكل، وتختلف أصنافها وأنواعها، منها المؤذي ومنها الضار ومنها النافع، ومنها ما ليس بضار ولا نافع ولا مؤذٍ، فهي أربعة أصناف، منها النافع ومنها الضار، ومنها المؤذي ولكن لا يضر، ومنها ما ليس مؤذيًا ولا ضارًّا، مثال النافع: الأنعام، ومثال

الضار: الحيات والعقارب والسباع وما أشبهها، ومثال المؤذي: الصراصير والخنفساء والجعلان وما أشبه ذلك، الناموس قد يكون ضارًّا، ومثال ما ليس بمؤذٍ ولا ضار النمل وغيره أيضًا من الدواب الكثيرة التي نراها نرى طيورًا تطير في الجو ليست حلالًا مثلًا ولكنها لا تضر.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المؤلف: [كاختلاف الثمار والجبال]، فصار الاختلاف في مخلوقات الله تعالى شاملًا، شاملًا للحيوان ولما ينتفع به الحيوان من الثمار وغيرها ولطبقات الأرض كالجبال.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ لما ذكر هذه الأصناف، وفيها ما يدل على كمال الله - عز وجل - في صفاته التي تتضمنها هذه الأصناف المذكورة، بين أن العالم بذلك هو الذي يخشى الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني: لا يخشى الله إلى العلماء، والخشية هي أعلى الخوف، أو إن شئت فقل هي: الخوف المبني على العلم، وبعضهم قال: هي الخوف المبني على عظم المخوف، ولا يمتنع أن تكون الخشية هي الخوف بكل الأنواع الثلاثة، يعني: هي أعلى أنواع الخوف، أو الخوف المبني على العلم، أو الخوف المبني على عظم المخوف، أما الخوف المجرد عن الخشية فهو قد يكون عن جهل، يخاف الإنسان من شيء؛ لأنه جاهل به وإلا فليس أهلًا لئن يُخاف منه.

[ككفار مكة]، وصدق المؤلف في قوله في خلاف الجهال، وأما التمثيل بكفار مكة فليس على سبيل الحصر، بل هو على سبيل المثال، فكل كافر فهو في الحقيقة جاهل، وهي جهالة العلم، أم جهالة التصرف؟ جهالة التصرف في الغالب، في الغالب إنها جهالة تصرف، وإلا فإن الكافر يكون عنده علم، لكنه - والعياذ بالله - يستمر على طغيانه ولا يؤمن.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ الاستفهام هنا؛ لإثبات الأسباب لزم علينا القول بوجوب الفعل؛ لأن السبب يستلزم وجود المسبب، وهذا يقتضي أن نوجب على الله - عز وجل - وجود المسبب لوجود السبب.

علماء الكلمة أنكروا الحكمة كالجبرية مثلًا أنكروا حكمة الله، يقولون: لأنه لو قلنا بثبوت الحكمة والسببية: لزم من ذلك أن نوجب على الله تعالى أن يفعل، كما قال ذلك خصومهم من المعتزلة، المعتزلة يقولون: بوجوب الأصلح، بعضهم يقول: بوجوب الصلاح على الله - عز وجل -، لأن هذا مقتضى الحكمة.

وأولئك الجهمية بالعكس يقولون: إن الله - عز وجل - يخلق الشيء بدون سبب وبدون حكمة، لأنك لو أُثبتت الحكمة والسبب لزم إيجاد المسبب أو الفعل الذي يكون مسببًا بهذا السبب، وهذا يقتضى أن نوجب على الله - عز وجل - فعل الشيء، فما هو الجواب؟ نقول: إن إثبات الحكمة أو السبب لا يستلزم أن نوجب على الله، ولكن مقتضى كونه حكيمًا أن يفعل، وأن

يوجد المسبب عند وجود السبب، ونحن لم نوجبه ولكن الذي أوجبه الله على نفسه، بمقتضى اسمه الحكيم ووصفه بالحكمة، وإيجاب الله على نفسه ليس بممتنع، كما أن تحريمه على نفسه ليس بممتنع، فقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1]، فلله أن يحرم على نفسه وأن يوجب على نفسه ما شاء أما نحن فلا.

فإذا قيل مثلًا: هذا مصلحة، فيجب أن يكون، فإننا نقول: نعم نلتزم بهذا، ولكن هل نحن الذين أوجبناه على الله ؟لا، بل الله هو الذي أوجبه على نفسه، وهذا لا ينافي كماله، بل هو من مقتضى كماله، إلا أن المحظور هنا في هذا الباب، أن نظن أن المصلحة في كذا وحقيقة الأمر أن المصلحة في عدمه هذا هو الذي يُخشى منه، وحينئذ نعتقد أن هذا واجب على الله وهو لم يجب، نعتقد لأنه واجب على الله بمقتضى فهمنا، أن هذا مصلحة وخير، ثم نوجبه على الله، هذا هو المحظور أما إذا أطلقت المصلحة فلا مانع من أن نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - أوجب على نفسه أن تكون المصلحة؛ لأن هذا هو مقتضى اسم الله الحكيم، وفي هذه الحال لم يحصل منا أي عدوان أو ظلم، بل قلنا بمقتضى حكمة الله - سبحانه وتعالى -.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: ذو عزة، قال العلماء: والعزة ثلاثة أنواع، عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فأما عزة القدر فمعناه: أن الله تعالى ذو قد ر عزيز والقدر بمعنى: المكانة والشرف والسؤدد ونحو ذلك.

عزة القهر أي: أن الله تعالى غالب، غير مغلوب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: ٢٣] أي: غلبني .

عزة الامتناع أي: أن الله - سبحانه وتعالى - يمتنع عليه النقص في ذاته أو في صفاته، ومنه قولهم: أرض عزاز أي: شديدة صلبة لا يتجاوزها شيء لصلابتها، ولا يؤثر فيها شيء لقوتها وشدتها، فالعزة إذن ثلاثة، ثلاثة معانٍ، عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، ﴿غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، يدل على ذلك اشتقاقها، فإنها مشتقة من المغفر، وهو ما يغطى به الرأس وتتقى به السها م، وفي المغفر ستر ووقاية، وعلى هذا فنقول: الغفور ذو المغفرة، وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه، ويدل لهذا المعنى زيادة على دلالة الاشتقاق ما ثبت في الحديث الصحيح أن الله - عز وجل - يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه حتى يقر بها، ثم يقول: قد سترتها عليك في الدنيا،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه(٤٢٥٧).

وأنا أغفرها لك اليوم[1]، يعني: أتجاوز عنها وفي الدنيا سترها الله على العبد، ومناسبة ذكر العزة والمغفرة هنا بعد ذكر الخشية؛ الإشارة إلى أن الله - سبحانه وتعالى - أهل لأن يُخشى لأنه عزيز، وأنه إذا نقص شيء من الخشية فإنه يقابل بالمغفرة، فهو عزيز، فبذلك كان أهلًا للخشية، وهو غفور إذا نقص شيء مما يجب له من خشيته - سبحانه وتعالى -. وقول المؤلف: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه]، هذا مبني على أن العزة بمعنى: الغلبة، كما يفسرها كثير من المفسرين بذلك، فيقولون: العزيز أي: الغالب، ولكن هذا التفسير الذي ذكرناه ما نطلقه على ملكه، تقول: هو عزيز ولا نقيدها في ملكه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - عزيز في ملكه وعزيز في صفاته كلها، وعزيز في شرعه، فالعزة عامة، ما دمنا نقول: إنها عزة الامتناع والقدر والقهر، وأما [غفور لذنوب عباده المؤمنين]، فتقييدها بذلك أيضًا فيه نظر، ولو قال المؤلف: غفور لمن تاب إليه أو لمن استغفره لكان أشمل، لأن الله تعالى يغفر حتى لغير المؤمنين إذا تابوا إلى الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فالتعميم أولى من التخصيص.

الفوائد:

١ - **يستفاد من الآية الكريمة:** بيان قدرة الله - سبحانه تعالى - باختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام أي: أصنافها وأشكالها؛ لأن اختلاف هذه الألوان وهي شيء واحد أو نوع واحد دليل على القدرة، فبنو آدم مثلًا لا يمكن أن يشترك شخصان أو أن يتماثل شخصان في كل شيء أبدًا، إن قدر تماثلهما في الخلقة فسيختلفان في الخلق، والتساوي في الخلق أمر مستحيل؛ لأن الناس يتباينون فيه تباينًا عظيمًا، يتباينون فيه تباينًا أشد من التباين الخلقي، وإن كان التبيان الخلقي أظهر؛ لأنه يشاهد ويرى، لكن التباين الخلقي أشد؛ لأنه لا يمكن أن يتفق الناس فيه، أو أن يتساوى الناس فيه أبدًا؛ لأن أي كلمة تحصل من أحدهما دون الآخر يحصل فيها التباين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة خشية الله - عز وجل - حيث لا يتصف بها إلا العلماء.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** فضيلة العلم لكونه سببًا لخشية الله - عز وجل -، والخشية صفة لها آثار حميدة؛ لأن الإنسان إذا خشي ربه فإنه يتجنب معاصيه ويفعل أوامره خوفًا منه - سبحانه وتعالى -، ولهذا لما ذكر الله - عز وجل - ثواب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيِّنة: ٧] وهو دليل على أن الخشية توجب الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز والغفور، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي العزة والمغفرة، وإثبات ما تضمناه من الحكم وهو الأثر أما الغفور فنعم لها أثر وحكم، كما قال تعالى: في آخر سورة البقرة: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] العزيز هل لها حكم؟ قلنا: إنها من معانيها الغلبة، وإذا كانت عز بمعنى: غلب صارت متعدية، فيكون لها حكم أي: أثر، إذن إثبات ما تضمنه الاسمان من الصفة والحكم الذي نعبر عنه أحيانا بالأثر، ومر علينا فيما سبق أن أسماء الله - عز وجل - إما لازمة وإما متعدية، فاللازمة يُثبت منها الاسم والصفة والمتعدية يثبت منها الاسم والصفة والأثر.



ثم قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]

التَفسِير

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [زكاة وغيرها] ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ تهلك، الإعراب في هذه الآية واضح ما فيه إشكال، إلا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ تحتاج إلى خبر، فما هو الخبر؟ الخبر جملة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ فهذا هو الصحيح من أقوال المعربين، يعني: إن هؤلاء فعلوا ذلك يرجون تجارة لن تبور، فجملة ﴿يَرْجُونَ﴾ هي خبر إن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [يقرءون]، والصواب أن التلاوة أعم من القراءة.

فالتلاوة نوعان: تلاوة لفظية وهي القراءة وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن، تصديقًا للخبر وامتثالًا للأمر، ولهذا يقال: تلاه بمعنى: تبعه، أي: جاء بعده فالتلاوة أعم من القراءة.

التلاوة اللفظية: أن يقرأ الإنسان القرآن، والتلاوة العملية أن يتبعه بامتثال أوامره وتصديق أخباره أو بموافقته وتصديق أخباره، التلاوة العملية تستلزم فهم المعنى؛ لأنه لا يمكن أن يعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة رضي الله عنهم تطبيقًا لهذه الآية تمامًا؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَتْلُونَ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، بخلاف ما لو قال: إن الذين تلوا، بالماضي، فإنه لا يفيد المعنى الذي يفيده المضارع يتلونه، وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، هل هو القرآن أو هو أعم من ذلك؟ الجواب: أعم من

ذلك، كتاب الله الكتب التي أنزلها الله تعالى على الرسل، فيشمل جميع الكتب؛ لأن هذا الحكم يشمل المؤمنين من هذه الأمة والمؤمنين ممن سبقهم، فيكون المراد بالكتاب هنا: كل كتاب أنزله الله تعالى على رسله.

﴿ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفة على ﴿يَتۡلُونَ﴾، قال المؤلف: [أداموها]، والصواب: خلاف ما قاله المؤلف، يعني معناه: أننا نختار كلمة أشد مطابقة للفظ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتوا بها مستقيمة، فيشمل فعل الصلاة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويشمل الإدامة، يشمل الإدامة أيضًا؛ لأن الإدامة من الإقامة، وعلى هذا نقول: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فعلوها قائمة، أي: مستقيمة، على الوجه المطلوب منهم، لو أن الإنسان أدام الصلاة لكن يخل بأركانها أو واجباتها، فهل يقال إنه أقام الصلاة؟ لا، فالرجل الذي جاء يصلي ولا يطمئن كان يصلي هذه الصلاة منذ أسلم، والرسول - عليه الصلاة والسلام - قال له: «صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»(١) مع أنه يديم الصلاة، ويصلي، لكنه لم يصل حيث إنه لم يأت بها قائمة على الوجه المطلوب، فالصواب أن الإقامة هنا بمعنى: أن يفعلها على الوجه المطلوب منه.

والصلاة معروفة للجميع لا تحتاج إلى تعريف؛ لأنها عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قال: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ بمعنى: بذلوا وأخرجوا ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾: مما أعطيناهم؛ لأن الرزق بمعنى: العطاء.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، هل (من)لبيان الجنس أو هي للتبعيض؟ الأولى أن نجعلها لبيان الجنس لتشمل ما لو أنفقوا جميع أموالهم على الوجه الذي يرضاه الله ورسوله، فإنهم يدخلون في هذا الوصف.

وقوله: ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ ﴿سِرّٗا﴾مصدر، ولكنها في موضع الحال، أي: مسرين ومعلنين، الإسرار أن يخفوا الإنفاق فلا يعلم به إلا المنفق عليه، والإعلان أن يظهره للناس، إما إظهارًا كاملًا شاملًا، وإما أن يكون إظهارًا نسبيًّا، يعلم به من حوله، كل ذلك يُمدحون عليه، وسيأتي - إن شاء الله - في ذكر الفوائد أن هذا يكون بحسب الحال، قال: [زكاة وغيرها]، غير الزكاة كالإنفاق الواجب على الأقارب، وكصدقات التطوع فالإنفاق هنا شامل.

قال: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾،﴿يَرۡجُونَ﴾ يعني: يؤملون ويطلبون من هذه التجارة ﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن [تهلك]، كما قال المؤلف.

ما هذه التجارة؟ التجارة ذكرها الله - عز وجل - في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] فهنا عوض ومعوض، العوض الإيمان بالله والجهاد في سبيله، المعوض ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾، هذه التجارة لا شك أنها أربح التجارات، وأنها أبقى التجارات، أربح التجارات؛ لأن الربح فيها العشر مائة والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأبقى كذلك هي أبقى التجارات بلا شك؛ لأنها في جنات عدن أي: في جنات إقامة لا ظعن فيها، والله أعلم.

الفوائد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخره.

١ - **يستفاد من هذه الآية فوائد منها:** فضل تلاوة كتاب الله - عز وجل -، لقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾.

٢ - **ومنها:** أن الرجاء ينبغي أن يكون في محله، بحيث يكون الإنسان قد عمل عملًا يرجو الثواب عليه، أما الرجاء بدون عمل فهو من التمني الذي لا ينفع العبد، وفي الحديث: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ، والْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى الله الْأَمَانِي**»(١) فلا رجاء إلا بعمل، وفي الحديث الصحيح أيضًا: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله**»(٢) وفي الحديث الصحيح: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»(٣)، وكل هذه النصوص وما أشبهها إنما تكون فيمن يعمل ما يمكن أن يرجو به ذلك، وأن يحسن به الظن، لو أن أحدًا أساء واستكبر عن عبادة الله، وقال: أنا أحسن الظن بالله لكان هذا ظنٌّ وهم، لابد من شيء يبني عليه هذا الظن، لو قال: أنا أرجو رحمة الله قلنا: هذا وهم حتى تعمل ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] هؤلاء هم الذين يرجون، وهنا أيضًا مثلها.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الثواب في الآخرة لا ينقطع، لقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾، بل ربما نقول: إن هذا أعم، بحيث يثاب الإنسان في الدنيا ثوابًا مستمرًّا إلى الآخرة؛ لأن الحسنات قد يرى الإنسان ثوابها في الدنيا، وثوابها في الدنيا يستمر إلى ثواب في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ۝٣١ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣١، ٣٢].

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضل إقامة الصلاة؛ لقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهو شامل كما قلنا في التفسير، شامل لفرض الصلاة ونفلها، فما تقام به الفريضة تقام به النافلة، وما تقام به النافلة تقام به الفريضة، إلا بدليل يدل على الفرق بينهما، وأظننا قد جمعنا الفروق بين فرض الصلاة ونفلها فبلغت ثمانية وعشرين فرقًا، منها ما هو واضح دلت عليه السنة، ومنها ما هو دون ذلك، المهم أن الأصل أن إقامة الفريضة إقامة للنافلة، وإقامة النافلة إقامة للفريضة، هذا الأصل، فما ثبت في إحداهما ثبت في الثاني إلا بدليل.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** فضيلة الإنفاق؛ لأنه أعقبه أو أعقب الصلاة به، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ﴾ وهو يدل على أن هذا الإنفاق يشمل الزكاة وغير الزكاة؛ لأن الله تعالى يقرن دائمًا في الذكر بين الصلاة والزكاة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المنفق ليس مانًّا على الله - عز وجل -، لأنه إنما ينفق مما رزقه الله، فمهما بلغت بك نفسك من الإعجاب والكبرياء على إنفاقك، فاذكر قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، كل شيء تنفقه فليس لك فيه منة على الله - عز وجل -، بل لله المنة عليك به في إيجاده وفي إنفاقه، في إيجاده؛ لأنه لولا أن الله رزقك ما حصل لك، وفي إنفاقه؛ لأن كثيرًا من الناس يبخلون بما آتاهم الله من فضله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠] فمن نعمة الله عليك أن يمن عليك بالإنفاق بعد أن من عليك بالرزق والعطاء.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الإنفاق لا نقول: إن الإسرار فيه أفضل ولا إن الإعلان فيه أفضل، بل هو بحسب الحال فتارة يكون الإنفاق سرًّا أفضل وتارة يكون الإنفاق علنًا أفضل، حسب ما تقتضيه الحال، بخلاف الصدقة فالأصل فيها السر، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]؛ لأن الصدقة فيها نوع منة على المعطى، فربما ينكسر أمام الناس إذا أُعلنت الصدقة له، فصار إخفاؤها أفضل، وفي الحديث الصحيح في الذين يظلهم الله في ظله: «**رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا**»(١)، أما الأشياء العامة والمعلنة، كما لو أردنا أن ننفق في مشروع خيري عام لا يظهر فيه المنة على شخص معين فهنا قد يكون الإعلان فيه أفضل، وكذلك لو أن شخصًا جاء إلينا، وقال: أرجو أن تجمعوا لي من الناس، فهنا ربما يكون الإعلان أفضل من أجل أن يقتدي بك غيرك، وهذا الرجل الذي طلب منا أن نجمع له لا يهمه أن يعلم الناس بأنه يتصدق عليه أو لا يتصدق.

المهم أن نقول: إن السر والإعلان في الإنفاق كله خير، لكن الصدقة الأفضل فيها السر لما في إظهارها من كسر قلب المعطى، وأما الأشياء العامة أو الصدقة على شخص معين الذي طلب منا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

أن نجمع له مثلًا فهذا قد يكون الإعلان فيه أفضل.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التنبيه على الإخلاص لقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ لا يريدون تجارة تبور وتهلك، يعني: لا يريدون مثلًا سمعة؛ لأن السمعة والجاه بين الناس لا شك أنه كسب للمرء، ويعتبر تجارة، لكن هذه تجارة هالكة، هالكة تزول بزوال الشخص، أو تزول بزوال ما اشتهر به؛ لأن من حمد على شيء ذم على فقده، لكن الذي يرجو ثواب الله ويحسن النية والقصد هذا هو الذي حصل على تجارة لن تبور، ففيه التنبيه على الإخلاص وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مخلصًا لله تعالى في عمله اللازم أو القاصر والمتعدي، القاصر كالصلاة والمتعدي كالصدقة.



ثم قال الله تعالى:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٠].

التفسير

ثم قال الله عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ أي: يعطيهم أجورهم وافية كاملة، والضمير ضمير الفاعل يعود على الله، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ اللام هذه للعاقبة، وقيل للتعليل، فعلى القول بأنها للعاقبة تكون متعلقة بـ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ عاقبتهم أن يوفيهم الله أجورهم، وعلى أنها للتعليل متعلقة بيتلون وأقاموا وأنفقوا، يعني: يتلونه ليوفيهم أجورهم، أقاموا الصلاة ليوفيهم أجورهم، أنفقوا مما رزقناهم ليوفيهم أجورهم، يعني: قصدوا ما رتب الله على هذه الأعمال من الأجور، وهذا الفعل ينصب مفعولين، أحدهما هنا الهاء، والثاني أجور، وهو من أخوات كسا وأعطى؛ لأنه نصب ما لا يصح أن يكون مبتدأ وخبرًا، وكل فعل ينصب مفعولين لا يصح أن يكون أحدهما خبرًا عن الآخر، فهو من باب كسا.

قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم المذكورة، والتوفية هذه معروفة لنا جميعًا، وهو أن الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فمثلًا الصلاة حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومع الجماعة تكون كم حسنة؟ سبعًا وعشرين حسنة كل حسنة بعشر أمثالها.

قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ معطوفة على يوفيهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾

يعني: يزيدهم عطاءً وأجرًا من فضله، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يشمل الفضل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الإنسان إذاعمل العمل الصالح مخلصًا لله به حبب الله إليه العمل حتى يزيد في العمل، وهذا شيء مشاهد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فضله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] أي: يأتي بخلفه، فالزيادة إذن تشمل زيادة الأجور وزيادة الأعمال وزيادة المال المنفق منه، زيادة الأعمال؛ لأني قلت: كلما عمل الإنسان عملًا صالحًا حبب الله إليه العمل، وزاده فيه، زيادة المال ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ: ٣٩] ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم: ٣٩]

﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: عطائه الذي يتفضل به عليهم، [إنه﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم]، هذا تعليل لما سبق من توفية الأجور والزيادة من الفضل، يعني: أن الله - عز وجل - لكونه غفورًا رحيمًا صار يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وفي هذا إشارة إلى مغفرة الله - سبحانه وتعالى - للعامل وإلى شكره إياه.

الغفور صيغة مبالغة أو صفة مشبهة، مأخوذة من الغفر وهو الستر مع الوقاية؛ لأن أصل هذه المادة المغفر، والمغفر يحصل به الستر والوقاية.

إذن ما معنى: أن الله غفور، معناه: أن الله يستر الذنوب، ويتجاوز عن العقوبة، وما أدري ما أكثر ما نذنب فيما بيننا وبين ربنا، ومع ذلك يسترها الله - عز وجل -، وإذا كا ن يوم القيامة عفا عن عقوبتها، وبذلك تتحقق المغفرة، أما الشكور فنقول في تصريفه: كما قلنا في غفور، إنه إما صيغة مبالغة، وإما صفة مشبهة، فهو - سبحانه وتعالى - شكور، أي: يشكر من عمل العمل الصالح، ومن شكره إياه أنه يضاعف له الأجر، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وانظر إلى كمال الله - عز وجل - في صفته، أنه هو الذي يمن عليك بالعمل ثم يشكرك عليه، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - سبحان الله العظيم- ربنا يحسن إلينا ثم يقول: ما جزاء إحسانكم إلا أن نحسن إليكم، وهو الذي تفضل به أولًا وهذا يدلك على سعة كرم الله والحمد لله، وأنه - عز وجل - واسع الكرم.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية عدة فوائد منها:** أن طلب الإنسان للثواب غاية عظيمة؛ لأن اللام كما أشرنا إليه آنفًا، ما هي للعاقبة، اللام للتعليل في هذا إذا قلنا: إنها للتعليل، وهي صالحة للتعليل،

فكون الإنسان يعمل من أجل الأجر هذا لا يعد نقصًا، خلافًا للصوفية الذين يقولون: لا تعبد الله لثواب الله ولكن اعبد الله لله، فنقول لهم: هذا خطأ، فالله تعالى وصف أشرف هذه الأمة وخير هذه الأمة بأنهم يريدون فضلًا من الله ورضوانًا، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] ومع ذلك لا نقول: إنك لا تعبد الله لله، اعبد الله لله ولثواب الله، فإنك لن تصل إلى الله إلا بعد وصولك إلى ثواب الله، فإن لقاء الله اللقاء الذي هو الرضا التام إنما يحصل متى؟ في الجنة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز الكامل، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد: ٢٢] متى يرون وجه الله؟ إذا دخلوا الجنة رؤيتهم وجه الله الرؤية التامة بعد دخول الجنة.

الحاصل أن في هذه الآية وأمثالها ما يدل على ضعف ذلك المسلك الذي سلكه أولئك الصوفية بألا تعبد الله لثواب الله ولكن اعبد الله لله، فنقول: ما أكثر الآيات الدالة على أن العبادة تكون لفضل الله وثوابه.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ضمان الثواب يعني: أن الثواب مضمون للعامل الذي يتعامل مع الله - عز وجل -، بناء على أن اللام للعاقبة، أي أن: هذا العمل سوف يوفى، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.

٣ - **وفيها أيضًا:** وجه آخر لضمان الثواب، أن الله سماه أجرًا، والأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل، بل جاء في الحديث الصحيح قال الله تعالى، في الحديث القدسي: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَا بِي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ بَاعُ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ولَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»(١) فإذا كان الله خصم هؤلاء؛ لأنهم لم يعطوا الأجر، فإنه يدل على أن الأجر الذي ضمنه الله لعباده سوف يحصل قطعًا، ولكن لابد أن يكون العمل صحيحًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن جزاء الحسنات أكثر مما يجب؛ لقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وزيادة الفضل شرحناها في التفسير.

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات الاسمين الكريمين الغفور والشكور، وما تضمناه من صفة وهي: المغفرة والشكر، وما تضمنا ه أيضًا من أثر، وهو الحكم، فإن غفور يؤخذ منها أنه يغفر، وشكور يؤخذ منها أنه يشكر من يستحق الشكر.

٦ - **وفي الآية الكريمة:** دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية لله - عز وجل - لقوله:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٧٠)، وابن ماجه (٢٤٤٢).

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ و﴿وَيَزِيدَهُم﴾، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله تعالى الأفعال الاختيارية أي: التي تقع بمشيئته، فإنه تعالى فعال لما يريد، خلافًا لمن زعم أن الله تعالى لا يوصف بشيء حادث أبدًا.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣١-٣٥].

التفسير

الجملة هنا ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ جاءت بالصيغة الاسمية المحصورة، وطريق حصرها أمران، الأمر الأول: تعريف ركنيها، وهما المبتدأ والخبر، ﴿وَالَّذِي﴾ مبتدأ، ﴿الْحَقُّ﴾ خبر، وقد قال أهل البلاغة: إن تعريف الركنين من الجملة الاسمية يفيد الحصر.

الطريق الثاني من طرق الحصر هو: ضمير الفصل، وهو قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾، فضمير الفصل من فوائده الحصر، وله فائدة ثانية: التوكيد، وله فائدة ثالثة: الفصل بين الخبر والصفة.

يقول: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، الوحي: إعلام الله - سبحانه وتعالى - أنبياءه ورسله بشريعة من شرائعه، هذا هو الوحي شرعًا، أما في اللغة فقالوا: إن الوحي هو الإعلام بسرعة وخفاء، يعني: مثل الإشارة والهمس وما أشبهه يسمى وحيًا.

أحيانًا يُسأل النبي -عليه الصلاة والسلام - عن شيء، ولا يجيب، فينزل عليه الوحي، فيجيب بحديث نبوي، مثل قصة يعلى بن أمية، الذي كان أحرم بالعمرة وهو متغمس بالخلوق، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، ولكنه لم يجبه حتى جاءه الوحي، وأحيانًا يسأل عن الشيء ثم ينزل به الوحي على أنه كلام الله، قرآن، فيبلغه النبي ﷺ.

يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والمراد به هنا: القرآن قطعًا بدليل قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأن﴿مِنَ﴾ بيانية، تبين الإبهام في اسم الموصول الذي؛ لأن اسم الموصول فيه الإبهام، فإذا جاءت(من) بعده بعد اسم الموصول فهي تبيينية، [﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ القرآن]، وهو كتاب بمعنى: مكتوب؛ لأن هذه الصيغة فعال تأتي كثيرًا بمعنى مفعول، وأمثلتها غراس، بناء، فراش، بمعنى مغروس، ومبني، ومفروش، فالكتاب بمعنى: مكتوب، مكتوب في أي شيء؟ مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: ١١] مكتوب في المصاحف التي بأيدينا، إذن هو مكتوب على ثلاثة أوجه، اللوح المحفوظ، الصحف التي بأيدي الملائكة، الصحف التي بأيدينا . قال: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، هو: ضمير فصل، والحق: خبر الذي، فالذي أوحى الله إلى رسوله ﷺ هو الحق، أكد الله ذلك بمؤكدين، ضمير الفصل، وتعريف ركني الجملة، الذي ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: الشيء الثابت، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، فأحكام القرآن كلها عدل، وأخباره كلها صدق، ليس فيها كذب بوجه من الوجوه، وليس في أحكامه جور بوجه من الوجوه؛ لأنك إذا تأملت أحكامه؛ وجدته قد أعطى كل ذي حق حقه، فلهذا كان عدلًا في الأحكام، وإذا تأملت أخباره وجدتها كلها صدقًا وهذا هو الصدق في الأخبار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١١٥].

قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ قال المؤلف: [تقدمه من الكتب]، يعني: مصدقًا لما تقدمه الكتب؛ لأن الكتب التي سبقته تكون بين يديه، ألا ترى إلى الرجل يكون أمامك فهو قد سبقك، وتقول: إن الرجل بين يدي، وربما يقول لما بين اليدين للشيء المستقبل؛ لأنه أمامك أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: مستقبلهم وماضيهم.

وقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كيفية التصديق للكتب السابقة من وجهين، الوجه الأول: أنه صدقها، أي: أثبت أنها صادقة، فالقرآن يثبت صحة التوراة، والإنجيل، والزبور، وغير ذلك من الكتب ويبين أنها صدق كذلك.

الوجه الثاني: مصدق لما بين يديه؛ لأن الكتب السابقة أخبرت به، فنزوله يكون تصديقًا لها، فهو مصدق لما بين يديه من وجهين، الوجه الأول: أنه صدق ما سبقه، أي قال: إنها كتب صادقة ثابتة، وأوجب الإيمان بها، والوجه الثاني: أنه صدق ما أخبرت به، أي: نزل مطابقًا لما أخبرت به، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ﴾ [الشعراء: ١٩٦] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: القرآن، ﴿زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: كتبهم، يعني: أنه موجود في كتبهم، وأنه سوف ينزل كما أن محمدًا ﷺ كذلك قد أخذ العهد والميثاق على كل نبي، أن يصدق به، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ﴾[آل عمران: ٨١].

المهم أن تصديقه لما بين يديه من من وجهين.

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [عالم بالبواطن والظواهر]، هذه الجملة تعلقها بما قبلها أنها تفيد تحذيرًا وإنذارً ا وترغيبًا، فهي ترغيب وترهيب؛ لأنه لما أخبر بأن هذا القرآن هو الحق، فقد انقسم الناس في هذا الحق إلى قسمين، قسم صدق به، وقسم كفر به، كل هؤلاء نقول لهم: إن الله تعالى بكم خبير بصير، فالذين صدقوا به لن يضيع تصديقهم وعملهم بما جاء به؛ لأن الله خبير به وبصير به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذبوا به أيضًا لن تخفى حالهم على الله - عز وجل -، فسوف يعاقبهم بما يقتضيه تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم، فالجملة إذن هي باعتبار المصدقين بهذا القرآن للبشارة، وباعتبار المكذبين للإنذار والتحذير، وقوله: ﴿لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ خبير: اسم فاعل على صيغة مبالغة، وإن شئت فقل: إنه صفة مشبهة، وهو أحسن بالنسبة لما يتعلق بالعلم، الأحسن في هذا أن نقول: إنه من باب الصفة المشبهة؛ لأن الصفة المشبهة تدل على الثبوت، لكن صيغة المبالغة قد تدل على الحدوث، وحدوث الخبرة في جانب الله - عز وجل - مستحيل حدوث الخبرة مستحيل؛ لأنه لم يزل ولا يزال خبيرًا، إذن نعود فنقول: إنه يتعين أن نجعل خبير صفة مشبهة؛ لأننا لو جعلناها صيغة مبالغة من خابر لكانت موهمة لتجدد الخبرة والعلم، وهذا شيء مستحيل في جانب الله - عز وجل - وقوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ كلمة بصير قد يراد بها العلم، وقد يراد بها الإدراك بالرؤية، وكلا الأمرين لا يناقض بعضهما بعضًا، وقد مر علينا في قواعد التفسير، أن الآية إذا احتملت معنيين لا يتناقضان فإنها تحمل عليهما؛ لأن ذلك أوسع في معناها وأبلغ، فالله - عز وجل - بصير بعباده من حيث النظر والرؤية ومن حيث العلم، في جانب المعمولات المفعولات الظاهرة تكون الرؤية والعلم أيضًا، وفي جانب المسموعات يكون العلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ عِبَادِنَا﴾ كلمة(أورث)هنا نصبت مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وعلى هذا فهي من باب كسا وأعطى، أين المفعول الأول وأين المفعول الثاني؟ ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾﴿ٱلَّذِينَ ﴾ هي الأول، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو الثاني؛ لأن الوارث من؟ هل الكتاب وارث الذين؟ أم الذين ورثوا الكتاب؟ الذين هم الذين ورثوا الكتاب، يعني: أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا الكتاب.

وما معنى أورثناهم إياه؟ أي: جعلناهم يرثونه، فالذين اصطفاهم الله أورثهم الله الكتاب، أي: جعلهم يرثونه، وكلمة الكتاب قال المؤلف: [القرآن]، وينبغي أن نجعله أعم؛ لأننا لو قلنا:

إن الكتاب هو القرآن، وقلنا: إنه موروث عمن سبقنا؛ لكان القرآن قد نزل على من سبقنا، وليس الأمر كذلك، فالمراد بالكتاب هنا: الجنس، المراد به: الجنس لا خصوص القرآن.

يعني: أن الكتب السابقة كل ما فيها من الخير موجود في القرآن، فنحن ورثنا عمن سبقنا كل ما أوتوه من خير، فالأصول التي تجب على كل مسلم في أي زمان ومكان موجودة في القرآن، والشرائع التي تختلف باختلاف الأمم وباختلاف الزمان والمكان هذه تختلف عمن سبق، قد يجب علينا ما يجب عليهم، وقد يحرم علينا ما لا يحرم عليهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أما الأصول فقد ورثناها عنهم فالأصول التي هي أم الدين قد ورثناها عمن سبقنا.

قال: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: اخترنا، وهو مأخوذ من الصفوة، وأصله اصتفينا، لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاءًا، فقيل: اصطفينا من عبادنا أي: اخترناهم.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾هل المراد بذلك العبودية العامة أو الخاصة؟

يعني: الذين اصطفيناهم من المؤمنين أو اصطفيناهم من جميع العباد؟ يظهر أنها من العبودية العامة، يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده، الذين يخضعون له كونًا ،و المراد بهم: هذه الأمة، بدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالذين اصطفاهم الله من عباده هم هذه الأمة، للآية التي سقناها وهي في آل عمران، ولدليل آخر من هذه الآية نفسها؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم.

إذن: فلا يمكن أن يورث ما عندها من الكتاب، فهي وارثة غير موروثة، إذا كانت وارثة غير موروثة فهي التي اصطفيت.

وقوله: [﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به، أي: بالكتاب ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل به أغلب الأوقات، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾].

قسم الله تعالى هذه الأمة التي أورثها الكتاب إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل فالأقل، الأقل في المرتبة فالأقل، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ الظالم لنفسه هو: الذي ترك شيئًا من الواجبات أو فعل شيئًا من المحرمات، ترك صلاة الجماعة مع وجوبها عليه، ترك بعض الزكاة لم يخرجها، ترك الحج على الفور مع وجوبه عليه على الفور، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه، فعل المحرمات شرب الخمر، زنا، سرقة، نظر نظرًا محرمًا، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه، كذا؟ معنى الظالم في الأصل هو الناقص؛ لأن الظلم هو النقص.

قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] يعني: لم تنقص، وكل من أساء فقد نقص فيما يجب عليه، ولهذا كل عمل سيء يعتبر نقصًا فيما يجب عليه، لأن الواجب عليك لنفسك أن ترعاها حق رعايتها، فأنت مسئول أول ما تسأل عن نفسك، قال

النبي ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(١) فبدأ بالنفس، فكما يجب عليك أن ترعى مصالح ولدك، ومالك، وأهلك، يجب عليك أن ترعى مصلحة نفسك، بل هو الواجب الأول من حقوق المخلوقين بعد حق الله ورسوله.

إذن من فعل محرمًا فقد ظلم نفسه؛ لأنه أنقصها حقها في الأمانة، أنت مؤتمن عليها يجب أن ترعاها حق رعايتها، من ترك واجبًا فقد ظلم نفسه؛ لأن الواجب عليه أن يفعل الواجب، ليقوم بحق الأمانة فيما يتعلق في نفسه، هذا الظالم لنفسه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ المقتصد هو: الذي لم يقع منه ظلم لنفسه، ولا تقدم في الخير، أي: قائم بالواجبات، تارك للمحرمات، لكنه لا يكثر من النوافل، ولا يحرص على إكما ل الواجبات على الوجه الأكمل، ولا يتجنب المكروهات، مقتصد، لا نقص، ولا زاد، يصلي مع الجماعة، ويزكي بدون نقص، لكن لا يأتي بنوافل، ولا بالصدقات التطوع، يؤدي فريضة الحج لكن لا يعود، يصوم رمضان لكن لا يصوم نفلًا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المعاملات بين الناس على الوجه الواجب فقط، لا يتسامح عن فقير، ولا ينزل من قيمة أو ثمن، لكنه ماشٍ على ما يجب عليه.

نقول: هذا مقتصد، هذا لا له ولا عليه، يعني: ليس له ثواب إلا ثواب فعل الواجب فقط.

الثالث: ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، هذا يأتي بالواجبات، ويزيد ما شاء الله تعالى من الخيرات، ويأتي بالواجبات - أيضًا - على الوجه الأكمل الأتم، فالصلاة مثلًا لا يقتصر فيها على تسبيحة واحدة، بل يزيد، لا يقتصر على الفاتحة بل يزيد، لا يقتصر على أن يضع يديه مثلًا مطلقة هكذا بل يضعها في موضعها في حال القيام وفي حال الركوع وفي حال السجود وهكذا، نقول: هذا سابق بالخيرات، يؤدي الزكاة ويتصدق، يحج الواجب ويتطوع، يصوم رمضان ويتنفل بغيره من الصيام، هذا نقول: إنه سابق بالخيرات، أما قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: إن معنى سابق بالخيرات [يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل]، ففي هذا نظر ظاهر؛ لأن التعليم قد يكون واجبًا، وإذا قام بالتعليم الواجب صار من المقتصد، وإن تركه صار من الظالم لنفسه، وكذلك نقول في الإرشاد، الواجب إذا قام به صار مقتصدًا، وإن تركه صار ظالمًا لنفسه، ولكن ما قلنا هو الصواب.

اختلف المفسرون في هذه الآية فمنهم من يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كالمانع للزكاة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ كالمقتصر عليها، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ كالزائد عليها.

وآخر يقول: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ مؤخر للصلاة عن وقتها، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فاعل لها في وقتها ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فاعل لها في أول وقتها، أي: في الوقت الذي يستحب أن تقام فيه، هل بين القولين خلاف؟ لا، ليس بينهما خلاف، هذا يسمى اختلاف تنوع، يعني أن كل

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٦٨)، والترمذي (٢٤١٣).

واحد منهما، من القائلين ذكر نوعًا، فيكون هذا علي سبيل التمثيل، ولا يعد هذا خلافًا في الواقع، ولكنه تمثيل، هذا مثل بالزكاة وهذا مثل بالصلاة.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

قال المؤلف: [بإرادته] الكونية أم الشرعية؟ الظاهر أننا نغلب هنا الكونية، يعني: أن هؤلاء الأقسام الثلاثة الظالم والمقتصد والسابق كلهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أذن للظالم لنفسه أن يظلم نفسه، وللمقتصد أن يقتصر على ما يجب، وللسابق أن يزيد، وتقييد هذا بإذن الله لئلا يفتخر مفتخر بكونه سابقًا بالخيرات، فيضيف الشيء إلى نفسه ويمن به على ربه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجُرات: ١٧].

فأنت إذًا مَنَّ الله عليك بسبقك في الخيرات؛ لا تظن أن هذا من نفسك، لو وكلت إلى نفسك لكنت ظالمًا لنفسك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

هذه حقيقة الإنسان، الظلم والجهالة، لكن مَنْ مَنَّ الله عليه وهداه فهو من فضله - سبحانه وتعالى -.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إرثهم الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ صدق الله، الفضل الكبير الذي لا يدانيه فضل، هو منة الله على عبده بالعلم بهذا الكتاب، هذا هو الفضل الكبير، ليس الفضل الكبير بأن يعطى الإنسان قصورًا أو مراكب فخمة أو زوجات حسناوات أو أبناء كثيرين، لا، الفضل الكبير أن يورث هذا الكتاب، كل من ورث هذا الكتاب علمًا وعملًا ودعوة فهو الذي حاز الفضل الكبير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

و في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ فيها أداة حصر، وهو ضمير الفصل.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ وضمير الفصل نذكره هنا لمن فاته العلم به، ضمير الفصل هو ضمير يأتي مطابقًا للسياق، يأتي بصورة الغائب كهو، وبصورة المخاطب كأنت، وبصورة المتكلم كأنا،، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحِجر: ٨٩] ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ هذا أتى بصيغة؟ المتكلم، وتقول لمن تخاطبه: إنك أنت القائل، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، هذا في صيغة المخاطب، وفي صيغة الغائب كثير، منه هذه الآية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، إذن فضمير الفصل، ضمير يؤتى به مطابقًا للسياق من حيث التكلم والخطاب والغيبة، وهو من حيث الإعراب لا محل له - ليس له محل من الإعراب - أما من حيث المعنى فيفيد ثلاثة أمور: يفيد التوكيد والحصر والتمييز بين الخبر والصفة

تقول مثلًا: زيد الفاضل ما فيها ضمير فصل، هنا يحتمل أن تكون الفاضل خبرًا، ويحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت، ممكن أن نقول: تقدير الكلام زيد الفاضل قائم، فتكون الفاضل صفة، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكو ن الفاضل هنا خبرًا، ما يمكن أن تقول: صفة، إذن فهو يميز بين الصفة والخبر، فيكون ما بعده خبرًا لا صفة، ولولاه لكان محتملًا أن يكون خبرًا أو صفة.

هذا شرح قولنا: التمييز بين الخبر والصفة ،و يفيد الحصر إذا قلت: زيد فاضل، هل يمنع أن يكون غيره فاضلًا، لا يمنع، فإذا قلت: زيد هو فاضل، أو زيد هو الفاضل تعين أن يكون زيد وحده هو الفاضل،لا شك أن قولك: زيد الفاضل، تريد المبتدأ والخبر، لا شك أن الجملة تامة ومعناها واضح، لكن إذا قلت: زيد هو الفاضل، كأنك اتكأت عليها، وزدتها توكيدًا.

قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، الفضل بمعنى: العطاء، العطاء من الله، الكبير من حيث الحجم، فهو كبير في كيفيته، ونحن نعلم من جهة أخرى أنه كثير في كميته، فيجتمع في هذا العطاء الكمية والكيفية، فهو فضل كبير في ذاته وكيفيته، وفضل كثير أيضًا في عدده وكميته، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾هذا بيان لثواب هؤلاء الأصناف الثلاثة، [﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة، يدخلونها عند الثلاثة بالبناء للفاعل والمفعول خبر ﴿جَنَّٰتُ﴾، المبتدأ] بالبناء للفاعل يَدخلونها، وبالبناء للمفعول يُدخلونها، وهم إذا أُدخلوا فقد دخلوا وإذا أدخلوا فقد دخلوا، فكأن القراءتين واحد، لكن يستفاد من كلمة يُدخلونها بيان أنهم يُعطَونها كرامة، فتقدم إليهم حتى يدخلوها، لكن يَدخلونها بدون أن يقال يُدخلونها، فإن الداخل قد يدخل كرامة وقد يدخل من ذات نفسه، لكن إذا أُدخلها كأنها قدمت لهم على سبيل الكرامة، حتى يدخلو ها.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جنات جمع جنة، قال العلماء: والجنة البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يستر من كان داخله، والله أعلم .

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ عدن بمعنى: إقامة، يعني أن هذه الجنات جنات إقامة، لا ظعن فيها، بل هم خالدون فيها أبدًا، ومع ذلك ليس واحد منهم يتمنى أن يتحول عما هو فيه، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] بخلاف الجنة فإن الإنسان لو كان في أحسن ما يكون من البساتين لتمنى أن يتحول إلى ما هو أحسن منه وأفضل منه، لكن في الآخرة كل واحد منهم يرى أنه في مكان إقامة لا يريد أن يتحول عنه.

وهذا لا شك أنه من كمال النعيم، أن يستقر الإنسان، وأن يرى أنه في أكمل ما يكون، حتى لا تتشوق نفسه إلى نعيم أعلى فيتنغص نعيمه؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا رأى أنه دون غيره وإن كان في مقام أمين وإن كان في مقام منعم فيه، لكن يتنغص عليه ذلك بكونه

يرى أن غيره أفضل منه.

قال: [يدخلونها بالبناء للفاعل وللمفعول خبر جنات، مبتدأ]، وجملة يُدخلونها أو يَدخلونها خبر، يحلون [خبر ثان]، ولا تصح أن تكون حالًا من الفاعل؛ وذلك لأن تحليتهم بذلك بعد الدخول، ولو قلنا: يُدخلونها حال كونهم يحلون؛ للزم من ذلك أن يكون التحلية حين الدخول أو قبله،، يحلون خبر ثانٍ، وهل يجوز أن يتعدد الخبر؟ الجواب: نعم، وهذا في القرآن كثير، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤] الخبر الآن أربعة، الغفور، والودود، وذو العرش، والمجيد، فتعدد الأخبار جائز في اللغة العربية.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنات ﴿فِيهَا مِنْ﴾ قال المؤلف: [بعض]، فأفادنا أن ﴿مِنْ﴾ هنا ليست بيانية، بل هي تبعيضية، ولو قيل: إنها بيانية لكان له وجه جيد؛ لأن التحلية لا تتعين في الأساور، إذ قد يحلى الإنسان بالخروص مثلًا أو بالقلائد أو ما أشبه ذلك، فجعلها بيانية أولى من جعلها تبعيضية؛ لأنك إذا قلت: يحلون بعض أساور لم تكمل التحلية بالأساور وإنما يحلون بعضها، إلا إذا قلت: إنها للتبعيضية؛ لأن الأساور المذكورة هنا نوعان فقط، ذهب ولؤلؤ، مع أنهم لهم حلية أخرى، وهي الفضة كما قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فإذا جعلتها تبعيضية باعتبار أن الأساور المذكورة من نوعين وبقي نوع ثالث لم يذكر؛ صار القول: بأنها للتبعيض له وجه وقد ذكرنا مرارًا كثيرة أنه إذا احتمل اللفظ معنيين لا يتنافيان فإنه يحمل عليهما، فيمكن أن نجعل (من) هنا مشتركة بين كونها بيانية وبين كونها تبعيضية، بين كونها بيانية؛ لأن التحلية تكون من الأساور وغيرها، فتكون (من) هنا مبينة ما يتحلون به، وتبعيضية؛ لأنه ذكر من الأساور هنا نوعان وبقي نوع ثالث لم يذكر.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [مرصع بالذهب].

قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أما ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي مجرورة لا شك فيها، لأنها دخلت عليها (من)، وأما ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ فهي منصوبة

و لكن قوله: [مرصع] يدل على أنها مجرورة، كما هي القراءة الثانية.

ولو أنه أراد قراءة النصب لقال: مرصعًا، إذن نقول: لؤلؤ فيها قراءتان سبعيتان، إحداهما بالنصب ولؤلؤًا، وعلى هذا تكون معطوفة على محل أساور، يعني: يحلون فيها أساور ولؤلؤًا أساور من ذهب، ويحلون لؤلؤًا أيضًا، وأما بالجر ولؤلؤٍ فهي معطوفة على من ذهب، يعني: يحلون فيها أساور من نوعين، من ذهب ولؤلؤ.

أضف إليها حُلوا أساور من فضة تكون أساورهم من ثلاثة أنواع، من الذهب واللؤلؤ والفضة، ولا نشك أن السوار من الذهب مجمِّل، وفيه جمال بذاته، وكذلك السوار من الفضة، وكذلك السوار من اللؤلؤ، فكل واحد منها على حدة فيه جمال وتجميل، فإذا اجتمعت الثلاثة،

وصك بعضها إلى بعض تولد من ذلك تجميل أكبر، ولا أحد يتصور كيف تجمع هذه الثلاثة، هل يكون اللؤلؤ بين الذهب والفضة، أو الذهب بين اللؤلؤ والفضة، أو اللؤلؤ بينهما؟ المهم أن ترتيبها هذا لا أحد يتصوره الآن، لكن الذي نؤمن به أن هذه الثلاثة تجمع، أما كيف تجمع؟ فالله أعلم به، لكننا أيضًا نعلم بأن جمعها - أي: الثلاثة - له زيادة في التجميل.

واعلم أن الذهب الذي يذكر في نعيم الجنة، والفضة، واللؤلؤ، ليست كالذهب الذي نشاهده الآن، أو الفضة، أو اللؤلؤ، بل هو ذهب أعظم، ذهب يليق بنعيم الجنة، كما أن النخل والرمان والفاكهة والعسل واللبن والخمر وما أشبه ذلك ليس كالذي يوجد في الدنيا، لأن النعيم يناسب الدار، فإذا كانت دار الدنيا لا تشابه دار الآخرة، فالنعيم الذي في الآخرة لا يساويه النعيم الذي في الدنيا، هذا من حيث المعقول، أما من حيث المنقول فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وفي الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١) وأنتم تشاهدون الآن أنه لو دعاكم رجل فقير وصنع لكم أعلى ما يمكنه من الطعام الذي هو أحسن شيء عنده، ودعاكم ورجل غني وصنع لكم أعلى ما يجد من الطعام عنده لعرفتم الفرق، الفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أن كل واحد منهم أتى بكل ما يستطيع، كذلك الفرق بين نعيم الآخرة ونعيم الدنيا، فالذهب إذن يوافق الذهب في الدنيا في الاسم ولا يوافقه في الحقيقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط(٢)، أما الحقائق فتختلف.

يقول: [من ذهب ولؤلؤ مرصع بالذهب] وقوله: مرصع بالذهب، قد يعارَض المؤلف في ذلك، إذ قد يقال: إن اللؤلؤ مستقل، حلية مستقلة، نعم ويد ل لذلك قراءة النصب، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾، يعني: يحلون لؤلؤًا، أما على قراءة الجر فما ذهب إليه المؤلف محتمل، غير متعين هو يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أن اللؤلؤ ليس مستقلًا، بل هو مرصع بالذهب، كما يوجد في حلي الدنيا، ولكننا لا نسلم ما قال، بل ظاهر الآية الكريمة أن اللؤلؤ سوار مستقر، ويؤيد هذا ويبين هذا قراءة النصب، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يعني: يحلون لؤلؤًا، فجعل حلية اللؤلؤ حلية مستقلة

قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما ذكر ما يلبس في اليد ذكر اللباس العام، على جميع البدن، فقال: ﴿حَرِيرٌ﴾، لباسهم في الجنة حرير، وحرير الجنة، ليس كحرير الدنيا الذي تفرزه أو تصنعه دودة القز، وقابل لكل آفة، بل حرير الآخرة حرير لا يماثل شيئًا من حر ير الدنيا أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، قالوا: يعني أهل الجنة ومتى يقولون ذلك؟ يقولون ذلك بعد دخول الجنة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾، الحزن الكائن في النفوس، وهو الهم أو الغم لما مضى، والخوف: الهم لما يستقبل، فهنا هل نقول: إن الحزن يشمل الغم مما مضى والهم مما يستقبل؟ نعم نقول: نعم كذلك في الجنة جميع ما مضى عليهم من الأحزان والهموم وغيرها ينسونه، كما جاء في في الحديث الصحيح، أن الإنسان يغمس في الجنة، يصبغ صبغة واحدة، يغمس فيها فيقال له: هل رأيت شرًّا قط؟ فيقول: لا[1]، كل ما مضى من الشرور والأحزان والهموم كلها ينسونه.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

و الفرق بين الحمد والشكر، الحمد قلنا: له سببان فهو أعم من الشكر من حيث السبب، إذ إن سببه: كما ل المحمود وإنعام المحمود، الشكر ليس له إلا سبب واحد، وهو إنعام المشكور، فأيهما أعم؟ الحمد أعم؛ لأنه يكون على هذا وهذا، الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح؛ بالقلب أن يعترف الإنسان بقلبه بنعمة المنعم، باللسان أن يشكره بلسانه ويثني عليه بلسانه، بالجوارح أن يقوم بطاعته، فلا يخالفه وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَ

أما الحمد فلا يكون إلا باللسان؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال، فلا يكون إلا باللسان، فأيهما أعم من هذه الناحية؟ الشكر، إذن الشكر أعم متعلقًا؛ لأنه تعلق بالقلب واللسان والجوارح.

الحمد ما يتعلق بالقلب؟

ربما يتعلق بالقلب، لكنه ما يُسمى حمدًا، يعني: من أضمر في نفسه الثناء على الله - عز وجل - ما يقال: حمد، إذ إنه لم يظهر، وربما يقول قائل: إنه يكون بالقلب لكنه ليس بظاهر.

يقول: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال المؤلف: [جميعه]، يشير إلى أن (ال) هنا لاستغراق العموم، و(ال) تكون لاستغراق العموم إذا صح أن يحل محلها كُلّ بالتشديد من الكلية، إذا صح أن يحل محل (أل) كلّ بالتشديد فهي للاستغراق، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فهذه للاستغراق.

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] للاستغراق ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] لا ما هي للاستغراق، ما كل رجل قوام، أحيانًا تكون المرأة قوامة على الرجل، فهذه لبيان الحقيقة فقط، المؤلف أفادنا بقوله: [جميعه] أن (ال) هنا للاستغراق.

[﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعة]، هذه الجملة كما تشاهدون مؤكدة بمؤكدين، بإن واللام، فهم أكدوا بالثناء هذا على الله أنه - سبحانه وتعالى - غفور للذنوب،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٠٧).،

شكور للطاعة، الغفور هنا صيغة مبالغة أم صفة مشبهة؟ هي تشمل الأمرين جميعًا، هي صيغة مبالغة لكثرة غفران الله تعالى للذنوب، وكثرة من يغفر لهم، فهو كثير المغفرة للذنوب، إذ إن الذنوب تتكرر من الإنسان عدة مرات فيغفرها الله، والذين يغفر الله لهم كثيرون أو قليلون؟ كثيرون، ومن جهة أخرى باعتبار أن الله تعالى لم يزل غفورًا؛ نقول: هي صفة مشبهة.

وقوله: ﴿شَكُورٌ﴾، نقول فيها كما قلنا في غفور: بأنه - عز وجل - لم يزل شكورًا على طاعة عباده، وامتثالهم أمره، ومن شكره أنه يعطي العامل الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وهو أيضًا شكور باعتباره صيغة مبالغة؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الشكر.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هنا يجوز أن تكون صفة لما سبق وهو الله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾، ويحتمل أن تكون استئنافًا، يعني: أنها في محل رفع على القطع؛ لأن المنعوت إذا علم وتعدد النعت له جاز في النعت الثاني القطع والإتباع، كما قال ابن مالك:

وَإِنْ نُعوتٌ كَثُرَتْ وقَدْ تَلَتْ مُفْتَقِرًا لِذِكْرِهِنَّ أُتْبِعَتْ

و إن لم يكن مفتقرًا جاز القطع. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دار المقامة المقامة هنا بمعنى: الإقامة، فهي إذن ظرف مكان، أو أنها مصدر، مصدر ميمي، دخلته التاء، ودار المقامة هي: دار الجنة، ووصفت بذلك؛ لأن ساكنيها مقيمون فيها أبدًا، ولأنهم لا يريدون الإقامة بغيرها، كل واحد منهم لا يبغي حولًا عما هو فيه؛ لأنه يرى أنه أكمل أهل الجنة، نعم، بل إن الله قنعهم بما هم عليه من النعيم، حتى لا يتطلعوا إلى نعيم أكبر فيحتقروا ما هم فيه، بخلاف أهل النار فإن أهل النار كل واحد منهم يرى أنه أشد أهل النار عذابًا؛ لأنه لو يرى أن غيره يماثله، أو أن غيره أشد منه، لهان عليه العذاب.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من: سببية هنا، أي: بسبب فضله، أي: تفضله علينا؛ لأنه لولا فضل الله عليهم ما وصلوا إلى هذا المقام العظيم، فكل ما في الإنسان من خير ونعمة فمن الله - سبحانه وتعالى -، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] فإحلالهم دار المقامة هو من فضل الله تعالى، وهذا من تمام شكرهم لله حيث اعترفوا له بالفضل، بخلاف الذي إذا أصابته النعماء قال: هذا لي، أو هذا من عندي، أو ما أشبه ذلك.

قال تعالى: [﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب، ومعنى يمسنا أي: يصيبنا، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

فالمس بمعنى: الإصابة.

وقوله: [﴿نَصَبٌ﴾: تعب، ﴿لُغُوبٌ﴾: إعياء]؛ لأن هناك تعبًا مباشرًا ينال الإنسان حين الفعل، وإعياءً يكون أثرًا للتعب، أليس كذلك؟ أنت إذا مارست عملًا شاقًّا فإنك حين ممارسته تتعب، ثم بعد انتهائه تعيا، يعني تضعف وتخلد إلى الراحة وإلى النوم، في الجنة ليس فيها نصب، يعني: تعب بدني، حين مزاولة الأعمال، ولا لغوب أي: إعياء، وهو الناتج عن التعب.

قال: [إعياء من التعب لعدم التكليف فيها] هذا تعليل عليل؛ لأن التكليف حتى في الدنيا غالبه ليس فيه تعب، بل إن بعضه يكون راحة للبد ن وراحة للقلب، وتنشيطًا للبدن وصحة له، وليس هذا هو المقصود الأول في العبادات، لكنه يحصل من ممارسة العبادة، يحصل من ذلك النشاط والصحة، كما هو موجود مثلًا في الصلاة، موجود في الصيام، موجود في الحج، فليس هناك تعب في الأعمال الصالحة، بل نقول: لا يسمنا فيها نصب هذا من باب الصفات السلبية المتضمنة لكمال ضدها، فلا يسمنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب لكمال نعيمهم وراحتهم وأنسهم وفرحهم وما أشبه ذلك.

يقول: [لعدم التكليف فيها، وذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه]، ذكر الثاني وهو: اللغوب، التابع للأول وهو التعب؛ لأن اللغوب كما قلنا قبل قليل: نتيجة التعب، فكأن المؤلف أجاب عن سؤال، كأنه قيل: إذا انتفى التعب انتفى اللغوب الذي هو نتيجته، فلماذا لم يُقتصر على نفي التعب وقيل: لا يمسنا فيها نصب وإذا انتفى النصب انتفى اللغوب؟ أجاب عن ذلك بأنه ذكر من أجل التصريح بنفيه، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولا شك أنه وجه حسن، لكن ربما نقول: إن الإنسان أحيانًا يجد إعياءً وكسلًا وموتَ قوىً، بدون عمل، وبدون تعب، وهذا مشاهد، وعليه فيكون نفي اللغوب أمرًا ليس تأكيدًا، وإنما هو أمر أساسي؛ لأن الإنسان قد يجد إعياءً أحيانًا وهو ما فعل شيئًا ما اشتغل إذن نقول: إن ذكره أساسي وليس من باب التصريح بنفيه الذي لا يقصد منه إلا مجرد التوكيد.

المهم: أن أهل الجنة لكمال نعيمهم لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

الفوائد:

﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [فاطر: ٣١].

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات أن القرآن كلام الله - عز وجل -، لقوله: ﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ والوحي إعلام الله - سبحانه وتعالى - أحد أنبيائه بشريعة من شرائعه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن القرآن كلام الله تعالى، تكلم به حقيقة، بحروفه وبصوت مسموع، لكنه لا يشبه أصوات المخلوقين.

٢ - **ومن فوائدها**: فضيلة رسول الله ﷺ بما أوحى الله إليه هذا القرآن العظيم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: اشتمال القرآن الكريم على الحق، على الحق في أخباره وفي أحكامه، فأخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.

٤ - **ومن فوائدها**: أن ما خالف القرآن فهو باطل لقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فحصر الحق فيه، والحصر إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فكل ما خالف القرآن فهو باطل بلا شك.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إنذار المخالفين لهذا القرآن وبشارة الموافقين له، مستفادة هذه الفائدة من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٦ - **ومن فوائدها**: إثبات هذين الاسمين لله - عز وجل - وما تضمناه من صفة وحكم، خبير وبصير.

٧ - **ومن فوائدها**: عموم علم الله وشموله حتى لما يقوم به العباد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: علم الله تعالى بما تكنه الصدور، من أي الاسمين يؤخذ؟ من قوله: خبير، وربما نقول أيضًا: وبصير؛ لأن بصير بمعنى: العليم والمبصر.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن جميع الخلق معبودون أو عابدون؟ عابدون لله كل الخلق، كلهم عباد الله﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، فلا حق لأحد من المخلوقين في شيء من خصائص الرب، بل الكل عبد ذليل لله - سبحانه وتعالى -.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن القرآن كتاب، أي: مكتوب، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ و، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذا القرآن مصدق لما سبقه من الكتب، لقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أن الذي يؤمن بهذا القرآن مؤمن بالكتب السابقة؛ لأن هذا القرآن مصدق لها، فيكون الإيمان به إيمانًا بما سبق من الكتب.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الاستشهاد بالأمر الواقع، حتى وإن كان من عند الله، بمعنى: أن الله تعالى يستشهد بالأمر الواقع ليزداد إيمان المؤمنين، وجه ذلك: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على أحد المعنيين، وهما أنه وقع مطابقًا لما أخبرت به فإنه إذا أخبرت به ثم جاء فهذا دليل على صدقه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] فاستشهد الله تعالى بعلم علماء بني إسرائيل زيادة في التثبيت وإقامة للحجة على المنكرين من أهل الكتاب.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: رحمة الله تعالى بعباده حيث لم يدعهم هملا بل أنزل إليهم الكتب التي يستنيرون بها في سيرهم إلى الله - عز وجل -، لقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** سعة التعبير في اللغة العربية، وأن المقصود المعنى دون مجرد اللفظ، لقوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لأنه قد يقول قائل: وهل للقرآن يد، **فالجواب**: أن هذا من باب التوسع في التعبير في اللغة العربية، وأن المقصود هو المعنى، والألفاظ قوالب، قوالب تدل على المعنى، قوالب الشيء يعني: معناه أوانيه التي يجعل فيها، فأنت مثلًا إذا قدم إليك كرتون مزخرف مزين بالذهب تستدل بهذا، على ما في باطنه وأنه شيء غال قيم، فالألفاظ في الواقع قوالب يستدل بها على ما تضمنته من المعاني، وليس لها أي: للألفاظ معنًى ذاتيًّا حتى لا تتغير بأي تركيب كانت، بل هي تتغير بحسب التركيبات والسياق.

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية:** فضل الله - عز وجل - على هذه الأمة حيث أورثها هذا الكتاب العظيم، الذي وصفه الله بأنه الحق وأنه مصدق لما بين يديه، أورثه الله تعالى هذه الأمة، ففي ذلك بيان فضل الله علينا بهذا الإرث.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذه الأمة أفضل الأمم، لقوله: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة، واستدللنا لذلك أيضًا بآية أخرى، وهي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، من أين تؤخذ؟ من ثم الدالة على التراخي، وهو كذلك، ولا نعلم فترة أطول منها بالنسبة لما بين الرسالات والكتب المنزلة، فقد قيل: إن أطول ما كان بين آدم ونوح، وهذا أمر قد يشك فيه الإنسان، لكن ما بين عيسى ومحمد - عليه الصلاة والسلام - حوالي ستمائة سنة، وإنما طالت الفترة لتشدد حال الناس إلى إرسال الرسل، فتأتي الرسالة المحمدية إلى قوم في غاية الضرورة إلى الرسالة والوحي، ويكون لرسالته مزية عظيمة، حيث جاءت كالمطر ينزل على أرض مجدبة، فتكون أشد قابلية له وأشد تأثرًا به.

٤ - **أيضًا:** تقسيم هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام، ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات.

٥ - **ومنها:** الرد على الخوارج والمعتزلة؛ لقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وجعلهم من الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده، ولو خرجوا من الإسلام لم يكونوا من المصطفين، قد يقول قائل: يمكن أن يعارض الخوارج والمعتزلة هذا الاستدلال بأن يقولوا: إن المراد بالظلم هنا ما دون الكبائر، فيقال: إن ما دون الكبائر يقع مغفورًا بفعل الطاعات، كالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وحينئذ ينتفي الظلم بمجرد فعل هذه الطاعات، ثم نقول قولًا آخر بأن الآية مطلقة، تشمل الظلم الأصغر والظلم الأكبر، ففيها رد على الخوارج والمعتزلة، الذين يكفرون أو يخرجون الإنسان بالكبيرة من الإسلام، وحينئذ لا يكون العباد الذين اصطفوا.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل عمل يقوم به الإنسان فهو بإذن الله - عز وجل - وإرادته، لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٧ - **وفيها:** الرد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله يقول ويفعل ويترك بغير إذن الله، بل هو مستقل بمشيئته وفعله.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا:** كبح النفس عن الاستعلاء والفخر بالطاعة؛ لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى لا يقول الإنسان: فعلت ذلك من نفسي، وأنا الذي فعلت وفعلت، وهذا خلافًا لما يسير عليه بعض الناس، إذا فعل المعصية كان جبريًّا، وإذا فعل الطاعة كان قدريًّا، إذا فعل الطاعة قال: هذا مني وأنا الذي فعلت وأنا الذي فعلت، وإذا فعل المعصية قال: هذا من الله وأنا مجبر عليه، فبعض الناس يسلك هذا المسلك، وهذا مسلك بعيد من العدل.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عموم مشيئة الله - عز وجل - حتى في أفعال العبد، لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها:** تفاضل الناس في العمل، ويتفرع عليه تفاضلهم في الإيمان، أين الدليل على تفاضلهم في العمل؟ تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام، ويلزم من تفاضلهم في العمل أن يتفاضلوا في الإيمان، فيكون في ذلك دليل لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بزيادة الإيمان ونقص الإيمان.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكبر فضل يتفضل الله به على عبده أن يوفقه للقيام بطاعته، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

١٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن إفضال الله تعالى على عباده يتفاضل، فمنه الكبير، ومنه الصغير، وهذا أمر مشاهد، ففضل الله على الرسل أعلى من فضله على الأنبياء، وفضله على الأنبياء أعلى من فضله على الصديقين، وعلى الصديقين أعلى من فضله على الشهداء، وعلى الشهداء أعلى من الصالحين، وهذا لا شك فيه.

ثم قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى آخره.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن جزاء أولئك القوم الذين أورثوا الكتاب على اختلاف طبقاتهم الثلاث، أن جزاءهم جنات عدن لقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أو يُدخلونها على القراءتين.

٢ - **ومنها:** الإشارة إلى كمال نعيم الجنة، لكونها جنات بهيجة، وكونها محل إقامة لا ظعن منها أبدًا؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** ما ينعم الله به على عباده في هذه الجنات من أنواع الفواكه والمطاعم بدخوله في كلمة ﴿جَنَّٰتُ﴾، وكذلك من الملابس؛ لقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

وَلُؤْلُؤًا﴾.

٤ - **ومن فوائدها**: أن الجنة ليست دار تكليف، أي: دارًا يمنع منها العبد مما يتنعم به، بل يتنعم بكل ما شاء؛ لأننا نعلم جميعًا أن تحلى الرجال في الدنيا بالذهب ممنوع وحرام، لكنه في الجنة مباح وممنوح، وليس بممنوع؛ لأن الجنة لهم فيها ما يشاءون، بل أكثر مما يشاءون ويريدون.

٥ - **ومنها**: ما يحصل من الجمال بتنويع الحلي بكونه من ذهب ولؤلؤ، وفي الآية الأخرى فضة، وهنا لم يذكر الله تعالى تحديد هذه الحلية لكن جاءت بها السنة، حيث قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»[1].

٦ - **ومنها**: نعومة لباسهم، وأنه أنعم ما يكون من اللباس؛ لقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ حرير لا يخلق ولا يتدنس، بل هو دائمًا على جدته ونظافته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: فضيلة أهل الجنة في ثنائهم على ربهم، في قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا**: أن حمد الله تعالى يكون على إنعامه وإفضاله، وعلى كمال صفاته فهنا قالوا: ﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فحمدوا الله على إنعامه عليهم، وعلى كونه غفورًا شكورًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: كمال الفرح والسرور لأهل الجنة، لقولهم: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.

فإن هذه الصفة السلبية تدل على كمال ضدها، فإذا كان الحزن منفيًا عنهم كان ذلك دليلًا على كمال سرورهم، وأنه سرور لا يشاب بحزن أبدًا، بخلاف سرور الدنيا، فإن سرور الدنيا مهما عظم مشوب بالكدر، ولهذا يقول الشاعر الحكيم:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً   لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوتِ والهَرَمِ

نعم الإنسان مهما كان في الدنيا من النعيم فإنه إذا تذكر أن أمامه شيئين لا بد منهما، لابد من أحدهما قطعًا، فإن طالت به الحياة فلابد من الأمرين جميعًا، وهو الهرم والموت، وحينئذ تتنغص عليه حياته، ثم هو أيضًا يعرف أنه كل يوم يمضي عليه يعلم فإنه يبعده من الدنيا ويقربه من الآخرة، وهذا تنغيص آخر، ولهذا قال الشاعر:

وَالمَرْءُ يَفْرَحُ بِالأَيَّامِ يَقْطَعُهَا   وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ

على كل حال في الآخرة نعيم لا كدر فيه، لقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١٤٩).

٤ - **ومن فوائدها:** أن نعيم الآخرة ينسي كل ما سبقه من حزن؛ لقوله: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وذهاب الحزن هنا ذهاب لما قد وجد ولما يتوقع وجوده، فلا يمكن أن يمسهم فيها حزن.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما الغفور والشكور، الغفور في جانب المعاصي والشكور في جانب الطاعات، أما في المعاصي فإنه - عز وجل - قال في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

لغفرت لك، وأما في الطاعات فإن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**إنما فاعل الحسنة تكتب له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**».

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

١ - **فيها:** فضيلة أهل الجنة في إضافتهم النعيم إلى المنعم به، من أين؟ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ فنسبوا الأمر إلى الله وإلى فضله ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾، وهذا غاية الثناء والحمد.

٢ - **ومن فوائدها:** أن دار الجنة دار إقامة كل إنسان لا يتمنى أن يزول عن مكانه منها، حتى من كانوا في الدرجات غير العالية يرون أنهم في أكمل النعيم؛ لقوله دار المقامة.

٣ - **ومنها:** تأبيد الجنة لإطلاق قوله المقامة ولم تقيد بزمن.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن بلوغهم إلى هذه الدار ليس بحولهم وقوتهم، ولكن بفضل الله - عز وجل - لقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب؛ لأن من هنا سببية، أي: بفضل الله، ففيها رد على من ينكرون الأسباب، ويقولون: إن الأسباب لا تأثير لها، وإنما يحصل الشيء عندها لا بها.

٦ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا يدخل الجنة بعمله؛ لقوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾، ولكن قد يشكل على هذا قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وأشباههما من الآيات.

وقد جمع العلماء بينهما بأن الباء في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] الباء للسببية، وأن ا لباء في قول الرسول عليه الصلاة والسلام «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ**»(٢) للعوض يعني: أن دخول الإنسان الجنة ليس بعمله، إذ لو أنه أريدت المعاوضة، لهلك الإنسان، لو أن

(١) **صحيح:** أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٢٧).
(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الإنسان نوقش في عمله بالإضافة إلى نعمة الله عليه لكانت نعمة واحدة تقابل كل العمل، بل لكان العمل نفسه نعمة، يحتاج إلى شكر؛ لأن توفيق الله - عز وجل - العبد للعمل الصالح نعمة من الله.

وهذا حق، كل عمل صالح توفق له فهو نعمة من الله عليك يحتاج إلى شكر، فإن شكرته صار الشكر نعمة يحتاج إلى شكر آخر، ثم لا تستطيع أن تثني على ربك؛ بل تقف، تقول: سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

٧ - ومن فوائد الآية الكريمة: كما ل الراحة في الجنة؛ لقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وكمال القوة والنشاط؛ لأن التعب إنما يلحق البدن الضعيف، إذا قال قائل: من أين عرفنا الكمال؟ من النفي؛ لأن نفي النقص إثبات لكما ل ضده .

٨ - وهل يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الجنة ليس فيها نوم؟

أخذ نفي النوم من هذه الآية فيه شيء من الإشكال، لكن إذا أردنا أن نتوسع في الاستدلال فيمكن أن نقول: إن النوم إنما يحتاج إليه لراحة من تعب سابق، وتجديد نشاط لعمل لاحق، أليس كذلك؟ وإذا كان الإنسان في محل إقامته لا يمسه النصب ولا اللغوب، فإنه لا يحتاج إلى النوم، يرد علينا الأكل والشرب، الأكل والشرب في الجنة ثابت مع أنه يحتاج إليه في الدنيا لحاجة البدن إلى النمو وإلى العمل، فيقال: إن أكلهم في الآخرة ليس للحاجة ولكن على سبيل التلذذ، ولهذا يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، إنما يخرج ذلك رشحًا، يعني: عرقًا، أطيب من ريح المسك، ولهذا يأكلون دائمًا، لكن في الدنيا إذا امتلأ الإناء لم آكل أكثر.

على كل حال لا شك أنهم لا ينامون من نصوص أخرى، والعلماء يقولون: إن النوم أخو الموت، وقد نفي الله عنهم الموت، فإذا انتفى الموت فإن النوم ينتفي أيضًا؛ لأنه وفاة صغرى، ثم إنهم لو كانوا ينامون لأدى ذلك إلى تعطل نعيمهم وقت نومهم، والجنة نعيمها دائم مستمر.

و قد يقال: إن النوم نفسه، لكن هو لذة ومتعة لما نحتاج إليه مثل الأكل هو لذة ومتعة لما نحتاج إليه.

فالنوم ليس متعة إلا لمن يحتاجه فقط، أما من لا يحتاجه فليس فيه فائدة هذا استنباطًا من الأدلةالتي ذكرت ليس هناك أدلة صريحة.

٩ - من فوائد الآية أيضًا: أن أهل الجنة لا يتعبون في مزاولة الأعمال، ولا يلحقهم إعياء بعد ذلك، لقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، لكن هل هم يتعبون؟ نقول: لا يتعبون قطعًا كما في الآية، لكنهم يعملون ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦] يعملون

في نعيمهم يفجرون الأنهار، ويجنون الثمار، نعم إلا أنه بدون كلافة ولا مشقة، كما قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ [الحاقة: ٢٣].



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[فاطر:٣٦-٣٨]

التفسير

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فثنى بذكر عقاب أهل النار؛ لأن القرآن مثاني، كلما ذكر فيه معنى ذكر فيه ما يقابله، ولا تكاد تجد آيات في القرآن يذكر فيها معنى إلا وذكر ما يقابله؛ لأن القرآن مثاني، لئلا تتمادى النفس في الرجاء، إذا ذكر النعيم وحده فإن النفس تتمادى في الرجاء، وحينئذ تأمن مكر الله، ولو ذكر الوعيد وحده لتمادت النفس في الخوف فقنطت من رحمة الله، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يذكر هذا تارة وهذا تارة حتى يكون الإنسان سائرًا من غير ميل إلى الرجاء، ومن غير ميل إلى القنوط، وهذه المسألة اختلف العباد فيها هل الأولى أن يسير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء، فيكون خائفًا راجيًا، أو الأولى أن يغلب الرجاء، إحسانًا للظن بالله - عز وجل -، أو الأولى أن يغلب الخوف؟

في هذا خلاف بين العلماء، الإمام أحمد روي عنه أنه قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب الرجاء أمن الإنسان من مكر الله، وإن غلب الخوف قنط من رحمة الله، فيكون خوفه ورجاؤه واحدًا، قالوا: فالخوف والرجاء كالجناحين للطائر، إن هبط أحدهما؛ مال الطائر إليه، واختل توازنه، وإن تساويا؛ استقام الطائر، واعتدل توازنه.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا يختلف باختلاف الأحوال، فإذا فعل الإنسان الطاعة فليغلب الرجاء، وأن الذي وفقه لها سوف يقبلها منه ويثيبه عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] إذا وفقت للدعاء وفقت للإجابة، إذا وفقت للعمل ووفقت

للقبول، وإذا عمل المعصية فليغلب جانب الخوف، وليرجع إلى ربه؛ لأنه إن غلب جانب الرجاء بعد فعل المعصية فإنه لا يتوب منها، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ويقول: الله غفور رحيم، وما أشبه ذلك، فيكون تغليب الرجاء في حال، وتغليب الخوف في حال أخرى.

وقال بعض العلماء: نعم يغلب الخوف في حال والرجاء في حال، لكن لا باعتبار العمل بل باعتبار الحال، فإذا كان مريضًا؛ فليغلب جانب الرجاء، لقول النبي ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله**»[1]، وإن كان صحيحًا فليغلب جانب الخوف، والمناسبة قالوا: لأن المريض تضعف نفسه، وتنكسر، وليس يميل إلى الدنيا، ولكنه يهتم بما أمامه، فليغلب جانب الرجاء، ليس هناك نفس تتطلع إلى الدنيا وتنغمس في الترف، بل نفسه قد رقت وآوت إلى الآخرة وأما إذا كان صحيحًا فإن النفس الآن فيها شرى وتطلع للدنيا وإترافها، فيغلب جانب الخوف.

على كل حال ممكن أن نقول: إذا وجدت أسبابًا يخاف الإنسان على نفسه من تغليب جانب الرجاء فليقدم الخوف، وإن وجدت أسبابًا تقتضي أن يخاف الإنسان وييأس من رحمة الله فليغلب جانب الرجاء، يعني: إذا فعل أسباب الرجاء فليغلب الرجاء، وإذا وجدت أسباب الخوف فليغلب جانب الخوف .

هنا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى أولًا بالمبتدأ، ثم أتى بمبتدأ وخبر آخر، وهذا يفيد التوكيد، فهو أشد توكيدًا من مثل قوله تعالى ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المُلك: ٦]، لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بقي الذهن متشوفًا متطلعًا إلى الخبر، ما الذي يكون لهؤلاء؟ قال: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ - أعوذ بالله -، يعني: ليس لهم إلا ذلك، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وهذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ لأن النار أحيانًا تطلق على النار، لأن النار يعبر عنها أحيانًا وحدها، يعبر عن النار بالنار وحدها، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١] وأحيانًا يعبر بجهنم عن النار، مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البيِّنة: ٦] وحينئذٍ يقع الإنسان في إشكال، يقول: كيف يُضاف الشيء إلى ذاته أو إلى نفسه؟ فالنار هي جهنم وجهنم هي النار، نقول: إضافتها هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، ولهذا لا يقال: جهنم نار، ولكن يقال: نار جهنم، فجهنم علم من باب اللقب، وأنتم تعرفون أن العلَم اسم وكنية ولقب، فجهنم اسم علم لكنه من باب اللقب، والعلم اللقب بمنزلة الصفة، يعني: بمنزلة النعت؛ لأن اللقب عندهم: ما أشعر بمدح أو ذم، وبناءً على ذلك يتبين أن مثل هذا التركيب نار جهنم من باب إضافة الموصوف إلى صفته، كيف ذلك؟ النار هي هذا الجوهر الحار المعروف، جهنم أصلها من الجهمة، وهي الظلمة، لبعد قعرها وخلوها من النور، ومن هنا نعرف أن هذا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الاسم فيه شيء من الاشتقاق، فيكون دالًّا على وصف.

قوله: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، [لا يقضى عليهم بالموت﴿فَيَمُوتُوا﴾: يستريحوا].

قال الله تعالى في ذلك. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] لا هو ميت فيستريح، ولا حي حياة يتنعم فيها، بل في شقاء دائم، يتمنون الموت ولكن لا يحصل لهم، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخرُف: ٧٧].

فهنا يقول: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا، ويستريحوا، والفاء في قوله: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فاء السببية والفعل بعدها منصوب، بحذف النون، والواو فاعل لوقوعه بعد النفي الكائن في قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قال: [﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ طرفة عين]، فهم في عذاب مستمر، لا يستريحون منه، لا بموت، ولا بنوم، ولا بتخفيف، - والعياذ بالله - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩] هذا هو الذل - والعياذ بالله -، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ كأنهم آيسون أن يدعوا الله؛ لأن الله قد قال لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيطلبون الوسائط ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم هذا دعاء يعني: استجداء ضعيف، ﴿يُخَفِّفْ﴾ولم يقولوا: يمنع، فطلبوا التخفيف، يومًا ولم يقولوا دائمًا، فهنا يظهر أثر الضعف عليهم والذل والهوان من ثلاثة وجوه:

أولًا: أنهم طلبوا الشفعاء، فلا يستطيعون أن يتكلموا.

ثانيًا: طلبوا التخفيف دون المنع النهائي.

ثالثًا: أنهم طلبوا ذلك يومًا من الأيام، لا دائمًا، ولكن هل تجيبهم الملائكة؟ تجيبهم بالتوبيخ - والعياذ بالله - ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ﴾قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٥٠] فهم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا تجاب دعوتهم في ذلك، ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يومًا واحدًا؛ لأنهم قد أنذروا وقامت عليهم الحجة من كل وجه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ﴾[كما جزيناهم ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ كافر، بالياء والنون المفتوحة، مع كسر الزاي، ونصب كل] المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أجمل في بيان هاتين القراءتين إجمالًا مخلًّا، القراءتان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ بالنون المفتوحة، والزاي المكسور ونصب كل، ووجه هذه القراءة ظاهر؛ لأن ﴿نَجْزِي﴾ فعل مضارع وفاعله مستتر، و﴿كُلَّ﴾مفعول به، القراءة الثانية يُجزَى كلُّ كفور، (كذلك يُجزَى كلُّ كفور)، وصنيع المؤلف لا يؤدي هذا المعنى، بل ظاهره أن كل منصوبة على القراءتين وأيضًا ظاهره أن الزاي مكسورة على القراءتين، وأن الياء مفتوحة

على القراءتين، يَجزي كلَّ كفور والقراءة (يُجزَى كلُّ كفور).

كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ترد كثيرًا في القرآن الكريم، ويقول المعربون: إن الكاف مفعول مطلق، وأن تقدير الكلام مثل ذلك الجزاء نجزي، عامل هذا المفعول المطلق ما بعده من الفعل، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] أي: مثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي كل كفور.

وقوله: ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾، قال المؤلف: [كافر]، يعني: أن صيغة المبالغة هنا لا تراد، بل مطلق الكفر موجب لهذا الجزاء؛ لأنك لو اعتبرت صيغة المبالغة بظاهر معناها لكان لا يجزى هذا الجزاء إلا من تكرر كفره، ولكن لا نمنع أن نقول: إن كفور هنا صفة مشبهة، ويكون المعنى كل من اتصف بالكفر، - والله أعلم -.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال المؤلف: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [يستغيثون بشدة وعويل]، قوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: هذه من الصراخ، والصراخ معروف، وهو رفع الإنسان صوته أشد ما يرفع، وقيل: يصطرخون فأتي بالتاء للمبالغة في الصراخ، كما يقال: خطب واختطب، أيهما أبلغ؟ اختطب أبلغ من خطب صرخ واصطرخ، اصطرخ أبلغ من صرخ.

وقد ذكروا قاعدة أغلبية في هذا المقام فقالوا: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذه القاعدة أغلبية؛ لأنها تنتقض بشجرة وشجر، وبقرة وبقر، فإن شجرة زائدة المبنى على شجر، ناقصة المعنى؛ لأن الشجرة تدل على واحد وشجر على جمع، لكن ما الغالب؟ أن ما زاد في المبنى زاد في المعنى، فاصطرخ لا شك أنها أبلغ من صرخ.

فهم - والعياذ بالله - يصطرخون هذا الاصطراخ العظيم في النار يصطرخون فيها يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ﴿رَبَّنَآ﴾ الآن يقرون بالربوبية وأنه لا يغيثهم من الشدة إلا الله، وكانوا في الدنيا يستغيثون بغير الله، بأصنامهم، وما يعبدون من دون الله، أما الآن فقد عرفوا أنه لا يمكن أن ينجيهم مما هم فيه إلا الله، وقولهم: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ أتت نعمل بالجزم؛ لأنها جواب للطلب في قوله: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ وإذا كان جوابًا للطلب كان كالشرط المقدر، أخرجنا إن تخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، هكذا يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾، يعني: من النار، نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، ولكن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا كلام الله - عز وجل - العالم بما سيكون لو أخرجهم، فهؤلاء يقولون ذلك من باب الاعتذار، وإلا فإن قلوبهم خاربة، خربت بالأول وستخرب في الثاني، فإذا نجوا من النار عادوا إلى ما كانوا عليه.

قال الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الأولى

﴿نَعْمَلْ﴾ مجزومة على أنها جواب الطلب، والثانية مرفوعة لتجردها من الناصب والجازم.

﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ما الذي كانوا يعملون؟ يعملون عملًا سيئًا؛ لأنهم يشركون بالله - عز وجل -، ويستكبرون عن عبادته، ولو ردوا لعادوا لما كانوا عليه من قبل، ولهذا قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ أي: وقتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: الرسول، فما أجبتم، يقال لهم: توبيخًا وتنديمًا وإقامة للحجة، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فمن القائل؟

إن نظرنا إلى ظاهر الفعل قلنا: إن القائل هو الله؛ لأن الذي عمرهم هو الله - عز وجل -، ويحتمل أن يكون القائل الملائكة، لكن لما كانت الملائكة تقول: بأمر الله صار كأن القائل هو الله، فالملائكة تقول؛ لأنهم جنود الله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وأيًا كان فالمقصود بهذا إقامة الحجة عليهم وتوبيخهم وتنديمهم.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ هذه الصيغة تجيء أو هذا السياق يوجد كثيرًا في القرآن، تأتي همزة الاستفهام وبعدها حرف العطف، وقد اختلف المعربون في مثل هذا التركيب، فقيل: إن الهمزة داخلة على مقدر يستفاد من الكلام، وهذا المقدر عطفت عليه الجملة التي بعد حرف العطف، وقال بعضهم: بل إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة، لا على شيء محذوف، لكنها قدمت على حرف العطف؛ لأن لها الصدارة، فيكون التقدير في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ وألم نعمركم، وتكون الواو هنا عاطفة على قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هذا من حيث الإعراب أما من حيث المعنى فكما أشرنا أولًا إلى أن المراد بذلك: التوبيخ والتنديم وإقامة الحجة، يعني: قد عمرناكم تعميرًا واسعًا ووقتًا طويلًا، ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ لأن الرسل جاءتهم وأمهلتهم ودعتهم ولكن أبوا وأصروا على كفرهم، وكان أول من أرسل من الرسل نوح - عليه الصلاة والسلام -، فماذا يقول له قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٧] يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا، استغشوا ثيابهم لئلا يروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يقول، لا يحبون أن يسمعوه، ولا أن يروا نوحًا وهو يلقيه عليهم، ثم أصروا، يعني: بقوا على ما هم عليه، واستمروا فيه، واستكبروا استكبارًا، يعني: استكبارًا عظيمًا عن قبول الحق، هذا أول الرسل، آخر الرسل قالوا: إنه ساحر كذاب، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وآذوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالقول والفعل بل استباحوا أن يقاتلوه، ورضوا أن يبذلوا رقابهم للسيوف معارضة لدعوته - عليه الصلاة والسلام -، فهؤلاء الذين تبلغ بهم هذه الحال بعد أن عمروا ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وجاءتهم الرسل هل يرجى منهم لو خرجوا من النار أن يعودوا إلى الحق؟ أبدًا؛ لأن الأمر واحد، لكن قد يقول قائل: إنه ليس الخبر كالمعاينة، فالنار التي تُوعَدوا بها؛ أدركوها عن طريق الخبر قبل أن يكونوا فيها، أما لما كانوا فيها فقد عرفوها عن

طريق الحس والمشاهدة.

فالجواب: أن خبر الرسل المؤيدة بالآيات الدالة على رسالتهم يفيد العلم اليقيني؛ لأن الرسل ما جاءت تدعو الناس وتنذرهم وتبشرهم إلا بآيات يؤمن على مثلها البشر، وهؤلاء - والعياذ بالله - طبيعتهم التكذيب والإنكار، فلن يؤمنوا ولو خرجوا.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ النذير يقول المؤلف: [الرسول]، والمراد به: الجنس؛ لأن كل رسول قد أنذر قومه، وحذرهم من معصية الله، وبشرهم ورغبهم في طاعة الله، ولكنهم - والعياذ بالله - أصروا واستكبروا، فقد قامت عليهم الحجة، ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، ﴿فَذُوقُوا﴾ الأمر هنا للإهانة، ومفعول ذوقوا محذوف، التقدير: ذوقوا عذابكم، أو ذوقوا عاقبة تكذيبكم، [﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنهم]، ما للظالمين من نصير، الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، أين الخبر؟ للظالمين، والمبتدأ: نصير، ودخلت عليه(من) الزائدة لتوكيد النفي.

(ما) هنا هل هي عاملة عمل ليس أم لا؟ لا، لماذا؟ لتقدم الخبر، وهي لا تعمل عمل ليس إلا مع الترتيب فلو قلت مثلًا: ما زيد قائمًا صح، ولو قلت: ما في الدار زيد، نعم ما في الدار زيد فهذا صحيح لكن ما نجعل الدار في محل نصب، لماذا؟ لتقدم الخبر.

قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ قال: [ليدفع العذاب عنهم]، والنصير بمعنى: الناصر، والناصر هو: المانع من الشر، المعين على الخير، فكل من منع الشر عنك فهو ناصر لك، وكل من أعانك على الخير فهو ناصر لك، ويدل لهذا قول رسول الله ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، قالوا: يا رسول الله، هذا المظلوم، كيف نصر المظلوم؟ تمنع عنه الشر، فكيف نصر الظالم؟ قال: «**تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ**»(١)، منع الظالم من الظلم ليس إسداء خير إليه؛ ولكن منعه من شر، فالنصر إذن إما أن يكون بجلب خير وإما أن يكون بدفع شر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: ما غاب في السموات والأرض غيبًا مطلقًا عن كل أحد، وقولنا: غيبًا مطلقًا احترازًا من الغيب النسبي، فإن الغيب النسبي لا يختص علمه بالله - عز وجل -، بل يعلمه الله ومَنْ عَلَّمَهُ من عباد الله.

مثال الغيب النسبي الذي يكون ظاهرًا بالنسبة لقوم خفيًا بالنسبة لآخرين، فنحن هنا نعلم ما بين أيدينا، لكن هل نعلم ما كان في السوق أو في البيوت ؟، الجواب: لا، هذا نسميه: غيبًا نسبيًا؛ لأن الذي في البيوت أو في السوق يعلمونه، فالغيب المطلق هذا لله - عز وجل - وحده، يعلم ما

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٥٢)، والترمذي (٢٢٥٥).

غاب عن الخلق مطلقًا، حتى الأمور المستقبلة يعلمها - عز وجل -، يعلمها متى تكون وأين تكون وكيف تكون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ أي: بصاحبة الصدور وهي: القلوب، والقلوب هي محل العقل والتفكير والإرادة فهو عليم بها - عز وجل -، وإخبار الله تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض يقصد منه التحذير من المخالفة، والترغيب في الموافقة، فأنت إذا وافقت الله - عز وجل - فلن يضيع عملك؛ لأنه معلوم لله، وإن خالفت فلن يضيع؛ لأنه معلوم لله، لكنه بشارة بالنسبة للطائعين، وإنذار بالنسبة للمخالفين العاصين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن جزاء الكافرين النار، وهذا ما دلت عليه آيات كثيرة.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنهم لن يدخلوا الجنة لقوله: ﴿لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أهل النار يتألمون، يتألمون منها ومن عذابها وعقابها، لقوله: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ ؛ لأنه لو ماتوا لاستراحوا، فيكون في هذا رد على قول من يقول من المعتزلة وغيرهم إن أهل النار يكونون أو تكون النار فيهم طبيعة فلا يحترقون فيها ولا يتألمون منها، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن، وخلاف ما دل عليه العقل، أما القرآن فإن الله تعالى يقول: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] أي: ذوقوا العذاب الذي يحرقكم، ويقول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وهذا نص صريح في أن الجلود تحترق ولكن تبدل لأجل أن يذوقوا العذاب، وفيها - أيضًا - دليل على أنها لو احترقت وبقيت محترقة فإنها لا تحس بالعذاب، فيفرق بينها وبين ما إذا بدلت، فالصواب بلا شك أن أهل النار يتألمون من عذابها، وأنهم لا تكون النار طبيعة لهم فلا تهمهم بعد ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** حسن بلاغة القرآن إذا ذكر شيئًا ذكر ما يقابله، حتى تكون النفس بين هذا وهذا، فإذا ذكر ثناء على أهل الخير ذكر بلاء على أهل الشر، وإذا ذكر جزاء أهل الخير ذكر جزاء أهل الشر.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء - أعني أهل النار - لا يخفف عنهم من عذاب النار أبدًا، لا في كيفيته، ولا في نوعه، ولا في زمنه، لا يخفف عنهم من عذابها.

٦ - **وفيه أيضًا:** دليل على كمال قدرة الله - عز وجل -، حيث تبقى هذه النار أبد الآبدين - والعياذ بالله -، لا تتغير، والمعروف في نار الدنيا أنها مع طول الزمن تتغير وتنقص وتطفأ، حتى لا

يكون لها أثر، أما في نار جهنم فإنها تبقى أبد الآبدين لا ينقص عذابها ولا حرارتها.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الجزاء ثابت لكل من اتصف بالكفر يعني: لا تختص به قبيلة دون أخرى، فلا يقال مثلًا إنه خاص بقريش المكذبين لرسول الله ﷺ، أو بالقبيلة الفلانية ،بل كل كفور، حتى وإن كان من قرابة النبي ﷺ.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأسباب وربط مسبباتها بها، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)﴾.

٩ - **ومن فوائدها:** أن أهل النار تتفاوت منازلهم وعذابهم، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ووجه الأخذ أن كل معلق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف وينقص بنقصانه.

قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة عذاب أهل النار، وجه ذلك في قوله: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** إقرارهم واعترافهم بأنه لا يملك دفع الضر عنهم إلا الله، لتوجيههم النداء إلى الله - سبحانه وتعالى - والاستغاثة به، في قوله: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إقرارهم بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة؛ لقولهم: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وهم كما يقرون بأن أعمالهم في الدنيا غير صالحة، يقرون بأنهم غير عقلاء أيضًا لقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [المُلك: ١٠] ولكن لا ينفعهم هذا؛ لأنه بعد فوات الأوان، وانظر إلى جوابهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ إلى آخره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - عز وجل - أقام على الكافرين الحجة من وجهين، أنه عمرهم وقتًا يمكنهم أن يتذكروا فيه، وثانيًا: أنهم جاءتهم رسل فلا عذر لهم.

٥ - **ومن فوائدها:** ؛ توبيخ أهل النار بمثل هذا الكلام؛ لأن هذا الكلام قد يكون أشد عليهم من العذاب، لما فيه من التنديم وتجديد الحزن عليهم، والتمني الذي لا ينفعهم .

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية، الذين يحتجون بالقدر على المعاصي، يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وجه الرد قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، ولو كان القدر حجة لم يكفي ما ذُكر في الاحتجاج عليهم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات رحمة الله - عز وجل - وإعذاره لخلقه، حيث

أرسل إليهم الرسل فإن إرسال الرسل فيه رحمة، وفيه أيضًا إعذار، وإقامة حجة.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إهانة هؤلاء الذين في النار لقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾، فإن الأمر هنا للإهانة، فيهانون - والعياذ بالله - بالعذاب والتوبيخ وغيرها من أنواع الإهانات.

٩ - **ومن فوائدها:** تيئيس هؤلاء من الخلاص من النار؛ لقوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١٠ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان أن الكفر ظلم؛ لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإظهار في موضع الإضمار؛ لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ولم يقل: فما لكم من نصير، فذوقوا لو أن السياق جرى على ما هو عليه لقال: فما لكم، لكنه قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾.

١٢ - **ومن فوائدها:** أن التفنن في الأسلوب أو اختيار الوصف الذي يكون أبلغ في إقامة الحجة، كيف ذلك؟ لأنه عدل عن قوله: فما للكافرين إلى ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ فإما أن يكون هذا من باب التفنن في التعبير، حتى لا يلحق المخاطب سآمة لتكرار الألفاظ عليه، وإما أن يكون هذا من باب العدول عن الوصف إلى وصف أبين منه في إقامة الحجة، والثاني: أقوم في المعنى؛ لأنه إذا قال: فما للكافرين لم يبين أنهم ظلمة بكفرهم، لكن لما قال: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ صار فيه إشارة إلى أنهم بكفرهم كانوا ظلمة غير مظلومين ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾

١٣ - **فيه دليل:** على أن الكفار لا تنفع فيهم الشفاعة لقوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وهذا عام يعني: لا أحد يدافع عنهم ولا يشفع لهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ صلة هذه الآية بما قبلها بيناه فيما سبق، أنه لما ذكر أحوال الطائعين ومثوبتهم وأحوال العاصين وعقوبتهم بين أن هذا صادر عن علم تام، فإن الله تعالى عالم غيب السماوات والأرض وعالم ما في الصدور.

١ - **فمن فوائد هذه الآية:** إثبات عموم علم الله لقوله: ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات علم الله بما في قلوب بني آدم، وغير بني آدم لقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** التحذير من أن يضمر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله، ثم تحدثه نفسه بأن هذا لا يطلع عليه إلا الله فيغتر بإمهال الله له، وجه ذلك ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** العكس وهو أن الإنسان إذا أضمر في قلبه خيرًا فإن الله يعلمه

وسوف يثيبه عليه.

٥ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن المدار على ما في القلب؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وذات الصدور هي: القلوب؛ لأنها الساكنة فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر: ٣٩-٤٣]

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [جمع: خليفة، يخلف بعضكم بعضًا].

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ﴾ الضمير يعود على الله، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾

وقوله: ﴿جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ صيركم: خلائف، وخلائف جمع خليفة، والخليفة بمعنى: الخالف الذي يخلف من سبقه، وهذه الخلافة تشمل خلافة القرون بعضها بعضًا، كالشباب مثلًا يخلف الشيوخ والكبار، والأحياء يخلفون الأموات، وتشمل خلافة السلطة، بأن يذهب سلطان شخص إلى سلطان شخص آخر، ينتقل الملك من شخص إلي شخص بالقوة، مع بقاء الأول؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالخلافة إذن خلافة القرون بعضها بعضًا،

وخلافة الملوك بعضهم بعضًا، الذين يخلف بعضهم بعضًا في السلطة والإمرة على الخلق،

[﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ﴾ منكم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾] من كفر فعليه كفره، ولا يضر غيره شيئًا، ولا يضر الله شيئا أيضًا وهذا كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فكفر الإنسان على نفسه وليس يضر غيره شيئًا.

وأما قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فإن هذا من باب تعميم العقوبة التي لا يخلو أهل الإحسان من التقصير، أما لو قاموا بما يجب عليهم فإن العقوبة لا تعمهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١] ولأن الواقع شاهد بذلك، فنوح وهود وغيرهما من الرسل أنجاهم الله مع أنه أخذ أقوامهم بالعقوبة.

يقول عز وجل: [﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وبال كفره، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾] كفر الكافرين عند الله لا يزيدهم إلا مقتًا، لا يزيدهم عند الله محاباة لهم أو رحمة بهم؛ لأن الحجة قامت عليهم، فكلما ازدادوا كفرًا ازدادوا بغضًا، قال المؤلف في ﴿مَقْتًا﴾: غضبًا، والمعروف أن المقت أشد البغض إن المقت أشد البغض، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠] وهذا يدل على أن المقت هو البغض، لكنهم قالوا: إنه أشد البغض، فتفسير المؤلف له: بالغضب فيه نظر، قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ فبين هنا أن الكفر سبب لشيئين

الشيء الأول: نزول مرتبة الكافر، فإن كفره لا يزيده عند الله إلا بغضًا. والثاني: العقوبة التي تحصل له وذلك بالخسارة، فماذا يخسر؟ يخسر نفسه وأهله ودنياه وآخرته، ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)﴾ [الزُّمَر: ١٥] فهو خسر نفسه؛ لأنه لو آمن لربح ونال ثواب، الآخرة بالجنة وهذا ربح، أما الآن فقد أهلك نفسه، ففاتت عليه، خسر أهله؛ لأنه لو آمن واتبعه أهله بالإيمان صاروا في الجنة، في منزلة واحدة، خسر دنياه؛ لأنه لم يستفد من وجوده في الدنيا شيئًا، بل استفاد الخسارة والعمل السيء، خسر الآخرة أيضًا؛ لأنه فاته النعيم المقيم في الآخرة وصار من أصحاب الجحيم، فلا أحد أعظم خسارة من الكافر - والعياذ بالله -.

حتى وإن كان في الدنيا مُنعمًا نعمة جسد، فهو في الحقيقة مُعذب عذاب قلب؛ لأنه ليس عند الكافر انشراح الصدر كما عند المسلم، يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] يعني: كمن لم يكن كذلك فهو على ظلمة.

الفوائد:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخره.

١ - يستفاد منها: تمام قدرة الله - عز وجل - وسلطانه، حيث إنه هو الذي يدبر خلقه بجعلهم خلائف.

٢ - ومنها بشارة المؤمنين وإنذار الكافرين؛ لأن من جملة الخلافة أن يخلف المؤمنون الكافرين في أرضهم قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]وقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨].

وقال لهم: إن الله استخلفكم الأرض، ففي هذا بشارة للمؤمن، فلا ييأس من الله - سبحانه وتعالى - يجعل له الخلافة في الأرض، وإنذار للكافر بأن تجتاح أرضه على أيدي المؤمنين.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** حكمة الله - عز وجل - في توارث الأمم بعضها بعضًا، فإنه لولا ذلك لضاقت الأرض بأهلها، لو كان كل من أوجده الله بقي كم يكون عدد العالم؟ ما يحصون، وحينئذ تضيق بهم الأرض، ويشق عليهم تحصيل الأرزاق، وإن كان الله - عز وجل - قد يجعل لهم من الرزق ما لا يخطر بالبال، لكن لا شك أن كون الناس يخلف بعضهم بعضًا هذا يموت وهذا يحيا هو الحكمة والرحمة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شؤم الكفر وعاقبته؛ لقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن كفر الكافر على نفسه لا على غيره، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٦ - **ومن فوائدها:** إثبات صفة البغض لله - عز وجل -، بل إثبات صفة المقت الذي هو أشد البغض؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾، والمقت من صفات الله الذاتية أو الفعلية؟ الفعلية؛ لأن كل صفة تقرن بسبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها حينئذٍ تتعلق بمشيئة الله، إذ إن السبب واقع بمشيئته، والسبب هو الذي علقت به الصفة فتكون الصفة إذن واقعة بمشيئته، والقاعدة عند أهل السنة:

أن الصفات التي تكون بمشيئة الله تسمى صفة فعلية، وذكرنا أن الصفات ذاتية وفعلية وخبرية، فالذاتية هي الصفات التي لا ينفك الله عنها، لم يزل ولا يزال متصفًا بها، مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة وغير ذلك كثير، والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، سواء كانت صفة ظاهرة أم غير ظاهرة مثل المحبة والكراهة والرضا والبغض والضحك والاستواء والنزول وغير ذلك.

والصفات الخبرية هي التي نظير مسماها أبعاض لنا، مثل الوجه واليدين والعين والساق

والإصبع وما أشبهها، وهنا لا نقول: إنها أجزاء بالنسبة لله، هي لنا أجزاء، ولكن نتحاشى أن نقول: إنها أجزاء، بل نقول: نظير مسماها أجزاء لنا، ولا يمكن أن نجعل هذه صفات معنوية، إذ لو قلنا: بأنها صفات معنوية لساوينا أهل التعطيل؛ لأنهم يجعلون هذه الصفات صفات معنوية، ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ من الصفات الفعلية .

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما ازداد الإنسان كفرًا ازداد عند الله مقتًا، وجه ذلك القاعدة التي ذكرناها، ونكررها دائمًا، وهي أن الحكم المعلق على وصف يزداد بزيادته وينقص بنقصانه، وهنا الحكم المعلق على الكفر، فإذًا يزداد مقت الله - عز وجل - على الكافر بزيادة كفره وينقص بنقصان كفره .

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر أيضًا خاسر، خاسر في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولم يقيد، لم يقل: في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الله، بل أطلق، فأخسر الناس هم الكفار، خسروا - كما قلنا: في التفسير - أنفسهم وأهليهم ودنياهم وآخرتهم وشخص خسر كل هذه الجهات ليس له ربح.

فأعظم الناس خسرانا هم الكافرون.

إذا قال قائل: هل نستعمل هنا قياس العكس، فنقول: إذا كان الكافر أخسر الناس فأربح الناس المؤمن؟ الجواب: نعم، نستعمل هنا قياس العكس؛ لأن قياس العكس جاءت به السنة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: أَرَأَيْتُم لَو وَضَعَهَا فِي الحَرَامِ أَكَانَ عَلَيهِ وِزْرٌ؟ قالوا: نعم، قال: كَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»(١).

فكل عمل حلال تستغني به عن حرام يكون لك فيه أجر، إذن المؤمن رابح في مقابل أن الكافر خاسر، وإن شئت تلونا آية صريحة في هذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ١، ٢، ٣] يعني: فليسو ا في خسر بل في ربح ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣] وتجارة المؤمنين تجارة رابحة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] لن تهلك، ولن تخسر شيئًا، وقال النبي ﷺ لأبي طلحة لما قال: يا رسول الله إن الله أنزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن أحب مالي إلي بيرحة، وإني أضعها، يعني عند الرسول - عليه الصلاة والسلام - صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: « **بَخٍ بَخٍ، ذَاكَ مَالُ الرَّابِحِ، ذَاكَ مَالُ الرَّابِحِ**»(٢).

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦)، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٧)، وأبو داود (١٥٠٤)، وابن ماجه (٩٢٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦١١)، ومسلم (٩٩٨).

ثم قال تعالى: [﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره، وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء لله].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني، وشركاء: مفعول أول؛ لأن(أرأيت) تنصب ثلاثة مفاعيل، مفعول أول صريح منطوق به، والمفعول الثاني والثالث معلق بهمزة الاستفهام، فهنا أروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكن هنا قال: أروني من باب التحدي، أخبروني عن شركائكم، وقوله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ يعني: الذين جعلتموهم شركاء، فالإضافة هنا باعتبار جعلهم - أي: جعل العابدين لها - شريكة مع الله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، قال المؤلف: [تعبدون]، فحول الدعاء إلى معنى العبادة ولا شك أن الدعاء يأتي بمعنى: العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ولم يقل: عن دعائي فهذا دليل على أن الدعاء بمعنى العبادة.

ولكن لو قال قائل: إن قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ شامل لدعاء المسألة، وهو طلب الحاجة ودعاء العبادة لكان أولى؛ لأن هذه الأصنام التي يدعونها أحيانًا يجمعون بين الأمرين، فيركعون لها ويسجدون ويذبحون وينذرون، وأحيانًا يدعونها دعاء، وأحيانًا يجمعون بين الأمرين، فالأولى أن نجعل الآية شاملة لدعاء المسألة ودعاء العبادة والله أعلم.

يامحمد أرأيتم، والخطاب(بقل)هنا خطاب لمفرد، وإذا جاء مثل هذا في القرآن فإما أن يكون مما يختص به الرسول ﷺ فالأمر فيه واضح كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] وما أشبهها فهذا خاص بالرسول والأمر فيه واضح، إذ ا جاء مفردًا وليس خاصًّا بالرسول - عليه الصلاة والسلام -، يعني: لم يقم دليل على اختصاصه به، فهل نقول: إن الخطاب موجه لكل من يتأتى خطابه، أو إنه موجه إلى الرسول، وأمته تبع له، وإنما وجه إليه وحده باعتباره الإمام المتبوع؟

في هذا خلاف بين أهل العلم، والخلاف هنا قريب من اللفظي؛ لأن الكل متفقون أن هذا الحكم يشمل الأمة إذ لا دليل على اختصاص الرسول ﷺ به، وخلاف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١] فهذا خاص بالرسول؛ لأنه ليس كل أحد قد شرح الله له صدره.

هنا يقول: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾، الخطاب لمفرد، فهل هو للرسول - عليه الصلاة والسلام -، أو لكل من يتأتى خطابه؟ قيل: إنه لكل من يتأتى خطابه، وقيل: للرسول باعتباره الإمام، وغيره مثله، حتى مثل في زمننا هذا، نقول للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وسبق أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فسر الدعاء هنا: بالعبادة، وقلنا: إنه تفسير ناقص؛ لأن الدعاء يكون بالعبادة ويكون بالمسألة، والمشركون أشركوا بشركائهم بالنوعين جميعًا، فقد

يدعون هؤلاء الشركاء وقد يعبدونهم، وسبق أنهم يقولون: إن الأصنام شركاء لله - عز وجل -، حتى إن المشركين في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

يقول: [﴿أَرُونِي﴾ أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾]

قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حيث الإعراب يجوز فيها وجهان، الوجه الأول: أن نعرب ﴿مَاذَا﴾ على أنها اسم استفهام مفعول مقدم ل﴿خَلَقُوا﴾ .

والثاني: أن نعرب(ما) وحدها، على أنها اسم استفهام، و(ذا) بمعنى: الذي، وعلى هذا فيكون في ﴿خَلَقُوا﴾ ضمير محذوف، هو العائد لاسم الموصول والتقدير: ماذا خلقوه من الأرض، والمعنى لا يختلف، فهؤلاء يُتَحدون.

ويقال: أرونا ماذا خلقوا من الأرض، هل خلقوا الجبال؟ هل خلقوا الأشجار؟ هل خلقوا الرمال؟ الأنهار البحار؟ الجواب: ما خلقوا شيئًا، ما خلقوا شيئًا من هذا .

ينتقل إلى أعلى، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وهنا ما قال: أم خلقوا شيئًا من السماوات، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ لأن السماوات، ليست في متناول أيديهم، لكن يحتمل أن يكون لهم فيها مشاركة، فالذي لهم متناول فيه قيل: ماذا خلقوا؟ لجواز أن يقول قائل: لهم شرك في الأرض، فهذا له مثلًا مساحة، يأتي الناس إليه، وهي حريم قبره مثلًا، فنقول: هل خلقوا هذا، إذا ادعيتم أن هذه الأرض ملك له، وأنها وقفت على هذا القبر، لزائريه، أو ما أشبه ذلك، فهل خلقوها؟ لكن في السماوات ما قال: ماذا خلقوا من السماوات، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ لا على سبيل الخلق، ولا على سبيل التملك.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ شركة مع الله في السماوات.

وقول المؤلف: [في خلق السماوات] فيه نظر، بل الصواب أن نقول: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ سواء كان ذلك عن طريق التملك أو عن طريق الخلق، وما الجواب؟ لا هذا ولا هذا.

قوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ بأن لهم معي شركة، يعني: أو عندهم إذا قلتم: لم يخلقوا شيئًا من الأرض، وليس لهم شركة في السماوات، نقول: هل عندهم كتاب، وهم على بينة: حجة منه بأنهم شركاء مع الله؟ وماالجواب؟ لا، فكل هذه التقسيمات كلها منتفية بالنسبة للأصنام، فلم يخلقوا شيئًا من الأرض وليس لهم شركة في السماوات، وليس معهم بينة من الله - كتاب -، بأنهم شركاء مع الله، وإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لا خلق، ولا مشاركة، ولا وثيقة تبين بطلانها، قال: [﴿بَلْ إِن﴾ ما].

يعني: أن﴿إِن﴾ هنا نافية بمعنى: ما، [﴿يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلا، لقولهم: الأصنام تشفع لهم].

يعني: أن ما يعد الظالمون بعضهم بعضًا فهو غرور، أي: تغرير وخداع، وليس له حقيقة،

والوعد الذي يعد به الظالمون بعضهم بعضًا: أنهم يقولون: هذه الأصنام تشفع لكم عند الله، اعبدوا محمدًا ﷺ، اعبدوا جبريل، اعبدوا الشجر، اعبدوا اللات، اعبدوا العزى، فإنها تشفع لكم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كيف يعبدونهم ثم يكونوا شفعاء؟!!

الشافع هل ينال درجة المشفوع إليه؟ لا، الشافع درجته دون درجة المشفوع إليه، إذ لو كان مساويًا أو أعلى ما احتاج أن يشفع، إن كان أعلى أَمَرَ، وإن كان مساويًا غَالَبَهُ، فأيهما غلب عاد تكون السلطة له.

على كل حال نقول: إن الظالمين يضر بعضهم بعضًا في الباطل حتى يخدعوا، ويظنوا أن الباطل حق، وأن الحق باطل، التغرير تارة يكون بالأقوال الكاذبة الملفقة، التي ليس لها أصل، وتارة يكون بالألقاب السيئة التي تشوه السمعة، فأما الأقوال الكاذبة فمثل قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا كذب وزور ولهذا قال الله تعالى مبطلًا لهذه الدعوى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] هذا من جملة التغرير أن يدَّعو قولًا كذبًا وزورًا، أو بالألقاب السيئة ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤، ٥] فأتوا بالألقاب السيئة ساحر وكذاب.

العامة إذا قيل لهم - ولا سيما إذا كان القائل زعماء -: هذا ساحر أو كذاب يتبعونه أم لا؟ لا يتبعونه، وإذا قيل لهم - أي للعامة -: إنكم إذا عبدتم الولي الفلاني أو القبر الفلاني فإن ذلك ينفعكم، فإن العامة تنخدع؛ لأنه ليس عندها علم، وليس عندها عقل ولب، فتنخدع.

الفوائد:

هذه الآية يستفاد منها عدة فوائد:

١- **منها:** قوة القرآن في أسلوب المناظرة، وذلك بالترديد والتقسيم، وجهه: أن الله تحداهم بثلاثة أمور:

هل خلقوا شيئًا من الأرض؟

هل شاركوا الله في السماء؟

هل عندهم كتاب من الله أن هذه الأصنام تنفعهم وإن لم تكن شريكة لله في السماوات ولم تخلق شيئًا من الأرض؟

الجواب: لا.

لو خلقت شيئًا من الأرض لكان لها الحق؛ لأنها تخلق، ولو شاركت الله في ملكه في السماء لكان لها الحق؛ لأنها شريك لله - عز وجل - في ملكه، لو أن الله أنزل كتابًا يقول: بأن هذه

الأصنام لها الحق أن تعبد وتدعى من دون الله لكان لهم شبهة أو حجة، فلما انتفت الأمور الثلاثة تبين أنهم لا حجة لهم.

٢ - **ومنها:** أنه ينبغي في المناظرة أن تُذكر جميع الأقسام التي يمكن أن ترد في الذهن ثم تبطل؛ احترازًا من أي شيء مما لو ذكرت شيئًا واحدًا ثم بينت بطلانه، فقد يورد عليك شيء آخر؛ لأنه كما أن القول الحق لا ينحصر إثباته بدليل واحد فكذلك الباطل لا ينحصر إيراد الشبه فيه في شبهة واحدة، فإذا أردت أن تفحم خصمك لا تأتي بشبهة واحدة، ائت بجميع ما يمكن ويحتمل أن يكون شبهة لتبطلها، حتى يكون عندك القوة الكاملة التي لا يمكن أن يورد عليك أحد منها خللًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يخلق مع الله، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، فإن قلت: يرد عليك أن الله أثبت أن هناك خالقين، في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وفي قول الرسول ﷺ: «**يُقَالُ لَهم - أي المصورين - أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم**»(١) **فالجواب:** أنهم لم يخلقوا هذا، ولكن حولوه من صورة إلى صورة، فهنا ليس منهم إيجاد، بل تحويل من صورة إلى صورة، فالمصور مثلًا الذي أخذ الطين وجعل منه صورة على صورة الإنسان أو صورة طير أو صورة دابة، ماذا نقول؟ هل خلق هذا الشيء؟ لا، لكن حوله من كونه كتلة من الطين إلى كونه صورة، وليس خلقًا جديدًا.

النجار مثلًا إذا أتى على الخشب ونجره على صورة معينة، ما نقول: إنه خلقه؛ لأنه لم يوجده، لكن حوله من صورة إلى أخرى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بطلان ألوهية هذه الأصنام ومن باب أولى ربوبيتها، وجه هذا أن الله تحدى أن تكون هذه الأصنام صالحة للمشاركة بكل وجه من الوجوه؛ الخلق والمشاركة والوثيقة، كل هذه منتفية، إذن، فيبطل جعلها آلهةً مع الله.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الظالمين، ويشمل الكافرين ومن دونهم، أن الظالمين لا يَعِدُ بعضهم بعضًا إلا غرورًا وخداعًا، فيشمل ذلك الكافرين الذين يزينون الكفر، ويشمل ذلك أهل الخلاعة الذين يزينون الخلاعة، ويشمل أهل اللهو الذين يزينون اللهو، فكل باطل يزينه أصحابه نقول فيه: لا يعد الظالمون بعضهم بعضًا إلا غرورًا.

٦ - **ومن فوائد الآية:** الحذر من أن يتمنى الإنسان على الله الأماني، بل الذي ينبغي أو يجب أن يكون الإنسان كيِّسًا فطنًا حازمًا، كما يُروى عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَ**»(٢)

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٥)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).



فالوعو د التي يُوعد بها الإنسان من قِبَل الظالمين أو من قِبَل نفسه إذا كانت مخالفة للشرع فما هي إلا غرور وباطل فليحذر الإنسان منها.

❁ ❁ ❁

❁ثم قال الله تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[فاطر: ٤١]

❁ التفسير ❁

قال الله - تبارك وتعالى - مبينا تمام قدرته ومنته على عباده: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ [أي: يمنعهما من الزوال].

قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الإمساك بمعنى: القبض على الشيءو التمكن منه، وفسره المؤلف: بالمنع وهو لازم للإمساك.

وقوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ ﴿أَن﴾ مصدرية حذف منها حرف الجر؛ لأنه يطرد حذف حرف الجر مع أنّ وأن، إذا أمن اللبس، وهنا اللبس مأمون، وإذا كان الكلام على تقدير من، فحول أن وما دخلت عليها إلى مصدر، ليكن سبق الكلام.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ من الزوال.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ترد هذه العبارة كثيرًا في القرآن وهي جمع السماوات وإفراد الأرض، ولم تأت الأرض مجموعة في القرآن بلفظها، لكن جاءت بلفظ يدل على التعدد، وهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا تتعين أن تكون في العدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماوات في الحجم، ولا مثلها في الصفة، وإذا امتنع أن تكون مماثلة للسماء في الحجم وفي الصفة تعين أن تكون مماثلة للسماء في العدد.

والسنة جاءت باللفظ الصريح في أن الأراضين سبع أراضين، كما في قوله ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ**»[1].

قوله: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قال: [لام القسم]، واللام لام القسم، وإن شرطية، و﴿زَالَتَآ﴾ الفعل هنا فعل الشرط ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ الجملة جواب الشرط، و﴿إِنۡ﴾ هنا يقول المؤلف: [ما]، أي: تكون نافية.

﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾، قال المؤلف: [ممسكهما]، إشارة إلى أن ﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾ فعل ماضٍ لكنه بمعنى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

المضارع؛ لأنه وقع جوابًا للشرط، ومعلوم أن جواب الشرط يكون للمستقبل لا يكون للماضي؛ لأنه لا يكون إلا بعد تحقق الشرط، وتحقق الشرط أمر مستقبل.

وقوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ﴿مِّنْ﴾ زائدة زائدة، كيف ذلك؟ زائدة في الإعراب ولكنها تزيد في المعنى، وزائدة اسم فاعل من زاد يزيد، ونحن نعرف أن زاد يأتي متعديًا ويأتي لازمًا.

فإذا قلت: زاد الشيء يعني: ارتفع وكثر وما أشبه ذلك فهي لازمة، وإذا قلت: زدته خيرًا صارت متعدية لهذا نقول: هي زائدة زائدة، قد يقول بعض الناس: - إذا رأى مثل هذا الكلام - هذا تناقض كيف يكون الشيء زائدًا زائدًا نقول: ﴿مِّنْ﴾ زائدة إعرابًا، زائدة معنىً؛ لأنها تزيد في المعنى وهو تأكيد النفي.

وقوله: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ فاعل ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾ فاعل أمسك، مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

المعنى: لأن قُدِّرَ أن تزول السماوات والأرض، فإنه لا أحد يستطيع أن يمسكها سوى الله - عز وجل -، وهو كذلك هذا هو الواقع، بل لو زال ما دون السماوات والأرض من النجوم والكواكب والشمس والقمر ما استطاع أحد أن يمسكه سوى الله - عز وجل -، بل لا يستطيع أحد أن يصرف شيئًا من هذه الكواكب أو النجوم أو الشمس أوالقمر أن يصرفه عن جهة سيره إلا الله - عز وجل -، ولا أن يمنعه من سيره إلا الله - عز وجل - .

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ جواب الشرط أم جواب القسم؟ جواب القسم، لماذا؟ لأن لدينا قاعدة إذا اجتمع الشرط والقسم حذف جواب المتأخر منهما قال ابن مالك مقررًا هذه القاعدة:

وَ احْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمِ ... جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

إذن المؤخر هنا: الشرط، فيكون جوابه هو المحذوف، دل عليه جواب القسم.

يقول: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: في تأخير عقاب الكفار].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ هذه الجملة مناسبتها لما قبلها أنها: تعليل، تعليل لما قبلها، فارتباطها به ارتباط العلة بالمعلول، يعني: إنه بإمساكه للسماوات والأرض كان حليمًا غفورًا، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السماوات والأرض، وهلك من فيهما.

الحليم اسم من أسماء الله ومعناه: ذو الحلم، والحلم هو تأخير العقوبة عن مستحقها، تأخير العقوبة، وليس ترك العقوبة؛ لأن ترك العقوبة عفو، ولكن تأخير العقوبة عن المسيء يسمى هذا حلمًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

فبحلمه - عز وجل - تتأخر العقوبات، لعل الناس يتوبون إلى الله - سبحانه وتعالى -.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر الذنب ويمحو أثره بالكلية، وسبق لنا أن المغفرة هي: ستر الذنب والتجاوز عنه؛ وذلك لأنها مأخوذة من المغفر الذي يغطي الرأس ويقيه السهام، وليست كما قيل: مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر لا تحصل به الوقاية، بل لا بد مع الستر من الوقاية، ويدل لهذا المعنى قوله - سبحانه وتعالى - لعبده إذا خلا به وقرره بذنوبه: «**يقول: كنت سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**»(١)، فإن هذا يدل على أن الستر غير المغفرة، وأن المغفرة لا بد فيها من عدم المؤاخذة، وعدم العقوبة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** بيان قدرة الله - عز وجل - على إمساك السماوات والأرض، فهذه الأجرام العظيمة أمسكها الله تعالى بقدرته، بدون معاناة، وبدون تعب، وإنما يقول للشيء كن فيكون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] قال الله تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١].

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان رحمة الله - عز وجل - بعباده، حيث سخر لهم السماوات والأرض، بل سخر لهم ما في السماوات والأرض، أيضًا، وهذا من كمال رحمته، فلولا رحمة الله - عز وجل - بعباده لوقعت السماوات على الأرض وهلك الناس وما ترك عليها من دابة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أن السماوات والأرض مخلوقتان، من جملة المخلوقات، مسخرتان بأمر الله، ففيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم العالم، وقدم الأفلاك، وأن الفلك التاسع كما يزعمون هو المدبر لما تحته، بل نقول: هذه الأفلاك كلها مخلوقة لله، مسخرة بأمره، لو شاء الله - عز وجل - أن تزول لزالت ولا استطاع أحد، ولم يستطع أحد أن يمسكها، وجه الفائدة أنها مخلوقة من مخلوقات الله فليست قديمة.

ومن الآية ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ﴾ فإن إمساكها دليل على أنها قائمة بأمره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أنه لا أحد يستطيع أن يدبر هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة، لقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** توجيه الخلق، أنه إذا رأوا في هذه الآيات السماوات والأرض إذا رأوا ما يزعجهم ويقلقهم ألا يرجعوا إلى أحد إلا إلى الله - عز وجل -، فالزلازل والبراكين والكسوف والصواعق وغيرها مما يخوف العالم لا نرجع فيه إلا إلى الله؛ لأنه هو الذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولا أحد يمسكهما إذا زالتا إلا الله.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأمور، هل نلجأ إليه بالصفة التي أرشدنا إليها النبي - عليه الصلاة والسلام - في صلاة الكسوف فقط، وما عداه فإنما نلجأ إلى الله تعالى بالدعاء المطلق ؟

هذا محل خلاف بين العلماء فمنهم من قال: إنه إذا وجدت آيات أفقية تخيف العباد فإنه يشرع للعباد أن يصلوا صلاة الكسوف حتى يذهب ما بهم.

واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا - يعني: كاسفتين - فَصَلُّوا وَادْعُوا**»[1] إلى آخره.

قالوا: وتخويف العباد بالصواعق والزلازل أشد وقعًا في نفوسهم من الكسوف، فإذا شرعت الصلاة للكسوف فمشروعيتها لهذه الآيات من باب أولى، وهذا اختيار شيخ الإسلام «**ابن تيمية**» رحمه الله، واستدل بفعل ابن عباس رضي الله عنهما حين صلى صلاة الكسوف في زلزلة، ولكن المذهب يقول: إنه لا تصلى صلاة الكسوف إلا للكسوف أو للزلزلة احتجاجًا بفعل ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن الصواب ما اختاره شيخ الإسلام« **ابن تيمية**»، فإن هذا الذي ذهب إليه يدل عليه التعليل في الحديث، « **آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده** ».

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلة والسبب في أفعال الله - عز وجل -، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وإثبات العلل في أفعال الله أو في أحكامه تدل على كماله لا على نقصه خلافًا للناقصين الذين زعموا أن إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وأحكامه تدل على النقص، ولهذا نفوا الحكمة عن أفعال الله وأحكامه.

يقولون: لأن ذلك يقتضي النقص، وأنه فعل لغرض، فعل لغرض أو حكم لغرض، والفاعل لغرض ناقص بدونه، وعلى هذا فيكون نفي الحكمة عن الله وأحكامه من تنزيه الله تعالى عن النقص، وفي الحقيقة أن أي إنسان يعتقد أن إثبات الحكمة في أفعال الله وأحكامه نقص فهو الناقص، حتى إن الإنسان بمجرد ما يتأمل في المسألة يعرف أن من فعل لغير الحكمة فقد أتى سفهًا، ومن فعل لحكمة فقد أتى رشدًا؛ لأن الرشيد هو الذي يفعل الشيء لحكمة وحسن تصرف، والسفيه بالعكس ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وعلى هذا ففي الآية هذه وغيرها من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة والعقل الصريح ما يدل على إثبات الحكمة لله - عز وجل -، وأن الحكمة من أجل صفات الله - سبحانه وتعالى -، وبيانها في أحكام الله وأفعاله من أعظم الأمور وأظهرها.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٤٨)، والنسائي (١٤٥٩).

نقول: في الآية إثبات الحكمة؛ لأنه علل إمساك السماوات والأرض بكون ذلك مقتضى حلمه ومغفرته.

٧ - وفي الآية أيضًا: إثبات هذين الاسمين لله وهما الحليم والغفور، وإثبات ما تضمناه من الصفة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، ليس في أسماء الله اسم جامد أبدًا، حتى اسم الجلالة الله ليس بجامد، بل هو مشتق من الألوهية، وكذلك بقية الأسماء كلها ليست جامدة بل هي مشتقة من معانٍ تدل عليها، والمعاني التي تدل عليها أسماء الله، قد تكون متعددة في اسم واحد، كما مر علينا في الدلالة أنها تكون دلالة مطابقة ودلالة تضمن ودلالة التزام.



ثم قال الله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[فاطر: ٤٢، ٤٣]

التفسير

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [كفار مكة]، وهذا يحتمل ما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الضمير يعود على كفار مكة ويحتمل أنه أعم وأن من الناس من أقسموا وهم من غير كفار مكة.

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: حلفوا به.

وقوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: غاية الأيمان، يعني: الأيمان التي بذلوا فيها الجهد، وهي أيمان مغلظة بصيغتها كمية وكيفية، فالأيمان المغلظة بصيغتها كمية وكيفية هي الأيمان التي بلغت الجهد، أي: غاية الطاقة بالنسبة للمقسم.

والأيمان كما قال العلماء: تغلظ بالكمية، والكيفية، والزمان، والمكان، والهيئة، خمسة أشياء؛ بالكمية مثل أن يقول: والله والله الذي لا إله إلا الله العظيم العزيز الغالب، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تدل على الانتقام، فيما لو كان الإنسان كاذبًا، هذا التغليظ بماذا؟ بالكمية، التغليظ بالكيفية بأن يأتي بها يعني بانفعال شديد، يدل على تأثره بالقسم، وأما في الزمان بأن تكون بعد صلاة العصر، كما قال الله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي: من بعد صلاة العصر، وفي المكان بحيث يكون الإقسام في مكان فاضل، وأفضل الأماكن في البلدان المساجد، قالوا: وتكون عند المحراب أو المنبر في الجوامع، وعند الكعبة بعضهم قال:

تحت الميزاد، وفي الروضة في المدينة، هذا في المكان.

وفي الهيئة بأن يكون قائمًا؛ لأنه يُحلف وهو قائم، قال العلماء: لأن العقوبة أقرب إلى القائم منها القاعد، فهذه خمسة أشياء في تغليظ اليمين.

لكن هل هؤلاء الكفار أقسموا جهد أيمانهم بهذه التغليظات الخمسة؟ الله أعلم، على كل حال هم بذلوا أقصى ما يستطيعون من اليمين قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ هذه الجملة نقول في إعرابها كما قلنا في الجملة الأولى، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ فقد اجتمع فيها شرط وقسم، وحذف جواب الشرط، ولهذا جاءت اللام في الجواب ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ ولو كان المحذوف جواب القسم لم تأت اللام في الجواب؛ لأن جواب الشرط لا يحتاج إلى اللام، وإنما يربط بالفاء في محله، ولا يحتج إلى رابط إذا لم يكن من المواضع السبعة المعروفة.

يقول الله عز وجل: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بمعنى: منذر، وهو الرسول، ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، قوله: ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ بضم النون، وهو مشكل، كيف ضمت النون، والمعروف أن الفعل المضارع مع نون التوكيد يبنى على الفتح كما في قوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهُمَزة: ٤] وهنا قال ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾؟ والجواب على ذلك: أن نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظًا وتقديرًا، والنون هنا مباشرة للفعل لفظًا، لكنها غير مباشرة له تقديرًا؛ لأن الفعل هنا للجماعة، وليس للمفرد، وأصله يكونونن، فحذفت النون بتوالي الأمثال، لأنهم يقولون: إن العرب يكرهون أن تجتمع ثلاث كلمات من نوع واحد بعضها إلى بعض، فيحذفون أولاها بالحذف، وأولا ها بالحذف على حسب قياسهم: نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد، ولأن نون التوكيد جاءت لمعنىً لو حذفت لاختل ذلك المعنى إذ جاءت للتوكيد فلا نحذفها، لكن نحذف نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد ولذلك حذفنا نون الرفع، وهي النون الأولى من الثلاثة بقيت الواو تلي النون، والنون حرف مشدد في هذا التركيب، والحرف المشدد أوله ساكن فحذفنا الواو لالتقاء الساكنين، فصارت ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ حذفنا الواو التي بين نون الفعل؛ لأن النون التي في يكون النون التى معنا الآن نون الفعل، ولهذا ما حذفناها؛ لأنها أصيلة، حذفنا الواو لالتقاء الساكنين، فلو قال قائل: عندنا الآن ثلاث نونات وأرى تحذفوا واحدة منها !

نقول أولًا: أن هذه النونات ليست متصلة تقديرًا، يعني ليس بعضها متصلًا بالبعض الآخر من حيث التقدير؛ لأن كان قد فصل بينها الواو الذي حذفناها لالتقاء الساكنين، ثانيًا: أن النون التي بعد الواو في ﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ النون الموجودة الآن نون الفعل، فهي من بنية الكلمة ولا يمكن أن تحذف، على كل حال يجب أن نعرف الفرق بين ليكونَن وبين ليكونُن في القرآن ليكونَن ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢].

فعندي فرق بين (ليكونَن) وبين(ليكونُن):

(ليكونَن) هذه للواحد، ولهذا بني الفعل معها على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظًا وتقديرًا.

(وليكونُن) للجماعة، ولهذا لم يبن الفعل معها؛ لأن نون التوكيد لم تباشره تقديرًا.

إذن نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظًا وتقديرًا، في هذه الجملة(ليكونن)لم تباشره تقديرًا، أما لفظًا فقد باشرته.

وإنما قلنا: لم تباشره تقديرًا؛ لأنه حذف منها واو الجماعة، فلم تباشره تقديرًا.

وقوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ ﴿أَهْدَىٰ﴾ خبر يكون فهي منصوبة بالفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وهو اسم تفضيل، وقوله: ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، قال المؤلف: [اليهود والنصارى وغيرهم أي واحدة منها، لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضًا، إذ قالت اليهود: ليست النصارى على شيء وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء].

يقول: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ فأتوا بإحدى الدالة على الإبهام، لم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، قال: ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ لأن الأمر التبس عليهم، حيث إن اليهود يقولون: ليست النصارى على شيء، والنصارى يقولون: ليست اليهود على شيء، وهؤلاء المشركون - كفار مكة - أمة جاهلية لا يدرون مَنْ الحق معه، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهما، أهدى من أي واحدة؛ لأن الأمر عندهم التبس.

ولكن يبقى النظر ما هو الدليل على تخصيص كلمة الأمم بالأمتين اليهودية والنصرانية؟ ولماذا لا يقال: إنها أعم من اليهود والنصارى؛ لأن هناك مجوسًا يدينون بعبادة النيران ويمكن أن يوجد أناس آخرون يدينون بديانات أخرى؟

لهذا نقول الجواب: إما أن نلتزم بالعموم ونقول: إنهم يقولون: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: أيُّ أمة كانت، من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الوثنيين الذين يعتقدون أنهم على دين، أو ما أشبه ذلك، فكأنهم يقولون: أهدى من كل الأمم لكن لم يعينوا، لأنهم لم يدروا من هو الذي على حق، وإما أن يقال: خص هذا الجمع بأمتين فقط لأن المعروف أنهم على دين وهم اليهود والنصارى.

هذا هو الصحيح لكن آخر كلامه يدل على أنه أراد اليهود والنصارى فقط؛ لأنه اشتبه عليهم الحق ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، هنا قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ولم يقل: فلما جاءهم الرسول ليطابق ما قالوه، حتى يكون أبلغ في إلزامهم بما قالوا؛ لأنهم قالوا: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ على حسب ما فرضوه وما قدروه جاء الأمر كذلك.

فلما جاءهم نذير، كما يقولون هم، والمراد به: محمد ﷺ بلا شك، لكن كما أشرت نكر ولم يعرف متابعة لكلامهم حيث قالوا: جاءنا نذير، يعني: فلما جاءهم نذير كما طلبوا تمامًا وباللفظ،

﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ (لما) هنا: شرطية، وفعل الشرط: ﴿جَآءَهُمۡ﴾، وجوابه: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

و(لما) تأتي في اللغة العربية على أوجه، أحدها كما هنا: شرطية، والثاني: أن تأتي جازمة إلا أن بينهما فروقًا ليس هذا موضع ذكرها.

كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: ٨] أي: بل لم يذوقوا عذاب، ولكنهم حريون بأن يذوقوه، والثالث: أن تكون بمعنى: إلا كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ [الطارق: ٤] أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بمعنى: حين، مجردة عن الشرط، مثل أن تقول: زرتك لما طلع الصبح أي: حين طلع الصبح، فهذه أربعة معانٍ لـ (لما).

يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿مَّا زَادَهُمۡ﴾ قال المؤلف: [مجيئه].

يعني: أنهم جاءهم نذير كما فرضوا ولكنهم ما كانوا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يزدهم إلا نفورًا عن الحق وبعدًا عن اتباعه، قال: [تباعدًا عن الهدى] - والعياذ بالله -.

وهذا أمر مشاهد فإن قريشًا لما بعث فيهم النبي ﷺ نفروا منه وآذوه بالقول وبالفعل ووصموه بكل عيب، وكانوا قبل أن يبعث يجلونه ويحترمونه ويسمونه الأمين، فلما بعث لم يكن أمينًا، وكأنه رجل غير الرجل الذي كانوا يعرفونه!! كل هذا يكذب قولهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾.

قال: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [عن الإيمان به مفعول له]، يعني: أن كلمة ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ مفعول له، أي: منصوبة على أنها مفعول له، يعني ما زادهم إلا نفورًا لأجل الاستكبار في الأرض، وهذا أحد الاحتمالين في الآية الكريمة.

والاحتمال الثاني: أن ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ بدل من كلمة نفورًا أي: ما زادهم إلا نفورًا هذا النفور هو الاستكبار في الأرض، وهو احتمال قوي جدًّا أن تكون استكبارًا بدلًا أو عطف بيان من كلمة نفور، إذن ما زادهم هذا المجيء إلا البعد عن الحق والاستكبار في الأرض.

قال: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ معطوف على ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

﴿وَمَكۡرَ﴾ قال المؤلف: [العمل ﴿ٱلسَّيِّيِٕ﴾ من الشرك وغيره]، فقدر العمل قبل السيئ، ليكون السوء موصوفًا به العمل، والعمل السيئ يكون مكرًا، هذا ما ذهب إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعل

مكر مضافة إلى شيء محذوف، وهو العمل، وجعل السيئ صفة لذلك الشيء المحذوف، أي: مكر العمل السيئ، أي أنهم ما زادهم إلا نفورًا واستكبارًا في الأرض، وأن يمكروا مكر العمل السيئ.

والمكر هو الخديعة، وهو: التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم، هذا المكر، أن تتوصل بأسباب خفية إلى الإيقاع بخصمك وعدوك، فأما التوصل بالأسباب الظاهرة فليس بمكر، فإن قلت: هذا المعنى لا ينطبق على عمل هؤلاء؛ لأن هؤلاء يظهرون عملهم السيئ، فالجواب: أن هؤلاء تارة يظهرونه وتارة يخفونه، كما في اجتماعهم في دار الندوة ماذا يصنعون بالرسول ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٣٠] وإنما ذكر المكر دون الشيء المعلن الظاهر؛ لأنه أعظم قبحًا من الشيء المعلن الظاهر، فصار هؤلاء جمعوا إلى الكذب المكر والخداع - والعياذ بالله -.

قال الله تعالى: [﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر] إلى آخره.

يعني: أن هؤلاء مكروا السوء، وعملوا السوء بصفة علنية وبصفة خفية، وهل الماكر بغيره ينجو ؟الجواب: إذا كان مكرًا سيئًا فإنه لا ينجو، بل سيحيق به مكره، ويهلكه، ويدمره، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أما إذا كان المكر بحق فإنه لا يحيق بأهله، بل يحيق بعدوه، ولا يحيق به؛ ذلك لأن المكر بحق ممدوح وليس بمذموم.

وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾] وهنا لم يقل: إلا بالماكر، بل قال: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، إشارة إلى بيان الاستحقاق لهذه الجريمة التي وقعت منه وأنه أهل لأن يحيق به مكره، فكل ماكر بغير حق فإنه أهل أن يحيق به مكره، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل، وإضافته إليه قبلُ استعمال آخر قدر فيه مضاف؛ حذرًا من الإضافة إلى الصفة].

هذا كلام قليل الفائدة معقد المعنى بالواقع، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل] فأين المكر؟ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ يقول المؤلف: [أصل] يعني: جار على الأصل؛ لأن الأصل أن الوصف ينفصل عن الموصوف ولا يضاف إليه الموصوف، هذا الأصل.

مثل أن تقول: مررت بزيد الفاضل، فتجعل الصفة منفصلة عن الموصوف تابعة له، وليس مضافًا إليها، فقول المؤلف: [أصل] يعني: أنه على الأصل، [وصف المكر بالسيئ أصل]وما معنى أصل؟ أي: جار على الأصل، لأن الأصل أن الصفة تتبع الموصوف، لا أن الموصوف يضاف إليها .

ولهذا دائمًا يمر قول العلماء: هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، مثل قولهم: هذا مسجد

الجامع، أصله: هذا المسجد الجامع، لكن أضيف إلى صفته، وهو كثير، كما أن الصفة تضاف إلى الموصوف أحيانًا، مثل طاهر القلب، فهذه صفة مضافة إلى موصوفها، طاهر القلب، كما قال ابن مالك في الألفية:

كطاهر القلب جميل الظاهر

هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، إذن نأخذ من هنا أنه يجوز إضافة الصفة إلى الموصوف، وإضافة الموصوف إلى صفته، وما هو الأصل من ذلك؟ الأصل من ذلك أن تقع الصفة تبعًا للموصوف على أنها نعت له وتعرب بإعرابه.

في الآية الكريمة إضافة الموصوف إلى الصفة، ووصف الموصوف بالصفة.

قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ أيهما الأصل؟ هنا بين المؤلف، قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل]، لو قال: بدل (أصل): جار على الأصل لكان أوضح وهذا هو مراده.

وماذا يعني به من الآية؟ قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، يقول: [استعمال آخر]، يعني: جار على استعمال آخر في اللغة العربية؛ لأن اللغة العربية أحيانًا تضيف الموصوف إلى صفته.

قال: [قدر فيه مضاف] حسب شرحه هو وتفسيره، حيث قال: ومكر العمل السي ء يقول: [حذرًا من الإضافة إلى الصفة].

وهذا الذي قاله الأخير ينازع فيه، وذلك؛ لأنه لا داعي إلى ذلك، لا حاجة إلى أن نقدر محذوفًا لأجل أن نمنع إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لأن إضافة الموصوف إلى الصفة في اللغة العربية كثير شائع، ليس هذا أمرًا محذورًا في اللغة العربية حتى نحتاج إلى تقدير ما يصححه، ولهذا نقول: مكر السيئ جار على أصله بمعنى: أنه لا حاجة إلى أن يقدر فيه شيء محذوف.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ [ينتظرون] هذا تفسير﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، وهناك ضابط وليس قاعدة أن(ينظر) إن تعدت بإلى فهي بمعنى: النظر بالعين ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧] وإن تعدت بفي فهي بمعنى: النظر الفكري، كما في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وإن تعدت بنفسها فهي بمعنى: الانتظار،مثل هنا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناها: هل ينتظرون من الانتظار وهو: الترقب ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون يعني: يترقبون.

﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

سُنَّة بمعنى: الطريقة، والإضافة هنا إلى الأولين من باب الاختصاص، يعني: إلا السنة التي

جرت للأولين، وليس المراد السنة التي فعلها الأولون؛ لأن الأولين مفعول بهم وليسوا هم الفاعلين، وإنما الفاعل من؟ الله - عز وجل - ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال المؤلف: [سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم].

يعني: ما ينتظر هؤلاء الذين كذبوا الرسول ﷺ إلا سنة الأولين، وهي أي: سنة الأولين التعذيب، تعذيبهم بتكذيب الرسل، قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لن تجد لسنة الله ﴿تَبْدِيلًا﴾ برفعها،أو﴿تَحْوِيلًا﴾ بتغييرها إلى قوم آخرين، يعني: أن سنة الله ستقع في أعيان الذين يستحقونها، فلن تبدل فترفع ولن تحول إلى قوم آخرين فيسلم منها من استحقوها بل هي واقعة على من استحقوها عينًا، مثال ذلك: المشركون كذبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - من قريش، والتحويل معناه: أن تحول عقوبتهم إلى بني تميم مثلًا، يمكن هذا أم ما يمكن؟ لا يمكن؛ لأن هذا ظلم، أن يؤاخذ قوم بجريمة آخرين، هذا معنى قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

كذبت قريش الرسول - عليه الصلاة والسلام - فبدلًا من أن يعاقبهم الله نعمهم، يمكن هذا؟ هذا معنى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فالعذاب لن يبدل بنعيم ولن يحول عن مستحقه إلى قوم آخرين بل سنة الله - عز وجل - لا بد أن تقع في من يستحقها بدون تبديل لها بنعمة، وبدون تحويل لها إلى غيرهم؛ لأن الله - عز وجل - كامل الحكمة كامل العدل؛ كامل الحكمة فلن يبدل النقمة بنعمة على من استحقها، ثانيًا: كامل العدل لا يمكن أن يحول الانتقام إلى قوم آخرين لا يستحقونه.

فهذه الصفة لن تجد لسنة الله تبديلًا إلى آخره هي من باب الصفات السلبية، لكنها تتضمن كمال عدل الله وكمال حكمته، ويمكن أن نقول: وتمام سلطانه أيضًا، بحيث لا يكرهه أحد على أن يحول النقمة إلى آخرين، أو أن يبدلها بنعمة.

قال المؤلف: [أي لا يبدل بالعذاب غيره ولا يحول العذاب إلى غير مستحقه].

الفوائد:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إلى آخره يستفاد من هذه الآية الكريمة.

١ - يُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الإنسان إذا كان في عافية، أو إذا كان قبل أن ينزل به الأمر قد يجد من نفسه القوة على تنفيذه، فإذا نزل به الأمر تغيرت حاله، وجه الدلالة أن هؤلاء أقسموا بالله ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ النذير، نعم تغيرت حالهم، وهذا يقع كثيرًا للبشر، ما دام الإنسان لم ينزل به الأمر يظن أنه قادر عليه فإذا نزل، إذا نزل به الأمر عجز عنه، ولهذا ينبغي للإنسان ألا يتعجل فيحكم على نفسه بالحال التي كان فيها سالمًا

من نزول الأمر به، بل ينتظر حتى ينزل به الأمر. كثير من الناس مثلًا يقول:

أنا أستطيع الصبر على الحج مثلًا، وسأحج، ولكن عندما يحين الأمر يجد من نفسه العجز، يقول: أنا أستطيع أن أقوم ثلث الليل الآخر كله، ولكن إذا جد الجد وجد نفسه عاجزًا، فالمهم أنه ينبغي للإنسان ألا يكون متسرعًا، فيقيس حاله في حال الرخاء على حاله بحال نزول الأمر به؛ لأن الإنسان بشر تختلف حاله بين سلامته من الأمر وبين وقوع الأمر فيه - والله أعلم -.

٢ - **وفيها أيضًا:** دليل على عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ، حيث كانوا قبل أن يبعث إليهم يقسمون أغلظ الأيمان بأنهم سيكونون أهدى من غيرهم، ولكن لما جاءهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما زادهم مجيؤه إلا نفورًا.

٣ - **وفيه:** الإشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان النذر، أي: أن ينذر الطاعة؛ لأنه قد لا يوفق للقيام بها، هؤلاء أقسموا ولما وجد موجب الطاعة لم يقوموا بطاعة الله، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] فهم أقسموا بالله أن لو أمرهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - لخرجوا فنهاهم الله، بل أمر نبيه أن يقول لهم: لا تقسموا، ونظير ذلك.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦] ولهذا جاء النهي من النبي ﷺ عن النذر، وبيان أنه لا يأت بخير.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء ردوا الحق استكبارًا في الأرض، أي: يريدون الاستكبار، وهذا على وجه إعرابها بأنها مفعول لأجله، أي: أنهم ما ردوا الحق إلا من أجل أن يكون لهم الكبرياء والعلو في الأرض .

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تسمية أعمال الكافرين مكرًا؛ لقوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وقد ذكرنا في التفسير أن أعمال الكافرين تنقسم إلى قسمين: قسم يجاهرون فيه بكفرهم ولا يأتون به على سبيل المكر، وقسم آخر يأتون به على سبيل المكر، وأيهما أشد؟ الثاني أشد، ولهذا ما مكر قوم بأنبيائهم إلا مكر الله بهم، وآخرهم محمد ﷺ حيث اجتمع القوم في دار الندوة يتشاورون ماذا يفعلون به؟ فمكر الله بهم - سبحانه وتعالى -.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من أراد السوء حاق به السوء لقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ومن قواعد العامة يقولون: من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فالإنسان إذا أراد المكر - والعياذ بالله - فإن مكره يحيق به.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن المكر يكون سيئًا ويكون حسنا، لقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وقوله قبل: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، وهو كذلك، فإن مكر الله تعالى بأعدائه الذين يمكرون به مكر حسن، يثنَى عليه به ومكر أولئك مكرٌ سيئ.

فالفاعل للسبب منتظر للمسبب شاء أم أبى، فالإنسان العاصي نقول له: أنت منتظر للعقوبة الآن مترقب لها، حتى وإن كان لا يقع على باله أنه سيعاقب؛ لأن فاعل السبب منتظر للمسبب ولابد.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ثبوت القياس، أو إن شئت فقل: استعمال القياس، لقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيقيس حال هؤلاء بحال الأولين، الذين كذبوا فعوقبوا.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن سنة الله - عز وجل - في عباده واحدة، فكل من أطاع الله أثابه وكل من عصى الله عاقبه لقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ لا يقال مثلًا: إننا أمة شرفنا الله - عز وجل - وعظمنا وكرمنا فلا يؤاخذنا كما آخذ من قبلنا، بل نقول: إن مقتضى التشريف أن نكون نحن أشد عبادة له ممن سبقنا؛ لأن الإنسان إذا كرم ينبغي أن يقوم بمقتضى هذا التكريم، وليس إساءة من لم تكرمه إليك كإساءة من أكرمته، بلا شك، ولهذا كل من كان مغتبطًا بنعمة الله - عز وجل - وجب عليه من شكر نعمة الله ما لا يجب على من سواه.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال قدرة الله - عز وجل - وحكمته حيث إن سنته لا تبدل ولا تغير ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وجه كونها من تمام القدرة أن العاجز لا يستطيع أن يجعل أفعاله على وتيرة واحدة بل قد تتخلف وتتغير لعجزه عن الاطراد وأما كونه من تمام الحكمة ؛ فلأن معاقبة السابقين كانت لسبب، وهذا السبب إذا وجد في الآخرين فإنه يعمل عمله؛ لأن مقتضى الحكمة أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها، ففي قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فيها إثبات تمام القدرة وتمام الحكمة.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشيء الذي يستمر ويؤخذ به يسمى سنة، فيقال هذه سنة فلان أي: طريقته، ولهذا يفرق بين السنة وبين العارض.

العارض: الشيء العارض لا يمكن أن يجعل طريقة متبعة، والشيء المضطرد يسمى سنة، ويدل على هذا التفريق قوله ﷺ: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ ثم قال: في الثالثة لِمَنْ شَاءَ**» كراهية أن يتخذها الناس سنة[١] يعني: سنة مضطردة يفعلونها دائما .



(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٨٣)، وأبو داود (١٢٨١).

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الهمزة هنا للاستفهام والمراد به: التوبيخ والتقريع، وهذه الهمزة الاستفهامية هل هي داخلة على الجملة الموجودة المذكورة أو على جملة محذوفة يعيِّنها السياق؟

في هذا قولان لأهل العلم في النحو: فمنهم من يقول: إنها داخلة على هذه الجملة المذكورة، وعلى هذا الوجه يقولون: إن التقدير وألم يسيروا، فيجعلون الواو مقدمة على الهمزة؛ لأنه لا يمكن أن تجعل الهمزة مقدمة على الواو، والواو حرف عطف تقتضي معطوفًا عليه، فيقولون: إن الهمزة متأخرة والواو حرف عطف، وهذه الجملة معطوفة على ما سبق، وهذا الوجه لا شك أنه أسهل وأيسر إذ لا يتكلف الإنسان فيه العناء في ذلك الشيء المحذوف المقدر.

القول الثاني: أن الهمزة داخلة على محذوف يعينه السياق، ففي مثل هذه الآية نقول: تقدير الكلام أَغَفِلُوا ولم يسيروا في الأرض، أو كلمة نحوها، وهذا التقدير قد يكون سهلًا في بعض المواضع بمعنى: أن بعض المواضع يكون المعنى فيها ظاهرًا ويمكنك بكل سهولة أن تقدر ذلك المحذوف، لكن أحيانًا يصعب عليك أن تقدر ذلك المحذوف لاحتمال السياق لأوجه متعددة .

إن القول الآخر أقرب وأسهل، أن نجعل الواو حرف عطف، والجملة هذه معطوفة على ما سبق، والأصل تقديم ذلك الحرف العاطف على الجملة، والتقدير وألم يسيروا.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ السير هنا هل هو سير القلوب أو سير الأقدام أو كلاهما؟.

الأولى أن نقول: إنه شامل، فيكون سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو: بالنظر في تاريخ الأمم السابقة، وما جرى عليهم، وما جرى لأهل الخير العاملين بالقسط، فيسير الإنسان بقلبه في أرجاء العالم وهو جالس على كرسيه لا يتحرك، وأما السير البدني أو السير

بالأقدام فهو: أن يتقدم الإنسان إلى هذه المواضع ليعتبر، ومن ذلك قول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «زُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[1].

فإن زيارة القبور سير بالأقدام، يذهب الرجل إلى المقبرة ويقف ويشاهد أهل القبور ويعتبر، هؤلاء القوم الذين كانوا أشد منه قوة وكانوا أكثر منه مالًا، ومع ذلك آلوا إلى ما آلوا إليه، حتى يعرف أنه سوف يؤول إلى ما آل إليه هؤلاء، طالت المدة أم قصرت.

إذن السير في الأرض يكون بالقلب ويكون بالقدم، يكون بالقلب وبالقدم، أيها أنفع للمرء؟ السير بالقلب أو السير بالقدم؟ السير بالقلب أشمل وأهون؛ لأنه بإمكان الإنسان أن يطوف الدنيا كلها في ساعة واحدة السير بالقدم أشد تأثيرًا؛ لأنه يشاهد وليس من رأى كمن سمع، ولهذا أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - إذا دخلنا على ديار المعذبين أمرنا ألا ندخل إلا ونحن باكون أن يصيبنا ما أصابهم، حتى نعتبر ونصحح المسير ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿فِى﴾ هنا قال العلماء: إنها بمعنى: على، ولا تصح أن تكون للظرفية؛ لأن الظرفية تقتضي أن يكون السائر في جوف الظرف، ومعلوم أن السائر على الأرض لا يسير في جوف الأرض، هل هو يفتح نفق ليسير فيه؟ لا، يسير على ظهرها، قالوا: ففي بمعنى: على، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[طه: ٧١] أي: على جذوع النخل.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمل أن يراد بها: الجنس، ويحتمل أن يراد بها: العهد،(ال)هنا يحتمل أن تكون جنسية أو عهدية، فعلى الأول يكون المراد: السير في جنس الأرض، التي أصيبت بغضب، والتي لم تصب، وعلى الثاني يكون المراد: الأرض التي أصيبت بالغضب، فتكون(ال) هنا للعهد الذهني؛ لأن العهد الذكري لابد أن يكون هناك مذكور تعود عليه(ال)، أما إذا لم يكن مذكور فهو عهد ذهني.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ الفاء هنا قيل: إنها عاطفة، وقيل: إنها سببية، فعلى أنها عاطفة تكون في محل جزم، يكون الفعل بعدها مجزومًا، وعلى أنها سببية يكون الفعل بعدها منصوبًا، فعلى كونها سببية يكون التقدير: أولم يسيروا في الأرض فبسبب سيرهم ينظروا، وعلى أنها عاطفة يكون المعنى: أو لم يسيروا في الأرض ولم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، والنظر هنا هل هو نظر القلب أو نظر العين؟ إذا قلنا: إن السير سير القدم فالنظر نظر العين، وإذا قلنا: إن السير سير القلب فالنظر نظر القلب، إذن تكون شاملة للأمرين حسب ما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٧)، والترمذي (١٠٥٤) واللفظ له.

نفسر السير فيما سبق.

﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذه الجملة الاستفهامية علَّقت ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ عن العمل، يعني: فينظروا كيف عاقبتهم، يعني: أي عاقبة كانت لهم، هل أكرموا، أو عذبوا وأهلكوا؟ انظروا، فإذا نظر الإنسان العاقل فسوف يعتبر ويقيس الحاضر على الغائب.

قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾ عاقبة الشيء: مآله، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ما هي العاقبة للذين من قبلهم؟ الهلاك، عاقبتهم الهلاك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فانظروا إلى آثارهم ماذا كانت؟ كانت الدمار، فإذا كانت الدمار وسببه التكذيب والاستكبار، فإن السبب الذي كان فيما سبق مؤديًا إلى هذا الهلاك فإنه سيكون مؤديًا إليه فيما لحق، إذ لا فرق.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا الضمير يعود على السابقين ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: أقوى منهم قوة، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم، ولم تمنعهم، أهلكوا، وانظر إلى قول عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥] وكانت عاد من أقوى الأمم أجسامًا وصلابة وعزمًا، حتى إنهم تحدوا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥] وأهلكهم بألطف الأشياء، أهلكهم بالريح.

قال فرعون: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزُّخرُف: ٥١] فافتخر بجريان الأنهار وهي المياه من تحته، فأهلك بالغرق بالماء الذي كان يفتخر به، فالإنسان العاقل إذا رأى حال هذه الأمم وقوتها وأن هذا لم ينفعهم ولم يمنعهم من عقاب الله فلابد أن يعتبر.

قال: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ﴾ الواوهنا في قوله: ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال، والتقدير: وقد كانوا أشد منهم قوة، فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هنا إذا تأمل الإنسان الآية يقول: إن الله - سبحانه وتعالى - لم يذكر عاقبة هؤلاء المكذبين في الآية انظر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلماذا لم يذكرها؟ اعتمادًا على هذا السائر الذي يسير فينظر، فمعناه: احكم أنت بنفسك على هؤلاء، فلا حاجة إلى أن أذكرك بأن الله أهلكهم؛ لأنك سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ قال: [يسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾].

قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ اللام هنا يسميها النحويون لام الجحود، وهو النفي؛ لأنها وقعت بعده أي بعد النفي، وضابطها - أي ضابط لام الجحود - أن تقع بعد كون منفي وإذا أردنا أن نقربها إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد ما كان أو لم يكن.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، اللام نقول: هي لام الجحود، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] نقول اللام: لام الجحود، فإذا وقعت اللام بعد ما كان أو لم يكن داخلة على الفعل المضارع فإنها تنصب الفعل المضارع أو ينصبه أن مقدرة بعد اللام على الخلاف، إنما نسمي هذه اللام لام الجحود، لكن الضابط الذي قلت أولًا وهي الواقعة بعد كون منفي أعم من قولنا: هي المسبوقة بما كان أو لم يكن، لماذا كان أعم؟ لأنه يمكن أن تأتي بعد كائن تقول: لست بكائن ليعذبك، مثلًا، أو غير كائن ليقوم، وما أشبه ذلك، فإذا قلنا: بعد كون منفي كان أعم، لكن إذا كنا نخاطب شخصًا مبتدئًا في النحو فقد يصعب عليه تصور كلمة كون منفي، فنقول له: إذا وقعت بعد ما كان أو لم يكن فهي لام الجحود، وتنصب الفعل المضارع إما بنفسها كما هو مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة بعد اللام.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ حرف جر زائد زائد، زائد في الإعراب وزائد في المعنى، أي: أنه يزيد في المعنى، ما هي زيادة المعنى توكيد النفي، يعني: أن هذا النفي مؤكد.

وقوله: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ إذا قلنا: ﴿مِن﴾ حرف جر زائد، فنعرب ﴿شَيْءٍ﴾ على أنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

﴿مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال المؤلف: [يسبقه ويفوته]، وهذا تفسير لا بأس ببعض اللوازم كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤] ولكن العجز في الواقع، العجز هو عدم القدرة، العجز عدم القدرة على الشيء، وهذا أولى من تفسير المؤلف، نقول: ما كان الله تعالى ليحول بينه وبين ما يريد عجز في قدرته، بل هو قادر على كل شيء من إيجاد معدوم أو إعدام موجود أو تغيير حال، أو غير ذلك، فالله تعالى لا يعجزه شيء، لا في السماوات، ولا في الأرض؛ لأن أمره - عز وجل - إذا أراد شيئًا أن يقول: كن فيكون، بدون أي عمل، كلمة واحدة تجعل الشيء على حسب مراده - تبارك وتعالى - فلا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، وإذا كان لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض فإنه لن يعجز عن إهلاك المكذبين الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

يقول: [﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها ﴿قَدِيرًا﴾ عليها].

الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل، لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ علل هذا الحكم المنفي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه.

والقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز فهذه القدرة.

والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف فهي أخص من القدرة من وجه وأعم منها من وجه آخر، كما سنذكره.

ما وجه كونه - عز وجل - لعلمه وقدرته لا يعجزه شيء؟ لأن العاجز عن الشيء إما أن يكون لعدم علمه بالأسباب التي تغيرها به، وإما أن يكون لعدم قدرته، فلو تأملت عجز أي عاجز لوجدت السبب في عجزه إما أنه لا يعلم، وإما أنه لا يقدر، فلو قيل لرجل: نريد أن تصلح هذه الساعة الخربة، قال: اعطنى إياها وهو ما يعرف أبدًا ما درس هل يقدر أن يصلحها؟ عنده آلات، عنده آلات للصناعة وعنده قوة بدنية، هل يقدر أن يصلحها أم لا؟ لا يقدر لماذا ؟لأنه ليس عنده علم، لا يقدر أن يصلحها، يمكن يفسدها أكثر .

رجل آخر عنده علم وقد درس علم تصليح الساعات، مثلًا، لكن ما عنده قدرة بدنية مشلول، هل يمكن أن يصلحها؟ لا يمكن، لعدم القدرة، إذن انتفاء عجز الله - عز وجل - لكمال علمه وكمال قدرته، وبهذا نعرف أنه لا يوجد نفي محض في صفات الله، بل كل نفي في صفات الله فهو متضمن لثبوت كمال لا يمكن أن يوجد نفي محض، ولهذا لما نفي العجز بين السبب قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ - والله أعلم -.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** السير في الأرض قلبًا وقدمًا، وجه الدلالة أن الله وبَّخ الذين لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لنا أن ننظر إلى عاقبة السابقين نظر اعتبار، اعتبار بمآلهم، حين كذبوا رسلهم، وليس اعتبارًا بقوتهم وصناعتهم وطرازهم وما أشبه ذلك، وإذا طبقنا هذا على واقع الناس اليوم الذين يذهبون إلى ديار ثمود وجدنا أنهم يذهبون إليها لا ليعتبروا بما صنع الله بهم من العقوبة لتكذيبهم الرسل، ولكن ينظروا كيف كانت قوتهم وصناعتهم وزخارفهم!! وما أشبه ذلك وهذا حرام لا يجوز أن يذهب الإنسان إلى ديار هؤلاء المكذبين لهذا الغرض، لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ**

تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيهِم»(١)

٣ - **ومن فوائد الكريمة:** أن في التاريخ عِبرًا يعتبر بها العاقل لقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** استعمال القياس الأولى لقوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فإذا كان الله تعالى أهلكهم مع كونهم أشد منهم قوة فإن إهلاك هؤلاء من باب أولى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن قوة البشر مهما عظمت لا تمنع من الله شيئًا، لقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولهذا لما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: ١٥].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن في السير في الأرض قلبًا أو قدمًا عبرةً لا للمرسل إليهم بل للرسل أيضًا، فإن إهلاك المكذبين للرسل انتصار للرسل، معلوم أن الله إذا أهلك عدوك فإنه انتصار لك بلا شك.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** نفي العجز عن الله - عز وجل - لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فإن فيها نفي العجز عنه لكمال علمه وقدرته.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من صفات الله تعالى ما يكون سلبيًّا، أي منفيًّا عن الله، وضابطه أن كل صفة نقص فهي منفية عن الله - عز وجل -، فهي منفية عن الله، هذه قاعدة عامة كما أن كل صفة كمال فهي ثابتة له، ولكن التفصيل لا بد فيه من دليل أن هذه قاعدة عامة؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] لكن التفصيل بأن هذه الصفة المعينة ثابتة لله أو منتفية لا بد فيها من دليل.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينفي شيئًا عن نفسه إلا لثبوت كمال ضده؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فيستفاد من ذلك أن كل صفة منفية عن الله لا يراد بها مجرد النفي؛ لأن مجرد النفي ما فيه فائدة، إذ إن النفي المحض عدم محض والعدم ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون كمالًا؛ ولأن النفي قد يكون سببه العجز، كما في قول الشاعر:

قُبيلَـــةٌ لَا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ ... وَلَا يَظْلِمُـونَ النَّـاسَ حَبَّـةَ خَـرْدَلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

هذا مدح أم ذم؟ ذم؛ لأنهم لعجزهم لا يستطيعون أن يظلموا الناس، ولا يغدروا بالذمم، وقد يكون سببه عدم القابلية، لا للكمال ولكن؛ لأنه غير قابل لهذه الصفة،

كما لو قلت: إن جدار بيتنا لا يظلم، واحد يمدح بيته مثلًا يقول: إن الجدار ما يظلم أحد لكن لا لأنه عدل، كامل العدل، لكن؛ لأنه لا يقبل كلمة ظلم، فنفيها عنه كثبوتها له، حتى لو قلت: جدارنا يظلم ما أحد يصدقك.

إذن صفات الله المنفية التي يسميها العلماء السلبية تتضمن كمال الضد، يعني: لكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن السماوت أكثر من واحدة لوجود الجمع؛ لأنها جاءت بصيغة الجمع(السماوات)، وهي سبع بنص القرآن والسنة ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥] والسنة كذلك ظاهرة في أن السماوات السبع، كقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: « **اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ** »[١]

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات اسمين من أسماء الله وهما العليم والقدير، وما تضمناه من صفة أو حكم، من صفة وهي العلم أو قدرة، هذا صفة أو حكم وهو أنه يعلم ويقدر على كل شيء، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

مسألة: السير في الأرض للاعتبار لا بأس به، وإذا كانت مصلحته أكثر من نقصه كان محمودًا، وإن كان نقصه أكثر من مصلحته فإنه لا ينبغي، فمثلًا: لو ذهب ينظر في آيات الله تعالى في الجبال الشاهقة وفي الأنهار وفي البحار وما أشبه ذلك فهذا حسن محمود، لكن إذا كان يكلف من النفقة أكثر مما ينتفع به الإنسان فإنه ينهى عنه؛ لأن في ذلك إضاعة مال، أما إذا كانت النفقة قليلة، أو كان هذا الرجل ذا مال كثير لا يتضرر به، ولكنه ينتفع به من الناحية الإيمانية، فلا بأس به .



(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٧/ ٢٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥) وقال: «رواه الطبراني وفيه رجل لم يسم وبقية رجاله ثقات».

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[فاطر:٤٥].

❁ التَّفسِيرُ ❁

﴿وَلَوْ﴾ شرطية، ولو تأتي شرطية كما هنا، وتأتي للتمني مثل قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وتقول مثلًا: لو كان لي مثل مال فلان، يعني: أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شرطية، وتأتي للتمني، وتأتي أيضًا مصدرية بمعنى: أن.

هنا هي شرطية، وإذا كانت شرطية فإما أن يكون جوابها مثبتًا وإما أن يكون منفيًّا، فإن كان مثبتًا فالأكثر فيه إثبات اللام وإن كان منفيًّا فالأكثر فيه حذف اللام، مثال ذلك في الإثبات قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] أين الجواب؟ ﴿لَجَعَلْنَـٰهُ﴾ وفيه اللام، وقال تعالى في نفس السورة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] الجواب: جعلناه، وحذفت منها اللام، أما إذا كان جوابها منفيًّا بما، فإن الأكثر عدم اقترانها باللام ،فتقول مثلًا: لو جاءني ما أهنته، وهنا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وقد تقترن اللام بها، لكنها قليلة كقول الشاعر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارُ لَمَا افْتَرَقْنَا ... ولكن لا خيار مع الليالي

يقول الله تعالى: [﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي] ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

قوله: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ أي: يعاقب، والمؤاخذة بالذنب: العقوبة عليه، وقوله: ﴿ٱلنَّاسَ﴾عام، يشمل الكفار، ويشمل العصاة من المؤمنين، فلو يؤاخذ الله الناس كلهم بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ (ما) يجوز أن تكون مصدرية أي: بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا كانت موصولة فلا بد من تقدير العائد، وتقديره بما كسبوه.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بما اكتسبوا من المعاصي، وسمى الله تعالى المعاصي كسبًا؛ لأن العامل ينال جزاؤها، فكأنه كسب هذا الجزاء، مع أنه كسب رابح أم كسب خاسر؟ خاسر، ولهذا إذا اقترن مع العمل الصالح، أتى بغير هذا اللفظ، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ففرق بينهما، أما إذا أفرد أحدهما عن الآخر فصح الكسب في الخيرات وفي السيئات.

وقوله: [﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ الأرض]، كيف قال المؤلف: أي: الأرض، وأعاد الضمير على غير مذكور؟ قال بعضهم: إنه أعاده على مذكور، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ والكلام كله في سياق واحد، في سياق العاصين ومآلهم وعقوبتهم، فالكلام نسق واحد، فالأرض إذن مذكورة.

وقال بعضهم: هي غير مذكورة لكنها معلومة من السياق؛ لأن الدواب إنما هم على ظهر الأرض، فهي معلومة من السياق، وما علم من السياق فإنه لا يحتاج إلى مرجع مذكور، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] توارت ما هي؟ الشمس، مع أنه لم يسبق لها ذكر، لكنها معلومة فإنها هي التي تتوارى بالحجاب.

يقول: [﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، نسمة تدب عليها]، ﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد زائد؛ لأنها جاءت بعد النفي، ما ترك عليها من دابة أي ما ترك عليها دابة لكنها دخلت عليها (من) لتفيد العموم أو لتؤكد العموم.

وقال المؤلف: [نسمة تدب عليها]، النسمة هي: كل ذاتٍ تتنفس؛ لأنها مأخوذة من النسم، وهو التنفس، وكل شيء فيه روح فإنه يتنفس، المعنى: لهلك كل شيء على الأرض، أما البشر العاصون فهلاكهم واضح، وأما غيرهم فبشؤمهم - بشؤم العصاة - تموت هذه الدواب، إما بأن يمنع الله - عز وجل - المطر والنبات فتموت هذه الدواب؛ لأنها لا تجد عيشًا، أو أنها تموت بأوبئة تجتاحها بسبب أعمال الناس.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: [يوم القيامة] ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: الناس، والفاعل هو الله، ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ أي: مدة، ﴿مُسَمًّى﴾ معين، وما هو؟ يو م القيامة.

كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة هود: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤)﴾ [هود: ١٠٣] أجل مسمى: معين عند الله - سبحانه وتعالى -، ولا يعلم هذا الأجل إلا الله، فإن علم الساعة لا يكون

إلا لله - سبحانه وتعالى -، عجز عنه أعلم البشر وأعلم الملائكة، حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة: «**قال: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1].

والأجل المسمى لابد أن يجيء كل شيء مسمى فهو قريب، لكن الأجل المبهم هو الذي ينتظره الإنسان إذا لم يحصل، أما المسمى فلا بد أن يوصل إليه.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: انتهت المدة، وصار يوم القيامة سواء كانت القيامة الكبرى أو القيامة الصغرى، القيامة الكبرى العامة لجميع الناس، والصغرى موت كل إنسان.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فيجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين] جملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب الشرط ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإن قال قائل: ما وجه ارتباط الجواب بالشرط ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾؟ يعني: قد تتوقع فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله فيقال: إن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أبلغ من: فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله؛ لأن من هؤلاء مَن قد يعفو الله عنه فلا يعاقبه، ولكنه ذكر أنه بصير بأعمالهم يجازيهم عليها وإن شاء ألا يعاقبهم فعل فيمن يستحق العفو.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد منها:** سعة حلم الله - سبحانه وتعالى -، وجهه: أنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك عليها من دابة ولكن يحلم - عز وجل - ويمهل، لعل الناس يتوبون .

٢ - **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله تعالى، حيث يقدر على إهلاك العالم بلحظة، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

٣ - **ومنها:** بيان شؤم المعاصي وأنها قد تعم العاصي وغيره، بل المكلف وغير المكلف، وإلا فإن هذه الدواب التي هي أكثر بكثير من البشر ومن الجن ما ذنبها، وهي غير مكلفة، لكن هذا من شؤم المعاصي، وأنها تشمل حتى من ليس بمكلف .

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على الجبرية بقوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، فأثبت للعبد كسبًا، والجبرية يقولون: إن الإنسان مجبر على العمل ما يستطيع أن يكتسب، يجبر على أن يعمل خيرًا أو شرًّا.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله - عز وجل - في مجازاة العاملين بعملهم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

لقوله: لو يؤاخذهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن﴾ لحلمه ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه مهما حلت بالبشر من عقوبة مدمرة أو منقصة فإنما ذلك بما كسبت أيديهم.



تم - بحمد الله - تفسير سورة فاطر

تفسير سورة يس

تفسير سورة يس

قال المؤلف - رحمه الله تعالى: سورة (يس) مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ الآية، فمدنية.

والمكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة، وليس ما نزل بمكةَ، إذ قد ينزل بمكة بعد الهجرة ويكون مدنيًّا، فما نزل قبل الهجرة فهو مكيٌّ، وما نزل بعدها فهو مدنيٌّ، وهذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم، والأقوال في هذه السورة ثلاثة:

الأول: أنها مكية.

الثانية: أنها مدنية.

الثالثة: أنها مكية إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾.

والذي يظهر أنها مكية؛ لأن أسلوبها أسلوب المكي، والسور المكية تمتاز عن السور المدنية: بقوة الأسلوب، وجزالة اللفظ، بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها أَلْين؛ لأنه يُخاطِب قومًا آمنوا، ويُخاطب أيضًا قومًا فيهم أهل كتاب، ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب، فالظاهر - والله أعلم - أنها مكية، وإذا جعلناها مكية فإننا لا نقول باستثناء شيء منها؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكية، وأن السورة المدنية كلها مدنية، فمن ادَّعى استثناء آية أو آيتين، أو أكثر فعليه الدليل، أما مُجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة في آية مثلًا، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى قد يذكر معنىً يليق بأهل المدينة توْطِئةً وتمهيدًا حتى يكون الناس على بصيرة؛ ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أَوْلى؛ لأن فيها اليهود، أما مكة فلم يكن فيها يهود، فبعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسور المدنية، أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا. وهذا غير مُسَلَّم.



قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

التَّفْسِيرُ

البسملة آية من كتاب الله مُستقلة، يُؤتَى بها في ابتداء كل سورة، ما عدا سورة براءة، وليست البسملة من الفاتحة ولا من غيرها، هذا هو القول الراجح، وأما من قال: أنها من الفاتحة وليست من غيرها، فقوله ضعيف لوجهين:

الأول: للتفريق بدون دليل.

الثاني: أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه الثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[1]، يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تذكر في هذا الحديث؛ ولأن النبي ﷺ كان لا يجهر بالبسملة في صلاته، وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة، وإلا لجَهَرَ بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فهي: جار ومجرور، وصفة وموصوف، وهذا الجار والمجرور مُتعلق بمحذوف، وهذا المحذوف يُقدَّر فعلًا مُتأخرًا مُناسبًا، وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العوامل الأفعال، ولذلك تعمل الأفعال فعلها بدون شرط، والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد فيها من شروط، وقدَّرْناه مناسبًا أو خاصًّا؛ لأنه أدَلُّ على المقصود، وقدرناه مُتأخرًا لفائدتين:

الأولى: تقديم اسم الله عز وجل.

الثانية: إفادة الحصر، فعندما تُسَمِّي على الوضوء فالتقدير: باسم الله أتوضأُ، ولو قلتَ: باسم الله أبتدِئُ صحَّ، لكنه ابتداءً عامًّا، وأتوضأ أخصَّ، والإتيان بالأخص أدل على المقصود، ولو قلت: أبتدئ باسم الله صَّح،لكن فاتك التأخير والتخصيص والفعلية؛ لأنك قلتَ: أبتدئُ. وإذا قلت: أبتدئ باسم الله. فاتك التأخير والتخصيص، وإذا قلت: أتوضأ باسم الله. فاتك التأخير فقط.

ولو قال قائل: هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من النص؟

نقول: نعم، قال النبي عليه الصلاة والسلام-وهو يخطب الناس في عيد الأضحى: «مَنْ لَمْ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي(٩٠٩).

يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[(١)] أو «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[(٢)]. فخص الفعل.

لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ اسم لله رب العالمين، وهو أعلم الأعلام، أعلم حتى من الضمير؛ لأنه اسم يختص بالله لا يمكن أن يُشاركه فيه أحد؛ ولهذا قالوا: أعْرَفُ المعَارِفِ على الإطلاق اسم الله؛ لأنه لا يُشاركه فيه أحد، والضمير إذا قلتُ :قمتُ. فلا يُشاركني أحدٌ فيه، لكنَّه يصلح أن يستعمله غيري، أما اسم الله فلا تصلح الشِرْكَةُ فيه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله، والرحمن والرحيم معناهما ذو الرحمة، لكن الرحمن باعتبارها وصفًا لله، والرحيم باعتبارها فعلًا له؛ ولهذا كان الرحمن عامًّا، والرحيم خاصًّا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] فالرحمن لُوْحِظَ فيه الوصف، والرحيم لُوْحِظَ فيه الفعل؛ ولهذا لما لوحظ في الرحمن الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسَّعة، فصارت على وزن (فَعْلَاْن).

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقية الثابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز، وقد أنكرها أهل التعطيل، ومنهم الأشاعرة، وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رِقَّة ولين، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وفسروها إما بالإرادة؛ لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإما بالفعل؛ لأن الفعل منفصل عن الفاعل- يعني المفعول منفصل عن الفاعل – فهم أهل التعطيل - يُفسرونها: إما بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يُقِرُّون بالإرادة، ولا شك أن قولهم هذا باطل، وأنه إنكار صفة من أعظم صفات الله عز وجل وهي من أبرز صفاته، فقد قال الله تعالى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[(٣)]. والعجب كل العجب أنهم يقولون: إن الإرادة دلَّ عليها العقل، والرحمة دلَّ العقل على انتفائها، قالوا: لأن التخصيص دَالٌّ على الإرادة، فمثلًا هذه سماء، وهذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر، إلى آخره، يدل على الإرادة ؛لأنه لا تُخَصَّص إلا بإرادة، أما الرحمة فيقولون: إن العقل لا يدل عليها، بل يدل على انتفائها.

فنقول: عجبًا لكم، دِلالةُ العقل على الرحمة أبلغُ وأظهرُ وأوضحُ من دلالته على الإرادة؛ ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواصُّ الناس، فلو سألتَ طالب علم بدون أن يعرف البحث، ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم! لكن الرحمة كلٌّ يعرف أن لله تعالى رحمة، ويُسْتَدَلُّ عليها بالعقل، تأتي العاميَّ في السوق فتقول: نزل

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١٩٦٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

المطر، واخضرت الأرض، ورُوِيَتْ الزروع، وما أشبه ذلك، من أين هذا؟فيقول لك مباشرة: من رحمة الله. فَيَسْتَدِلُّ بالنعم التي هي من آثار الرحمة على الرحمة، ولكن نسأل الله لنا ولهم الهداية، من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يسٓ﴾ [يس:١]



❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف - رحمه الله تعالى: [﴿يسٓ﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شك أن الله أعلم بمراده ومراد غيره، وأعلم بكل شيء، ولكن ما المُراد بهذين الحرفَيْن الهجائيَيْن؟ في هذا خلاف بين العلماء - رحمهم الله تعالى:

القول الأول: ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله: «الله أعلم بمراده به». أي: لا ندري ماذا أراد الله عز وجل.

القول الثاني: أن معنى «يس» يا إنسان فـ «يا» حرف نداء على زعمهم، و «س» كلمة يُعبر بها عن الإنسان.

وبعضهم أتى بغير ذلك أيضًا مما لا طائل تحته ولا دليل عليه، لكن يبقى النظر، هل نقول كما قال المؤلف: [الله أعلم بمراده] بجميع الحروف الهجائية التي أُبْتُدِئَتْ بها السور، أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣:١٩٥]؟ فإن مُقتضى اللسان العربي المُبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ على كل كلمة أو حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن «يس» ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المُبين، فـ «يا» حرف هجاء ليس له معنى، و «س» حرف هجاء ليس له معنى أيضًا، وهذا القول ذكره ابن كثير - رحمه الله - عن مجاهد وهو قول قوي، ويشهد له الآية التي استشهدتُ بها، إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف. فيردُ علينا إشكال: إذا قلنا لا معنى لها، فكيف يأتي الله عز وجل في كتابه العظيم بكلام لغو لا معنى له!؟

والجواب على هذا أن يُقال: إن له مغزىً عظيمًا، هذا المغزى هو أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن مُعارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك، لا لأن القرآن أتى بحروف جديدة، أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكونوِّن منها كلامكم فهو حروف هجائية؛ ولهذا قلَّ أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدل على أن هذا هو المُراد بها، وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وقبله الزمخشريُّ أيضًا في تفسيره،

وغيرهما من العلماء، على أن هذه حروف هجائية جِيءَ بها ؛لأجل إظهار عجز العرب عن مُعارضة هذا القرآن، مع أنه لم يأتِ بجديد في كلامهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس:٢]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر مُعظَّم على صورة مخصوصة، ولا بد أن يكون المحلوف به مُعظَّمًا ولو تقديرًا في ذهن المُقسِم، كأنَّ المُقسِم المُعظِّم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكُّدِي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه. ولهذا لا بد أن يكون المحلوف به مُعظَّمًا، وإلا لكان الحَلِفُ لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيمًا في ذاته حقيقة، وقد يكون مُعظَمًا باعتبار المُقسِم به، فالذين يحلفون باللات والعُزى يحلفون بمُعظَّم لا بعظيم؛ لأنه مُعظَم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يُقسمون بالله وآياته، يحلفون بعظيم وبمُعظَّم في قلوبهم، وهو مُعظَّم في نفسه. ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾،المُراد هذا القرآن الذي نقرؤه كلام الله عز وجل، وهو مُشْتَقٌ من قرأ بمعنى تلا لأنه مَتْلُوٌّ، أو من قرى بمعنى جمع؛ لأنه مجموع وجامع، فهو مُشتق من المعنيَيْن، من القراءة بمعنى التلاوة، ومن قرى بمعنى جمع، ومنه القرية لأنها مُجتمع الناس، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلوٌّ، وجامع ومجموع؛ كلمات مجموع بعضها إلى بعض، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة للقرآن وهي بمعنى مُحكِم، أو بمعنى مُحكَم، أو بمعنى حاكِم كلها تُحتمل، فالقرآن حاكِم؛ لأنه يجب الرجوع إليه قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. وقال أيضاً:﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].على القول بأن القرآن مُحكِم؛لأنه متقن للأشياءقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام:١١٥]. وكذلك أيضًا مُحكَم؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:٨٢]، وهو أيضًا مُشتمِل على الحكمة، ففيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

أولًا: حكيم في ترتيبه، فكل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو لتقصيرنا، فمثلًا لو قال قائل: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ

ﵟٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَﵞ [البقرة:٢٣٨] ،جاء في سياق آيات العدد فما هو الارتباط.

نقول: إنه لا بد أن هناك حكمة، لكنْ قصُرتْ أفهامنا عنها، أو قصَّرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانيًا: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدْل، موافِقة للفطرة وللعقل الصريح؛ ولهذا لا تجد شيئًا من أحكام القرآن مُناقضًا للفطرة أبدًا، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئًا في القرآن يُكذِّبُه العقل، أو يُحيله أبدًا، بل إن العقل يُقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثًا: حكيم في أسلوبه يشتد في مواضع الشِّدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العربِ، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي؛ من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوبٍ إلى آخر، وهو ما يُسمى بالالتفات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف – مُقتصِرًا على واحد منها: [المُحْكَم بعجيب النظم، وبديع المعاني]. فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم، ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومُحكِم، ومُحكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المؤلف.



قال الله تعالى:

ﵟإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ[يس:٣]

التَفسِير

وإقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحُكم، ثم ذكر عز وجل المُقسَم عليه فقال: ﵟإِنَّكَﵞ أي يا مُحمد ﵟلَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ فأقسم الله تعالى بكتابه على أن مُحمدًا ﷺ من المُرسلين، وقوله: ﵟلَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ؛ لأنه سبقه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرُسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ليُتم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصرًا وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: «فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

والجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، وإن، واللام.

قال المؤلف: [﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٣] متعلق بما قبله]. الذي قبله ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، و مُرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلق به المعمول، فالمعنى: إنك لمن الذين أُرسِلُوا على صراطٍ مُستقيم لأن جميع الرسل على صراطٍ مستقيم بلا شك، ولكن يُحتمل وجهًا آخر أحسن مما قال المؤلف، وهو أن تكون ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] خبرًا ثانيًا لـ (إن)، أي: إنك على صراطٍ مستقيم، وهذا أنسب، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢،٥٣]. فالوجه الثاني في إعراب ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أنها خبر ثانٍ لـ (إنَّ)، وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال المؤلف: [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره ردٌّ لقول الكفار له: لست مُرسلًا]. كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:٤٣]. إذن فالكلام مُطابق لُمقتضى الحال؛ لأنه يُخاطب المُنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمُخاطب ثلاث مراحل: أن يكون مُنكرًا أو أن يكون مُترددًا، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد، قالوا: فإن كان مُنكرًا وجب تأكيد الخبر له، وإن كان مُترددًا حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء، فإنك تُلقي إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل. فتُخاطب إنسانًا ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد، تقول: زيد قائم، وإذا كنت تُخاطب مُترددًا في صحة الخبر فأكده له استحسانًا، وإذا كنت تُخاطب مُنكرًا فإنه يجب أن تؤكد له الخبر. هذا هو الأصل، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق. فهنا الكفار يقولون: لست مُرسلًا. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجبًا يعني مما توجبه البلاغة، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه، بل وجوب من حيث البلاغة.



قال الله تعالى:

﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:٤]

التفسير

الصراط فِعَال بمعنى مفعول؛ لأن فعالًا تأتي بمعنى مفعول كثيرًا، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش. فصراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصراط: المرور بسرعة. ومنه قولهم: صراط اللقمة أي:ابتلعها بسرعة. وفي اللهجة العامية

عندنا نقول: «زرط» وهي لغة عربية في صراط، و «سراط» بالسين و «زراط» بالزاي فكلها لغة عربية، والصراط لا يكون صراطًا إلا إذا كان طريقًا واسعًا يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضًا من صفاته أن يكون مستويًا ليس فيه طلوع ولا نزول ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراطٌ مستقيم؛ لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضًا صراط واسع لا يمكن أبدًا أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بُعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لا بد أن يوجد حل لمشكلتها - إن كانت مشكلة - فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسُنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضًا واسع لا يمكن أن يُضيَّق بأي جزئية تقع إلى يوم القيامة، إذن ليس هناك مُشْكِلٌ في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قِبَل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقصير في طلب العلم والهدى، أو الأشياء رانت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تُبصر الحق، فقد يكون الإنسان غير مُقصر ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تَحُول بينه وبين رؤية الصواب؛ ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يُكثِر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مُستنيرًا، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [النساء:١٠٥، ١٠٦]، ويُستدل له أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٣،١٤]. فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقية هذا الكتاب حتى قال القائل-كما قال تعالى: إنها ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] فهذا الدين صراطٌ مُستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقصيرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١- بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بِدْعًا من لسانهم، وإنما من الحروف التي يركِّبون منها كلامهم، يُشير إلى هذا قوله: ﴿يسٓ﴾؛ ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أول السورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

٢- **ومن فوائدها:** عظمة القرآن العظيم؛ لأن الله تعالى أقسم به، ولا يقسم إلا بشيء مُعظَّم. والقرآن الكريم عظيم في نفسه.

٣- **ومن فوائدها:** الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها عند قوله:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤ - **من فوائدها:** العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها، وأكدها زيادة على القسم بإن واللام.

٥- ثبوت رسالة النبي ﷺ، فمن أنكرها فهو كافر؛ لأنه مُكذب لله، ورسوله، وإجماع المسلمين.

٦- **من فوائدها:** إثبات الرسل وأن ثَمَّة رسلًا غير محمد ﷺ؛ لقوله تعالى هنا: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، يعني لست أول رسول فإنه ﷺ قد سبقه رسل من قبله.

٧ - **من فوائدها:** أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المستقيم؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. والصراط المُخالف للشرع فيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.



قال الله تعالى:

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس:٥].

التفسير

خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن منزَّل يعني: ينزل شيئًا فشيئًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فإنه ينزل شيئًا فشيئًا، ويعبر أحيانًا عن القرآن بأنه أنزل باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدريج في تنزيله يكون مُنزلًا، وهكذا في القرآن نزل المطر، أحيانًا يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩]،وأحيانًا يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الرعد:١٧]، فباعتبار أن المطر ينزل شيئًا فشيئًا يُقال: «نزلنا».وباعتبار النهاية واجتماعه كله يُقال: «أنزلنا».وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾. قال المؤلف: [في ملكه]. يعني: الغالب في ملكه الذي لا يُغلب فيه، وقد مر علينا في باب العقيدة أن العزيز من أسماء الله، وأن العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القَدْرِ، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

فعزة القدر بمعنى أنه ذو قَدْرٍ عظيم رفيع، وعزة القهر بمعنى أنه قاهر غالب، وعزة الامتناع أي أنه قوي لا يناله شيء. قال ابن القيم – رحمه الله:

وَهُوَ الْعِزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ أَنَّي يُرامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

فالله عز وجل عزيز ممتنع أن يناله السوء، ومنه (الأرض العزاز) لقوتها وشدتها، فقول المؤلف: [العزيز: في مُلكه]. فيه قصور، قال المؤلف: [الرحيم: بخلقه]. وهنا نقول: إن الرحيم عامة؛ لأنها لم تُقَيَّدْ، فالمُراد به الرحمة العامة، فالله سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم،قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣﴾ [الأحزاب:٤٣]،وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإنه إمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مُقتضى رحمته - سبحانه وتعالى - بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارةً إلى أن هذا القرآن من مُقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المؤلف رحمه الله: [خبر مبتدأ مُقدر، أي: القرآن]. يعني بخبر مبتدأ مُقدر ﴿تَنزِيلَ﴾ بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزيلُ العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية :﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وعلى هذه القراءة يكون منصوبًا على أنه مصدر عامله محذوف، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

الفوائد:

١- أن القرآن منزل من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٢- يُستفاد منها أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

٣- إثبات علو الله تعالى، لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ﴾. والنزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عز وجل دلَّ عليه الكتاب، والسُنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على علوِّ الله عز وجل.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله الحسنى، وإثبات ما تضمناه من الوصف، وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم، والعزيز في بعض معانيه وهو الغالب.

٥- **ومن فوائد الآية:** إنذار المخالفين لهذا القرآن وذلك بإضافة ﴿تَنزِيلَ﴾ إلى العزيز؛ لأنه إذا قيل: جاء هذا من عزيز، دل على إنذار من خالفه وتحذيره، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المنزَّل؛ لأنه نزل من عزيز.

٦ - أن القرآن بل إن الشرع كله من آثار رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فإن قلت: أين الرحمة في قطع يد السارق؟ وفي رجم الزاني المُحْصَن؟ وفي قتل القاتل؟ وما أشبه ذلك.

فالجواب: أن الرحمة في ذلك واضحة جدًّا، فقطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وغيره: رحمة بالسارق؛ لتردعه عن السرقة مرة أخرى، ولتكون كفارة لذنبه؛ لأن الحدود كفارة، يُكَفِّرُ بها عن فاعلها، وفيها أيضًا إصلاح المجتمع وحمايته من الفوضى، فهذه رحمة، وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص إنه من رحمة الله عز وجل.



قال الله تعالى:

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦].

التفسير

قال المؤلف: [﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوۡمٗا﴾ متعلق بتنزيل]. ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هذه تُسمى لام التعليل، والفعل بعدها منصوب باللام، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مُضْمَرة بعد اللام، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى مُتعلِّق، ومتعلِّقها قوله: ﴿تَنزِيلَ﴾، يعني: إنما نزل لتنذر قومًا ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. «تنذر»: قال العلماء: الإنذار هو الإخبار المقرون بالتخويف، أو المتضمن للتخويف، فالإنسان مثلًا يأتي إلى قوم يصيح بهم: العدو، العدو. يُقال: هذا منذر ونذير، فالنذير عن شيء يخوف، فهو إعلام متضمن للتخويف، وهذا القرآن أنزله الله عز وجل ليُنذر النبي ﷺ به قال تعالى ﴿قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾، أي: لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا فـ (ما) نافية، يعني: لتنذر قومًا لم ينذَرُوا ولم يخوَّفوا، لكن هذا في زمن الفترة، وأما قبل فقد أُنذِروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فإنه مُرسَل إلى العرب إلى قومه، وبعد ذلك لم يُنذَرْ هؤلاء، قال بعض المُعربين الذين يجمعون الأقوال - صحت أو لم تصح، أي أنهم يقولون أي احتمال - قالوا: ويجوز أن تكون «ما» موصولة، أي: (لتنذر قومًا الذي أنذره آباؤهم)، فيجعلون ما موصولة، ويجعلون العائد محذوفًا تقديره (الذي أُنذره آباؤهم) أي: لتنذرهم الذي أُنذره آباؤهم، ولكن هذا وإن كان مُحتملًا من قِبَل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعنى؛ لأن الآيات الكثيرة المُتعددة تدل على أن قريشًا الذين بُعِثَ فيهم النبي محمد ﷺ لم يُنذَر آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [السجدة:٣]، وهذا صريح في أن «ما» هنا للنفي لا غير.

قال المؤلف - رحمه الله : [﴿فَهُمۡ﴾ أي: القوم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن الإيمان والرُّشد]. غافلون لأنهم

ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النُّذُر بوجب حياة القلوب والانتباه؛ ولهذا يجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكأنهم ما خُلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها من دون الله؛ يركعون لها، ويسجدون، ويُنذرون ويوفون، فهم غافلون لعُدْم مَن يوقظهم، ولكن مِن هؤلاء الذين في زمن الفترة مَنْ عنده علم من الرسالة؛ لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحُجة، ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

الأول: نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة؛ لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

الثاني: نوع لا ندري عنهم شيئًا، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

وأصح الأقوال فيهم أنهم يُمتَحَنُون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول ﷺ منذر، أي معلم إعلامًا يتضمن التخويف.

فإن قيل: وهل هو مبشِّر؟

فالجواب: نعم مبشِّر. ولكن لِمَ ذُكِرَ هنا الإنذار دون البشارة؟ والجواب على ذلك أن يقال: إما لأن المقام يقتضي ذلك؛ لأنه يخاطب قوماً طاغين، فالأَلْيَقُ في حقهم الإنذار والتخويف؛ لأنهم مخالفون وطاغون.

وإما أن يقال: إن هذا من باب ذكر أحد المتقابلَيْن استغناءً بذكره عن ذكر الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] .يعني :والبرد.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ مرسل إلى العرب خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ وهي نكرة مقصودة، والذين ما أنذر أبائهم هم العرب، إذًا فاليهود والنصارى ما أرسل إليهم؛ لأنهم أنذر آبائهم، ولكن نقول: إن الآيات الأخري تدل على عموم رسالته ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. ومثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].وكقوله ﷺ: «بُعِثْتُ

إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»[1]. والنصوص في هذا كثيرة متوافرة، ومن كذَّبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضًا؛ لأن الجنس واحد.

لكن قد يُقال: لماذا خص العرب؟

فيُقال: خصهم لأمرين:

الأول: أنه منهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

والثاني: أنه باشر دعوتهم بنفسه، وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثم انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - هنا قاعدة وهي: «ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه لا يقتضي التخصيص». كما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي - رحمه الله - في تفسيره وغيره، وهذا هو رأي الجمهور، وهو الحق، فذكر بعض أفراد العام بحكم لا يقتضي التخصيص إذا كان يُطابق حكم العام، فإذا قلت: أكرم الطلبة. ثم قلت: أكرم زيدًا. وهو منهم، فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العام، وذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق العام ليس تخصيصًا له.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: سب هؤلاء الذين غفلوا عن الرسالات، لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. وأن الغفلة عن البحث عن الرسالة يُعتبر ذَمًّا، وكذلك نقول فيمن غفل عن البحث في جزئيات الشريعة. فمثلًا من غفل عن البحث في أحكام الصلاة فإنه يُذَم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو يحتاج لذلك نقول فإنه يُذَّم. ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادةٍ من العبادات كان تعلم أحكامها فرض عين. وبناءً على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائمون بفرض كفاية؛ ولهذا يحسن بهم أن يستحضروا هذا الأمر، وأننا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية نُثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[2]. وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الطلبة في مجالس الذكر والعلم و في المجالس الأخرى

مجالس المراجعة، تجد الإنسان يُراجع الكتاب لكنه لا يستحضر أنه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يُفَوِّتُ خيرًا كثيرًا؛ لهذا نسأل الله أن يُعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكسب خيرًا بما نقرؤه أو نراجعه.

٤ - **ومن فوائد الآية**: إثبات الحكمة لله المُستفاد من قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾.



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٧]

❁ التفسير ❁

اللام موطئة للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسمًا محذوفًا تقديره: والله لقد حق. و «قد» للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن كثيرًا وطريقه ما أشرنا إليه.وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾. أي: وجب ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هو القول بالعذاب ،كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦]. فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أوتي من آية، ولكن لا تحق كلمة العذاب إلا على من استحقها؛ حتى لا يُقال: أن الله تعالى قد أجبره على العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] .والله عز وجل ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلًا للهداية هداه، ومن لم يكن أهلًا لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ - والعياذ بالله - فإنه لا يؤمن، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾. يعني: على أكثر الذين بُعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب، وليس على كلهم؛ ولذا فقد كُذِّبَ النبي ﷺ من قريش ومن أمم كثيرة وماتوا على الكفر، ولا سيما الصناديد منهم والأشراف. وقوله تعالى:﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (هم) الضمير يعود على أكثر، لا على «الهاء» في ﴿فَهُمْ﴾،﴿فَهُمْ﴾ أي: الأكثر لا يؤمنون؛ حتى وإن جئتَ بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون؛لأنهم حقَّتْ عليهم كلمة العذاب.

*** الفوائد:**

١- **من فوائد الآية الكريمة:** تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن المُخاطب مُنكرًا؛ لأن الله سبحانه هنا يخبر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهم لا ينكرون ذلك، لكن لأهميته أُكِدَ.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن، كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:١٩] أي: فقد ثبت أنه في النار فلا تنقذه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ مَن لم تحق عليه

الكلمة فيؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أنه ينبغي بل يجب على الإنسان اللجوء إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلًا، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب إليه هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائمًا لاجئًا إلى الله تعالى سائلًا الثبات؛لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾. فالأمر كله بيد الله.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ [يس:٨].

التفسير

قوله تعالى﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ أي: صيَّرنا؛ ولهذا نصبت مفعولين: المفعول الأول: أغلالًا، والمفعول الثاني: مُقدم، ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾، وقوله: ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾ الغُل يكون باليد، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة:٦٤]. وهنا قال تعالى: ﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ فمعناه: أن اليد سوف تُشدُّ إلى العنق؛ ولهذا قال المؤلف: [بأن تُضَمَّ إليها الأيدي؛ لأن الغُل يجمع اليد إلى العنق، ﴿فَهِيَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾]. قول: «مجموعة» أخذها من قوله: ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾. ويجوز أن نقدر بدل «مجموعة» منتهية أو بالغة ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، واللحيان هما العظمان اللذان عليهما الأسنان، ومجمعهما يُسمى الذقن، ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ يقول المؤلف – رحمه الله: [رافعون رؤوسهم]. والأحسن أن يُقال: مرفوعو الرؤوس؛ لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس، قال المؤلف: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها]. لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداه بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لا بد أن يرتفع رأسه اضطرارًا، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مُغمضةٌ أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المؤلف يدل على أنه ليس بشرط، فالمهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرَّف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون تنزيل رؤوسهم، فهي دائمًا مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المُكذبين كما قال المؤلف: [وهذا تمثيل، والمُراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له].



قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

التفسير

قال المؤلف: [﴿سَدًّا﴾بفتح السين وضمها في الموضعين]. قراءتان سبعيتان، أي: سُدًّا وسَدًّا. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تُبصر؛ ولهذا قال المؤلف: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم]. ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلًا، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان – والعياذ بالله – وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جُعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فتأملْ أيضًا حالهم الآن؛ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

فنستفيد من هاتين الآيتين الكريمتين فوائد:

١- أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولةِ يدُه إلى عنقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾.

٢- أن هذا الذي جُعلت يده إلى عنقه على سبيل الغُل ؛كأنه مُكْرَهٌ أن يكون على هذه الحال، وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يوقعه في الهلاك كأنه مُكره على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى للأبوين حين جاء إليهما الشيطان ووسوس إليهما، ولم يكتف بمجرد الوسواس، بل قاسمهما وصار يحلف لهما بشتى الأيمان أنه ناصح، فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يُغويه.

٣- **ومن فوائد الآيتين الكريمتين:** أن هؤلاء قد حُجِبَ عنهم الهدى، لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.

٤- **ومن فوائدها أيضًا:** أن أبصارهم قد أُغشيَت، وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

٥- **ومن فوائد الآيتين:** تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه، وحِيلَ بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت

من نفسك أن الهدى ينفتح لك ويتبين، وينشرح به صدرك فاعلم أنك على خير،ؤ نحن نقيس هذا بحال هؤلاء إذ جُعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يبصرون الحق، فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر؛ فتداركها.

٦ - إن من بلاغة القرآن الكريم تمثيل المعقول بالمحسوس.



قال الله تعالى:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس:١٠]

التفسير

﴿وَسَوَآءٌ﴾ خبر مُقدم بمعنى مستوٍ، و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوق بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية، لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبق وما بعدها. بمصدر، وتقدير الكلام: «وإنذارك وعدمه سواء عليهم». ﴿وَسَوَآءٌ﴾ هنا لم يقل فيها: «سواءان»؛ لأنها مصدر، والمصدر لا يُثنَّى ولا يُجمع. قال المؤلف في بيان القراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا وتسهيليها، وإدخال ألف بين المُسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المُسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل تجعل فيها ألفًا أو تحذف الألف إدخال الألف بين الهمزة المُحققة والمُسهلة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى مُحققة، والألف، والهمزة الثانية مُسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستُحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المؤلف من عادته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: (وقُرئت). وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.

والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بيَّن وجه التسوية فقال تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. هذا معنى التسوية، يعني معناه: أنذرت أم لم تُنذر فإنهم لا يؤمنون؛ ولهذا فالجملة هنا استئنافية لبيان الجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مُشاهد أن الإنسان الذي قُضي عليه بالضلالة – والعياذ بالله – تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى، وتبين له وتُحذره، ولكنه لا يزداد إلا نفورًا – والعياذ بالله – حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزئ، فعلى كل حال هذا الذي يُنذَر ولا يتأثر بالإنذار يُخشى عليه، كما اسلفنا من أن يكون قد طُبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبدًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء المُكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لا يُبالون

ولا تتغير حالهم، سواء أنذرهم أم لم يُنذرهم.

٢- **ومن فوائدها:** تسلية النبي ﷺ؛ حيث إنه يتأثر بعدم الإيمان، فسلَّاه سبحانه وتعالى بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، سواء أأنذرت أم لم تنذر. والرسول ﷺ إذا لم يهتد الناس فإنه يشق عليه ذلك ويضيق به صدره، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مُهلكها إذا لم يؤمنوا، وهذا ليس عليه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول ﷺ كان يُنذرهم مع أنه قد أيس منهم، فيُستفاد منه الإنذار حتى وإن يئستَ، وهذا أحد القولين في المسألة، فإن من أهل العلم من يقول: إذا أيست فلا تنذر؛لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] .وإن لم تنفع فلا تُذكِّرْ.

وقال بعض العلماء: بل تذكر وتنذر، سواء نفع أم لم ينفع، بل يقولون: إنه لا يخلو من النفع مهما كان؛ لأن أقل ما فيها من النفع أن يتبين للناس أن العمل الذي عليه هذا الرجل مُنكَر؛ ولأنه ربما يهديه الله عز وجل، فكم من أُناس كانوا أئمةً في الكفر ثم هداهم الله عز وجل ،فكانوا أئمةً في الدين.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، ومن حقت عليه الكلمة فلا يمكن أن يؤمن، سواء أُنذر أم لم يُنذر.

٥- أن الأمر كله بيد الله عز وجل، فهو الذي يهدي من يشاء، ويُضل من يشاء، ولكن هذا مقرون بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يهتدي هداه الله، ومن اقتضت حكمته أن يضل أضله الله، وهذا مبني على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]. وحينئذٍ يكون حرمان الله الهداية للشخص، يكون الشخص هو السبب في حرمان نفسه الهداية؛ لأنه ليس أهلًا لها، فالله عز وجل ينظر في قلوب العباد؛ فمن وجد في قلبه صلاحية للهدى هداه، ومَن وجد في قلبه عدم الصلاحية لم يهده، فأصل بلائك من نفسك.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الضال – والعياذ بالله – الذي كُتبَتْ عليه الضلالة لا يُبصر الحق، وإن كان الحق بَيِّنًا واضحًا فإنه لا يُبصره، يكون على بصره غشاوة، كما أنه لا يعقله أيضًا ؛لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣، ١٤].فالذي يعتقد أن القرآن أساطير الأولين وأنه لا يفيده، وأنه بمنزلة سواليفا العجائز، فيرى هذه الرؤية في كتاب الله عز وجل؛ لأنه فاسد القلب، قلبه قد ران عليه ما كان يكسبه من الأعمال السيئة فلم ير الحق حقًّا.

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلَالَا

الماء الزلال الصافي الحلو العذب يجده المريض مرًّا، فإذا مرض الإنسان ذاق الماء الذي كان عذبًا في مذاقه من قبل مرًّا، لا لأن الماء مرٌّ؛ ولكن لأن المحل غير قابل، فيجد هذه العذوبة مرارة.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١].

التفسير

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجملة فيها حصْر، طريقه: «إنما»، والتقدير: «لا تنذر إلا من اتبع الذكر». وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. المُراد بذلك:إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر؛ ولهذا قال المؤلف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن].

والمراد با تباع الذكر في قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ شيئان:

الشيء الأول: تصديق الخبر، واعتقاد مُقتضاه.

والثاني: امتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر، فمَن استكبر عما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومَن لم يصدق أخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار، واتباع الأحكام فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور، وقوله: ﴿الذِّكْرَ﴾ المُراد به القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] فسمَّى القرآن ذكرًا:

أولًا:لما فيه من التذكير والموعظة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ثانيًا: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

ثالثًا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعًا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]. فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم الأمة التي ترجع

إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم؛ فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم.

خامسًا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي؛ لأن هذا هو عديل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل؛ فلهذا سمَّى القرآن ذكرًا.

قال الله عز وجل: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾. «خشي» يقول المؤلف: [خافه ولم يره]. وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فَسَّرَ بمرادفه، فتفسير الشيء بمرادفه يُسمى حدًّا لفظيًّا، فإذا قلت: القمح هو البُّر. فهذا حدٌّ لفظي، وتفسير الخشية بالخوْف فيه نظر؛ لأن هذا الحد غير مانع؛ لأن الخشية ليست مُجرد الخوف، بل الخشية هي: الخوف عن علم بالمخوف وعظمته؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨]. فالخوف قد لا يكون لعظمة المخوِّف، ولكن لضعف الخائف. لكن الخشية لا تكون إلا لعظمة المخوِّف، إذا عرف الخاشي عِظَمَ هذا المخشيِّ فَخَشِيَهُ، إذن بينهما فرق، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر، والصواب أن يُقال: الخشية هي الخوف عن علم بعظمة المخوف. فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أما الخوف فقد يكون ناشئًا عن ذلك، وقد يكون ناشئًا عن ضعف الخائف.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾. اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) عز وجل؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم، فَطَمْأَنَ اللهُ الخائفَ والخاشي بأنه إنما يخشى رحمانًا يرحمه، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله – عز وجل – إذا خافه الإنسان وخشيه، فإنه يرحمه؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه، وحينئذٍ يكون مُتعرِّضًا للرحمة، هذه هي المناسِبة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة: (الله)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾. قال المؤلف: [ولم يره]. كأنه يُفسر أن المُراد بالغيب: أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه، فيكون بالغيب حالًا من المخشي، يعني يخشى الله والله غائب عنه، هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالًا من الخاشي، يعني أن هذا الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب ،حال كونه غائبًا عن الناس، فخشي الله بالغيب، أي: بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مُراءاة الناس، ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يُرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في

مكان لا يطَّلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي، ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها.

فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله عز وجل؛ لأن الذي يخشى الله لا بد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضرة الناس، أو بغيبة الناس، أيضًا يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأبصار نظرًا، وعن الآذان سمعًا، وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم ملاحظةً من خشية الجوارح؛ لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مُراقِبًا لله عز وجل ولحقِّه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يُصلي ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يُراقبها الإنسان ويحرص عليها حرصًا تامًّا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. إذًا الراجح من القولين أن قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي، أي: يخشى الله تعالى غائبًا عن الخلق، ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الآذان، وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: [ولم يره] .فاعْتَبَرَ أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله عز وجل لا يُري في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة،فكأن الإنسان يرى ربه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». فآيات الله سواءً الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق سبحانه و تعالى، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاته، ظهورًا بينًا كأنما يُشاهد الله عز وجل، فالصواب إذًا المعنى الأول؛ لأننا نقول: وإن لم نر الله سبحانه و تعالى لكننا نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿تُنذِرُ﴾ .هذا من باب المتقابلات؛ تُنذر فينتفع بالإنذار، وإذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. هو الجنة بمغفرةٍ للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكريم يتضمن:

١ - كرم الذات العيني.

٢ - وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»(١). يعني: الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نَسبتَ هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته وبصفاته، أيضًا طعمه ورائحته وغير

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩).

ذلك هو أيضًا أكرم.

٣ - كريم أيضًا من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تبيع إليَّ سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة، أجر الآخرة أكرم وأعظم؛ لأنك تبذل واحدًا وتُعطَى عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه :في عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا. [وأجر كريم هو الجنة]. هذا تفسير للمراد، لا للمعنى، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أنه لا ينتفع من إنذار الرسول عليه الصلاة والسلام إلا من اتصف بهذين الوصفين: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** صحة نفي الشيء إذا كان لا يُنتفع به وإن كان موجودًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. فإن إنذاره لغيرهم حاصل، لكن لما لم ينتفعوا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أما المنذر فقد قام بما يجب عليه.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما كان الإنسان متبعاً للقرآن كان أشدَّ تأثرًا به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. وبهذا نعرف القاعدة التي ذكرها بعض العلماء: (الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تجلب المعصية).

٤- **ومن فوائد الآية:** الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر، وسبقت الأوجه في كونه ذِكرًا.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الخشية لله سبب عظيم للتأثر بالقرآن و الانتذار به ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** بيان فوائد الخشية لله، وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشى لربه كان أفهم لكلامه.

٧- **ومن فوائدها:** أن الخشية إنما تكون خشية حقيقية إذا كانت بالغيب، أما من خشي الله تعالى بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة، فقد يكون خشي الله عز وجل من أجل أن الناس يرونه، لكن إذا كان بالغيب كان أدلَّ على الإخلاص.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنها تبشر من اتصف بهذين الوصفين: وهما اتباع الذكر، والخشية لله عز وجل بالغيب بالجنة؛ لقوله تعالى:﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾. ولكن هل تنطبق هذه البشارة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العموم، وكل شخص اتصف بما تثبت به الجنة على سبيل

العموم فإننا لا نشهد له بعينه ولكن يُرجَى له ذلك؛ لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سبب الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[1]. لهذا نقول في كل مَن ينطبق عليه وصفٌ يستحق به دخول الجنة نقول: إننا لا نشهد له بعينه؛ لأن الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل معين، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظاهر الأمر أنه يستحقه؛ لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهدله ؛لأنه يُخشى أن يكون باطنه غير ظاهره.

وهذه القاعدة مهمة مفيدة، مثلًا: قُتِلَ رجل ممن يُجاهد مع جيش،وظاهرُ جميع المجاهدين أنهم يُجاهدون؛ لتكون كلمة الله هي العُليا، فهل إذا قُتل على أيدي الأعداء نشهد بأنه شهيد؟ لا نشهد بأنه شهيد، ولكن نقول: نرجو أن يكون شهيدًا. يعني: من الشهداء عند الله عز وجل؛ لأن ظاهر فعله ينطبق على الشهداء عند الله عز وجل، ولكن لا نشهد له بعينه؛ ولهذا ترجم البخاري – رحمه الله – على هذه المسألة في الصحيح قال: «باب: لا يقال فلان شهيد». ولكن كلمة شهيد صارت الآن رخيصة تُبذَلُ بأبخس الأثمان، فأي واحد يُقتَل ولو في قِتْلة جاهلية يقولون: هو شهيد!. وهذا لا يجوز، أتدري ما يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم بأنك شهدتَ له بأنه من أهل الجنة، وهذه مسألة صعبة، لكن كما قلنا آنفًا في القاعدة النافعة: (إن من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجو له ذلك) أما أن نجزم فلا.

فهذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم؟ نقول: نعم، من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم، لكن على سبيل التخصيص نرجو له ذلك.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم؛ فإن ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٣٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٦٤٣).

التَّفْسِير

مناسبة هذه الآية لما قبلها لها مناسبتان:

المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول ﷺ ومن لا ينتفع، بيّن أن كلًّا منهم سوف يحيا بعد موته، وسوف يُجازَى على عمله، فالمناسبة ظاهرة ففيها بشارة للمؤمن المنتذر، وفيها إنذار وتخويف لمن خالف.

المناسبة الثانية: أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المُكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادرًا على إحياء الموتى إحياءً حسيًّا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنويًّا. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾. و﴿إِنَّا﴾ ضمير جمع، والله عز وجل واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعًا. والضمير في﴿نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾وهو ﴿نَحْنُ﴾ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنانحيي الموتى». استقام الكلام، فهي ضمير فصل للتخصيص،يعني: نحن لا غيرنا. و ﴿الْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميت، ويشمل الموتى من بنى آدم وغيرهم، لكن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾. يدل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسُّنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفراده، فهل هذا يخصص العموم أو لا يُخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرف العلماء - رحمهم الله - وجدنا أنهم أحيانًا يجعلونه مُخصصًا للعموم، وأحيانًا لا يجعلونه مُخصصًا للعموم، فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة:٢٢٨]. هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. يشمل مَن لها رجعة، ومن ليس لها رجعة، فهذا العموم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، أي: بعولة المُطلقات .﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. هذا الحكم يختص بالرجعيات،فهل نقول: إن المُراد بالمطلقات في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾. المُراد بها الرجعيات أو هو عام؟ أكثر العلماء على أنه عام.

ومن السُّنة قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما: (قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة) (١) في هذا عموم، وفي هذا حكم يعقبه مختص ببعض أفراد هذا العموم، فهل نأخذ بالعموم، أو نأخذ بما يقتضيه الحكم المعقب؟ فقوله رضي الله عنهما: (قضي النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم) يشمل كل ما لم يقسم، حتى لو كان بينك وبينه سيارة فبِعْتَ نصيبك منها ففيها الشُّفعة، أخذًا بالعموم (بكل ما لم يقسم). وقوله رضى الله عنه: (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شُفعة). هذا يختص بالأراضي، فهل نقول: إن قوله: (في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٤) واللفظ له وأحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٦)، وأبو داود (٣٥١٤).

كل ما لم يقسم) يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرع، ونقول: إذا كان شريكان في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شُفعة للثاني، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به؟ فيه أيضًا خلاف في هذه المسألة.

والذي نحن فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يشمل كل ميت حتى البهائم، وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ خاص بالمُكلفين، فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. أي: من المكلفين بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾،أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ ينبني على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يُقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموا وآثارهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كل ميت،﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما قدم بعضهم وهم المُكلفون.

قوله تعالى:﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. قال المؤلف: [وكل شيء نصبَهَ بُفعل يُفسره: أحصيناه] . ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ (كل) هذه مفعول لفعل محذوف يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، وعلى هذا فيكون التقدير: «أحصينا كل شيء»، ولا تجمع بين المُفسِّر والمُفسَّر، ولا تقل التقدير: «أحصينا كل شيءٍ أحصيناه»؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تُقدِّر فقل التقدير: وأحصينا كل شيء في إمام مُبين. لكن جُعِلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المُسند إليه مرتين؛لأن ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ والضمير في ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعودان على شيءٍ واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مُقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله تعالى: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، وهذا التركيب يُسمى عند النحويين الاشتغال، والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكراهة، والمنع، لكن هذا وجوب نحوي وليس وجوبًا شرعيًّا، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يترجح نصبه، وتارة يترجح رفعه، وتارة يستوي الأمران، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفعنا – والرفع هنا جائز – وقلنا: «وكل شيءٍ أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تَنَاسُبَ الجملتين أولى من تضادهما.

ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكلُّ شيءٍ أحصيناه؛ ولهذا لو قلنا:زيدٌ ضربتُه،و يجوز أن أقول: «زيدًا ضربته». لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: ضربت زيدًا وعمروٌ

أكرمته يجوز في «عمرو أكرمته» النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتناسب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة: إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة اسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ هل الذي يكتب الله عز وجل، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩:١٢]. وإسناد الكتابة إلى الآمر موجود في اللغة العربية كثيرًا، يقول السيد: كتبت كذا وكذا. والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَنَكْتُبُ﴾. والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩:١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾. أي: ما قدموه في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملًا صالحًا في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يُقدم الثمن، فأنت الآن مُقدم الثمن، والمُثمن يكون يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيامة جميعًا، فأنت الآن إذا عملت عملًا صالحًا فقد قدمت لنفسك ثمنًا تأخذ عوضه يوم القيامة، ثق بهذا وأن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملًا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾. يقول المؤلف - رحمه الله: [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم]. هذا ما مشى عليه المؤلف أن المُراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مُخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فعل مُضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ (لم) مثلًا: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضيًا، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المُراد ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]. فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تُصاغ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بشيء انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون هم الملائكة بأمر الله - عز وجل - ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليُجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون؛ لأن الخير لا يمكن أن يُهدَر منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]. وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، وقوله تعالى: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾. الآثار جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المُراد بآثارهم؟ قال المؤلف: [ما استن به بعدهم]. وهذا التفسير كمثال وليس حصرًا؛ لأن الذي يكتب بالآثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ

انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يُدْعُو لَهُ»(1). فمثلًا الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بُستانًا على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد الصالح أيضًا من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولدًا صالحًا يدعو لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدى به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضًا من الآثار، فما ذكره المؤلف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المؤلف - رحمه الله - أن المُراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح.

وذهب بعض المُفسرين إلى أن المُراد بالآثار: الآثار التي يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات؛ فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبني سلمة: «دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»(2).فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الآثار تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول الرسول ﷺ«تكْتَبُ آثَارَكُمْ».هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سمَّاه أثرًا لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال المؤلف أن المُراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وآثارهم ما كان بعد موتهم. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾. قال المؤلف: [﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ضبطناه]. والإحصاء بمعنى الضبط مأخوذ من الحصى؛ لأن العرب أمة أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى ... وَإِنَّمَا الْعِـــزَّةُ لِلْكَاثِرِ

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا بكثيرين، ويُضرب المثل فيُقال: جاء قوم كُثُر الحصى، فأحصيناه ضبطناه، وسُمي الضبط إحصاءً؛ لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى،و قوله تعالى: ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [كتاب مُبين]. هذا صحيح ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ فالإمام يُطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، فإمام الصلاة مثلًا إمام؛ لأنه مرجع للمأمومين يقتدون به، وإمام الحُكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. إذًا ﴿فِيٓ إِمَامٖ﴾: في كتاب،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، والترمذي (١٣٦٧)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والنسائي (٣٦٥١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٣٢).

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾. يقول المؤلف - رحمه الله: [بَيِّنٌ]؛ لأن مبين هنا من الرُباعي، مِن أبان يبين فهو مُبين. أما بين فهي من الثلاثي، من بان يبين، فهو بين، وكلمة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنى واحد فيُقال: بان الصبح، وأبان الصبح. وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه. فإذا جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلح بأن تكون بمعنى (بين)؛ وتصلح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح)، لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعًا، قد تكون في موضع لا تصلح إلا بين، فمثلًا ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].معناها بين ظاهر، وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الدخان:١،٢]. بمعنى الموضِّح المظهِر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مُبِين بمعنى مُظْهِر، أبين في المعنى، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر؛ لأن المظهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل.

وقول المؤلف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ]. وهذا صحيح يعني مُحتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف بَيِّن، أو مُبِين بمعنى مظهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يُظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمور موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بيِّن،فهي صالحة لما يقول المؤلف: [هو اللوح المحفوظ] ؛لأنه يقول: ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾. أي: إنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بأدلة عقلية، وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم:٢٧]. فهذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى،و وجهه أن الإعادة أهون من الابتداء، فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. هذا مثله أيضًا استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة.

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

مُبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق:٩ : ١١]. والآيات في ذلك كثيرة، فقد برهن الله عز وجل على قدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية والحسية؛ لتكون لذوي العقول دليلًا ولذوي الأبصار، والأدلة الظاهرة دليلًا أيضًا، فالإنسان العقلاني كما يقولون نستدل له أو عليه بالعقل، والإنسان السطحي الذي لا يستدل إلا بما يُشاهد نستدل عليه بالأدلة الحسية.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن مَنْ لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يُحيي قلبه فيخشى الله ويتبع الذكر، ووجه الدلالة أن الله تعالى ذكر هذا بعد أن ذكر انقسام الناس إلى مَن يخشى الله بالغيب ويتبع الذكر، ومَن لم يكن كذلك، فيه إشارة إلى أن الله قادر على أن يرد هؤلاء إلى الحق.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل شيء مكتوب للإنسان إما له وإما عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يكتب كل شيء القليل والكثير؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾. (وما) اسم موصول، والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف:٤٩]. ويدل عليه أيضًا في آخر الآية: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأعمال لا تنقطع بالموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾. والآثار ذكرنا أنها أنواع: العلم، والصدقة الجارية، والولد الصالح يدعو له، وسُنة يحييها فيتبعه الناس عليها.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله عز وجل في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن ما يكتب على الإنسان فإنه حق بيِّن واضح لا يمتري فيه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿مُّبِينٖ﴾. والشيء المبين هو الذي يوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه وهو كذلك؛ ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].



قال الله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣].

التفسير

(اضرب) قال المؤلف: [اجعل]. وهذا لا شك أنه معنى مُقرِّب للمعنى، أي اجعل مثلًا، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتمًا، وضرب الذهب حُليًّا، وضرب الذهب سكة، يعني: نقودًا، بمعنى اتخذه حُليًّا، اتخذه سكة وما أشبه ذلك، فشُبِّه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالبًا على هيئة مُتكاملة مُركبة من أجزاء مُتعددة؛ ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مُفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مُشتملة على أجزاء مُتعددة بصورة؛فلهذا سُمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المؤلف – رحمه الله: [﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مفعول أول، ﴿أَصْحَابَ﴾ مفعول ثان]. وهذا ظاهر أنه سهو من المؤلف، والصواب العكس؛ لأن المضروب أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و ﴿مَّثَلًا﴾ هو المفعول الثاني، ففي إعراب المؤلف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثانٍ، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المُكذبين لك اجلعهم مثلًا يعتبرون به، والمَثَل والمِثل كالشبه والشِّبه، أي: جعله أمرًا مُشابهًا حتى يتعظوا.

وكلمة ﴿وَاضْرِبْ﴾، الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحًا؛ أنه عام، وتارة يكون صريحًا أنه خاص بالرسول ﷺ، وتارة يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. [الشرح: ١]، فهنا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام قطعًا.

ومن الأشياء الصريحة أنه عام مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]. ولم يقل: «إذا طلقت»، فدل على أن الخطاب الأول يُراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصًا بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عامًّا فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عامًّا؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عامًّا شمل الرسول ﷺ وغيره، إذًا نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلًا للمكذبين بهذه القرية ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾. قال المؤلف: [أنطاكية]. فجعل (ال) للعهد الذهني، يعني :كأنها قرية معروفة مفهومة، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية،

كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا، أو تكون أنطاكية – إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة – مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أُهلِكَت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم).

وعلى هذا فيكون المُراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني، يعني: اضرب مثلًا لهم في قرية غير مُعينة، وهذا هو الصحيح؛ وذلك لأن الله عز وجل لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها، وليس المقصود كما مر علينا كثيرًا تعيين الأشخاص، أو الأماكن، أو الأزمان، ليس فيه كثير فائدة في الغالب، المقصود العبرة في القصة وما وقع، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلفون مثلًا فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مُبهم يتكلفون في طلب تعيينه، وليس هذا بلازم، إلا أن يترتب على تعيينه اختلاف للحكم، أو إظهار للمعنى فهذا شيء آخر، وهنا لا يعنينا أن نعرف ما هي القرية، ومن هم أهلها، الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصة، فالصواب عدم تعيينها بأنطاكية.

﴿إِذْ جَآءَهَا﴾. [بدل اشتمال من أصحاب القرية]، فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب، والبدل يتبع في الإعراب المُبدل منه، فيكون ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. في محل نصب على أنه بدل من أصحاب القرية، ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي: أصحاب القرية، ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال المؤلف – رحمه الله: [أي رُسل عيسى]. وهذا القول ليس بصحيح، ولا دليل عليه، بل جاءها المرسلون الذين هم من جنس قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. جاءها المرسلون الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله عز وجل، وليسوا من قبل عيسى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾. وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسل عيسى. مع أن الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾. ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾. وعلى هذا فيتعين أن يكون المُراد بالرسل المرسلون هنا رسلًا من عند الله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾. أي: إلى أصحاب القرية.﴿ٱثْنَيْنِ﴾،من هؤلاء الثلاثة ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، التكذيب: رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع، هذا هو التكذيب، فهؤلاء كذبوهما وقالوا: هذا أمر ليس بصحيح، ولستم برسل، فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾. قال المؤلف: [بالتخفيف والتشديد]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التشديد،و (عزَزنا) التخفيف، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حدٍ سواء، معنى (عززنا) قال: [قوينا الاثنين بثالث]. يعني: لما كُذِّب الاثنان أرسل الله ثالثًا معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٣٢:٢٩]. فزيادة الواحد يقوي بلا شك، ونحن نُشاهد حتى في أمرنا الواقع إذا

قال شخص قولًا، ثم أيده آخر ازداد قوةً ونشاطًا في تقرير هذا القول وتثبيته، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾. الضمير يعود على الثلاثة، ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾. أتوا بالجملة المؤكدة بـ (إنا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كُذِّبوا وأُنكِروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

«ولكن لو قال قائل»: لماذا لم تؤكد بأكثر من مؤكد؟

«قلنا»: هي أكدت بأكثر من مؤكد، أكدت بمؤكد واحد لفظي وهو (إنا)، وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول.

«ولو قال قائل»: هل المقام مقام تأكيد على سبيل الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

«قلنا»: على سبيل الوجوب. فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بإن، واللام، والقسم، قلنا: هذا المؤكد مكرر، لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ (إنا)،وتأكيد بالمعنى وهو تقويتهم بثالث قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾. مرسلون من قبل الله عز وجل، وهم يعلمون ذلك أنهم ما دعوا الرسالة من شخص وإنما هي من الله، فكان جواب هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين، والمكذبون يردون أقوال الرسول، أحيانًا بنفي، وأحيانًا بإثبات، ففي النفي يقولون: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٌ﴾. وكما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم:١٠-١١]. يعني: نسلم إنا بشر مثلكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾. هذا جواب بالنفي. يعني أنتم بشر لستم ملائكة حتى نقبل، وأحيانًا بالإثبات ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]. فصاروا أحيانًا يتهمون الرسل بالسحر والجنون، وأحيانًا بالنفي يقولون: ما أنتم ملائكة حتى تكونوا رُسلًا إلينا، ما أنتم إلا بشر مثلنا، فليس ببدع أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرسل: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾. فقالوا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. فأنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول، وأنه بشر، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر،فقالوا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. مَنْ الذي يمنع، فلم يذكروا حجة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. هذه الجملة نفي و ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ (مِن) الزائدة؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾. بمعنى: (شيئًا). وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ قوله ﴿إِنۡ﴾ بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقُه: النفي والإثبات ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يعني ما أنتم إلا تكذبون، وهذا الحصر – والعياذ بالله – حصر هم يرونه إضافيًا، بمعنى: ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعون من الرسالة، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة، فصار إنكارهم مبنيًا على أمرين:

الأول: أنهم بشر، يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رُسلًا لكنتم ملائكة.

الثاني: النفي الذي لم يبن على شيء، وإنما هو مجرد إنكار ومكابرة،وهو قولهم ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

وهذا لا شك من سفههم؛ لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلًا عن الشرع، لأن العباد لا يمكن أن يتعبدوا لله سبحانه وتعالى إلا بشيءٍ شرعه ونصبه لهم دليل عليه وإلا فكيف يتعبدون؟! فإنزال الله عز وجل الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه، مع أن الله قد أوجبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]. فالله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه أن يُبلغ عباده ما يوصلهم إليه، وإلا لضلوا، إذًا هذه المكابرة: وهي دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيءٍ يُكذبها العقل والشرع؛ لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتعبدون بها له لتوصلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل:١٢،١٣]. وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]. حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. الكذب: الإخبار بخلاف الواقع. إذًا أنتم أخبرتمونا أنكم رسل، والواقع أنكم لستم برسل، ماذا قالوا لهم، قال الله عز وجل: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكدات:

الأولى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ لأن هذا جاري مجرى القسم.

والثاني: ﴿إِنَّا﴾.

والثالث: اللام. لشدة إنكارهم.

فإذا قلنا: إن هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، صار أكدت الرسالة بأربعة مؤكدات.قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ﴾. قال المؤلف: [جاري مجرى القسم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار]فهذه أربعة مؤكدات، لكن المؤلف لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنه بلا شك مؤكد.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾. قال المؤلف – رحمه الله: [التبليغ المبين الظاهر، بالأدلة الواضحة]. هذا حصر حقيقي، أي: ما عليهم في جانب الرسالة إلا البلاغ المبين في جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة)، يقتضي أن يكون حصرًا إضافيًا؛ لأن عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبليغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم إلا البلاغ المبين، قال المؤلف: [التبليغ]. كلمة بلاغ بمعنى: تبليغ، فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يُقال: كلم يُكلم، المصدر كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يُبلغ تبليغًا هذا مصدر، واسم المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين، فهذا قد يُقال: إن فيه نظر؛ لأن الظاهر أن، المبين بمعنى المظهر، يعني البلاغ المظهر لحقيقة الأمر الواقع، وهو أننا رسل من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا المبين بالمظهر على وجهٍ

صحيح صار متضمنًا لكونه بَيِّنًا، إذ لا يكون الشيء مبينًا إلا وهو بين في نفسه، أما قوله – رحمه الله: [التبليغ البين الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأكمه، والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى]. هذا ليس بصحيح؛ لأن هذا مبني على أنهم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البين بالرسالة فيبلغون تبليغًا بينًا.

في القصة فوائد كثيرة منها:

١ – بيان ضرب الأمثال ليعتَبَر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾. والخطاب كما سبق؛ إما للرسول ﷺ،أو لكل من يتأتى خطابه.

٢ – أن العبرة بما في القصة من ضرب الأمثال، وأنه ليس من الضروري أن يُعين المثل المضروب، فهنا قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾. ولم يعين القرية، ولم يعين أولئك الأصحاب بأعيانهم؛ لأنه ليس هذا محل عبرة، بل العبرة في القصة كلها.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الله عز وجل لن يدع الخلق بلا رسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾.

٤ – **ومن فوائدها:** بيان رحمة الله عز وجل في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد؛ لأنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾. فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية، والتأكيد بـ ﴿إِنَّآ﴾ تقوية لفظية.

٥ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تعدد الرسل مع اتحاد المرسَل إليه؛ لأن الله أرسل لهذه القرية اثنين ثم عززهما بثالث.

٦ – **ومن فوائدها:** أن الذين يُكذبون الرسل ليس عندهم إلا المكابرة، وليس عندهم حجة عقلية أو نقلية؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حجة تسوغ تكذيب هؤلاء الرسل؛ لأنك إذا رأيت هذه الحجج الثلاث أو الشبه لم تجد فيها حجة:

الأولى: أنهم ردوهم لأنهم بشر مثلهم، وقد سبق في التفسير بيان الرد عليها، وأنه لا يمكن أن يرسل للبشر إلا بشر مثلهم، حتى لو أنزل إليهم ملائكة فإن الملائكة لا بد أن يكونوا على صورة البشر، وحينئذٍ تعود الشبهة.

الثانية: ما أنزل الرحمن من شيء، فهذا نفي مُجرد بدون ذكر حجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقًا؛ لأن نفي قول الخصم بدون حجة ما هو إلا مُكابرة.

الثالثة: وكذلك قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٧ –**ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن المعاندين للرسل ليس عندهم إلا المكابرة المحضة كقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾. وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٨ - ومن فوائد الآية الكريمة أن حكمة الله عز وجل تقتضي أن يرسل للبشر بشرًا مثلهم.

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بما يشبه القسم ؛لقولهم: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم، أو التوكيد بالقسم أقوى؟ الظاهر أن هذا أقوى من التوكيد بالقسم؛ لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. و لم يكونوا مُرسَلين، استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل والعجز والقصور؛ لأنهم إذا قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم يكونوا مُرسلين، معناه: أن الله علم الحال على خلاف ما كانت عليه، إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مرسلون وهم غير مرسلين في الواقع، لزم من ذلك أن يكون الله جاهلًا ـ علا الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ بحالهم، وأن يكون الله تعالى عاجزًا عن الانتقام منهم وبيان كذبهم؛ لأنهم سيقولون: إنا مرسلون، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة، والله تعالى يعلم أنهم غير مُرسلين، وهذا يستلزم الجهل، إذًا فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم؛ لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة؛ ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: الله يعلم أني ما فعلت كذا .وهو فاعل، قالوا: إن هذا يقتضي الكفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله، ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفًا من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلًا وعاجزًا.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التأكيد بعدة مؤكدات في جانب المنكر، بل قد نقول: إن التأكيد واجب إلا لفائدة؛ لقوله تعالى هنا: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾. وقد سبق أن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

١١ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس عليهم هداية الخلق، وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط؛ لقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

١٢ - ومن فوائدها أيضًا: أنه يلزم الرسل أن يكون بلاغهم مبينًا مُظهرًا للأمر على حقيقته.

ويتفرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع، وأن الشرائع كلها واضحة، فإن جاء إبهام في نص، فهو مبين موضح في نص آخر، وإن بقي الإبهام قائمًا فالعلة في فهم المخاطب؛ إما لقصوره، أو لتقصيره، أما ما جاءت به الرسل فإنه يحصل به البلاغ المبين المُظهر لكل ما تحتاج إليه الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.



قال الله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨].

التَّفْسِيرُ

﴿تَطَيَّرْنَا﴾ أي: تشاءمنا، وأصل التطير مأخوذ من الطير؛ لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاءلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاءلوا على اختلاف بينهم فيما يكون التشاؤم، أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر على أن تكون الطيرة في كل شيء، وهي: «التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان. وهذا التطير له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل؛ وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنما هو دعوى مُجردة من هؤلاء المُكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤمًا وتضييقًا، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهو يهوون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون: ضَيَّقَتْ علينا العبادة، فيجعلون هذا التضييق بزعمهم شؤمًا، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاث حالات:

الأولى: تطيُّر بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم، فيقولون: هذا تضييق علينا. وهو شؤم في زعمهم.

الثانية: تطيُّر بما يصيبهم من العقوبات بسبب المخالفة، فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة: دعوى مُجردة لا أصل لها، فيقولون: إنا تطيرنا بكم لمجرد التشويه لما جاءت به الرسل.

وقول المؤلف - رحمه الله: [انقطاع المطر عنَّا بسببكم]. هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفًا، بأنهم يتطيرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتطيرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم، وشهواتهم، ومعاملاتهم، ومأكولاتهم، ومشروباتهم، فيقولون: ضُيِّقَتْ علينا. الوجه الثالث: تطير المدعي الذي ليس له أصل. وقولهم: لانقطاع المطر عنا بسببكم. لتنفير الناس عن متابعتهم. يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون، فأرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضًا.

قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ يعني: عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾. الجملة هذه جواب القسم، وليست جواب الشرط؛ لأنها قُرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم، لا جواب

الشرط؛ ولهذا أشار ابن مالك رحمه الله في الألفية حيث قال:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الرجم الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني المُحصن، أي: يُرمى بالحجارة حتى يموت، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: ليصيبنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المُكذبين المُعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضًا فإنه عذاب، ﴿أَلِيمٌ﴾. بمعنى: مؤلم فهو فعيل، بمعنى مُفعِل، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى المسمع، لا بمعنى السامع، وأليم بمعنى مؤلم، لا بمعنى آلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾. هل هذا على سبيل التنويع، أو على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرجمونهم ويُعذبونهم قبل الرجم، أو أنه على سبيل التنويع، وأن الواو بمعنى «أو»، أي: نرجمنكم حتى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب؛ لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع؛ لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أو» للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.



قال الله تعالى:

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس:١٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. ﴿قَالُوا﴾: الضمير يعود على الرسل، يُخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: شؤمكم ملازم لكم؛ وذلك بسبب كفرهم،فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء، ولو شاءوا لآمنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقص. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، قال المؤلف - رحمه الله[همزة استفهام دخلت على «إن» الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأخرى]. سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيُقال «إن» هذا التحقيق، والتسهيل، «أَئِن » بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهيها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول أَئِن ذكرتم،

وبالتسهيل أثن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعية ، وقوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾. قال المؤلف: [وُعِظتُم وَخُوِّفتُم، وجواب الشرط محذوف، أي: تطيرتم وكفرتم]. قوله تعالى: ﴿أَئِن﴾ حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله:

﴿ذُكِّرْتُم﴾. أما جواب الشرط محذوف، تقديره يقول المؤلف رحمه الله: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير؛ لنعرف جواب الشرط، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فالذي حصل منهم أنهم تطيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مُطابقًا للمذكور، أي: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم؟! قال المؤلف: [وهو محل استفهام. والمراد به التوبيخ]. وهو أي: جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذكير؛ لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم، واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يُراد به التوبيخ، يعني: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم، وقالوا: أتتشاءمون وتتوعدون؛ لأننا ذكرناكم. فهذا هو محل الاستفهام، وإنما نص المؤلف على ذلك ؛لأنه قد يظن الظان أن محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ والواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط، لا الشرط المذكور وهو- أي الاستفهام- للتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. هذا إضراب انتقال، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطيرون بهم إلى وصفهم الحقيقي؛ وهو أنهم قومٌ مسرفون، والإضراب يكون للإبطال، ويكون للانتقال، فإذا قلت: جاء زيدٌ بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلت: زيد في شك بل هو مُنكر، فهذا إبطال انتقال، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]. ومنه هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾. أي: متجاوزن للحد، ووجوه التجاوز:

أولًا: أنهم كذبوا الرسل بلا بينة وبلا دليل؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجة لهم،قال تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. وقالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾. وقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾،وهذا إسراف جاوز الحد.

ثانيًا: أنهم تطيروا بالرسل، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير؛لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]. وهؤلاء تطيروا بالرسل

وليسو محل ليُتطيَّر بهم.

ثالثًا: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فكل هذا من الإسراف.

وهو كذلك من العدوان أيضًا، ووجوه ذلك:

أولًا: أنه لا يجوز للإنسان عقلًا أن يرد شيئًا بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل- لا شك- أتوا بآية تدل على صدقهم، فما بعث الله رسولًا إلا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانيًا: تطيرهم بالرسل، والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: «طائركم معكم». فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة؛ لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل فقالوا:﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ – أن هؤلاء المُكذبين تشاءموا بالرسل، وهذه دعوى باطلة، يدعيها كل مُكذب بالرسل.

٢ – أن المُكذبين بالرسل يدعون على الرسل ما لم يكن منهم، تشويهًا وتنفيرًا.

٣ – **يُستفاد منها:** بيان عدوان هؤلاء المُكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث توعدوا الرسل إن لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرجم المؤدي إلى الهلاك، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجموهم. وهذا فيه غاية العدوان العظيم على عباد الله، فهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]. فهؤلاء المكذبون للرسل الذين يتهددونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم من أشد الناس عدوانًا؛ لأنهم اعتدوا على الحق وعلى حامل الحق.

٤ – **ومن فوائدها:** أن الإنسان شؤمه بعمله، وليس بدعوته إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

٥ – **ومن فوائدها:** أن الذنوب والتكذيب للرسل يكون سببًا للمحق والبلاء؛ لقوله تعالى: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. وهذه هي سُنة الله عز وجل في جميع المُكذبين للرسل، أن الله يبتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون.

٦ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإنكار على من ذُكِّر فأعرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

٧ - **ومن فوائدها:** جواز حذف ما عُلم بالسياق، ولا يُعد هذا نقصًا في الكلام وبلاغته؛ لأن جواب الشرط محذوف لدلالته عليه، وربما يكون الحذف أبلغ.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء القوم كانوا مُسرفين على أنفسهم متجاوزين للحد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد.



قال الله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٢].

التفسير

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قال المؤلف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسل، ومنزله بأقصى البلد] . قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾. أي: من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسل والمُكذبون لهم، وهو وسط المدينة؛ لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة،فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسل وكان- رحمه الله - قد آمن فجاء ينصح قومه، والله عز وجل يقول: ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير مُعرف، والمؤلف يقول: [حبيب النجار]. وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ، ولعله مُتلقى عن بني إسرائيل، وموقفنا في مثل هذا ألا نُنكر وألا نُثبت، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾. هنا بدأ بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى **حين قتل القبطي ذكر الرجل قبل مكانه**، فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠]. وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾؛ وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمنًا، فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد، فذكر مكانه لبُعده؛ ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾، وفي أول الآية قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾. وهذا يدل على أن القرية تُسمى مدينة، والمدينة أيضًا تُسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أُم القُرى، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة؛ ولذلك لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القِرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سُميت في عُرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سُميت في عُرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عُرفي فقط.

قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾. أي: يشتد و يركض؛ لئلا تفوته الفرصة حين سمع بتكذيبهم.

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿قَالَ﴾ هذه جملة مفصولة عما قبلها، أي أنها أتت بدون حرف العطف كأنها جواب عن سؤال مُقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. و﴿يَٰقَوْمِ﴾ مُنادى منصوب بالنداء؛ لأنه مُضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلم، وأصلها (يا قومي)، ولكن حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوءة بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ولم يقل: يا أيها السُفهاء، يا أيها الجُهال. بل قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ توددًا وتعطُّفًا لهم، ولم يقل: يا إخواني؛ لأنه لا أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن ﴿يَٰقَوْمِ﴾، يصح أن يُقال: يا قوم ولو كانوا كُفارًا. قال الله تعالى مُخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦].

قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. فهم دعوا إلى هذا؛ إلى الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾. فكرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ثم قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ﴾ ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجرًا. لصح الكلام لكن كررت للتأكيد؛ لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المُرسلين.

﴿وَجَآءَ مِنْ﴾ أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس أجرًا، لكنهم يرجون من الله الأجر، أما من الناس فلا يأخذون أجرًا، فهم لا يتخذون أجرًا على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير، فإنما يرجون الأجر والثواب من الله ﴿أَجْرًا﴾ هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذان المفعولان من باب مفعولي كسا وأخواتها،ثم قال تعالى: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. فبين هنا أن هؤلاء الرسل على هُدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجرًا على ما دعوا إليه، وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. يُحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدُعاة أنهم على هُدى، ويُحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجرًا مع كونهم مُهتدين.

ثم قال المؤلف: [فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى]. ما قدره

المؤلف – رحمه الله – من أنه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: «وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني». على أن المُراد به هؤلاء القوم كأنه قال:وما لكم لا تعبدون الذي فطركم.لكن أضافه إلى نفسه من باب التلطُف بالخطاب، هذا هو الأقرب لأمور:

أولًا: أن ما ذكره المؤلف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزمه فالأصل عدمه.

ثانيًا: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلًا أن يقول: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم).لكنه قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾. فأضاف الأمر هنا إلى نفسه تلطفًا.

وقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾. الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني: أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده. ولهذا قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾. أي: لا أتذلل للذي ﴿فَطَرَنِى﴾. قال المؤلف: [أي خلقني. أي لا مانع لي من عبادته الموجود مُقتضيها، وأنتم كذلك].وقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾. تقدم لنا أن العبادة هي التذلُل لله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبةً وتعظيمًا، وأن العبادة تُطلق على التعبد الذي ذكرناه، وعلى المُتعبد به وهي الأفعال التي يتعبد بها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حدها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى بأنها : اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة.،

وقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. ولم يقل: لأعبد الله؛ ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: «أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى» مُقتضى لكونه هو المعبود، إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]. فقوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنه الخالق وحده؛ فيجب أن يكون المعبود وحده، ولهذا قال المؤلف [الموجود مُقتضيها]. وما مُقتضيها أنه هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، فلزم أن يكون هو المُستحق للعبادة وأن يُعبد، وقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: خلقني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]. وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]. فالذي فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذن يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق، كما قال الله عز وجل: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[النحل:٢٠]. فكيف يصح أن يعبد هؤلاء؟! فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحُسن دعوته أنه قرن الحكم بالدليل.

قوله تعالى:﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. كما تُخاطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: ما لي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضًا، قال المؤلف –

رحمه الله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [بعد الموت فيُجازيكم بكفركم]. لو قال المؤلف: بعملكم، لكان أشمل؛ لأنه يُجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويُجازيهم بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المؤلف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكان أولى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نصح هذا الرجل لقومه من وجهين:

الوجه الأول: أنه جاء من مكانٍ بعيد،قال تعالى :﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾.

الوجه الثاني: أنه جاء يشتد ﴿يَسْعَىٰ﴾، فيُستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفرص في إنذار قومه ومُناصحتهم، وأَلَّا يتوانى، فيقول: غدًا أذهب إليهم، أو في آخر النهار، أو ما أشبه ذلك، فيُبادر بالنصيحة والموعظة؛ لأن هذا الرجل جاء يسعى.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز للإنسان أن يُبادر بالإنذار قبل أن يُقدم له مُقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾. فأمرهم من أول الأمر، ولم يأتِ بمقدمة تهيئهم للقبول؛ لأن الحال تستدعي ذلك.

٣ - **ومنها أيضًا:** أنه ينبغي التلطف بالقول في دعوة الغير؛ لقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾. فإن هذا يستوجب اتباعه، وقبول نصحه؛ لأن للإنسان حدبًا وشفقة على قومه.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجرًا على ما أتوا به من الدلالة والهداية؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي أن يُقدم الوصف الموجب للقبول، قبل الوصف المُفضل للقبول، فهنا قال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. والرسالة وصف يقتضي وجوب قبول المُرسل.ثم قال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ هذا من باب الكمال.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية إليا لله عز وجل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يُعطى من أجل دعوته وموعظته؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجرًا لا بلسان الحال، ولا بلسان المقال، وبه نعرف قبح ما يعمله بعض الناس - وإن كان والحمد لله قد قل - يقوم ويعظ الناس موعظةً قد تكون بليغة، فإذا انتهى قال: إني في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك، فصارت الموعظة للدنيا.

فهل يُستفاد من هذا أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم، لما فيه من المخالفة لطريق الرُّسل، أو يُقال لا؟ الذي لا يجوز الأخذ عنه: الدعوة لله عز وجل، فهذه لا يجوز أخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان، أما التعليم الذي يحتاج إلى مُعاناة وإلى تعب وإلى تفهيم

خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»[1].

هل يُستفاد من الآية: أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يُستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى؛ فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عز وجل بدون أن يأخذ مقابلًا ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الإخلاص، وأشد وقعًا في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يُلقي ذلك في قلوب الناس، أي يُلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لا يأخذ شيئًا.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من طريق الدعوة أن يذكر الإنسان حال الداعية بوصفه بما يوجب قبول قوله؛ لقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقد ذكر ما يوجب قبول قولهم في أول الدعوة.فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم؛ لأن هذا وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم يدعون إلى الله على هُدىً منه، وأما من يدعو على غير هُدى فإنه قد يُفسد أكثر مما يُصلح؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالًا، والحلال حرامًا وهو لا يدري، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا بأس للإنسان أن يُضيف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. يعني:على فرض أنني أتخذ من دون الله آلهةً ،فما الذي يمنعني أن أعبد الله عز وجل وحده؟!

١٠ - **ومن فوائدها:** الإرشاد إلى وجوب الإخلاص في العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. فإن الله تعالى مُنفرد بفطر الخلق؛ فيجب أن يُفرد بالعبادة، فلا يدَّعي أحد أن الآلهة تخلق، إذًا لا يجوز أن تُعطى شيئًا من العبادة التي يختص بها من يخلق وهو الله عز وجل.

١١ - ومنها: أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله، أو علته؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. فإن هذا كتعليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾. ولهذا عدل عن قوله: (ما لي لا أعبد الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ ليكون هذا كدليل وتعليل لوجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وهذا في القرآن الكريم والسُّنة كثير.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يُذكر ما

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٧).

يكون الترغيب والحث؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه، وأنه كله إلى الله عز وجل، وهنا نجد الفرق بين التعليل الأول: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. ولم يقل «وإليه أرجع»؛ لأنه – كما قلنا – إنما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه، لكنه أضافه تلطفًا وتوبيخًا لهم، وكأنه يقول: «أنا لا أعبد إلا الذي فطرني»، فلماذا تعبدون أنتم معه غيره وإليه تُرجعون؟!

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس:٢٣].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [أأتخذ في الهمزتين منه ما تقدم في ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ هو استفهام بمعنى النفي]. فيكون معنى ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ أي: لا أتخذ. وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النفي فإنه يُفيد معنى التحدي، ولكنه هنا يُفيد معنى الامتناع، غاية الامتناع، يعني أنه لا يمكن أن أتخذ من دونه – أي غيره – آلهة.فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. معروف أن أتخذ تنصب مفعولين؛ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ المفعول الثاني، ﴿ءَالِهَةً﴾ المفعول الأول، ويجوز أن نجعل ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ في موضع النصب على الحال من ﴿ءَالِهَةً﴾، ويكون الثاني محذوفًا، أي: (أأتخذ أصنامًا آلهة). وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف؛ لقوله: [أصنامًا] قال: [﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ صفة آلهة]. يريد المؤلف في الإعراب أن قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة، يعني: لا أتخذ آلهة هذا شأنها، وهو أن الله لو أراده بضر لم تنفع شفاعتهم ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، هذا معنى كلام المؤلف.

وقيل: إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلهة، أي: أأتخذ من دونه آلهة ثم قال: هذه الآلهة لا تُغني شفاعتها شيئًا من دون الله، ولا تنقذُ.

ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظهر، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلهة، قال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾. يعني: إن يُردن الله عز وجل، وذكر الرحمن؛ لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة، ولما كان الضُّر قد يُفهم منه من يَفهم من الناس انتفاء الرحمة؛ عن المُريد، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان، أو يتوهم الواهم هذا الوهم، أن إرادة الله الضر للإنسان تُنافي الرحمة، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ

وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. فما يُصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة؛ وهي الرجوع إلى الله عز وجل، والاعتبار بما جرى،قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾. أي: لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. فهذه الأصنام التي عُبدوها من دون الله يَدَّعي عابدوها أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]. إذًا فهم يَدَّعون أنهم يعبدونها؛ لتشفع لهم، وهل هذا وهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: هذاوَهْم لأنهم عبدوها ولم يتخذوها وسيلة، بل جعلوها غاية؛ ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التعبد لها إلا التعظيم لهذه الأصنام، وينسون الخالق عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

الفوائد:

١ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان الإنكار والتسفيه والتوبيخ للذين يتخذون مع الله آلهة؛ لأن المراد من الاستفهام: الإنكار والتسفيه والتوبيخ لهؤلاء.

٢ – **ومن فوائدها:** أنه ينبغي قرن الحكم بالتعليل؛ لأنه قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، إلى آخره، فهذه الآلهة لا تنفع، ولا تضر، ولا تدفع، فهي لا تنفع مَن عبدها، ولا تضر من عدل عنها، ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير، يقول عز وجل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾. فهم لا يستطيعون دفع ضرر الغير، وهم – أي الآلهة – لا ينفعون عابديهم، ولا يضرون من عدل عن عبادتهم، فهي قاصرة بنفسها لا تجلب نفعًا ولا ضرًّا، ولاتدفع الضر عن عابديها؛ فتكون عبادتها خسران.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل معبود فهو آلهة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. لكن إن كان يستحق العبادة فهو إله حق، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، وإن كان لا يستحق العبادة وهو مَنْ سوى الله فعبادته باطلة وألوهيته باطلة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

٤ – **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الإرادة لله – عز وجل – لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ﴾. وإرادة الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية.

القسم الثاني: إرادة شرعية.

فالإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المُراد، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى.

والإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة، ولا يتعين فيها وقوع المُراد، ويتعين أن يكون فيها محبوبًا لله عز وجل.

فإذا قال قائل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، والضر شر على الإنسان، فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]؟

فالجواب: أن النبي ﷺ لم يقل: «الشر ليس مِنك»، بل قال: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». والله عز وجل قد يريد الشر، لكن إرادته الشر خير، فالشر في مفعوله، لا في فعله، فقد يريد الله وقوع الشر، لكنه لمصلحة عظيمة، هذه المصلحة نفت نسبة الشر لله؛ ولهذا يفرق بين الشر منك، والشر إليك، فالشر لا يُضاف إلى الرب، ولكن يُضاف إلى المفعولات والمخلوقات، مع أن هذه المفعولات والمخلوقات شر من وجه، وخير من وجه، ففعله سبحانه وتعالى كله لحكمة وغاية محمودة، وانظر مثلًا إلى المرض إذا أصاب الإنسان، فلا شك أنه شر بالنسبة لصحته، ولكن لا تشعر بنعمة الصحة، لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة. وبضدها تتبين الأشياء، فأنت الآن تتنفس النفس، تتنفس وأنت تأكل، تتنفس وأنت تتكلم، تتنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مُضطجع، لا تحس بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك، ويُصبح عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس، فالحاصل أن هذا الشر شر نسبي في الواقع حتى بالنسبة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفيضانات، والزلازل، والجدب شرور. لكن بالنسبة إلى تقدير الله لها هي خير، فهي شر بالنسبة لمن أصابتهم، لكن خير بالنسبة للآخرين يتعظون ويخافون، وقد تكون خيرًا لأولئك المُصابين بحيث يرجعون إلى الله عز وجل، ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة؛ لقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. إذًا فلا منافاة بين قوله ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». وبين مثل هذه الآية: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات صفة الرحمة لله عز وجل مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأن الرحمن وصف مشتق، والوصف المشتق يدل على المعنى المُشتق منه، ولا بد، بخلاف الأسماء الجامدة، كأسد، وحجر، وتراب، وما أشبهها، فهذه لا تدل على معنى، لكن الأسماء المشتقة لا بد أن تدل على معنى، هذا بالنسبة إلى أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه، أما بالنسبة لمن تسمى بها من المخلوقين فقد تدل على المعنى وقد لا تدل، فقد نسمي شخصًا عبد الله وهو كافر بالله، وقد نُسمي شخصًا مُحمدًا وهو مُذمم، وقد نسمي خالدًا وهو سيموت، وقد نُسمي صالحًا وهو من أفسد الناس.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٠٢)، والترمذي (٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأبو داود (٧٦٠).

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عابدي الأصنام يموِّهون على الناس بعبادتهم، فيدعون أنهم يعبدونها لتكون شفيعًا لهم عند الله، وهذا عندما يسمعه السامع يظن أنهم يجعلون الآلهة في مرتبة دون الله؛ لأن مرتبة الشافع دون مرتبة المشفوع إليه.

فيقولون: إنهم شفعاء لنا إلى الله. والحقيقة أنهم لم يجعلوهم شفعاء، بل جعلوهم شركاء لله؛ لأنهم يعبدونهم كما يعبدون الله، فيُستفاد منه الحذر من التلبيس في الأسماء أو بالتسمية، وأن صاحب الباطل قد يُسمي نفسه بما يقتضي أن يكون على حق، وليس كذلك. فالمعتزلة - مثلًا - يسمون أنفسهم «أهل التوحيد»، والمُعطلة يسمون أنفسهم «أهل التنزيه»، يقولون: نحن نُنزه الله، أما أنتم أهل السُّنة لا تُنزهون الله جعلتموه صنمًا؛ فمثلتموه بالخلق في إثبات الصفات. وهؤلاء أيضًا المعتزلة يقولون: نحن نفينا الصفات لنوحد الله؛ لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، فهذا تمويه، والمُعتزلة يُنكرون أن يكون لله تعالى تعلق بفعل العبد، فيُسمون أنفسهم أهل العدل، ويقولون أنتم يا أهل السُّنة أهل الظُّلم؛ حيث جعلتم الله ظالمًا حيث هو الذي يُقدر المعاصي على العبد ثم يُعاقبه عليها، أما نحن فنحن أهل العدل نقول: الإنسان هو المستقل بنفسه وعمله، فإذا جوزي على معصيته فقد استحق الجزاء؛ لأنه فعله.

والنصارى سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لحالهم؛ ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه، إذ لو كانوا على دينه وقابلين له لقبلوا بشارته بمُحمد ﷺ، فإن عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]. ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمُحمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل، لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لما هم عليه من الباطل؛ ليصبغوا نحلتهم بصبغة القبول، فيجب الحذر من التلبيس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون: نعبد الآلهة ليكونوا شفعاء لنا. وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا أحد يُنقِذ من أراده الله تعالى بضُرٍّ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه، فهذا أنقذه مما أراده الله عز وجل به من السوء؟

فالجواب أن نقول: أن إنقاذه بتقدير الله عز وجل، لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك هذا الرجل لم يكن عنده أحد، ولو شاء الله أن يهلكه لكان عنده من لا يجيد السباحة، ولو أراد الله أن يهلكه لكان عنده مَن لا يريد الإحسان، فإذا قيَّض الله له شخصًا قادرًا على إنقاذه مُحبًّا للإحسان

أنقذه بقدَر الله عز وجل، ونحن نؤمن بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنها مُستقلة، فنكونُ وسطًا بين الذين يُنكرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثرة، لكن بجعلِ الله لها تأثيرًا، ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها، فالنار مُحرقة، وقال الله تعالى لها حين أُلقيَ فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فصارت بردًا وسلامًا ولم تكن سببًا للإحراق، والماء جوهر سيال لا يمكن حجزه إلا بحاجز، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر صار الماء كالجبال، بدون حواجز، وهذا خلاف الأسباب المعتادة، لكنه بقدر الله عز وجل، وبه نعرف أن الأسباب مؤثرة بجعل الله تعالى لها تأثيرًا، وإلا لسقط تأثيرها؛ لأن الكل بيد الله.

وبمناسبة ذكرنا نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال بعض المُفسرين: إن الله عزوجل ـ لما قال لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، صارت جميع النيران في جميع أقطار الدنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك وقالوا: ما لهذه النار ما غلا القدر عليها، ولكن هذا لا شك أنه قولٌ خاطيء بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عز وجل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰنَارُ﴾. ونار نكرة مقصودة؛ ولهذا بنيت على الضم، فهي كالعلم يُراد بها شيء مُعين، وهي النار التي أُلقي فيها، ثم قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. فهذا القول خلاف الآية الكريمة، وسبحان الله بعض الناس – رحمة الله عليهم وعفا عنهم – يذهبون المذاهب، فنقول: كيف تقع هذه من عالم، والغالب أن هذه تجدها عن بني إسرائيل فَتُؤخَذُ مسلمة ولا يُنْتَبهُ لمعارضتها لآي الكتاب.



قال الله تعالى:

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٤].

التفسير

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن؛ لأن المقام يقتضي التوكيد، وقوله: ﴿إِذًا﴾. قال المؤلف: [أي: إن عبدت غير الله]. لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى﴾. ويجوز أن نقدر ﴿إِذًا﴾، أي: إذا اتخذت من دونه آله؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾. و(إذا) ظرف يدل على الحال، و(إذا) تدل على المستقبل، و(إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذًا) للحال و(إذا) للمستقبل و(إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلًا.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، اللام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدين، يعني: إنْ اتخذت معه

آلهة، أو عبدت غيره ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. قال المؤلف: [بيِّن]. والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة الفاتحة، فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦،٧]، والمغضوب عليهم هم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم. هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالًا مُبينًا أنه حيدة عن الواجب شرعًا وعقلًا، فالواجب شرعًا أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلًا أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر، وقوله: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾، أعلن - رحمه الله - أنه آمن بالله عز وجل، فقال: ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ ﴾. وهناك قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾. إشارة إلى أنه ليس الله ربًّا له وحده بل هو رب الجميع. والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته، وهنا صرح به في قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾. فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي أنه متفرد بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾، الإيمان في اللغة: التصديق. عند كثير من المفسرين الذين يُفسرون الإيمان، وقيل: إن معناه الإقرار والاعتراف، فهو أخص من التصديق. قال: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾. الفاء هذه عاطفة على قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أو على الجملة كلها، وقول: ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه - رحمه الله - بإيمانه مراغمةً لقولهم، وإقامة الحُجة عليهم؛ ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه، وقال المؤلف: [فرجموه فمات، ﴿ قِيلَ ﴾ له عند موته وقيل: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ دخلها حيًّا].

لما أعلن - رحمه الله - هذا الإعلان، وراغمهم ولم يأبه بهم، ولم يهمه، والظاهر - والله أعلم - أنهم توعدوه، حينئذٍ رجموه فقتلوه، فقيل له بعد موته: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. الأمر هنا للتكريم، والجنة هي: الدار التي أعدَّها الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. بعد موته لأن الإنسان يُعذَّب في قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه يُنعَّم، وإن كان من أهل الشر فإنه يُعذب قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾. لما قيل له: ادخل الجنة، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال المؤلف: [حرف تنبيه]. يعني: (يا) حرف تنبيه

وليست حرف نداء؛ لأنها دخلت على حرف و(يا) التي للنداء لا تدخل إلا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون لنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان:

أحدهما: أنها للتنبيه.

والثاني: أنها للنداء، والمنادى محذوف، ويُقدر بحسب السياق. وقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾. ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تُستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحيانًا لعل وأحيانًا ليت، بحسب قُربه من التعذر أو من القرب.

قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.قال المؤلف: [بغفرانه]. أي: بما حصل لي؛ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، والباء هنا مُتعلقة بـ(يعلمون)، والعلم هنا بمعنى المعرفة، فلا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، و(ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه]. وهنا نذكر معاني (ما)، معاني (ما) عشرة:

١ - استفهامية. ٢ - شرطية. ٣ - موصولة. ٤ - تعجبية. ٥ - نكرة. ٦ - كافة. ٧ - نافية. ٨ - زائدة. ٩ - للتعظيم. ١٠ - مصدرية. والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغْفر، والمغفر فيه شيئان:

أحدهما: الستر؛ لأنه يستر الرأس.

والثاني: الوقاية؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط.

ثم قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾. فأضاف الربوبية، وهي من الربوبية الخاصة، لأن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق، التي مُقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته، والخاصة هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة، والثانية: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة، ويُقابل ذلك العبودية فإنها عامة، وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]. والخاصة كقوله

تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، جعلني من المُكرمين لدخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان مِن قِبل الله تعالى، وإكرام من قبل الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار. وإكرام من جهة الولدان المُخلدون الذين هم خدم لأهل الجنة، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هُن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان، وإكرام من جهة بعضهم لبعض، فإنهم إخوان على سُررٍ متقابلين، قد نزع الله ما في قلوبهم من غِلٍّ، ومثل هذا لا بد أن يكون فيه إكرام من بعضهم لبعض، فأهل الجنة مُكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المُخلص فإنه مُكرم بدخول الجنة، قال الله عز وجل لما ذكر المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥]. ولهذا قال هنا: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن من أعظم الضلال وأشده تيهًا أن يتخذ الإنسان مع الله آلهةً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٢ - ومنها: أنه ينبغي التأكيد إذا كان المُخاطب مُنكرًا، أو حاله حال المُنكر؛ لأنه يُخاطب قومه الذين اتخذوا مع الله آلهة، ويقول: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ولهذا أكد الجملة بمؤكدين؛ إن، واللام.

وربما يُؤْخَذُ من الآية الكريمة أن كل من ضل عن الحق، أو كل من خالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق؛ لقولهتعالى: ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فيفيد أن الضلال قد يكون خفيًّا، وقد يكون بيِّنًا واضحًا.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال نصح هذا الرجل؛ لأنه قرر وحدانية الله عز وجل بعدة أمور، منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. ومنها: التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلالٍ مبين، وهكذا ينبغي للداعية لله عز وجل إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء؛ حتى يجمع بين الترغيب والترهيب.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من وحد الله فهو على هدى مبين أي: بين واضح؛ لأنه أصاب الفطرة، وأصاب ما جاءت به الرسل.

٥ – **يُستفاد من هذه الآية:** قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾. فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله عز وجل، فكل إنسان يؤمن ويعلن إيمانه بالله فإن ذلك له ميزة وفضيلة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، أعلن أنه من المسلمين، ولم يخف أحدًا سوى الله.

٦ – **ومنها:** قوة شخصية هذا الرجل؛ حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن، وآمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مُخلصين له بالعبادة إذا كان ربًّا لهم، كأنه أقام الحُجة عليهم بذلك، فإذا كان الله ربكم فواجب أن توحدوه، ولا تتخذوا معه آلهة، وهذا يدل على قوة شخصيته، زد على ذلك أنه تحداهم فقال: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾. فأنا لا أُبالي بكم، فاسمعوا إني آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه؛ لأنه ربكم.

٧ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان ربوبية الله تعالى العامة؛ حيث قال ذلك مع كونهم مُشركين كُفارًا، وهذا من الربوبية العامة.

٨ – **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾. مع أن الساعة لم تقم بعد، ولم يدخل الناس الجنة، ويدل ذلك آيات من القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢]. تتوفاهم الملائكة ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من الهاء، و ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الملائكة، يعني حال كون الملائكة يقولون حين تتوفاهم ادخلوا الجنة، فيُستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر. ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة:٨٣ : ٨٩]. فهنا قال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾. حين الموت، ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة:٨٨،٨٩]، ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ لأن هذا قيل له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾. ولم تقم الساعة الآن، فهو دليل على أن الميت يُنعم في قبره كأنه دخل الجنة؛ لأنه يلبس من الجنة، ويفرش من الجنة، ويُفتح له باب من الجنة، ويأتيه من روحها ونعيمها فكأنه دخلها.

٩ – **ومن فوائدها:** أن هذا الرجل ناصح في حياته وبعد مماته، في حياته دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل، وهذا دليل أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحًا حتى بعد موته يكون ناصحًا، وهذا الرجل تمنى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

١٠ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات وجود الجنة، وقد دل على ذلك آيات، وأحاديث كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. والإعداد بمعنى التهيئة، والنصوص في هذا كثيرة، وقد عُرِضَتْ الجنةُ والنار على النبي ﷺ وهو يُصلي صلاة الكسوف(١).

وهل تبقى الجنة أبدًا؟

الجواب: نعم، وهذا مُتفقٌ عليه بين أهل السُّنة. والنار موجودة الآن وهو مُتفقٌ عليه، بين أهل السُّنة، وهلى تفنى؟ الصحيح المقطوع به أنها لا تفنى؛ لأن الآيات صريحة في ذلك،فقد ذكر الله تعالى تأبيد الخلود فيها في ثلاث آيات من كتابه، في سورة النساء، والأحزاب، والجن، في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩]. في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥،٦٤]. الثالثة في سورة الجن قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾ [الجن:٢٣]. فهذه ثلاث آيات صريحة في تأبيد أهل النار، ومع التصريح بالتأبيد فقد ذُكِر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفنى، ولكن هذا القول لا شك – مهما قاله من قاله – فإن قوله مردودٌ عليه.

١١ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** مِنَّةُ الله عز وجل على من آمن بالمغفرة والإكرام، فيتفرع على هذه الفائدة: أن الإيمان سبب المغفرة، وسبب لإكرام الله تعالى للعبد.

١٢ – **ومن فوائدها:** أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكروه، ويُستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

١٣ – **ومنها:** ما أشار إليه بعض الأدباء أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾. وهذا تخلية وإزالة، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. هذا تحلية، ولهذا قيل: التخلية قبل التحلية.

١٤ – **ويُستفاد منها:** أن المغفرة تسبق الإكرام والرحمة ويدل لهذه القاعدة التتبع، فإن الغالب أن الله عز وجل إذا قرن بين الاسمين: الغفور والرحيم، يُقدم الغفور على الرحيم.

١٥ – **ومن فوائد الآية أيضًا:** إثبات الربوبية الخاصة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهذا من الربوبية الخاصة.

١٦ – **ومن فوائدها:** أن إكرام الله عز وجل لا يختص بهذا الرجل، بل هناك عالم يكرمهم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. ففيه حث على أن يفعل الإنسان كفعله لينال ما ناله، ولم يقل (بما غفر لي ربي وأكرمني) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. ليبيِّن أن الإكرام ليس خاصًا به، بل الإكرام موجود لكل من قام بعمل كعمله.



(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٥)، والنسائي (١٤٩٨)، وابن ماجه (١٢٦٥).

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس:٢٨].

التفسير

قال المؤلف – رحمه الله: [(ما) نافية: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾. أي: حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد أن هلك ومات على أيديهم، وقوله تعالى: ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ملائكة، فإن الملائكة جنود الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ [المدَّثر:٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، فجنده الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، قال المؤلف: [ملائكة لإهلاك أحد]. وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء؛ لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصًّا بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها، ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: جنودًا لهؤلاء احتقارًا لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف مِن أن المراد بالجند الملائكة هو الصحيح، خلافًا لقول بعض العلماء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. أي: من وحي ورسل؛ لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المؤلف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾. و﴿إِن﴾ قال المؤلف: [أي: (إن) بمعنى (ما)]. وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن)وهي:

١ – تأتي نافية.

٢ –شرطية، كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر).

٣ – وتأتي مُخففة من الثقيلة، مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن.

٤ – تأتي زائدة كقوله:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]. أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنه إذا أتت بعدها إلا فهي نافية، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ﴾. قال المؤلف: [عقوبتهم]. يعني: ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. قال المؤلف: [صاح بهم جبريل]. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني: ما احتاجوا إلى عناء ولا جُند، ما هي إلا صيحة، ولم يُبيِّن الله سبحانه وتعالى الصائح، والمؤلف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا أن يَرِد تعيينه بدليلٍ صحيح، ولم يرد تعيين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صِيحَ بهم، ولا نجزم مَن هذا الصائح، المهم أنها صيحة واحدة، صِيح بهم فهلكوا عن آخرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. (إذا) هنا: فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرةً، ولهذا سُميت فُجائية؛ لأنها تُفاجيء وتأتي فورًا، فحين صِيح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم؛ لأن ﴿هُمْ﴾ ضمير يُفيد الجمع والشمول.

الفوائد:

١ - أن الله عز وجل قد يُنزل الملائكة لإهلاك المُكذبين، ووجهه أن نفي إنزال الملائكة على هؤلاء القوم يدل على إمكانه في غيرهم، وإلا لما صح النفي.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الملائكة جُند لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ جُندٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الملائكة محلهم السماوات؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]. وكالملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يكتبون أعمالهم، والذين يكتبون المتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد وما أشبه ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حقارة هؤلاء القوم المُكذبين لهؤلاء الرُسل الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل؛ وذلك لذكره بصيغة الجمع، فقال ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ولا يُقال إن هذا يفيد التعدد، كما استدلت بذلك النصارى، وقالوا: إن الآلهة مُتعددة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات. ويُقال لهم: إن هذا التعدد للتعظيم، وكيف تستدلون بهذه الآيات المتشابهة، وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات:٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]. وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]. لكن النصارى كغيرهم من أهل الزَيغ يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، ومن رأى اتباع المتشابهات من النصارى وغيرهم في نصوص الكتاب والسُّنة تبين له العجب العُجاب، وأنه يجب علينا وجوبًا مؤكدًا طلب العلم لدفع شبهات هؤلاء؛ لأن هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1]. هؤلاء يبثون في

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١/ ٣٤٩)، وأبو بكر بن أبي شيبة في «الآحاد والمثاني» (١/ ١٨٤)، والحديث أخرجه مسلم

الناس سمومهم، وهم الآن كما سمعنا يوصلون نشرات تدعو إلى النصرانية، ويرسلون أشرطة تدعو إلى النصرانية؛ لأنهم بدأوا يعرفون المحلات، ويعرفون العناوين ثم يُرسلون إليها، وعندنا من هذا عدد، يؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مُسجلة تدعو إلى النصرانية، هذه إذا وقعت في أيدي أُناس لا يعرفون، جُهلاء، على الأقل تركن نفوسهم، وإن كنت أستبعد جدًّا أن يتنصر أحد من المسلمين؛ لأن دين النصارى الذي هم عليه الآن كله ضلال، لكن لا شك أنه يوقع الشُبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أنه يجب على شباب المسلمين اليوم أن يتسلحوا بسلاح العلم المبني على الأثر والنظر؛ لأن أولئك القوم يشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لا بد من أثر ونظر، فالأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]. لكن المُكذِّب لا يكفيه الأثر؛ لأنه لا يؤمن أصلًا بالأثر، ويحتاج إلى نظر وعقل تُدْحَض به حجته، والمهم أن مثل هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، يشبه بها النصارى على أن الله سبحانه وتعالى مُتعدد أكثر من واحد، وقد ذكرنا أنهم غفلوا بل عموا عن الآيات الواضحة الصريحة أن الله إله واحد، وأن الله كفَّر مَنْ زعم أن الله مُتعدد، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** في هذه الآية دليل على أن الله أهلك هؤلاء القوم بصيحةٍ واحدة لم تكرر مرة أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها، لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل أهلكوا؟ نقول: الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصيحة أبهمها الله، يحتمل أنها صرخة، ويحتمل أنهم أُمروا بالهلاك، المهم أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل، وأن من عارض الله أو ضاد الله مهما عظم فإن إهلاكه يسير على الله عز وجل، كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القمر:٤٩ - ٥٠] وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ لا يتباطأ ولا يتأخر، فلمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئًا قال له: كن. فيكون كلمح البصر، وهذا يدل على عظمة الله وقدرته.

٨ - **ومن فوائدها أيضًا** بيان قدرة الله تعالى، وأنه قادر على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقط بدون أي فعل، بل صوت مزعج يقطع القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

٩ - ومنها: بيان ذُلِّ كل شيء لعظمته بحيث لا يكرر ولا يعيد ما أراده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾. لهذا أكدها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية، وهكذا جميع ما أمر الله تعالى به كونًا فإنه لا يحتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا

بلفظ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هذه الصيحة أهلكتهم جميعًا لم ينجُ منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. وعلى هذا ترتيب فائدة أخرى وهي:

أن قبض ملك الموت لأرواح بني آدم أكبر مما نتصور، فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض هذه الأرواح وهي تموت في آنٍ واحد؟

فنقول: إنَّ (كيف) في الأمور الغيبية لا ترد؛ لأن هذه أمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبي لا تقل فيه: كيف؟ ولهذا لما قيل للإمام مالك- رحمه الله تعالى: كيف استوى؟ قال: (الكيف غير معقول). أي: لا يمكن أن نُدركه بالعقل حتى نسأل عنه.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرسل الثلاثة هلكوا جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾. وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة هي أنطاكية فإن زعمه باطل؛ لأن رُسل عيسى عليه الصلاة والسلام الذين أُرسلوا إلى أنطاكية، كانوا بعد موسى عليه الصلاة والسلام ولم يُهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة، هكذا قال كثير من العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص:٤٣]. قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة، وهذه الآية ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تدل على أنهم هلكوا.



قال الله تعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

التفسير

- قال المؤلف - رحمه الله: [هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأُهْلِكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانُكِ فاحضري]. قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، الحسرة: شدة الندم والتألم والحزن على ما مضى، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] أي: ندمات وعناء، وقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾. قيل: إن القائل هم المُكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرةً على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من أتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

وقيل: إن التحسر من الله عز وجل، لكن ليس معناه أنه يتصف به، بل المعنى أنه يبين حسرة

العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنى ﴿مِّن﴾، يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المُكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم، وهذا أقرب إلى السياق، لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾. فالكلام كلام الله عز وجل، لكن لما كان التحسر ندمًا وألمًا صار الله تعالى مُنزهًا عنه، فوجب أن يكون المُراد: يا حسرةً واقعةً عليهم. أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبينه آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المُراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليست الخاصة؛ لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة. فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مُكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسل، قال المؤلف: [ونداؤها مجاز]. يعني: ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى مَن يعقل، وما لا يعقل فليس نداؤه على سبيل الحقيقة؛ ولهذا قالوا في قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّـــوِيلُ أَلَا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَـــاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

قالوا: أن هذا يُراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور؛ لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء يأتي ويذهب، يقول تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. (ما) نافية و(مِن) زائدة؛ لوقوعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظًا، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة). وليس في القرآن حرف واحد لا يُفيد معنى أبدًا، فكل ما في القرآن فإنه يشتمل على المعاني، ولكن قد يكون زائدًا من حيث الإعراب فقط؛ ولهذا فإعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضمة مُقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائدتها التنصيص على العموم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعُم، فإذا جاءت (مِن) صارت أدله على العموم مما لو حُذفت، ولهذا قالوا: إن فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾. الرسول عند عامة أهل العلم هو: بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمى جبريل عليه الصلاة والسلام رسولًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩،٢٠]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أي: إلا كانوا يستهزءون به، ولكن قدم المعمول وهو (به) لإفادة الحصر، ولمناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين: فائدة لفظية، وهي مُراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، كأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا الرسول). وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزؤون إلا بالرسل، والاستهزاء هو

السخرية والهزء.

الفوائد:

١ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** في هذه الآية دليل على شدة تحسر العباد المُكذبين للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾؛ ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يفيد أحيانًا التعظيم والشدة.

٢ – **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المُكذبين للرسل سيجدون أعمالهم حسرات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات عدل الله عز وجل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾. فلن يُعاقب الله أحدًا إلا بذنب، بل إنه عز وجل قد يعفو عن الذنب إذا كان دون الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

٤ – **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. وأن الرسالة عامة في كل أمة؛ لأنه قال: ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾. ثم قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. فكل العباد قد قامت عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

٥ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسول فأهلكوا جميعًا، ثم قيل: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسل كفر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٥،٦٦]. فالاستهزاء بالكتب كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾. والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعيرة واحدة كفر؛ لأن الاستهزاء بالشعيرة الواحدة استهزاء بكل الشريعة، كما أن الكفر بالشعيرة الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍۚ﴾ [البقرة:٨٥]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠،١٥١]؛ فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعيرة واحدة منها، فقد كفر كُفرًا تامًّا بالجميع، ومن استهزأ بشيءٍ من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب، حتى بالشيء المندوب لو استهزأ فقد كفر؛ لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض، بل من كره ما أنزل الله فقد كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٩]. ولا تحبط الأعمال

إلا بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهيِّنة؛ ولهذا يجب على المرء الرضى بكل ما شرع الله تعالى، فيرضى مثلًا بوجوب الصلاة، وتحريم الخمر، ووجوب الزكاة، وتحريم الربا، وعلى هذا فقِسْ؛ فكل شيء يجب أن ترضى به وتقبله، ثم إن عملت به اثبْتْ، وإن لم تعمل به عوقبت واستحققت العذاب إذا كان واجبًا، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنه إذا تركته كفرت، فمثلًا يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه كفر، وإذا آمن بتحريمه وقبله ورضي بالتحريم ولكن فعل الربا فلا يكفر، وحكمه حكم العُصاة.

٦ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ما من رسول أُرسل إلا وجد من يستهزيء به ومن يؤمن به، ولكن منهم من لا يجد من يؤمن به؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث السبعين ألفًا: «وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١). فالاستهزاء حاصل لكل رسول.

مسألة: واختلف العلماء فيمن سب الله تعالى أو رسوله ﷺ هل تُقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: إنه لا تُقبل توبته، بل يقتل قتل المُرتد فلا يُغسل، ولا يُكفن، ولا يُصلى عليه، ولا يُدفن مع المسلمين، وفي الآخرة أمره إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يعذبه، وإن كان الله تعالى علم منه كذبها فإنه يُعذب في الآخرة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد – رحمه الله تعالى.

والقول الثاني: تصح توبة من استهزأ بالله تعالى أو رسوله ﷺ، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يُقتل، وأما من سب الله تعالى أو استهزأ به فإنه لا يُقتل، وهذا هو الصحيح أن الإنسان إذا سب الله تعالى أو رسوله ﷺ أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فأن تاب قُبلت توبته، لكنه يُقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يُقتل إذا كان السب أو الاستهزاء بالله تعالى، والفرق بينهما، أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه حق شخصي، وأما الاستهزاء بالله تعالى وسبه فهو حق لله عز وجل، وقد أخبرنا الله عز وجل أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب، وإذا قبل الله توبته ارتفع عنه مُقتضاها وهو القتل، أما الساب للرسول عليه الصلاة والسلام فإننا لا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام عفى عن حقه؛ لذا وجب علينا أن نأخذ به.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف: [أي: أهل مكة القائلون للنبي ﷺ لست مُرسلًا، والاستفهام للتقرير أي: علموا]. الرؤية هنا فسرها المؤلف برؤية العلم؛ وذلك لأنهم لم يُشاهدوا هذا بأعينهم، وإنما علموه بما بلغهم من الخبر، وقوله: [أي: أهل مكة]. الصحيح أن هذا ليس خاصًّا بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المؤلف - رحمه الله - جعله خاصًّا بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يُقال: حتى وإن كانت الآية مكية، فإن المُكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أفواجًا إلا بعد فتح مكة، وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ﴾. يقول المؤلف: [(كم) خبرية بمعنى: كثيرًا، معمولة لما بعدها، مُعلقةٌ لما قبلها عن عمل]. ﴿يَرَوْا﴾ بمعني: العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله: علقتها عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظًا؛ لأن التعليق يبطل العمل لفظًا فقط لا محلًا، والإلغاء يُبطله لفظًا ومحلًا، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وإما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يُسمى الغاءً، والثاني: يُسمى تعليقًا، والأول: يُسمى إعمالًا، فكم هنا علقت ﴿يَرَوْا﴾ عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي ﴿يَرَوْا﴾ ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدر كما قال المؤلف [بمعنى: كثيرًا].

ثم قال: [والمعنى إن ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كثيرًا ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان الإبهام الواقع في كم، و﴿الْقُرُونِ﴾ جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكون دون ذلك، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يُهلكها الله عز وجل قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين، لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [أي المُهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المُكذبين]. وفي نسخة [﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المكيين]. لأن الخطاب لأهل مكة، فالمكذبون هم المكيون، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين أعم، فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا، بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال المؤلف: [أفلا يعتبرون بهم، وأنهم ... - إلى آخره - بدل مما قبله

برعاية المعنى المذكور]. الذي قبله هو قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾. كأنه قال: «ألم يروا أنهم لا يرجعون»، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى، أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنها جملة مستقلة، وليست تابعة لها في الإعراب، ولكنها تابعة لها في المعنى.

والخلاصة: أن الله بين في هذه الآية بيانًا يُقرر به هؤلاء المُكذبين بأنه أُهلك كثيرًا من الأمم السابقة، وأن هؤلاء المُهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المُكذبين؛ لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الرجوع إليها حتى يُستعتبوا، فالواجب على هؤلاء المُكذبين أن يعتبروا بهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير المكذبين بما يقرون به، أنه أهلك من سبقهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة؛ لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مفيد للتوبيخ؛ لأن الواجب على من نظر في عاقبة المُكذبين أن يرتدع عن الكذب.

٣ - **من فوائد الآية أيضًا:** أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. فلا أحد يُبعث قبل يوم القيامة،اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يُحيي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله الدجال ثم يُكلمه ويُخاطبه فيقوم حيًّا، وإلا فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف: [إن نافية، أو مُخففة]، قوله: نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن)، لكنها خففت و(أو) في كلام المؤلف ليست للتخيير بل هي للتنويع؛ لأنها على حسب القراءة الآتية في ﴿لَّمَّا﴾. ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل الخلائق، وهي مبتدأ على التقديرين، أي على أنها نافية وعلى أنها مُخففة؛ لأن المخففة تعمل في الجملة، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ على كلا الوجهين،

أي: على أَنَّ (إن) نافية، أو مُخففة، و﴿لَّمَّا﴾. قال المؤلف: [بالتشديد بمعنى إلا، أو بالتخفيف فاللام فارقة و(ما) مزيدة]. ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا، وعلى هذا تكون إن نافية، والتقدير: (وما كل إلا جميع لدينا مُحضرون). وبالتخفيف فاللام فارقة بين «إن» النافية و «إن» المخففة و(ما) مزيدة، والتقدير على هذا: (وإن كلٌّ لجميعٌ لدينا مُحضرون)؛ لأن (ما) زائدة، فإذا أردنا أن نُعرب هذه الآية نقول: (إن): نافية على قراءة التشديد، و(لما) بمعنى إلا.

الإعراب الثاني: (إن) مُخففة على قراءة التخفيف، واللام فارقة وهي للتوكيد، و(ما) زائدة، والتقدير على هذا: (وإن كلٌّ لجميع لدينا). ﴿جَمِيعٌ﴾ قال المؤلف: [خبر المبتدأ أي: مجموعون]. المبتدأ ﴿كُلٌّ﴾.

فإن قال قائل: كيف يكون خبر لـ (كل)، و(كل) تدل على الشمول؟

فالجواب: أن (كلًّا) تدل على الشمول، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع، فتقول: أكرم كل القوم، وقد يكون القوم متشتتين كل واحد بجانب، لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الاجتماع ففيها زيادة على الشمول، وهي جميع الناس، فكل الناس يحضرون إلى الله عز وجل، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية ﴿جَمِيعٌ﴾. إذًا فلا يقول قائل: إن المبتدأ هو نفس الخبر؛ لأن كلمة ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول و ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشمول، نقول: لا؛ لأن الفرق بينهما أن (كل) تدل على الشمول، وإن كانوا متفرقين، و(جميع) تدل على الشمول مع الاجتماع.

قال المؤلف: [مجموعون ﴿لَّدَيْنَا﴾ عندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب خبر ثان]. أي: خبر ثان لـ (كل) فصار ﴿كُلٌّ﴾، لها الآن خبران الأول: ﴿جَمِيعٌ﴾ والثاني: ﴿مُحْضَرُونَ﴾، ومعنى هذه الآية: ما كان واحد من هؤلاء إلا مُحضر لدى الله عز وجل يوم القيامة، والناس جميع.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث يجمع هذه الخلائق جميعًا في مكانٍ واحد؛ لقوله: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية:** وجوب الاستعداد لهذا اليوم؛ لأن الله تعالى لم يُخبرنا به لمجرد الاطلاع، ولكنه أخبرنا به من أجل أن نستعد له؛ حتى نكون على أهبة لما سنُحاسب عليه.



قال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث خبر مُقدم، ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد، ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالماء، مبتدأ]. الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء. وقول المؤلف: [خبر مُقدم]. المبتدأ الأرض، وقوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد يعني أن فيها قراءتين (الميِّتة) و(الميْتة)، وهذا دليل على أن الميتة كما يُطلق على الميت الذي قد فارقت روحه جسده، يُطلق أيضًا على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن الميّت لمن سيموت) و(المَيْتَ لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميتة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميّتة، والميتَة، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ و ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفة و ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة للأرض؛ ولهذا قال المؤلف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها)؛ ليُبين أن الميتة وأحييناها كلاهما صفة للأرض، ولكن الصحيح أن ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ جملة استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض؛ لأن محط الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحياها بعد موتها، أما على رأي المؤلف فإذا جعل ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة، فإنه يشكل علينا أن هذا مُخالف للقاعدة المعروفة: (أن الجمل بعد المعارف أحوال). والجواب على ذلك أن يُقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس، فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني). ومنه أيضًا على قول بعض المُعربين: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]. على أن جملة ﴿يَحْمِلُ﴾ صفة الحمار؛ لأن المُراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمار يحمل أسفارًا، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحياها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وعليه فنقول: وجه الآية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ معطوف على ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾، يعني الأرض ميتة أحييناها بالزرع، فقام

الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعًا لا يفيد الآدمي، وإنما يفيد البهائم، ويفيد الآدمي عند الضرورة، لكن الفائدة العظمى منه ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض. ﴿حَبًّا﴾ كالحِنطة، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾وقوله: ﴿فَمِنْهُ﴾، أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول؛ لأنه لو كان صعبًا لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، فقدم المعمول لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المتيسر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾، أي: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حبًّا، ويكون ثمرًا، الحب من الزروع، والثمر من الأشجار، قال:﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين: المفعول الأول: ﴿جَنَّاتٍ﴾، والثاني: ﴿فِيهَا﴾، و ﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سُميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستتارته به، وأصل هذه المادة - الجيم والنون - تدور على هذا المعنى، أي: على الاستتار والخفاء، ومنه سُمي القلب: جنانًا؛ لاستتاره، ومنه سُمي: الجن؛ لاستتارهم وخفائهم، ومنه سُمي الجُنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستتار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره، وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ النخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوت لا يحتاج إلى مؤونة؛ ولهذا يُقتَاتُ رطبًا ويابسًا، فيُقتَاتُ رطبًا كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، ويابسٌ كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤونة طبخ، وينتفع به رطبًا ويابسًا.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾، قال المؤلف [بعضها] . ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس ويكون هذا عامًّا، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيونًا كثيرة، وأصنافًا متنوعة، فمنها العيون الجارية الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالذي يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله عز وجل وعلى رحمته بعباده.

يقول الله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. لقوله:﴿لِيَأْكُلُوا﴾ الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مُضمرة على مذهب البصريين، وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [فتحتين وبضمتين]. أي: ثَمَره، وثُمُرِه. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما)؛ لأن الله عز وجل ذكر نخلًا وأعنابًا فهما

صنفان، ولم يقل (من ثمرهما)، بل قال: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾. أي: ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المؤلف: [﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لم تعمل الثمر، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله تعالى عليهم]. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، في ﴿وَمَا﴾ قولان للمفسرين:

القول الأول: أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف، يعني أن هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم تعمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنها بمعنى: الذي أي: (مِن الذي عملته أيديهم)؛ لأن الناس قد يعملون شيئًا يُصلحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون ويتفكهون به، فهناك أنواع الحلوى تُصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرين: امتن بما يخرجه هو عز وجل من هذه الثمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نحدث فيه شيئًا نأكله كما يقولون طازجًا، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلًا من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله عز وجل امتن على العباد بالأمرين جميعًا، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: (أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما). فنقول: أن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدينا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضًا ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد، فكل هذا نعمة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. الاستفهام هنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مُقدر يُعلم من السياق، يعني: أُغفِلوا عن ذلك فلا يشكرون؟ أو أُكْفِروا به فلا يشكرون؟ لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المُتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم:

إما غافل ويرى هذا أمرًا مُعتادًا وكأنها شيء جارٍ على العادة بدون أن يكون لله فيه مِنَّة، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم؛ لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيث يُصاب ضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلا من جاع، ولا قدر الري إلا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأُنس إلا مَنْ فقد الأنيس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن يكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ﴾ [النحل:٨٣].

كُفرًا بالنعمة وبطرًا يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]. وما

أشبه ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. الشكر: القيام بطاعة المُنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له. فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النعم عونًا له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكرًا؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنما أنعم الله علينا هذه النعم؛ لنقوم بعبادته والتقوى عليها، والشكر مُتعلق بثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفـــادتكم النعماء مني ثلاثـــــة يدي ولساني والضمير المحجـــبـــا

فشكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى هو الذي مَنَّ بها، إن كانت نعمة إيجادية، أو كانت دفع نقمة فإنها من الله وهو المانّ بها، فلا يجعل ذلك من أسباب عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وشكر اللسان: أن يثني الإنسان بها على الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١]. لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفرًا لا شكرًا.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المُنعم عز وجل، ومن شكر الجوارح: أن يُظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنيًّا ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره؛ لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمةٍ أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما مُتفقان؟

فالجواب: أن بينهما فرقًا:

أولًا: أن الحمد متعلقه اللسان فقط؛ لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.

ثانيًا: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المُتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: أشكر الله على كمال صفاته، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيث المتعلق.

الفوائد:

في الآيات الكريمات فوائد منها:

١ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل على إحياء الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

٢ - ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن إحياء الأرض بعد الموت مُشاهَد، ويُستدل به على إحياء الله الموتى عند بعثهم يوم القيامة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩:١١] والآيات في هذا كثيرة.

٣ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** جواز وصف الجماد بالموت والحياة، فإنه ليس خاصًّا بذي الروح المتحرك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾. فوصَفَها بالموت، ووَصَفَها بالحياة.

٤ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾. بضمير العظمة.

٥ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان نعمة الله عز وجل بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار، الحبوب في قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾. والثمار في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان حاجة العبد لربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾. وكأن هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان أنه لا يمكن أن يأكل إلا من هذا الذي أخرجه الله له، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادرًا فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخرجناه لك.

٧ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المُظلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾. فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب!

٨ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمر يؤكل بلا تعب، وثمر يُقتات رطبًا ويابسًا.

٩ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل في تفجير الأرض عيونًا، هذه الأرض اليابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ﴾ [البقرة:٧٤]. وهذا من عظيم قدرة

الله، وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس، إما حجرٌ مُعينًا - كما قيل - يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه فيتفجر اثنتي عشرة عينًا، على قدر قبائل بني إسرائيل، وهذه من تمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

١٠ - ومنها: بيان احتياج النخيل والأعناب إلى الماء، وأن ثمره يكثر بحسب الماء؛ لأنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. فدل هذا على أن الماء له أثر في كثرة الثمار وطيبها، وهذا هو الواقع.

١١ - ومنها: الرد على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. والنصوص الدالة على إثبات حكمة الله عز وجل كثيرة جدًّا: منها ما صرح الله تعالى به مثل قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥]. ومنها ما صرح الله به على وجه السلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]. ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدها، فإن إثباتها يدل على الثبوت، ونفي ضدها يدل على كمالها، وأنها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدها، أو بفقد كمالها، ولا شك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله عز وجل، أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم، وأن يكون الله عز وجل يفعل الشيء سفهًا وعبثًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

١٢ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يؤكل، أرأيت لو أن هذا الثمر صار مُرًّا، هل يُنتفع به؟! ولهذا قال الله عز وجل في الماء: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٦٨:٧٠]. فلم تستطيعوا شربه، هذا الثمر جعله الله شهيًّا للنفوس، تأكل منه، وتتغذى به الأبدان؛ ولهذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. فلو شاء الله عز وجل لجعل هذا الثمر فاسدًا، فقد يكون حلوًا لذيذًا شهيًّا، لكن يجعل الله فيه آفة تُفسده، وهذا موجود بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويؤكل من ثمره.

١٣ - **ومن فوائدها:** أننا لا نملك لأنفسنا أن نوجد هذا الثمر، وأن ذلك مُجرد فضل من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. فإن هذا ليس من صنعنا، فلو اجتمع الناس كلهم على أن يُخرجوا رطبة واحدة أو حبة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ومع هذا يخلق الله عز وجل هذه العناقيد التي لا تُحصى كثرةً، وهذه الأعذاق التي لا تُحصى كثرةً، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غاية ما هنالك أننا نوجه هذا الثمر حسب ما علمنا الله عز وجل، فنأخذ من طلع الفحل ما نجعله في طلع النخلة حتى يطيب الثمر، أما أننا خلقناه وأوجدناه فلا. وهذا على جعل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ نافية.

١٤ - **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله عز وجل بها علمنا مما نصنعه من هذه الثمار، وعلى وجهٍ يُخالف ما خُلقت عليه، حتى يتكون من هذا طيب على طيب؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. فإن الله تعالى علمنا كيف نصنع هذه الثمار على وجهٍ نتلذذ بها، وننتفع بها أكثر مما هي عليه في الخلقة، وهذا على جعل (ما) موصولة.

١٥ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** وجوب شكر نعمة الله عز وجل؛ لأن الله وبخ من لا يشكر، والشكر مع كونه طاعة الله يُثاب الإنسان عليه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه، فهو سبب للمزيد من هذه النعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

فإن قال قائل: نحن نرى كثيرًا من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها؟ فبماذا نُجيب عن هذه الآية؟

الجواب: على هذا أن نقول:

أولًا: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة، بل العقوبة تكون بفقدان النعمة، وتكون بقسوة القلب، وبمرض القلب، وإن كان أكثر الناس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله سبحانه وتعالى وعن ذكره هذه أكبر عقوبة، ثم هؤلاء المُنعَّمون في أبدانهم لا تظنون أنهم مُنعَّمون في قلوبهم أبدًا، ففي قلوبهم من الضيق والحرج، وعدم الصبر على القضاء والقدر ما يجعلهم دائمًا في نار، ولا تجد أطيب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. فهؤلاء قد عوقبوا عقوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها، وهي قسوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر، والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضى بالله ربًّا، ولا بشرعه دينًا.

ثانيًا: نقول أن هذه النعم عجلت لهم عقوبة واستدراجًا؛ ولهذا لما جاء عمر ﷺ إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو على سرير مُخيط من الليف فإذا هو قد أثر في جنبه، فبكى فقال له عليه الصلاة والسلام: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: يا رسول الله، فارس والروم يُنعمون بما نُعموا من الدنيا وأنت على هذه الحال؟ فقال: «يَا عُمَرُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»[1]. فهؤلاء يُعاقبون بهذه النعمة التي تدر عليهم؛ لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشد عليهم؛ لأنهم فارقوا دنيا تعلقت بها قلوبهم، ونُعِّموا بها ثم أعقبها هذا العذاب - والعياذ بالله - فصاروا أشد حسرة.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

ويُذكر عن ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - وهو قاضي القضاة في مصر أنه مر ذات يوم بيهودي زيَّات يبيع الزيت، قد تعب من الزيت، وثيابه وسخة، وقاضي القضاة بمصر يمشي على عربة تجره الخيول، والناس حوله يمينًا وشمالًا، فأوقف اليهودي الموكب وقال: يا قاضي القضاة كيف تكون أنت في هذا الحال وأنا في هذا الحال ورسولكم يقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»(1). فقال له ابن حجر - رحمه الله: ما أنا فيه من النعيم في الدنيا هو سجن بالنسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيه من التعب والبلاء هو بالنسبة لعذاب الآخرة جنة، فأنت الآن في جنة؛ لأنك سوف تنتقل إلى عذاب لا تتصوره. فلما قال ذلك قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فأسلم. فهؤلاء المُنعَّمون نعيمهم في الحقيقة شقاء وعذاب، وإن نعمت أجسادهم، لكن أكثر الناس في غفلة عن هذا، ومع الأسف أن هذا الداء دب إلى المسلمين، فصار أكثر المسلمين اليوم لا ينشدون إلا هذا النعيم؛ أعني: نعيم الدنيا، وفي غفلة عن نعيم الآخرة؛ ولهذا تجدهم يتحدثون دائمًا عن الترف واللهو وما أشبه ذلك، كأنهم ما خُلقوا إلا لهذا، وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبه مُعلقًا بالدنيا، ولا ينظر إلا إلى التنعم بها، ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إن الدنيا إذا جعلت وسيلة للآخرة، فصارت من الآخرة في الحقيقة، لكن ننكر أن تكون الدنيا أكبر هَمِّ الإنسان، كأنما خلق لها فقط، وهذا من نقص دينه، ونقص عقله، فكيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعلها مهمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمضمون، وليس بمُخلَّد؟! قال الله تعالى مُنكرًا على قوم هود على لسان هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩]. فأنت لست بخالد، فكيف تجعل هذا الممر الذي أنت تعيش فيه أكبر همك، مع أنك لا تدري متى تُفارقه؟! كل من هؤلاء المُترفين لا يدري متى يموت، لكنه يدري أنه سوف يبقى في الآخرة - إن كان مؤمنًا بها - ومع هذا يعمل للدنيا التي لم يُخلق لها، ويدع الآخرة التي خُلق لها.



قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الحبوب وغيرها،

(1) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث، ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة].

﴿سُبْحَٰنَ﴾ تأتي دائمًا منصوبة على أنها مفعول مُطلق حذف منها العامل وجوبًا، وأصلها تسبيحًا لله، وتسبيحًا مصدر سبح، فالعامل محذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسبيح حُوِّل إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعد في الماء، فمعنى التسبيح في سبحان الله تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله عز وجل أمران:

أحدهما: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]. فكل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبدًا، فكل شيء سواء مما تنب الأرض، أو من بني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون، فإنه مكون من شيئين وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾. فيه تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به؛ ولهذا جاءت الآية هنا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾. فالمخلوق لا بد فيه من تعدد، والخالق مُنزه عن التعدد، وهذه هي الحكمة - والله أعلم - في أنه قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾. ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج)، بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾. لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المتفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبنو آدم لا بد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق عز وجل واحد منفرد، لا يُماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: تنزيه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيب؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: التنبيه على وحدانيته عز وجل، ومخالفته للمخلوقات لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾. فلم يقل: (سبحان الله) بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾. والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزه الله عنه قد ورد في غير موضع من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]. فلما ذكر حال الخلائق ذكر حال الخالق؛ لأنه عز وجل يبقى مع فناء غيره، كذلك هنا المخلوق كله مزدوج لا بد فيه من زوجين؛ لقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]. أما الرب عز وجل فإنه واحد؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ

كُلَّهَا﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ما من شيء مخلوق إلا وفيه زوجان؛ لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهذا لفظ من أعم ما يكون من الكلمات.

٤ - **ومن فوائد الآية أيضًا**: أن بني آدم على أصناف متنوعة كما كان ذلك أيضًا فيما تنبته الأرض، بل وفي الأرض نفسها قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد:٤]. فإثبات التجاور لها يقتضي أن كل واحد منها يُخالف الآخر؛ لأن الجار غير جاره، وكذلك هنا في قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾. يدل على أن في الأرض أصنافًا منوعة من النباتات، كذلك فيما أي: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. أي:خلق الله عز وجل من بني آدم أصنافًا: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه، وهكذا ليعتبر الإنسان قدرة الله عز وجل على خلق هذه الأشياء المتضادة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجهل للإنسان، وأنه لا يحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهذا إذا أضفتها إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. تبيَّن لك مدى جهل الإنسان في الأمور.



قال الله تعالى:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾[يس:٣٧].

التفسير

نقول في إعرابها ما قلنا في آية ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾: فيكون الليل مبتدأ، وآية خبر مُقدم، ونقول في ﴿نَسْلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾، أي أنه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية، قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. «نَسْلَخُ» يقول المؤلف [نَفْصِل]. وسمى الله هذا الفصل سلخًا؛ لأنه يُشبه سلخ الجلد من البهيمة وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾؛ لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يُسلخ من البهيمة، وأنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئًا فشيئًا، هكذا ضوء النهار بالنسبة لليل يسلخ الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يُسلخ الجلد من البهيمة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾. أي: داخلون في الظلام. ﴿فَإِذَا﴾ فجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئًا فشيئًا، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظُلمة كاملة،

وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئًا فشيئًا، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظُلمة شيئًا فشيئًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** هذه الآية العظيمة في الليل؛ حيث يسلخ الله تعالى منه النهار سلخًا، كما يُسلخ الجلد من الشاة، وهذا يدل على أنه يأتي شيئًا فشيئًا.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الأصل هو الظلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، فهذا يدل على أن الأصل هو الظلام، وأن النهار طارئ عليه؛ ولهذا يُسلخ منه وهو كذلك، فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثة وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلام ويأتي النور بعده.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تذكير الخلق بهذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾. وأنه لولا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يُسْلَخ من الليل لكنا دائمًا في ظُلمة، وهذا بلا شك مُتعب للناس وضار بهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].



قال الله تعالى:

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨].

التفسير

الواو حرف عطف، و(الشمس) أيضًا معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضًا ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، ويجوز أن تكون الواو استئنافية، والشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المؤلف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك].

أي: سواء قلنا الجملة استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا أن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المُضيئة التي يصل ضوؤها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟! الجواب: لا أحد يستطيع. إذًا فهي آية من آيات الله، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمر، وتدفئة الأرض، والنور العظيم، كم طاقة يستفيدها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء، طاقة عظيمة

سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغني بالشمس عند تدفئة المنازل، أو فيما يحصل بالإضاءة، فإذًا هذا أمرٌ لا يُقدر له ثمن، أما إنضاج الثمر، وإيباس الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدِّث ولا حرج، فهي آية عظيمة من آيات الله عز وجل.

وهي آية في مسيرها، قال تعالى: ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ يعني تسير جريًا، والجري هو المشي بشدة، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جدًّا لا يعلم قدرها إلا الله عز وجل، أو قد يُعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها، لكن تأمل الطائرة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا، ومع ذلك نراها تمشي ببطء؛ لبُعدها عنا، فما بالك بالشمس؟! نحن نراها تسير لا شك في هذا، حتى إنك إن نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعد، وهذا يدل على أنها تمشي مشيًا عظيمًا، ومع هذا وهي بعيدة جدًّا ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريانها سريع جدًّا، وقد عُلم تقديره عند الفلكيين الآن، وقوله: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾. قال المؤلف: [إليه لا تتجاوزه]. والمستقر موضع القرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦]. وقال: ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [النمل:٦١]. فالمستقَر موضع القرار، وقال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود:٦]. فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زمني؟ أو قرار مكاني؟ أو هما جميعًا؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر ﷺ أنه كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ وَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَتَسْتَأْذِنُ فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا»(١)، ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكاني؛ لأنها تسجد تحت العرش، وهذا السجود لا نعلم كيفيته؛ لأن الشمس ليست كالبشر حتى يُقاس سجودها بسجود البشر، بل هي مخلوق أعظم، ولا ندري كيف تسجد؟ فإذًا لا يرد علينا السؤال: هل هي تسجد وهي سائرة أو تقف؟ وكيف يصح أن نقول: إنها تسجد وتستأذن وهي لا تزال مستمرة في الأفق؟ كل هذه الأسئلة إيرادات نجيب عليها عند ذكر الفوائد.

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيامة. أي: عند مُنتهى سيرها في يوم القيامة، أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر مُنتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا؛ لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مُستقر زمني مكاني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلا الذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

خلقها سُبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾. كل شيء له غاية، وكل شيء له مُنتهى إلى الله عز وجل. قال المؤلف: [﴿ذَلِكَ﴾ أي: جريها، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه]. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: جريانها لمستقرها. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر؛ فلهذا أتى باسم ﴿الْعَزِيزِ﴾؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معانٍ:

أولًا: العزيز في قدره.

ثانيًا: العزيز في قهره.

ثالثًا: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يُماثله أحد، وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المُطلق، يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأما في امتناعه فالمعنى: أنه ممتنع عن كل نقصٍ وعيب.

أما ﴿الْعَلِيمِ﴾ فمعناه: ذو العلم الكامل الشامل، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وشامل لكل صغير وكبير، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وما كتب في كتاب مبين إلا بعد أن كان معلومًا عند الله عز وجل، إذ المجهول لا يُكتب، فهذا يدل على سعة علم الله عز وجل، وأنه مُحيط بكل شيءٍ جملةً وتفصيلًا.

فذكر الله هذين الاسمين: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لمناسبة المقام؛ لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس تجري أي تسير، وهذا هو الواقع، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي، وليس المُراد أنها تجري برأي العين، وأن الذي يدور هو الأرض، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه، فإذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ وجب أن نقول: إن الشمس تجري، ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذه الشمس - التي هي دائمة ودائبة- لا بد لها من مُنتهى؛ لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ن جميع الخلائق لها مُنتهى، فكل ما في الدنيا من خلائق له مُنتهى، وسوف

يزول، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذه الشمس مُقدرة تقديرًا بالغًا مُنظمًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾. ويشهد لهذا الواقع، فإن هذه الشمس منذ خلقها الله إلى أن تزول وهي في فلكها لا تتقدم ولا تتأخر عن السُّنة التي أمرها الله عز وجل أن تكون عليها، ولا ترتفع ولا تنخفض، حتى قيل: إنها لو تنخفض مقدار شعرة لأحرقت الأرض، ولو ارتفعت مقدار شعرة لجمدت الأرض، ولكن الله عز وجل جعلها على هذا التقدير البديع المُحكم الذي لا يتغير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة** : إثبات اسمين من أسماء الله وهما العزيز العليم، ويؤخذ منهما: إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم، ويؤخذ منهما أيضًا: إثبات الأثر، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد، وعليم بكل شيء.



قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩].

التفسير

يقول المؤلف - رحمه الله: [القمر بالرفع، والنصب]. ففيه وجهان في الإعراب: القمرُ بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. والقمرَ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور، فيكون من باب الاشتغال، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرُجحان؛ لأن الجملة التي قبله ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ جملة اسمية، خبرها فعل، فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنه يترجح الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية.

قال المؤلف: [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده]. يعني: يُفسره المذكور. والتقدير على هذا: (وقدرنا القمر منازل). ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس: التقدير وقدرنا القمر قدرناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تُقدر فقل: التقدير (وقدرنا القمر منازل).

فإذا قلت: لماذا لم يقل عز وجل (وقدرنا القمر منازل).

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسند هذا إليه مرتين، أي: أسند الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين: مرة بذكره اسمًا ظاهرًا، ومرة بذكره اسمًا مُضمرًا ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾. وتقدير الله عز وجل للقمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نشاهده، يتغير كل ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التقدير ما

تغير، لكنه مُقدر منازل ثمانية وعشرين منزلًا، على حسب النجوم المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحد إن كان تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتُسمى هاتان الليلتان ليالي الاستسرار - يعني: الاختفاء - فيختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير.

والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى؛ ولهذا يبدو صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره؛ لأن نور القمر مُستمد من نور الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة؛ لأنه جرم مُظلم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]. فهو جرم مظلم لا يستفيد نورًا إلا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عِنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة؛ ولهذا يمتليء نورًا فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذٍ؛ فيمتليء نورًا، والجزء المنير من القمر هو الذي يلي الشمس؛ ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالًا، ويكون عنها جنوبًا فنجد فتحته نحو الجنوب؛ ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر - أي فتحة قوسه - دائمًا إلى المشرق أو الجنوب، هذا ليس بصواب، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره، وقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾. أي: عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم، والعرجون هو: أصل الشماريخ الذي في طلع النخل، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر، فشبه الله عز وجل القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم، أي: أنه يبدو دقيقًا أصفرًا متقوسًا.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القمر آية من آيات الله عز وجل؛ حيث هو موضوع في فلكه، ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة، فليس مُطلقًا ولكنه مُقدر بمنازل ينزلها كل ليلة، والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عدد السنين والحساب، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]. حتى إن العالمين بمنازل القمر يعرفون الليلة من الشهر، وإن كانوا لم يحسبوا من أول الأمر، بناءً على معرفة المنازل؛ لأن هذه المنازل لا تتغير، وحلول القمر فيها أيضًا لا يتغير، فهي مُنظمة من عند الله عز وجل.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القياس؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾. وكل تشبيه، أو مثل في القرآن الكريم فإنه يدل على القياس؛ لأن التشبيه، أو المثل إلحاق شيء

بشيء لعلة، وهي التي تُسمى في البلاغة وجه الشبه.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** إطلاق القديم على غير الله خلافًا للمتفلسفة، أو الفلاسفة الذين يقولون: إن أخص وصف لله سبحانه وتعالى هو القِدَم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله، والقدم لا يدل على الأزلية، فهذا العرجون وصفه الله بأنه قديم، ومع ذلك فإنه ليس أزليًّا، إذ إنه حادث بعد أن لم يكن، وبه يتبين بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إن أخص وصف لله عز وجل هو القدم. ولو قالوا: أخص وصف هو الأولية، لكنا نوافقهم على ما قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، أما أن نقول: إن القدم أخص وصف لله مع أنه يوصف به الحادث فهذا لا يكون، ولا يصح.

٤ – **من فوائد الآية الكريمة:** فيها دليل على قدرة الله من حيث نور القمر، حيث يبتدئ ضعيفًا، ثم يزداد في القوة، ثم يرجع إلى الضعف، فإن هذا من قدرة الله عز وجل، إذ لو شاء لجعله ممتلئًا دائمًا، أو ناقصًا دائمًا.

٥ – **وفيها أيضًا من الفوائد:** الإشارة إلى حال الإنسان، فإن الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مطابق لحال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]. فحال الإنسان مساوية تمامًا لحال القمر، فالقمر يبدو ضعيفًا، ثم يزداد في القوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسبة لحياته.



۞ قال الله تعالى:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

۞ التفسير ۞

لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقرٍ لها، وأن هذا أمر مُقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود بعد امتلائه نورًا فيصير كالعرجون القديم، بَيَّن أن هذا النظام لا يمكن أن يتصادم أبدًا؛ لأنه مُقدَّر من عند الله عز وجل العزيز العليم منازل لا يتجاوزها ولا يتعداها، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾. يقول المؤلف: [يسهل ويصح]. لكن الأَوْلى أن نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تُدرك القمر. وقد مر علينا أنه إذا جاءت كلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى:

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ﴾ [مريم:٩٢]. يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»(١). أي أن ذلك مستحيل. ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي﴾ أصلها: (الشمس لا ينبغي لها). ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية كلها، فقال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾. يعني: لا يمكن أن تُدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدَّرنا أنها تغيب في الساعة الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، فبين غروبها وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة الثامنة، فيكون بين غروبها وطلوعها ثمان ساعات؛ لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها، والذي جعلها تسير عليه لتمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، وهنا قال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾. كان الليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفى الله عز وجل أن يسبق الليل النهار، قيل: المُراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله عز وجل ذكر الشروق في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾. يعني: لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل، ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾. أي: لا يمكن لليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن تغرب الساعة التاسعة مثلًا؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن لليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا يُنافي تقدير الله عز وجل الذي سمى نفسه بأنه العزيز العليم. قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾. (كلٌّ) قال المؤلف: [تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾: مستدير ﴿يَسۡبَحُونَ﴾: يسيرون، نزلوا منزلة العقلاء]. ذكر المؤلف النجوم، والنجوم في الآية غير مذكورة، فالصواب من الشمس والقمر، والمعنى: كل من الشمس والقمر، والليل والنهار يسبح في فلكه، والفلك هو الشيء المستدير، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلاه، والذي تغزل به النساء الصوف، له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل. فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر، والليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾. قال المؤلف: [يسيرون]. ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف -

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥).

رحمه الله - لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع، تدور وليست تسير على أرض مُسطحة، أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. وقول المؤلف: [يسيرون، نزلوا منزلةالعقلاء]. أي: الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا منزلة العقلاء؛ وذلك بأن أُتي بالواو التي هي للعقلاء، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلا للعقلاء، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئًا على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة، والعقلاء نأتي بالواو، أو الميم، فنقول مثلًا: الإبل ركبهن أربابهن، ولا تقول: الإبل ركبهم أربابهم؛ لأن الميم للعاقل، وتقول: الإبل شربن ولا تقول شربوا؛ لأن الواو للعاقل، وهنا ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ أُتي بالواو التي للعاقل، يقول المؤلف: إنها نزلت منزلة العقلاء. وذلك بإضافة السبح والجريان إليها، والجريان والسبح إنما يكون من ذي الإرادة والعقل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** في الآية دليل على أن سُنة الله عز وجل لا تتغير، هذا هو الأصل كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب:٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]. فسُنة الله سبحانه وتعالى لا تتغير في الكون، ولكن هل هي سُنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟ الجواب: لا، ولكن الله تعالى أخبرنا بأن هذه السُّنة لا تتغير، لكنها تتغير بتغيره؛ ولهذا حُبست الشمس ليوشع بن نون كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ ولهذا أيضًا إذا كان قرب الساعة فإنها تخرج من مغربها؛ ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فرقتين، فهذه السُّنن الكونية لا تتبدل ولا تتغير، ولكن الله قادر على أن يُبدلها، أو يُغيرها ويكون هذا السبب.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس لا يمكن أن تخرج ليلًا بحسب السُّنة الإلهية، أما بحسب قدرة الله تعالى فإنه يُمكن أن تخرج ليلًا؛ لأن الله يقول للشيء: كن؛ فيكون.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الليل لا يسبق النهار فلا يدخل عليه، ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليلتان جميعًا، لقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾. وهذا ما يظهر لنا من الآية الكريمة، وقد يكون لها معنى غير ما نفهمه من ظاهرها؛ ولهذا ربما يكون الذين يدرسون في علم الفلك يتبين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الشمس والقمر والليل والنهار في فلك، يعني في شيء مستدير كفلكة المغزل، وأنها تدور؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** ضعف قول من يقول: إن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا. فيجعلون الكواكب والشمس والقمر، كواكب معينة في كل سماء كوكب على هذا الترتيب من الأعلى للأدنى: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر، هذه سبعة، يقولون كل واحد في سماء (زحل) هو أعلاها في السماء السابعة - على كلام السابقين من علماء الفلك -

(المشتري) في السماء السادسة، (المريخ) في السماء الخامسة. (الشمس) في السماء الرابعة، (الزهرة) في السماء الثالثة. (عطارد) في السماء الثانية. (القمر) في السماء الدنيا كما قيل:

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت بعطارد الأقمار

فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب، وهذا الترتيب لا نعلمه من كتاب الله، ولا من سُّنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن نعرف أن هذه الكواكب بعضها فوق بعض بالكسوف، فإذا كان القمر يكسف الشمس عرفنا أنه تحتها، كما نعرف أن الغيم تحت الشمس؛ لأنه يحجبها، فإذا كسف القمر شيئًا من النجوم عرفنا أن القمر تحتها؛ ولهذا القمر يكسف كل النجوم، والشمس، ولا شيء يكسفه منها إلا الأرض؛ لأن الأرض تحته فتحجب نور الشمس عنه، فحينئذٍ ينكسف القمر، وقد شاهدت أنا وغيري أن القمر يكسف بعض النجوم تجري يسير حولها، ثم يُغطيها، وهذا يدل على أن القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على قول من يقول: إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور.والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة، وأن القمر يدور على الأرض. وهذا غلط؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحدًا، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. فإذا فسرنا السبح بالدوران، وأثبتنا ذلك للقمر فلنثبته أيضًا للشمس.



قال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ على قدرتنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وفي قراءة ﴿ذرياتهم﴾ أي: آباءهم الأصول في ﴿الْفُلْكِ﴾ أي: سفينة نوح عليه السلام ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: للناس جميعًا. يقول المؤلف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضًا آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عز وجل بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عز وجل يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل، وعلى رحمته، وقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. هذه الجملة في تأويل مصدر وهي المبتدأ، يعني: (وآية لهم حملنا ذريتهم). قال المؤلف: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [أي: آباءهم الأصول]. فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]. والمؤلف - رحمه الله - ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مُشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضًا: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المُراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول؛ لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يُحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يُشاهدها، فتعين أن يكون المُراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المؤلف - رحمه الله تعالى - يوافق ظاهر الآية، لكنه يُخالف ما كان معهودًا في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع؛ ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المُراد بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، فهو من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢ ، ١٣]. ﴿جعلناه﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جُعل نطفة ليس آدم الذي خُلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نُطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وآدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أنّا خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام؛ حيث حُملت ذريته في الفلك المشحون، وخُلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جدًّا ولا يُخالف ظاهر الآية، ويشير على أن هذه السفينة جُعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون). وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأباه السياق.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾. أي: سفينة نوح. فـ (ال) هنا للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليست للاستغراق؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود:٣٧]. والفلك يُطلق على الجمع، ويُطلق على المُفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]. أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد؛ ولهذا قال بعض الفقهاء - رحمهم الله: (إن الأحدب

الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفلك في العربية). لا يدري هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنية، فالأحدب المقوس الظهر يركع بالنية ينوي الركوع، لأنه ما زال راكعًا أحدب، وقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾. أي: المملوء بأناس من البشر الذين آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

الفوائد:

في الآية الكريمة من **الفوائد:**

١ - بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فإنه لولا أن الله أبقى هؤلاء لزالت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحًا عليه الصلاة والسلام ومَن معه، ومع هذا لم يبق من نسل الذين معه أحد، وإنما الذين بقوا هم نسل نوح عليه الصلاة والسلام فقط، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]. أما غيرهم فلم يبق منهم أحد؛ ولهذا يُسمى نوحًا أبا البشر الثاني.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله عز وجل بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر، لولا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء، ولكن الله تعالى أعلمهم بصناعة هذه؛ حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السفينة التي كان فيها نوح عليه الصلاة والسلام كانت مملوؤة من البشر وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [أي: مثل فلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ فيه].

يُذكرهم الله عز وجل:

أولًا: بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام.

وثانيًا: بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]. فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]. فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك لأجل أن يتعلم الناس؛ لأنه لم يقل (حملناه على فلك). بل قال:

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]. كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير؛ حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾. ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾. المُراد: بمثله هنا الجنس، وليس المُراد المماثلة من كل وجه؛ وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون مُتعذرة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، وما زالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر، قال المؤلف - رحمه الله تعالى: [بتعليم الله تعالى]. إشارةً إلى سؤال مُقدر كأنه قال: كيف قال الله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر، وليست بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابهها؟ فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه؛ لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾. وليست السفن الموجودة والتي كانت في عهد نزول القرآن ليست كمثل سفينة نوح من كل وجه، ويدل على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه. فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]. فإن المُراد هنا المماثلة في العدد فقط، وإلا فإن بين السماء والأرض من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى الراحة الحاصلة بهذه السفن، وأنها محل ركوب واستقرار؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾.

٣ - **وفيها أيضًا:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى باستقرار الراكبين على هذه السفن.



قال الله تعالى:

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس:٤٣، ٤٤]

التفسير

في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها ﴿نَّشَأْ﴾ وجوابه ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾، وفيها أيضًا استثناء مُفرغ من أعم الأحوال، وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾. وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. يعني: إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

﴿لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٢ - ٣٤]. فحذر الله عز وجل من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإما أن يغرقها، وهنا يقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. يعني: وهم في سفنهم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ: بمعنى المغيث، وسُمي المغيث صريخًا؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، ومنه حديث غزوة بدر أنا أبا سفيان بعث صارخًا إلى أهل مكة يستغيثهم، وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: لا أحد يغيثهم، ولا أحد ينقذهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يُغرقهم. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: لا ينجيهم أحد إلا رحمة الله عز وجل، والاستثناء هنا قيل: إنه مُنقطع؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بمعنى: لكن رحمة منا ينجون وينقذون، وقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾. أي: إنهم يُمتعون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيءٍ قدرًا، أي لا ينجيهم إلا رحمتنا لهم، وتمتيعنا إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

الفوائد:

في الآيتين الكريمتين فوائد:

١ – منها: إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

٢ – ومنها: أن الله إذا أراد بقومٍ سوءًا فلا مرد له؛ لقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

٣ – ومنها: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بإنجائهم من الغرق، وأن نجاتهم من الغرق ليست بكسبهم وعملهم، ولكنها من رحمة الله عز وجل.

٤ – ومنها: إثبات رحمة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

٥ – ومنها: أن الله تعالى قد ينقذ الإنسان من الهلاك إلى أن يأتي أجله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٦ – ومنها: أن الخلود في هذه الدنيا مُتعذر ومستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾. وما كان له غاية فلا بد أن ينقضي.

٧ – ومنها: أنه يجب على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنقاذ من الشدائد، أو بحصول المحبوب على أنها فضل من الله عز وجل وليست بكسبه، ولكنها من الله تعالى لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥].

التفسير

قال المؤلف: [من عذاب هَمِّ الدنيا كغيرهم، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أعرضوا]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾. هذه الجملة شرطية، فعل الشرط فيها ﴿قِيلَ﴾، وجوابه محذوف، قدره المؤلف بقوله: (أعرضوا). وهذا التقدير لا شك أنه التماس من المؤلف – رحمه الله – وإلا فقد يكون الأمر أوسع مما قال المؤلف، وحذف مثل هذا فيه من البلاغة أن الذهن يقدر كل ما يمكن أن يُقدره مما يترتب على هذا القول، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى أن الناس إذا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلف إجاباتهم منهم من يعرض ويسكت، ومنهم من يستكبر ويسب، ومنهم من يُقاتل: إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى، فكان في حذف هذا من البلاغة ما هو ظاهر؛ ليذهب الذهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾. القائل هنا مُبهم؛ لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عز وجل في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سُنته، أو كان من قول الدُعاة بعد ذلك.

﴿لَهُمُ اتَّقُوا﴾. أي: الكفار. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾، قال المؤلف: [من عذاب هَمِّ الدنيا].

ولكن الهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله سبحانه وتعالى قد يُعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضًا لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]. ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]. كانت هذه في غزوة بدر حين قُتل صناديد قريش، فسماها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا: العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله عز وجل، كالقحط والزلازل والغرق وغير ذلك، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشق، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب على الصواب، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يُجاب عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي الدنيا، وأما خلفهم فإن الخلف هو الوراء،وقد يُطلق بمعنى الأمام، ومنه قوله تعالى:﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

[الكهف:٧٩]. قال العلماء: معناه: أمامهم. وكقوله تعالى: ﴿وَرَآيِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧]. أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾: المعاصي التي في مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: المعاصي الماضية، فيجعلون المُراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من عذاب الله، وقد سبق أن قلنا: إن الآية إذا كانت تحتمل المعاني المقولة فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. لعل هنا للتعليل، أي: لأجل أن يرحمهم الله عز وجل إذا قيل لهم هذا الشيء، فجمع لهم بين الترغيب والترهيب، الترغيب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والترهيب في قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾. فهؤلاء جمع لهم بين الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون، بل يعرضون ويستكبرون ويسخرون، ويقولون: هذا أساطير الأولين، وما أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دُعُوا إلى الله تعالى.

الفوائد:

في هذه الآية الكريمة من **الفوائد:**

١ - أن هؤلاء الكفار قد أقيمت عليهم الحجة وبَلَغَتْهُم الدعوة ووُعِظُوا، ولكن لم ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عُرضةً للعذاب إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته سبب للرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾. فإن لعل هذا للتعليل، ولا أحد ينكر أن للأسباب تأثيرًا إلا من صرف عن مقتضى الفطرة، والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إن الأسباب والعلل مؤثرة بذاتها، وأنه لا بد لكل سبب من تأثيره في مُسببه، ولا بد في كل علة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: إنه لا تأثير للعلل والأسباب، وإنما هي علامات وأمارات فقط، فإذا وجد المُسبب أو المعلول لم يقولوا: إن ذلك من أجل السبب أو العلة، ولكن يقولون: إن ذلك حصل عنده لا به. ولا ريب أن هؤلاء يُخالفون المنقول والمعقول. ولا أحد يوافقهم على ما ذهبوا إليه.

القول الثالث الوسط يقولون: إن الأسباب والعلل تؤثر في معلولاتها ومُسبباتها، ولكن بجعل الله ذلك فيها، فهي ليست مؤثرة بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسبب، أو للمعلول. وهذا القول هو المُتعين، وهو الصواب؛ بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة، أو هذا

السبب التأثير فلا يبقى له تأثير إطلاقًا، وما قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بغريبة حيث أُلقي في نار تتأجج، فقال الله عز وجل لهذه النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. فكانت بردًا وسلامًا، مع أنها هي سبب للإحراق، ولكنها صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا يدل على أن الأسباب والعلل إنما تؤثر بإرادة الله عز وجل وجعل هذه العلة أو السبب مؤثرًا.

٥ - ومن فوائد هذه الآية: إثبات رحمة الله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الفعلية: فهي من الصفات الذاتية، لأن الله لم يزل رحيمًا بعباده ولا يزال، ومن الصفات الفعلية باعتبار تعلقها بالمرحوم، فإنها تتجدد باعتبار المرحوم، لا باعتبار أنها صفة من صفات الله، فهذا الذي رحمه الله من البشر حادث بعد أن لم يكن؛ فتعلقت به الرحمة، ولا يخفى ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرحمة على وجه الحقيقة، وادعائهم أنه يُراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان. ففسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون أن لله تعالى الإرادة، وبالإحسان؛ لأنه مخلوق منفصل ليس من صفات الله، وهذا بلا شك قولٌ باطل، وقد مر علينا بيان تعليلهم لإنكاره والرد عليهم. قالوا: إن الرحمة تقتضي رقة ولينًا وضعفًا، وهذا لا يليق بالله عز وجل، وأيضًا الرحمة لا يدل عليها العقل، ونحن لا نُثبت من الصفات إلا ما دل عليه العقل، وقد بينا أن هذا القول ليس بالصواب حيث:

أولًا: أن الرحمة قد تقع من إنسان قوي، وذي سلطان ويوصف بالرحمة.

ثانيًا: ادعاؤهم أن العقل لا يدل عليها قول باطل؛ فإن العقل يدل عليها أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، وقد مر علينا هذا كثيرًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

❁ التفسير ❁

لقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾، الضمير يعود هنا على المُكذبين للرسل، و ﴿مِّنْ﴾ هنا زائدة لفظًا، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنىً جديدًا، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتنصيص على عمومه، أي: أيُّ آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها، بل يُعرضون عنها ويستكبرون، والآيات التي تأتي من الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية. **الثاني**: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكنًا، وأن لا يوجل منها قبله، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]. أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمرًا مُخيفًا؛ لأنه شيءٌ طبيعيٌّ،ولا ينبغي أن يُخيف - نسأل الله العافية - أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يُحرك له ساكنًا، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإلا فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المُبالاة بها، وعدم الاكتراث بها، وأن لا تُحرك من الإنسان ساكنًا، ولا تهز له عاطفة، وقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبوها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكبروا عنها، ولم يُذعنوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكترثون بها ولا يهتمون بها.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية دليل على:** أن الله عز وجل يذكر، أو يبين لعباده من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ووجه ذلك أنه لولا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

٢ - **من فوائدها:** أن بني آدم قد يعتون عن الآيات فيعرضون عنها بدون نظر، والواجب على الإنسان أن ينظر أولًا، ثم يحكم ثانيًا؛ ولهذا يُقال: الحكم على الشيء فرع عن تصوره. فانظر أولًا في الآيات هل هي مُقنعة، موجبة للصلاح، فلتكن صالحًا بها، هل هي لا تنفع، فحينئذٍ تعذر بالإعراض عنها.

٣ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قسوة قلوب هؤلاء، فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الربوبية العامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾. فأثبت الله تعالى أنه رب هؤلاء، وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٩١]. فكل شيء فالله ربه، حتى الكفار، وقد تكون الربوبية خاصة، أي: أنه يُراد بها ربوبية خاصة، فيها مزيد عناية واعتناء، مثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]. فإن هذه الربوبية غير الربوبية العامة.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تقبيح حال هؤلاء والتحذير من فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. مع أنها جاءت من ربهم الذي هو مالكهم، وخالقهم، وأمرهم إليه، ومع ذلك يُعرِضون.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

التفسير

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾. قال المؤلف: [أي قال فقراء الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]. هكذا سار المؤلف في تفسير الآية فجعل القائل هم الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفقراء من الأغنياء أن يُنفقوا، أي: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن يُنفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نُطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نُطعمكم، ولو شاء أن نُطعمكم لأعطيناكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المؤلف – رحمه الله.

لكن الذي ينبغي هو أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يُراد به في بعض الأحيان التعميم، فـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: قال لهم أحد من الناس، سواء كان الفقراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق؛ لأن الأغنياء من الصحابة – رضي الله عنهم – مثلًا يُنفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن يُنفقوا أيضًا، فالصواب أن نُبقي الآية على إبهامها؛ ليكون أعم، وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا﴾، الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي: مما أعطاكم الله، وفي قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾. دون قول: (أنفقوا من أموالكم)، فيه تنبيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تُنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تُنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تُنفقون؟! هذه هي الفائدة من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

فما كان الجواب؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾، قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ اللام هنا الأصح أن المُراد بها الصلة، يعني: قالوا قولًا يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، قال المؤلف: [استهزاءً بهم]. يحتمل ما ذكره المؤلف أنه استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عنادًا وتبجحًا؛ لأنهم يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾. و﴿مَن﴾. هنا بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة، أي: نُطعم أحدًا لو يشاء الله أطعمه من دوننا؟ أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم؟ و﴿لَّوْ﴾. هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: ﴿يَشَاءُ﴾ وجوابها: ﴿أَطْعَمَهُ﴾، وقد أتت على خلاف الأكثر حيث حُذفت اللام من الجواب، والأصل

(من لو يشاء الله لأطعمه)، فإن جواب (لو) إذا كان مُثبتًا فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تحذف اللام، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥]. ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨ : ٧٠]. فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة يس من باب محذوف اللام، وهي: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، قال المؤلف: إنهم يقولون ذلك [استهزاءً بهم]. يعني: أنطعم قومًا لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فرارًا من اللوم، يعني: أنطعم قومًا أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله تعالى لم يشاء أن نُطعمهم فلا نُطعمهم.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضًا على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيرًا، ولا يُعطه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يُطعمهم، والمسؤول عنهم هو الله، وكان على الله أن يُطعمهم، لكن لم يشأ ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

الأول: الاستهزاء.

الثاني: الاحتجاج بالقدر.

الثالث: الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾. قال المؤلف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن]. يعني: هؤلاء الكفار الذين أُمروا أن يُنفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعمهم. فيقول: نعم أعتقد ذلك. فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نُطعمهم، والأمر بمشيئة الله، فما أنت إلا في ضلال مبين. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾. ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية، و(إن) تَرد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

الأول: تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

الثاني: تأتي شرطية، مثاله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

الثالث: تأتي نافية، مثاله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر: (وإن مالك كانت كرام المعادن).

وقال المؤلف: [مبين أي: بيّن]. فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي مُتعدية، ولازمة، فيُقال: أبان الشيء، أي: أظهره، ويُقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن ﴿مُّبِينٌ﴾ من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين، ويحتمل أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر.

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحِجر:١]. ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق.

قال المؤلف: [وللتصريح بكفرهم موقع عظيم]. أي: في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ولم يقل: (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فله موقع عظيم لأنه:

أولًا: التصريح بكفر هؤلاء، لو قال (قالوا). لقلنا: لعلهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم.

الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر، فيكون الكفر عامًّا لكل من قال هذه المقالة.

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التصريح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير.

الفائدة الثانية: أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق.

الفائدة الثالثة: العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف.

اللام بمعنى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا. يعني قالوا في حق الذي أُمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين كفروا يوعظون وينبهون، ولكنهم يستكبرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، فالحجة قائمة عليهم.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان إذا أنفق بأمر الله تعالى فلا مِنة له على الله عز وجل؛ لأن الله تعالى هو الذي أعطاه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي للمتكلم الواعظ أن يبين الأسباب التي تحث على فعل ما وعظ به؛ لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه كفار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ - **ومن فوائدها**: أن البخل من صفات الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وإذا كان من صفات الكافرين فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يتصف به، فكل ما كان من صفات الكافرين

من اليهود والنصارى وغيرهم، فإن اللائق بالمسلم أن لا يفعله؛ لأنه إذا فعله صار مُتشبهًا بالكافرين في هذه الخصلة.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يريد بها الباطل؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته عز وجل اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء، وهؤلاء أغنياء.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن المُشركين يقرون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء؛ لقولهم ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾. والمشركون أو الكافرون لا يُنكرون ربوبية الله عز وجل، بل يُقرون بها، حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنما يُنكرونها بألسنتهم؛ لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]. ولقول موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]. لكن ينكرون الربوبية استكبارًا ومكابرةً، وإلا فإن قرارة نفوسهم تشهد بها.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الأساليب الدعائية التي يستعملها المشركون من قديم الزمان؛حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلين: أنفقوا مما رزقكم الله. قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا الوصف المُشين للمؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجودًا إلى يومنا هذا، فهم يصفون أهل الخير بالأوصاف العديدة المنفرة منهم، أو التي يقصدون بها استعداء الحكام على هؤلاء المؤمنين، يقولون: هؤلاء رجعيون، وهؤلاء متخلفون، هؤلاء مُتشددون، هؤلاء مُتزمتون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يصفون بها أولياء الله عز وجل، ونحن لا ننكر أنه يوجد من أهل الخير وأهل الدين من يغلو ويُبالغ في عمله، أو في وصفه لغيره من التكفير والتفسيق، حتى يكفر من لم يكفره الله، ويفسق من لم يفسقه الله، فنحن لا ننكر أن هذا موجود، ولكن يبدو لي - والله أعلم - أن وجود مثل هؤلاء المُتشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفسوق، فيريدون أن يُحدثوا ردة فعل بالنسبة لهؤلاء، ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانبًا مُتطرفًا في الفسوق والعصيان، وأنه مستمر على ذلك ومُقر على ذلك من بعض ولاة الأمور، حصل رد فعل مُقابل لهؤلاء، فتشدد هؤلاء في مقابل تراخي هؤلاء، ولكن التوسط هو الخير. ومع هذا فإن المتوسطين المُعتدلين لا يسلمون من ألسنة المُتطرفين الضالين، ولا من ألسنة المُتطرفين الغالين، فالغالون مثلًا يقولون لهؤلاء المتوسطين: أنتم مفرطون، أنتم مُداهنون، أنتم تُقرون أهل الشر. وأهل الشر يقولون: هؤلاء متشددون، هؤلاء يريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم، وإلا فهم كافرون. وما أشبه ذلك، والمهم أن ألقاب السوء التي يُلقب بها أعداء الله أولياء الله لم تزل موجودة ولا تزال موجودة

إلى يومنا هذا، حتى أهل البدع يلقبون أهل السُّنة بألقاب السوء يقولون: هؤلاء مُشبهة. إذا أثبتوا الصفات على الحقيقة، وهؤلاء حشوية، هؤلاء نوابت. وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب النفور منهم، والنيل من قدرهم، ولكن هذا لا يضر أهل الخير، ولكن يؤذيهم، والأذية غير الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولكن لا يتضرر به، فها هو الإنسان يتأذى من رائحة البصل والكراث، والشيء المُستقذر، ومع ذلك لا يتضرر به، وقد أثبت الله لنفسه أنه يؤذى من المنافقين وغيرهم، ونفى عن نفسه التضرر، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]. وقال في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»(١). وقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»(٢).

المهم أن مثل هذه الألقاب ـ لا شك ـ تؤذي المؤمنين، ويتأذون منهم، وتضيق بها صدورهم، لكنها لا تضرهم، بل هي نافعة لهم؛ لأنهم إذا صبروا عليها أُجروا على الصبر، وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفَّارة لهم؛ لأنه لا يصيب المؤمن من هم ولا أذىً ولا غم إلا كَفَّرَ الله به عنه حتى الشوكة يُشاكها، لا سيما وأنه يؤذىَ هنا في ذات الله عز وجل، فيكون هذا منقبة لهم، ويكون هذا الإنسان الذي أوذي في الله قد ناله ما نال أولياء الله من الأنبياء والصديقين والشهداء، وقد أخبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه يُبتلى الصالحون الأمثل فالأمثل، فإذا كان فيه قوة في دينه فإنه يؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل، فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذية ما يحصل للآخر، وقد يبتليه الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]. نسأل الله السلامة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** المبالغة من أعداء الله بما يُسمون به أولياء الله؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. كأنهم حصروا حالهم من كل وجه في الضلال المبين، كأنه لا هداية فيهم إطلاقًا، فمعنى قولهم هو: (ما أنتم إلا في ضلال). وهذا غاية ما يكون من العدوان من هؤلاء.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله، وهي كثيرة في القرآن، ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مُقيدة بالحكمة إذ ليست مشيئة الله مُجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.



(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧).

قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس:٤٨].

التفسير

أي: يقول الكفار المُكذبون بوعد الله -عز وجل- ومنه القيامة: ﴿مَتَىٰ﴾ هنا استفهام استبعاد وتحدي، أي: يقولون مُستبعِدين هذا الأمر مُتحدِّين مَن يقوله، فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و ﴿مَتَىٰ﴾ خبر مُقدم و ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن ﴿مَتَىٰ﴾ واقعة موقع النكرة و ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وُجد نكرة ومعرفة، وأمكن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلا بد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلا بد أن يكون المحكوم عليه معلومًا؛ ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة: إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ.

وتعليل ذلك أن المبتدأ محكوم عليه، فلا بد أن يكون معلومًا مُتعينًا يقول الله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأننا نبعث، فمتى يكون؟

ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعينوه بيوم مُعين، وانظر إلى حُجتهم في آية أخرى تكن أبين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

وهل الذين قالوا: إنهم يُبعثون، قالوا يُبعثون في الدنيا حتى يقولوا: ائتوا بآبائنا، أم قالوا ستُبعثون يوم القيامة، وقولهم: ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ. أي: ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله؛ لأنه ما قيل لهم: إنكم ستُبعثون في الدنيا، بل في يوم القيامة، وهنا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟

فالجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦]. فالوعد لم يحن وقته بعد، فانتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أن بني آدم يصل إلى حد التحدي لرب العالمين، ولمن بلَّغ رسالته؛ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟

٢- **ومن فوائدها:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بلَّغوا البلاغ المبين، وبينوا للناس أنهم سيُبعثون ويُجازون، وأنهم وعدوا بذلك لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحديًا واستبعادًا لم يصدقوا الرسل، بل

كذبوهم، وليتهم نظروا في الأمر وفكروا؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:٤٩].

التفسير

قال المؤلف: [﴿مَا يَنظُرُونَ﴾. أي: ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾؛ وهي نفخة إسرافيل الأولى]. (نظر) تستعمل مُتعدية بنفسها، بمعني الانتظار مثل قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر:٤٣]. ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدت بـ (في)، فصار المُراد بها نظر الفكر تقول: نظر في كذا. أي: فكر فيه وتأمله، وإذا تعدت بـ (إلى) فهي النظر بالعين، تقول: نظرت إليه ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣]. ﴿صَيْحَةً﴾ يعني: يُصاح بهم؛ وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مُزعج يفزع الخلائق، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]. فكل الخلائق تفزع إلا ما شاء الله عز وجل، فيفزعون فزعًا شديدًا يؤدي إلى الصعق و إلى الموت، وحينئذٍ تكون نفخة واحدة فيها فزع، وفيها صعقة، وقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾. أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تُمهلهم ولا تنظرهم، ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾. قال المؤلف – رحمه الله: [بالتشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأُدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبايع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخْصِمون) كيضربون، أي: يخصم بعضهم بعضًا].

القراءات التي ذكر المؤلف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأُدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخَصِّمُونَ)، والقراءة التي في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخْصِمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشِّي هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة خالصة، ولا مكسورة خالصة، وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه القراءة الرابع، والثالثة التي في المصحف لم يُشر إليها المُفسر، ووجَّه المحشِّي القراءة الموجودة في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بأن الحركة أُزيلت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم أن معنى كلام المؤلف – رحمه الله: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتبايع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لاهون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم

بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم؛ ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عز وجل سوى التخاصم، كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابر؛ لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضها بعضًا، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق؛ لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروءة، ولا خُلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه - والعياذ بالله - حالهم عند قيام الساعة.

الفوائد:

١ - **من فوائدة الآية الكريمة:** إثبات علم الله عز وجل وسمعه؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** تهديد هؤلاء المُكذبين بهذه الصيحة التي تأخذهم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** قدرة الله عز وجل حيث يأخذ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. وهنا أكد الصيحة بـ (واحدة)؛ ليبين أنه لا يعيدها مرة ثانية، بل بأول مرة يؤخذون.

٤ - **من فوائدة الآية الكريمة:** أن هذه الصيحة تأتيهم بغتةً؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾. أي: وهم غافلون عنها.

٥ - **من فوائدة الآية الكريمة:** بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا همَّ لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شُحًّا وطمعًا في الدنيا، وغفلةً عن الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ»[1]. وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون، لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن.



قال الله تعالى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

التفسير

أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم فيه من الفزع.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٤).

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾. أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهليهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحدًا، وهذا يدل على أن الأمم الذي أخذهم أمرٌ عظيم، وهو كذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. قال المؤلف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة]. قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، النفخ في الصور يذكره الله عز وجل دائمًا بالبناء للمجهول (نُفِخَ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل؛ ولهذا تجد قول الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]. أبلغ مما لو بين هذا الذي غشيهم، فالإبهام أحيانًا يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ، مُبهم البيان فعظم هذا الأمر، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وُكِّلَ بالنفخ في الصور هو إسرافيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها، وقد اختلف العلماء – رحمهم الله – في النفخات؛ هل هن ثلاث أو هما اثنتان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاث. النفخة الأولى: فزع، والنفخة الثانية: صعق وموت، والنفخة الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٨]. فذكر اثنتين، وفي سورة النمل قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. ثم ذكر يوم القيامة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا الفزع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث.

ومنهم من قال: إنهما اثنتان.

والظاهر أنهما اثنتان فقط، لكن الأولى منهما فيها فزع وصعق، والثانية فيها بعث، وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلف حيث قال: [النفخة الثانية للبعث].

قووله تعالى: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: الصور قرنٌ عظيم واسع، وورد في الحديث أن سعته كما بين السماء والأرض، يُنْفَخُ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه، وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا تخطؤه على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر أن عشرات الناس دُفنوا في مكانٍ واحد، فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده، هذا تقدير العزيز العليم عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. ﴿فَإِذَا هُم﴾ الفاء عاطفة، و (إذا) حرف دال على المفاجأة، و﴿هُم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾ خبره، و﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. مُتعلقة بـ﴿يَنسِلُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم﴾، أي: بمجرد ما يحصل النفخ لا يحصل وقت بين النفخ في الصور والخروج من القبور، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مُسرعين، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، الضمير في ﴿هُم﴾. قال المؤلف: [أي: المقبورون]. وعلمنا أن المُراد المقبورين؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ هذا بناء على الأغلب الكثير؛ لأن من الناس من لا يكون في جدث بل يُلقى في اليم، أو يُلقى في الأرض على ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب والأكثر أنهم في القبور، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى صديق، وإنما ينسلون إلى الله عز وجل، والنسلان معناه: السير بسرعة، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦]. أي: يخرجون بسرعة.

الفوائد:

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ - أن النفخ في الصور إذا وقع لم يستطع أحد أن يتكلم ولا أن يتزحزح من مكانه؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكلام، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. أي: لا يتزحزحون من مكانهم.

٢ - **ومن فوائدها:** قوة هذه الصدمة التي تصيبهم من هذه الصيحة؛ لأن الإنسان إذا قويت الصدمة أعجم على لسانه فصار لا يقدر على التكلم، وكذلك رجلاه تضعف حتى لا يستطيع الوقوف، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في قصة وفاة رسول الله ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر:٣٠]. قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها.

٣ - وكذلك يدل على عظم هذه الصيحة أنهم لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم مع شدة تشوقهم إليهم، لكن لا يستطيعون؛ لأن الأمر أعظم من أن يتمكنوا من ذلك.

٤ - **ومن فوائد الآية الثانية:** إثبات النفخ في الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها. فلو قال قائل: كيف يكون النفخ في الصور؟ قلنا: هذا أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل؛ لأنه غيبي ولم يخبر بكيفيته.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله عز وجل؛ حيث كان مُجرد النفخ يوجب أن يخرج الناس جميعًا من قبورهم مُسرعين.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث وأنه حياة حقيقية؛ لقوله تعالى:

﴿يَنسِلُونَ﴾؛ لأن الإسراع لا يكون إلا بحياة حقيقية.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس يُسرعون إلى مكان مُعين ينزل الله تعالى فيه للفصل بين عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** الإشارة إلى الأجداث التي جعلها الله تعالى منازل للأموات، فامتن الله عز وجل بها على عباده، كما امتن عليهم بالقصور في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:٢٥،٢٦]. فكما أن الله عز وجل منَّ علينا بهذه القصور نستتر بها ونقضي بها حوائجنا ونكون مع أهلنا فكذلك منَّ علينا سبحانه وتعالى بالقبور التي يستتر بها الإنسان عن الرؤية، ويحتمي بها عن الوحوش إلى غير ذلك مما تتضمنه هذه النعمة.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الربوبية العامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. فهذه عامة لكل من يخرج من الأجداث، وقد مرَّ علينا أن الربوبية تنقسم إلى قسمين عامة وخاصة.



قال الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

التفسير

قال المؤلف رحمه الله: [يا للتنبيه، ﴿ويلنا﴾. هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؛ لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يُعذبوا].

قوله - رحمه الله - يا للتنبيه. بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبيه.

ولكن لو قيل: إن (يا) للنداء، بدليل أنها عملت فيما بعدها؛ لأن ﴿ويلنا﴾ منصوب بياء النداء، كأنه قال: يا ويلنا أحضر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٦]. ونظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾.

والويل هو الهلاك، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مُفرد من لفظها، كإبل ليس لها مفرد من لفظها، وتكون بعض الأفعال ليس له مصدر مثل (يذروا) فإن أكثر النحويين يقولون: إنه ليس لها مصدر. وبعضهم يقول: لها مصدر وهو الوذر. وقوله تعالى: ﴿مَنۢ﴾ للاستفهام التعجبي، أي: ما الذي أخرجنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ والمرقد مكان الرقادة، والمُراد بها القبور، أي: من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها. واختلف العلماء في

هذا: هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يُشاهدونه في القيامة كأنه رقود؛ لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هيِّنًا؟

القول الأخير هو الأصح، وهو الذي مشى عليه ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره؛ لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون بين النفختين؛ كما ذكره المؤلف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يُعذبوا]. وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتألم بعض التألم، فها هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلامًا مُزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يُقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال المؤلف: [﴿هذا﴾ أي: البعث، ﴿ما﴾ أي: الذي، ﴿وعد﴾ به ﴿الرحمن وصدق﴾ فيه ﴿المرسلون﴾، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل: يُقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيُقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وهذه الجملة قيل: إنها تُقال جوابًا لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم فيقرون إذا شاهدوا، فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. والآية مُحتملة: يُحتمل أنهم يقولون ذلك، ويُحتمل أنه يُقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠ - ٢١]. فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء، وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تُكذبون. فآية الصافات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادرًا منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس ببعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. ﴿هذا﴾ المشار إليه البعث، ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ما اسم موصول والصلة قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقدر المؤلف العائد بقوله: [به]. والمعروف أن العائد المجرور لا يُحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقًا لعامل المحذوف لفظًا ومعنىً، هذا هو المعروف عند النحويين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس عامل الموصول، وأو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: وحذف ما يُعلم جائز. أنها عامة لكل شيء وليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل المختصة به، التي لا تطلق على غيره، فلا يُسمى أحد ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال «الرحمن» يعني: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم: الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ولم يقل: (ما وعد الله)؛ لأن رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجليًا أكثر منها في الدنيا، فإن لله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة، التسعة والتسعون الباقية، والرحمة الأولى، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم، وما دل عليه من الصفة، والأثر المترتب على ذلك، ويجوز أن نقول والحكم، فهنا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسمه، والرحمة صفته، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى، وهو أثر الرحمة قال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يُبعث فيه الناس، فيجزي فيه المُحسن بإحسانه، والمُسيء بإساءته، ومُجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب، فالصدق من المتكلم، يُقال: صَدَقَ، ويُقال: صَدَّقَ بمعنى أخبر بالصدق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آلعمران:١٥٢]. وصدق القائل، أي: أقر بقوله واعترف به، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر:٣٣]. فهو صادق وصدق والله أعلم.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة:

١ - في هذه الآية دليل على شدة حسرة المُكذبين الذين يُكذبون بالبعث، إذا بُعثوا يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، ودليل ذلك قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾، وهذه الكلمة دعاء بالثبور والحسرة على مَن نطق بها.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن عذاب البرزخ بالنسبة إلى عذاب الآخرة هيِّن، حتى إنه مثل النوم عند النائم.

٣ - **ومن فوائدها:** أن البقاء في القبور ما هو إلا كنوم النائم، ثم يستيقظ ويُغادر المكان لقوله تعالى: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** توبيخ هؤلاء المُكذبين حين يُقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى صادق الوعد لا يُخلفه؛ وذلك لأن إخلاف

الموعد يكون لأحد أمرين: إما الكذب، وإما العجز، وكلاهما مُنتفيان عن الله عز وجل فلا كذب في وعده، ولا عجز عن تنفيذه؛ ولهذا فهو عز وجل لا يُخلف الميعاد لكمال صدقه وقدرته.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما يُخبِرُون به عن الله سبحانه وتعالى وعن غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية:** أن المشركين يقرون إذا شاهدوا الحق، بأن ما وعد الله تعالى به فسَيَقع بناءً على أن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ من كلامهم، والإقرار بالحق بعد مُشاهدته لا ينفع؛ لأن الإقرار بالحق إذا لم يكن غيبًا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالغيب، بل يكون مؤمنًا بالشهادة.

فإن قلت: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فهنا أنكروا الشرك مع أنهم كانوا مُشركين، بل إنهم يُقرون بشركهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. فكيف الجمع؟

الجمع بينهما أنه يُقال: إن يوم القيامة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة، فهم يتقلبون أحيانًا يُقرون بكل ما عملوا، وأحيانًا يُنكرون، إذا رأوا نجاة المؤمن قالوا: ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ لعلهم ينجون كما نجا غيرهم، ولكن يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم، وحينئذٍ يُقرون ولا يكتمون الله حديثًا، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

التفسير

الفوائد:

١ - في هذه الآية دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه يُصاح بأصحاب القبور صيحة واحدة، فيخرجون جميعًا لا يتخلف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء لا يعيد الأمر مرة ثانية، بل كون الشيء بأول أمر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. والذي يعيد الأمر والكلام هو العاجز، وأما القادر فلا يُعيده.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** الإشارة إلى أن الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. أي: عندنا، والعند يدل على القرب، وقد ثبت بالنصوص أن الله عز وجل ينزل للقضاء بين عباده فيقضي بينهم.



قال الله تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤].

التفسير

(اليوم) أي: يوم القيامة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، فـ (ال) هنا للعهد الحضوري، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: لا تنقص، والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكلا الأمرين مُنتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. أي: لا يخاف هضمًا من حقه من الحسنات، ولا ظلمًا بزيادة السيئات، يقول: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، (نَفْسٌ) نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: لا تُكافؤون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المؤلف رحمه الله: [لا تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون]. إنما قدَّر – رحمه الله – (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس الفعل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيامة هو الجزاء؛ ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]. أي: لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيامة، والذي في يوم القيامة هو الجزاء؛ فلهذا قدر المؤلف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا: أفلا يكون مُنتقدًا؛ لأنه كالاستدراك على كلام الله عز وجل؟

فالجواب على هذا أن يُقال: ليس بمنتقد، وليس مقتضاه الاستدراك على كلام الله؛ لأن المؤلف أراد أن يُفسر المعنى المُراد، ولم يُرد أن في الكلام نقصًا، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يُعلم من السياق، وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف.

فإذا قال قائل: إن هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيء من الركاكة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فالجواب: نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسدُّ؛ لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيُجزاه يوم القيامة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف – رحمه الله؛ لأن

جعل العمل هو الذي يُجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قررناه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: هذا في الدنيا،و ﴿تَعْمَلُونَ﴾. خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد محذوف، أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويُطلق على القول، ويُطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى الشيء، والاطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى الشيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا إذا أطلق العمل، أما إذا قيل: عمل وقول، أو قيل: اعتقاد وعمل، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح، وهذا يكون كثيرًا في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملًا، وإذا قرن بغيره صار خاصًّا؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم، والتقسيم لا بد فيه من مقسم، والمقسم يكون كل قسيم منه ضد القسيم الآخر، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب، والجوارح، واللسان الذي هو القول؛ لأن هذا كله يُجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هل يشمل العمل الكفُّ، أي: إذا ترك الإنسان المعصية، هل يُقال: إن هذا عمل يُجزى عليه؟

الجواب: نعم، يُقال إنه عمل يُجزى عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»(1)؛ لأنه تركها لله، فما وجه كون الترك عملًا؟ فالجواب: لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل، وحينئذٍ نقول كلمة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ تشمل أربعة أشياء هي: عمل القلب، واللسان، والجوارح، والترك. ويُجزى عليها الإنسان.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** انتفاء الظلم مُطلقًا في يوم القيامة؛ لأنه يوم العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان لا يُظلم لا بقليل ولا بكثير؛ لأن ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النفي فتكون للعموم.

فإذا قال قائل: في غير هذا اليوم هل يظلم أحد؟

فالجواب: لا يُظلم، لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع؛ لأن هذا اليوم هو يوم الجزاء، فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو الجزاء ليس فيه ظلم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيُستفاد منه:

٤ - ومنها كمال عدل الله عز وجل. وهذه فائدة مُتفرعة على الفائدة التي قبلها.

فإن قال قائل: أليس الإنسان العامل الحسنة يُجزى بعشر حسنات؟

فالجواب: بلى، ولكن هذا من الجزاء الذي وعد الله به، فلا يكون مُنافيًا لظاهر الآية؛ لأن الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عشر أمثالها، فتكون داخلةً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز التعبير بالسبب عن المُسبب؛ لأن العمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسبب عن المُسبب.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس:٥٥].

التفسير

لما ذكر الله عز وجل أن ذلك اليوم يُجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سببًا لدخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾. ﴿أصحاب﴾. جمع صحب، وصحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو الملازم لمصحوبه، ولا يُسمى الشيء صاحبًا للشيء إلا بعد المُلازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئًا واحدًا استثناه العلماء وهو صحابة رسول الله ﷺ، فإن صحبته تثبت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل مَن اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمنًا به ومات على ذلك فهو صحابي له، وقوله ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبستان الكثير الأشجار، وسُمي بذلك لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر؛ لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستتار، ومنه سُمي الجنين؛ لاستتاره في بطن أمه، وسُمي الجن؛ لاستتارهم عن الأعين، وسُميت الجُنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجَنَّة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسُمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعًا هي: الدار التي أعدَّها الله سبحانه وتعالى للمتقين، وفيهاما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل

عمران:١٣٣].

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافزًا للعمل لها، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة، و(ال) هنا للعهد الذكري؛ لأن سبق ذكره و(ال) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزَّمل: ١٥ - ١٦]. فإذا كان مدخول (ال) سبق ذكره فهي للعهد الذكري.وقوله: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ الجار والمجرور وهو خبر ﴿إِنَّ﴾، ﴿فِى شُغُلٍ﴾. يقول المؤلف: [بسكون الغين وضمها]. شغْل وشغُل، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف – رحمه الله – من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاهما قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرِيء. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ و﴿شُغْلٍ﴾.

وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟

الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة؛ لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ، ونحن إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأَوْلى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه، إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك؛ لأنك إذا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله عز وجل، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا.

قال المؤلف رحمه الله: [في «شغل» بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به]. إذًا هم منشغلون عما فيه أهل النار، ولو أن المؤلف جعلها مُطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر؛ لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهم، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]. أي: لا يبغون تحولًا أو نزولًا عما هم فيه، بل ولا صعودًا، حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيمًا، فالأَوْلى أن نُطلق ونقول: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي: أنهم مشتغلون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظر أحدهم نعيمًا أرقى مما هو فيه، بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبدًا، قال المؤلف: [كافتضاض الأبكار]. والكاف للتشبيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مَثَّل المؤلف بذلك لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾. قال المؤلف: [كافتضاض الأبكار لا شغل يتعبون فيه؛ لأن الجنة لا نصب فيها]. أي: لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلًا يتعبون فيه، ولكنه

شغل يستريحون فيه؛ لأنه شغل فيما يسر وفيما يحصل به التنعم.

قوله تعالى: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾، قال المؤلف: [ناعمون خبر ثان، لـ (إن)، والأول ﴿فِى شُغُلٍ﴾]. أي قوله: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾. خبر ثان لـ (إن)، والخبر الأول هو ﴿فِى شُغُلٍ﴾ الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤ - ١٦]. فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مُستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلًا إذا قلت: هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى كلمة واحدة وهي: مُز. أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مُستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المؤلف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخًا كما في الآية، أم غير منسوخ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم هم أصحاب الجنة، وقسم هم أصحاب النار، أصحاب الجنة جزاؤهم قول الله: ﴿شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾.

٢ - **ويُستفاد من قوله:** ﴿فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ كمال النعيم؛ لأنه كل ما كمل النعيم كمل التفكه بهذه النعمة التي يتنعم بها الإنسان.



قال الله تعالى:

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٦].

التفسير

﴿هم﴾ أي: أصحاب الجنة ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ جمع زوج، وتُطلق على الذكر والأنثى، فيُقال: هذا زوج فلانة، ويُقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق - وإن كان لغة ضعيفة - في باب الفرائض فيُقال: زوجة للأنثى، ويُقال: زوج للرجل، لئلا يُشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحى حذف التاء من زوج، سواء كان للأنثى أو الذكر، وقوله: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيرًا، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم، أو تسخن الجو، وإنما هي أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف؛ لأن ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾. قال المؤلف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها]. ﴿الأرائك﴾ جمع الأريكة وهي السرير في

الحجلة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، وهي بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيما نعرفه بيننا، فالدار مثلًا تشمل حُجُرًا كثيرة مُتعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها.

قوله: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾. قال المؤلف: [خبر ثانٍ مُتعلق على]. أي: على الأرائك مُتعلقة بمتكئون، وعلى كلام المؤلف يكون المبتدأ (هم)، و(في ظلال) خبر، و(متكئون) خبر ثان، فالجملة على كلامه واحدة لكنها مُتعددة الخبر: (هم في ظلال متكئون). و ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلقة بمتكئون، ومناسبة تقديمها على عاملها: مراعاة فواصل الآيات، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفواصل حتى وإن أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]. فقدم هارون على موسى، مع أن موسى أفضل، مُراعاة للفواصل؛ لأن الفواصل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء، والقرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المؤلف، ولنا رأي ثانٍ في الإعراب، وهو أن تكون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خبر مقدم، و ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان: جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ﴾، والثانية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون متكئين على الأرائك مع الزوجات، أو بدون زوجاتهم، وعلى كلام المؤلف - رحمه الله - يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن لأهل الجنة زوجات؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ﴾. وقد وصف الله هؤلاء الزوجات بصفات كثيرة، فقال عز وجل في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]. وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]. فقاصرات الطرف يعني أنها تقصر طرفها على زوجها لا تنظر إلى غيره؛ لأنها ترى أن زوجها أكمل الأزواج فلا يمتد نظرها إلى غيره، وهي أيضًا قاصرات لطرف زوجها عليها، فزوجها لا يمتد بصره إلى غيرها، فكل منهما راضٍ بصاحبه، وهن أيضًا ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيرات الطباع، حسان الوجوه والأجسام، وصفاتهن كثيرة في القرآن الكريم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن الجنة ليس فيها شمس؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** كمال راحة أهل الجنة؛ لقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾. فإن المُتكيء عادةً يكون مستريحًا مُطمئنًا، وكلما اطمأن الإنسان ازدادت راحته، والاتكاء على الأرائك لا شك أنه دليل على راحة البال وعدم الانشغال.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لأهل الجنة فيها الفاكهة وهي كل ما يتفكه به، وقد ذكرنا أن جميع طعامهم فاكهة يتفكهون بها.

٥ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن لأهل الجنة كل ما يتمنونه، بل يعطون أكثر مما يتمنون، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٦ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن الكريم مثاني، تُثنى فيه المعاني، فيذكر الشيء ويُذكر ضده؛ لأنه لو ذكر ما يكون به الرجاء دون ما يكون فيه الخوف، لغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، ووقع الإنسان في الأمن من مكر الله، ولو ذكر فيه جانب الخوف دون جانب الرجاء، لوقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، فكان الله عز وجل إذا ذكر النعيم ذكر ضده، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وهكذا، وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر:٢٣]. يعني أنه تُثنى فيه المعاني؛ حتى يكون اليُسر لله تعالى على الوجه المطلوب.



قال الله تعالى:

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧].

التفسير

أي: لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾، أي: الجنة. ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ أي: ما يتفكهون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة؛ لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحيانًا تفكهًا، وأحيانًا للحاجة، وأحيانًا للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة؛ ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحًا مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

فإذا قال قائل: إذا جعلت الفاكهة اسمًا لكل ما يأكلون؛ لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيب عن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. والأصل في العطف أن يكون للمغايرة، والنخل والرمان يؤكلان.

فالجواب: يعلم مما ذكرنا آنفًا، وهو أن الشيء إذا أفرد صار له معنىً عامًّا، وإذا قُرن بغيره صار له معنىً خاصًّا مقابلًا لما قرن معه؛ لأن التقسيم يقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة، فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام في اللغة العربية كثير، مثل قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]. والروح هو جبريل عليه

السلام وهو من الملائكة، ثم قال المؤلف: [﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يتمنون]. فكل ما يتمنونه فإنه حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمنون؛ لأن أمنية الإنسان محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يُعطى كل ما يتمنى، بل يُزاد على ما يتمنى.

فإذا قال قائل: هل إذا اشتهى الإنسان الشيء في الجنة يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لا بد من الطلب؟

فالجواب: أن هذا الأمر مُحتمل، يُحتمل أن الإنسان إذا اشتهى شيئًا حصل له، ويحتمل أنه لا بد أن يدعوه، والدعوى بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحدًا من الناس قال: أريد أن أزور فلانًا، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإلا فما دام لم يقم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عز وجل يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١]. فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه - وإن لم تطلبه - يحصل لك.



❁ قال الله تعالى:

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقول خبره]. على أنه منصوب بنزع الخافض؛ لأنه قال: أي: بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و(أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، فإن سُمِع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوبًا، ويُقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك - رحمه الله:

في أن وأنا يطرد ومع أم نلبس كعجبت أن يدم

فالمؤلف مشى على أن ﴿قَوْلًا﴾ منصوب بنزع الخافض، أي: سلام بالقول من ربٍّ رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام، يعني الجنة سلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]. ويجوز أيضًا أن يكون الخبر قوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. أي: سلام بالقول واقع من الله عز وجل، وهذه الوجوه لا يُنافي بعضها بعضًا من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يُسلم عليهم بالقول،

ويقول لأهل الجنة: سلامٌ عليكم، وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. الرب في اللغة العربية يُطلق على عدة معانٍ:

فيُطلق على رب العالمين عز وجل، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المُدبر.

ويُطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا». أي: صاحبها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ المُراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المُدبر، و ﴿رَّحِيمٍ﴾. من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزال مُتصفًا بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله عز وجل يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمة الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال رحيمًا، وأهل السُّنة والجماعة وهم السلف يُفسرون «الرحمة» بمعنى يليق بالله عز وجل. وأهل التحريف يُفسرون «الرحمة» إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان، فيقولون: معنى رحيم، أي:مُحسن، أو مُريد للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. وفسروها بالإرادة؛ لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان مُنفصل عن الله عز وجل وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأنا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئًا، لكن لو سلمنا جدلًا أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** دليل على ما يتمتع به أهل الجنة من السلامة من كل الآفات، ومن الأمراض، ومن الموت، ومن غيره؛ لأن الله تعالى يقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾. وهذا اللفظ الصادر من الله عز وجل ليس دُعاء ولكنه خبر من الله، وإنما يكون مثل هذا دُعاء إذا وقع من المخلوق، أما إذا كان من الخالق فهو خبر، أي: أن الله تعالى يُخبرهم بأنه سيُسلمهم من كل آفة.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات أن الله يقول ويتكلم وهذا حق، وقد اختلف أهل القبلة في كلام الله عز وجل:

فمنهم من قال: يتكلم بحرف وصوت على وجه يليق به، ولا يُشبه صوته أصوات المخلوقين.

ومنهم من قال: إنه لا يتكلم، ولكن يخلق كلامًا ينسبه إليه تشريفًا وتكريمًا.

ومنهم من قال: إنه يتكلم، لكن كلامه ما يقدره في نفسه، وأما ما يُسمع فهو مخلوق.

فالأول مذهب أهل السُّنة والجماعة، والثاني مذهب المُعتزلة ومن وافقهم، والثالث مذهب الأشاعرة، وحقيقة الأمر أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة؛ لأن الكل منهم متفقون على أن ما بين أيدينا من المصحف مخلوق، لكن الجهمية والمعتزلة قالوا: هو كلام الله. وأولئك قالوا: عبارة عن كلام الله. فهم أسوأ منهم في هذه الناحية؛ لأن المعتزلة والجهمية يقولون: إن القرآن كلام الله، كما قال الله عنه كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]. لكن هم يقولون: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾. أي: الكلام الذي هو عبارة عن كلام الله.

والجهمية والمعتزلة أقرب إلى الحقيقة من الأشاعرة، ولكن كل منهم في ضلال مبين.

والصواب أنه كلام الله تكلم به بنفسه، وسمعه منه جبريل – عليه الصلاة والسلام – وألقاه إلى مُحمد ﷺ.

٣ – ومن فوائدها: إثبات الربوبية، وهي هنا فيما يظهر – والله أعلم – من الربوبية الخاصة؛ لأن الذي يُخاطب به من القوم المخلصين، والربوبية كما تقدم، تنقسم إلى قسمين: خاصة، وعامة، فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، فإن جميع الخلق مربوبون لله عز وجل، هو خالقهم ومالكهم، ومدبرهم، ومنها قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. أما الربوبية الخاصة فهي مختصة بعباد الله المُخلصين من عباده المؤمنين من الرسل وأتباعهم، وهي أخص من الأولى؛ لأنها تقتضي عناية خاصة بالمربوب، وتوفيقًا له، وإصلاحًا لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]. فإن موسى وهارون – عليهما الصلاة والسلام – من عباد الله المُخلصين، فكانت الربوبية في حقهما خاصة، ومنه دعاء المؤمنين لله عز وجل بهذا الاسم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:١٦]. فالمراد به الربوبية الخاصة؛ لأن التوسل بالأخص، أخص بالدعاء من التوسل بالأعم، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢]. فالأُولى عامة، والثانية خاصة.

والرب من أسماء الله دل على ذلك قوله ﷺ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»(١). وقوله ﷺ في السواك: «مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»(٢).

٤ – في هذه الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾. وكون (الرحيم) من أسماء الله لا يخفى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩)، والنسائي (١٠٤٥)، وأبو داود (٨٧٦).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٧)، والنسائي (١/ ٥٠)، والبيهقي (١/ ٣٤) كذا قال الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٦٦).

٥ – وفي هذه الآية: إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمة الله؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»[1]. أو قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ». اللهم تغمدنا برحمتك، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن لا أحد يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله برحمته، أي: يُسبغ عليه الرحمة، فحينئذٍ يدخل.



قال الله تعالى:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

التفسير

قال المؤلف – رحمه الله: [ويقول: ﴿امتازوا﴾]. يعني: أن القائل الله عز وجل، وفي الجزم بذلك نظر، فقد يكون الله عز وجل هو الذي يقول للمجرمين: امتازوا، وقد يكون القائل ملك من الملائكة؛ ولهذا لو قال المؤلف: (ويُقال) لكان أَوْلى؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف، أي: إلى النص من الشارع، قوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾. ﴿الْيَوْمَ﴾ المُراد باليوم يوم القيامة، فـ (أل) هنا فيه للعهد الذكري، ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، قال المؤلف: [أي: انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم]. يعني: يُقال يوم القيامة: امتازوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ لأن طريق المجرمين غيرُ طريق الأبرار، فالأبرار طريقهم إلى الجنة، وهؤلاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يُقال لهم: ﴿وَامْتَازُوا﴾ على سبيل التوبيخ والإهانة؛ لأنك إذا رأيت مُجتمعًا فقلت مثلًا: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابتعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المُذنبون امتازوا عن المؤمنين المُطيعين.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** أن المجرمين يُهانون يوم القيامة؛ بحيث يُميَّزون من المؤمنين بلفظ الطرد ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾. أي: انفردوا وأبعدوا.

٢ – **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يميِّز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة، كما ميَّز بينهم في الدنيا، فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٨١٦).

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسب لهذا العمل، فهنا لما أُمروا بالانصراف وطُردوا ناسب أن يذكر سبب ذلك، حيث قال: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. كأنه قال: (امتازوا لإجرامكم)، ولا شك أن ذكر سبب الحكم يزيل الشُّبهة واللبس والاعتراض، وينبني على هذه الفائدة:

أن تعليق الحكم بوصف يدل على أن هذا الوصف هو عِلَّة ذلك الحكم، فإذا قلت مثلًا: أكرم المجتهد من الطلبة، فهنا علق الإكرام بالاجتهاد، وهذا يفيد أن علة الإكرام هو الاجتهاد، فهذه القاعدة مفيدة لطالب العلم، وهي أن تعليق الحكم بوصف يدل على عليته، أي: أنه علة ذلك الحكم.

٤ - حذفت ياء النداء من قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. فلماذا؟ يمكن أن يقول علماء البلاغة: إنها حذفت من باب الإهانة لهم حتى لا يُطيل الكلام؛ لأن طول الكلام مع المُخاطب من باب التبسط إليه والانشراح لمخاطبته، فإذا أُخْتُصِر فهو نوع من الإهانة، وليس هذا على إطلاقه، بل هذا على حسب السياق، قد يكون من الإكرام أن تختصر الكلام، وقد يكون من الإكرام أن تبسط الكلام، لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضي أن اختصار الكلام وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.



قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

التَّفْسِيرُ

قال المؤلف - رحمه الله: [آمركم ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ على لسان رسلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطيعوه، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ العداوةِ، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾: وحدوني وأطيعوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾. طريق ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؟ الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام للتقرير مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١]. فهذا للتقرير، فقوله: ﴿ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ للتقرير، وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٧١] للتقرير، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦] للتقرير، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أداة الاستفهام فإن

الاستفهام يكون فيه غالبًا للتقرير، فهنا يُقرر الله عز وجل أنه عهد إليهم؛ ولهذا يصح أن تحول – في غير القرآن – إلى فعل ماض، فيُقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المُراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المُراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبيخًا لهم، وإقامة للحجة عليهم؛ لأن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسره المؤلف أنه الأمر، فقال: [آمركم]. ولكنه في الحقيقة أبلغ من الأمر؛ لأن العهد إليه كأنه مُتضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾. تشمل الذَكَر والأنثى، وإن كان الابن يُقال في الأصل للذكر، والبنون تُقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يُراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء – رحمهم الله – قالوا: إذا وقف على بني تميم، شمل ذكورهم وإناثهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكور فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإناث، وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾. فسر المؤلف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١]. قال عدي بن حاتم ﷺ: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم . يعني: لسنا نُصلي، أو نركع، أو نسجد لهم، قال: «أَوَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ»[(١)] قال: نعم. قالﷺ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[(١)]. وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾. هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان، ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾. فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى رأسهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان وقوله: ﴿عَدُوّٞ﴾ العدو ضد الوليِّ، والوليُّ مَنْ يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾. قال المؤلف: [بيِّن العداوة]. ففسر ﴿مبين﴾ ببين؛ لأنها من (أبان)، و(أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي مُتعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

أن نقول: إنها من المتعدي، أو اللازم، إلا بقرينة من السياق، فهنا نقول: ﴿مُبين﴾ إذا فسرناها بما فسرها المؤلف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدي، ونقول ﴿مبين﴾ مُظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يُغْرِ الناسَ؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]. إذن فجعل ﴿مبين﴾ هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾. فـ ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾. ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾. هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾. (أن) هنا مصدرية، ويصح أن تكون مفسِّرة؛ لأن أعهد متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]. قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾.أي: أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللوا لي بالطاعة، والمؤلف قال: [وحدوني وأطيعوني]. وهذا المعنى صحيح، فالعبادة توحيد الله عز وجل بالطاعة، والتذلل له بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

قوله: ﴿هَٰذَا﴾. المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة، ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾. الصراط فسره المؤلف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مُطلق الطريق صراطًا، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصَّرط أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاع الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقًا ذا سرعة إلا إذا كان واسعًا وكان سهلًا، وأما قوله: ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾. فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضًا انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يمينًا وشمالًا، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفعات ومنخفضات فليس بمستقيم؛ لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خالٍ من الانحراف يمينًا وشمالًا، وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه، وقوله: ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾. أي: إلى الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه، فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞﴾ [الفاتحة:٦ - ٧]. فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى:٥٢ - ٥٣].

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل على مكة، وتقول: هذا طريق فلان - إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم - أو هو الذي

سلكه ومشى عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعذار من نفسه، أي: يحب أن يُقيم العذر لنفسه؛ لتقوم الحُجة على خلقه لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾. فإن مَن عهد إلينا أن لا نعبد الشيطان وأن نعبده وحده، قد أقام علينا الحُجة، وأقام العذر لنفسه، وهذا كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٢ - **من فوائدها:** إثبات رحمة الله عز وجل بالخلق؛ حيث لم يجعل إخلاصهم له موكولًا إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على ألسنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأن الله لو جعل الإخلاص موكولًا إلى العقول لاختلفت العقول في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل الله عز وجل ذلك مما تكفل به هو نفسه لعباده، ففيه إثبات رحمة الله عز وجل بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي التصفية قبل التحلية؛ أو يُقال التخلية قبل التحيلة؛ لأنه قال: ﴿لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾. وهذا تخلية، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ تحلية، يعني نفي وإثبات، وهذا هو التوحيد، فالتوحيد مبني على نفي وإثبات؛ لأن النفي المُجرد تعطيل محض وعدم، والإثبات المُجرد لا يمنع المشاركة، فلا يتم التوحيد إلا بنفي وإثبات، ولهذا لو قلت: لا قائم في البيت. فهذا نفي مُجرد معناه العدم، وإذا قلت: زيدٌ قائم في البيت. فهذا إثبات مُجرد لا يمنع المشاركة، أي: قد يكون رجل آخر في البيت قائم، فإذا قلت: لا قائم في البيت إلا زيد. فحينئذٍ تحقق الانفراد وتحقق التوحيد، وصار لا يوجد قائم في البيت إلا زيد، إذًا التوحيد لا بد فيه من هذين الأمرين: النفي والإثبات، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولًا بالنفي ليرد الإثبات فيه؛ ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزُّخرُف:٢٦ -٢٧]. فتبرأ أولًا من كل معبود، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن طاعة الشيطان في معصية الله - ولا تكون طاعة الشيطان إلا في معصية الله - نوع من العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾. لأن الطاعة فيها نوع من التذلل، والعبادة هي التذلل، فمن أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.

٥ - **ومن فوائدها:** أن العبادة لا تختص بالركوع والسجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، بل هي عامة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمال التذلل.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الحذر من طاعة الشيطان، حيث سمى الله تعالى طاعته عبادة، وكل إنسان يحذر من أن يعبد مع الله غيره، ففيه التحذير من طاعة الشيطان في

معصية الله عز وجل.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** قوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)﴾. فيه وجوب عبادة الله وحده لقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾. والعبادة تُطلق على معنيين:

أحدهما: التعبد.

الثاني: المتعبَّد به.

التعبد يعني: التذلل لله عز وجل، وهي بهذا المعنى فعل العبد يعني صلاته وزكاته، وقيامه، وحجه، وما أشبه ذلك، وتطلق العبادة على المتعبَّد به وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، القلبية والجوارحية.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الصراط المستقيم هو التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. ﴿هَذَا﴾ أي تَرْكِ عبادة الشيطان والالتزام بعبادة الله ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق مستقيم لا عِوَج فيه، وإنما كان كذلك؛ لأنه موصِّل إلى رضا الله تعالى وجنته، فهو صراطٌ مستقيم.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الصراط قد يكون مستقيمًا وقد يكون معوجًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فكل واحد من البشر له طريق، فإن كان على شرع الله - عز وجل - فهو مستقيم، وإن كان على خلافه فهو معوج.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢].

التفسير

﴿وَلَقَدْ﴾. هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي: القسم المُقَّدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يُقسم الله عز وجل وهو الصادق بالقول بلا قسم؟نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول: ذ الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه؛ لأنه لولا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أُريد إثباته وتحقيقه فإنه يُقسَم عليه.

الوجه الثالث: أن المُقسَم به إذا كان مُصرَّحًا به، فإن الإقسام به يدل على عظمته فإن الله لا يُقسم بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء، مثل قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس:١ ، ٢]. وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمة المُقسم.

قوله: ﴿أَضَلَّ مِنكُمۡ﴾. بمعنى: أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادكم إلى ضلال ليس فيه هُدى ﴿جِبِلًّا﴾، قال المؤلف – رحمه الله: [جِبِلًّا: خلقًا. جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبُلًا بضم الباء]. والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلًا بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقُرِئ، فهي شاذة. إذًا فيها قراءتان سبعيتان: جِبِلًّا، وجُبُلًا، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المؤلف (جُبْلًا) وفيها قراءة رابعة (جِبِلًا) بدون تشديد اللام، ولكن المؤلف – رحمه الله – ليس تفسيره جمعًا للقراءات، إنما يذكر ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره، ولكن لا شك أنه لو ذكرها لكان أحسن؛ لأنه أحيانًا يذكر قراءات متعددة في صفة الحرف كما ذكر القراءات المتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ من التسهيل، والتحقيق، والحذف وما أشبه ذلك، ولكن الإنسان بشر، أحيانًا يغفل ويهمل ما ينبغي أن يذكر، أو يذكر ما لا يحتاج أن يُذكر.

قوله: ﴿جِبِلًّا﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ولا يعني ذلك أن الأكثر لم يضل من قبل الشيطان، بل هو أضلَّ أكثر الخلقَ. لأنه ثبت في الحديث الصحيح أن الله يوم القيامة يقول: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّي وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعِينَ»(١). هؤلاء كلهم في النار من بني آدم وواحد في الجنة، فشق ذلك على الصحابة وعظم ذلك. وقالوا: أينًا ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: «أَبْشِروا فَإِنَّكُمْ فِي أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»(١). وهو كذلك فإن من شاهد الخلق الآن ونحن في جزء يسير من العصور وجد أن تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام: إذًا المُراد بالكثير هنا الأكثر، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾. الهمزة هنا للاستفهام، والمُراد بالاستفهام التوبيخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مُقدرة مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطف ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهمزة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهمزة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مُقدر يُفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تُقدر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٢٢٢).

شيئًا، ولا تعلم أي شيء يُناسب، وحينئذٍ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذٍ لا نتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن ما دام المعنى مستقيمًا على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تُعسروا).

قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾. يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم، فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل)، والمُراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعًا؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مُكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يُحسنوا التصرف، فصاروا عُقلاء غير عقلاء، عُقلاء باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاء باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أُعْطُوا ذكاء ولم يُعطَوا عقلًا، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام - رحمه الله - في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاءً، وأوتوا فهومًا، ولم يؤتوا علومًا، وأوتوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون). أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً - نسأل الله العافية - فكان ذكاؤهم حجة عليهم، وأوتوا فهومًا أي: عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلا بد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهؤلاء أوتوا عقولًا تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حُرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحُسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمؤلف - رحمه الله - يقول: [﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ عداوته وإضلاله، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون]. يعني: لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنكال لكنتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولآمنتم بالله وحده، ولكن الهوى غطى الهدى كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فُصِّلَت:١٧].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان عداوة الشيطان لبني آدم؛ حيث أضل منهم جبلًا كثيرًا. أي: خلقًا كثيرًا عظيمًا.

٢ - ومنها: التحذير من الشيطان وإغوائه؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية بني آدم، ولكنه يسعى لإضلالهم.

٣ - ومنها: أن من اتبع الشيطان في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ

تَعۡقِلُونَ﴾.

٤ - ومنها: أن من ساء تصرفه صح أن يُنفى عنه العقل، وإن كان عاقلًا عقلًا ظاهرًا؛ لقوله هنا: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾. وقد مر علينا أن العقل عقلان: عقل هو مناط التكليف وهو عقل الإدراك، وعقل هو مناط المدح والذم، وهو عقل التصرف الذي يكون به الرُّشد.

٥ - ومنها: توبيخ ولوم من تبع الشيطان في إضلاله لكونه غير عاقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [يس:٦٣].

التفسير

قال المؤلف في تقدير الكلام: [ويُقال لهم في الآخرة: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾].

﴿هَٰذِهِۦ﴾ الإشارة هنا إلى قريب؛ لأن إشارة البعيد (تلك) وهنا يقول: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قربها منهم؛ لأنه يؤتَى بها يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تُقاد ويؤتى بها ويُشاهدها الناس، ويلحقهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويُقال لهؤلاء المُجرمين: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. وفي آية أخرى قال الله عزوجل فيها: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور:١٣ : ١٦]. كانوا قبل أن يُدعوا إليها يُقال لهم: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. فإذا دُعوا إليها، والدَّع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفًا منها، ولكنهم يُدفعون دفعًا بقوة - والعياذ بالله - إليها ويُقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. والتكذيب عنف في رد الحق، والدَّع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. أي: توعدون بها ولكنهم يُكذبون كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]. فهم تُوعِّدوا بها لكنهم كَذَّبوا - والعياذ بالله - ويوم القيامة يُوبَّخون على هذا التكذيب ويُقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾. و﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وهنا إشكال وهو: أنه قيل: إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر:

وإني وإن أوعـدته أو وعـدته لمخلـف إيعـادي ومُنجـزُ موعدي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾؟

فنقول: الأمر - كما قال المُفسر - على حذف معلوم، وهو قوله: (بها) أي: توعدون بها، لا توعدونها. لو قال: (توعدونها) لصار للإشكال محل؛ لأن الجنة قال الله فيها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. وقال أيضًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. لكن هؤلاء وُعدوا بها، يعني أنه قيل لهم: إنكم سوف تُلاقونها، وهذا هو الواقع.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات نار جهنم، وأنها تُشاهد عينًا يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ﴾. والإشارة تكون إلى مُشار إليه محسوس.

٢ - **ومنها:** بيان صفة النار وأنها - والعياذ بالله - كلها ظلمة، وكلها سواد؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ لأنها من الجهمة، أي: الظلمة والسواد.

٣ - **ومنها أيضًا:** تقريع هؤلاء، وإظهار خطأهم في تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** صِدْق وعد الله سبحانه وتعالى؛ حيث صدق وعده بما وعد به هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وعدوا به عيانًا.



قال الله تعالى:

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٤].

التفسير

هذا الأمر كوني - إن كان من الله - وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضًا أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، إذ من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يُصْلَوْها، لكن يُقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ (أل) هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد الحضوري، يعني: هذا اليوم (للحاضر) اصلوا النار فيه.

ويتردد علينا كثيرًا العهد الحضوري، والذكري، والذهني، فما الفرق بينها؟

العهد الحضوري: ما كان معهودًا لحضوره، والذكري: ما كان معهودًا لذكره، والذهني: ما كان معهودًا في الأذهان.

مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلًا في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرمك، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]. يعني: الرسول المذكور وليس رسولًا آخر.

قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. أي: تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبكل ما أخبر الله به؛ ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يُقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. لإقامة الحُجة عليهم، وبيان أنهم لم يُظلموا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [المُلك:٨، ٩].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن هؤلاء المُكذبين يُؤمرون أمر إهانة وإذلال؛ ليصلوا النار لقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وإثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، ولا ينكرُ إثباتَ الأسباب إلا جاهل بحقيقة الواقع، فإنه لا أحد يُنكر أنك إذا رميت الزجاجة بحجر انكسرت به، وإذا أُلقيت الخرق في النار احترقت بها، ولا يُنكر هذا إلا شخص مُكابر في الواقع، ومع هذا فالأسباب لا تفعل بذاتها، ولا تؤثر بذاتها بل بخلق الله سبحانه وتعالى التأثير فيها، وحينئذٍ لا يكون في إثبات الأسباب شيء من الشرك، خلافًا لمن زعم أن إثبات تأثير الأسباب نوع من الشرك؛ لأننا نقول: إن هذه الأسباب إنما تؤثر بخلق الله عز وجل التأثير فيها، ولهذا إذا شاء الله أن لا تؤثر لم تؤثر، فإن النار طبيعتها الإحراق ومع ذلك لم تحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت بردًا وسلامًا عليه، لأن الله قال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** كمال عدل الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾أي: فلم تُظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

❁ التفسير ❁

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة. قال المؤلف -رحمه الله-: [﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: الكفار؛ لقولهم: والله ربنا ما كنا مُشركين. وقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وغيرها. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فكل عضو ينطق بما صدر منه]. قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. الختم على الشيء بمعنى: إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: نسدها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرؤا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مُشركين. أي: أقررنا بأننا غير مُشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذٍ يُختم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختم عليها، وتنطق الجوارح بما عملت، والجلود بما مسَّت، فإن الجلد يمس المحرمات كمس المرأة لشهوة مثلًا، فتشهد عليهم الجوارح؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾. فنفس اليد تتكلم تقول: عملت كذا، عملت كذا. ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وكذلك نفس الأرجل تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا. وتأملْ الفرق بين اليد والرجل، في اليد قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾، وفي الأرجل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾. قال بعض العلماء: لأن اليد تُخبر عما فعلت، والرجل تُخبر عما فعل غيرها؛ لأن الأصل في المباشرة اليد؛ ولهذا دائمًا يُعلق الكسب باليد فيُقال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]؛ فلهذا كانت الأيدي مباشرة، والأرجل شاهدة؛ لأن الشاهد هو الذي يُخبر عما فعل غيره، والفاعل هو الذي يُخبر عما فعله هو بنفسه - هكذا قال بعض أهل العلم - وهو فرق لا بأس به، مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]. فإقرار الإنسان على نفسه شهادة عليه، لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء وذكرناه آنفًا فرق لا بأس به.

قال المؤلف: [وتشهد أرجلهم وغيرها]. قوله: (وغيرها) لا يعني ذلك أنه يستدرك على القرآن، لكنه يُنبه على موضع آخر من القرآن، ففي آية أخرى بيَّن الله تعالى أنه تشهد عليهم

الجلود، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ [فُصِّلَت:٢٠ : ٢٢]. فالسمع والبصر والجلود لم تُذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل؛ ولهذا قال المؤلف (وغيرها) إشارةً إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل،وهي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾. فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس، قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾. ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم)؛ لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر؛ ولهذا قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾. لأن العذاب سيكون على الجلود، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦].

والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]. فاللسان أيضًا يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطرًا؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلِى وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1]. وكل صباح تكفر الجوارح اللسان، يعني: أنها تجعل الأمر مُناطًا به، ولهذا قال تعالى في سورة النور: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾. ونص على الألسن في سورة النور؛ لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلًا، وأعظمه قذف عائشة – رضي الله عنها – ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول، فقال: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. تنازعه عاملان: الأول: (وتكلم)، والثاني: (تشهد)، والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيدًا، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيهما يعمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة ... واختار عكسًا غيرهم ذا أصبح

فالعامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ولم يقل: (بما كانوا يعملون)؛ لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأً فلا يؤاخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]. ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت)، فالكسب أخص من العمل؛ لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسبًا، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤاخذ به الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤاخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحيانًا يُطلق العمل ويُراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

يقول المؤلف: [﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فكل عضو ينطق بما صدر منه]. فاليد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله سبحانه وتعالى يختم على أفواه المُكذبين يوم القيامة فلا يتكلمون، وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]. وهو أن للقيامة أحوالًا: حال يكذبون، وحال يُقرُّون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وأرجلهم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾. فإنه خلاف العادة أن تتكلم الأيدي والأرجل، ولكن الله على كل شيءٍ قدير؛ ولهذا لما ذكر الله عنهم أنهم قالوا لجلودهم وأعضائهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان يمكن أن يشهد بعضه على بعض؛ لأن هذا الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، فهل يتفرع على هذا: أن الإنسان في الدنيا يمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم يمكن، وشهادته على نفسه هي إقراره على نفسه.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨]. وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. لأن مجرد العمل قد لا يكون كسبًا كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٦٦].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾. لأعميناهم طمسًا ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ ابتدروا ﴿الصِّرَاطَ﴾ الطريق ذاهبين كعادتهم، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿يُبْصِرُونَ﴾ حينئذٍ؟ أي: لا يُبصرون].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾. (لو) حرف امتناع لامتناع، والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئة، فإذًا هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمته، امتنع المجيء والإكرام، و(لولا) حرف امتناع لوجود، و(لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم، فقولنا: (لو جاء زيد لأكرمتك). امتناع لامتناع، وقولنا: (لولا زيد لأكرمتك) امتناع لوجود، فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمتك). لكي ينطبق المثلان هنا، قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا﴾ (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله عز وجل يُعبر عن نفسه بنحن و(نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذًا فهو مُتعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد؛ لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المُحكمة الدالة على أن الله إله واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]. ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]. إذًا الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعًا؛ لأن الله واحد

قوله: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾. الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالمها نهائيًا، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾. والله عز وجل على كل شيءٍ قدير، فكما كان قادرًا على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشق، وإذا كان البشر ربما يخيط الشق حتى يتلاءم فما بالك بالخالق عز وجل، الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]. وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾. يعني: طمس على أعينهم، فصاروا يتسابقون لعلهم يُدركون الطريق الذي يوصلهم إلى مقصودهم، وكأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحُمُرُ لعلهم يهتدون إلى الطريق، وهل يمكن للأعمى أن يدل الطريق من حيث الدلالة البصرية؟! لا يمكن؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ

﴿يُبْصِرُونَ﴾. يعني: كيف يُبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم؟! والمقصود بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى طمس قلوب هؤلاء، ولو شاء لطمس أعينهم، فصار الطمس حسيًّا معلومًا، وكما أن المطموسة عينه لا يُبصر، فكذلك المطموسة بصيرته لايُبصر الحق، كيف يمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يُبصر الحق ويهتدي؟ هذا شيء مُتعذَّر كما أن مَنْ طمس الله بصره لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** في هذه الآية الكريمة إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾. ولكن كل شيء مُعلق بمشيئة الله فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يشاء مشيئة مُجردة بل مشيئته تابعة لحكمته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]. فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. يدل على أن مشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** بيان تمام قدرة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. فهذه الأعين مُبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة، فإن هؤلاء لو طمست أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل، فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب - والعياذ بالله - لم يستطع الوصول إلى الحق، ولم يعرف الحق.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال بلاغة القرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما استطاعوا أن يذهبوا ولا يرجعوا)، لكن أتى به على هذا السياق الذي فيه توسع؛ لأنه أبلغ في التأثير، ولأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتستلذ بسماعه.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٦٧].

التفسير

وفي الآية السابقة قال تعالى: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾. انتفاء الدلالة، وفي هذه الآية انتفاء السَّيْر. وقوله: ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾. قيل: المراد بالمسخ - كما قال المؤلف: [قردةً وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني: يُمسَخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأيًّا كان فالله على كل شيءٍ قدير، فقد قلب الله تعالى بني إسرائيل قردةً وخنازير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠]. والله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ»[1].

والأمر هين على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾. أي: حولنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير، أو جعلناهم حجارة، أو أننا أبقيناهم ماكثين كالجماد. المهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾. أي: فما استطاعوا أن يمضوا؛ لأنهم مُسخوا على مكانتهم وبقوا ثابتين، ولا يستطيعون أن يرجعوا، والذي لا يستطيع أن يمضي ولا يرجع ثابت، كالعمود لا يتقدم أمامًا ولا يتأخر خلفًا، لو شاء الله عز وجل لمسخهم على هذا حتى ظهر أمرهم محسوسًا، أما بالنسبة للخير والتقدم إليه فهم لم يتقدموا للخير، ولكن تأخروا عنه إلى الشر؛ ولهذا كان سيرهم الذي يسيرون عليه في العمل عكس الاتجاه الصحيح، بل مُضاد له تمامًا.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾. وقد سبق الكلام عن المشيئة، وأنها مقرونة بالحكمة في فوائد الآية السابقة.

٢ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** كمال قدرة الله عز وجل.

٣ – **ومن فوائدها أيضًا:** أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع؛ لقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧).

قال الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

التفسير

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله تعالى: ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾، وجوابه قوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ فمعنى قول الله عز وجل ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أي: نجعل عمره طويلًا؛ ولهذا قال المؤلف – رحمه الله: [بإطالة أجله، (نُنْكِسْهُ) وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]. القراءة التي جعلها المؤلف أصلًا (نُنْكِسْهُ) من الإنكاس، والقراءة التي في المصحف ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من التنكيس، والإنكاس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، أو ﴿نُنْكِسْهُ﴾.وقوله: ﴿فِي الْخَلْقِ﴾، يقول المؤلف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفًا وهرمًا]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعُف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٠]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]. والغرض من هذا التنبيه – وإن كان أمرًا واقعًا وكل يعرفه –أن يُبادر الإنسان عمره ما دام في قوته وشبابه؛ لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية ويكون تفكيره محدودًا كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يُحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدودًا لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضًا يكون حفظه للأشياء محدودًا، فيمر به الشيء في الصباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يُسْلب عقله نهائيًا، وربما يصل إلى حد يُشبه الجنون فيؤذي أهله بالصراخ والعويل والأناشيد وما أشبه ذلك، حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جَمَّالًا مثلًا، وكان يُنشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لا بد منه؛ ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

فكل إنسان عاقل إذا تذكر أن مآله إما موت عاجل، وإما هرم، فإنه لا يطيب له العيش، ولكن العاقل ليس مَعْنَى أنه لا يطيب له العيش أنه يبقى في ندم وفي حزن، بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لا بد منها، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾. قال المؤلف – رحمه الله: [إن القادر على ذلك المعلوم عندهم قادر على البعث فيؤمنون به، وفي قراءة بالتاء]. أي: (أفلا تعقلون)؟ وهي سبعية كما تقدم

من اصطلاح المؤلف. هكذا قال المؤلف رحمه الله: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممكن، لكن أحسن منه أن يُقال: إن معنى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ فتبادرونها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، وغالبًا أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ، أو تجده يُصلي دائمًا، أو تجده يقرأ القرآن دائمًا، أو يذكر الله تعالى دائمًا، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيئ، نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** بيان حال الإنسان وأنه ينتقل من طور إلى طور، وقد بيَّن الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]. لكن هذه الآية فيها دليل على أن الإنسان إذا تقادم في السن فإنه يرجع إلى الوراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾.

٢ – **يتفرع على الفائدة السابقة:** أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فرص العمر وقوته وشبابه قبل أن ينكس في الخلق.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** التنديد بهؤلاء المُكذبين؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحث على التعقل والتفكر وحُسن التصرف؛ حتى يكون الإنسان من العقلاء.

٥ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العقل غير الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكيًا ولكنه ليس بعاقل؛ لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾. ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

التفسير

قال المؤلف – رحمه الله – في تفسيره: [﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: النبي ﴿ٱلشِّعْرَ﴾؛ ردًّا لقولهم: إنما أتى به من القرآن شعرًا، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يسهل ﴿لَهُۥٓ﴾ الشعر، ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة، ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ مظهر للأحكام وغيرها]. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: أين مرجع الضمير؛ لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهومًا عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو مُحمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾، أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المُكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه؛ ولهذا لم يعلم الشعر ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. فالنبي ﷺ لم يقل شعرًا أبدًا، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفوًا، والذي يأتي عفوًا ليس مقصودًا فلا يكون معلومًا، مثل قوله ﷺ:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ».

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شعرًا، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المُقفى الذي يأخذ باللُّب، وسُمي شعرًا لأنه يأخذ بالشعور؛ ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللُّب أكثر من أن يأخذ النثر، فربما تسمع خطبة بليغة جيدة جدًّا، وتجد ما يماثلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور ؛ ولهذا سُمي شعرًا، وبه نعرف أن ما يُسمى الآن بالشعر المنثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بنثر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه مَنْ يطربون إلى النثر والخطب، ولا يطرب إليه مَنْ يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل امريء من دهره ما تعود، والذين أحدثوه يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر امريء القيس.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قال المؤلف: [رد لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعرًا)]. والمكذبون والذين يقومون ضد أي إنسان لا بد أن يَصِفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:٣٢]، وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]. فكل الرسل وُصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومُحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضًا وُصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن يُنفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر؟ وهل نفر الناس؟ أبدًا؛ لأن الحق – والحمد لله – سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

فإذا قال قائل هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام هل يتعدى إلى أتباعه؟

فالجواب: نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطفِّفين:٣٢]. فيصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السُّنة والجماعة بألقاب السوء فيقولون: إنهم نوابت، غُثاء، حشوية، مُجسمة، مُشبهة، وما أشبه ذلك. كل هذا من أجل التنفير عما هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثوابًا لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحانًا لهم بالصبر على ما هم عليه من الحق، ثم العاقبة تكون لهم، وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ يعني: الشعر، قال المؤلف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاءً، وصعب عليه إنشادًا، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنشد شعر غيره ينشده أحيانًا على غير الوزن المعروف؛ لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به؛ لأنه كل ما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾، فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]. أي: مستحيل غاية الاستحالة، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾. يعني هذا شيء مستحيل أن تدرك القمر، هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس، ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي: ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعرًا. فلا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجًا من المُبطلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

سؤال: لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنثر واضح

لدى عامتهم فضلًا عن خواصهم؟

الجواب: المبطل يموِّه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجهٍ جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعايتهم حتى يشتبه الأمر.

سؤال: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعتوا القرآن بالشعر وليس موزونًا ولا مُقفى؟

الجواب: هذا من باب الترويج، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبدًا على مثل شعرهم هذا.

كما أنه ﷺ لو كان يَكتُب لقالوا: إنَّ هذا شيء مما كتبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. قال المؤلف: [ليس الذي أتى به إلا ذكر]. فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي: ما هو إلا ذكر، و(إن) تأتي لعدة معانٍ: تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومخففة من الثقيلة. والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معانٍ مُتعددة أنه يعينها السياق، وقرينة الحال، وهي هنا نافية، قال تعالى: ﴿هو﴾ الضمير يعود على المصدر المفهوم من ﴿علمناه﴾، وكون مرجع الضمير مصدرًا معلومًا من الفعل السابق أمر لا يُستغرب، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ﴿هو﴾ أي: العدل المفهوم من كلمة: (اعدلوا)، وهنا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين. وقوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: [عظة]. يعني: موعظة يتذكر بها من تذكر، والذي يتذكر بهذا القرآن بيَّنه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ﴾ [ق:٣٧]. وهذا باعتبار الاستعداد والقبول، وجاء في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة «ق» بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل، وكلما ازداد الإنسان عملًا بالقرآن ازداد تذكرًا به، وهذا الذي ذكره المؤلف - رحمه الله - في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معانٍ:

المعنى الأول: ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكر به.

المعنى الثاني: إنه ذكر يُذكَر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله عز وجل، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته عز وجل؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدُن حكيمٍ خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها

لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذِكْر لله عز وجل؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بيَّنها الله تعالى في كتابه.

المعنى الثالث: أنه رِفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]. والذكر بمعنى: الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشَّرح:٤]. أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق؛ ولهذا فإني أحثكم على أن تتمسكوا بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدةً، وعملًا، وهديًا فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون – لو كنتم قليلين – فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمُهتدي به حتى يكثروا شيئًا فشيئًا، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارئ ومقروء، أما كونه قارئًا؛ فلأنه من القَرِّ يعني: الجمع، فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والآداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]. وجامع أيضًا لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضًا مقروء أي: متلوّ؛ لأنه يُتلى، والقراءة بمعنى التلاوة.

قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾. قال المؤلف – رحمه الله – [مُظهر للأحكام وغيرها]. فـ ﴿مبين﴾ هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مرارًا أن (أبان) يكون لازمًا، ويكون متعديًا، يكون لازمًا بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. أي: بيِّن ظاهر، وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: ﴿مُّبِينٌ﴾، أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]. فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وُجِدَ في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجهٍ صريح، أو على وجهٍ ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارةً يذكر الدليل على المسألة، وتارةً يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلًا: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير أنصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها

لكن في القرآن ما يشير إليها مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]. فهذه الآية إذا وجهتها إلى السُّنة شملت جميع السنة، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسُّنة.

إذًا فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضًا مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المُكذبين للرسل وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يُذكر موكولًا إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجيولوجية، أو غير ذلك فنجد أن القرآن لم يفصلها ولم يبينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يُدركوها؛ ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجهٍ صريح، ولو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثباتًا أو نفيًا لكان الله عز وجل يُبينه بيانًا واضحًا، كما بين الأمور التي لا بد لنا من الاعتقاد فيها على وجهٍ صريح، إذًا هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يُطَّلع عليها إلا أخيرًا هذه أيضًا لم تُذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنها لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤]، وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: إنها ملايين القطع. فلن يخرج عن دلالتها، هذه القطع لولا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله: ﴿قطعٌ متجاورات﴾. إذًا هي متباينة. وفي هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض؛ لأن الله بَيَّنَ أنها قطع، وليست القطع التي فوق التراب فقط، ففيه أشياء كثيرة ما تُعلم وربما تُعلم في المستقبل، وربما بعضها عُلم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرةً ثانية إلا ظهر لك معنى جديدًا غير الأول، ولا يمكن لأحدٍ أن يُحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالبًا للحق، مُريدًا للصواب فإنه يهتدي إلى معانٍ كثيرة.

سُئل علي بن أبي طالب ﷺ: هل عَهِدَ إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ لأنه كان يُرَوَّج في ذلك الوقت: من وقت علي والشيعة يروجون بأن النبي ﷺ عهِدَ بالخلافة لعلي بن أبي طالب ﷺ، فسُئل: هل عَهِدَ إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتمها عن الناس؟ فقال: لا والذي برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى مَن شاء في كتابه، وما في

هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر[(١)].

الشاهد قوله ﷺ: (إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من كتابه). وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافًا كثيرًا جدًّا جدًّا، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يَستخرج منها فوائد محدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافًا مُضاعفة بالنسبة لما استخرجه الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا وتقوى ازداد هدىً بالقرآن؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** في هذه الآية رد وتكذيب للمشركين الذين قالوا: إن مُحمدًا ﷺ شاعر؛ حيث قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يصلح ولا يليق برسول الله ﷺ أن يكون شاعرًا؛ لأن مقام النبوة أسمى وأعلى من أن ينحط الإنسان إلى رُتبة الشعراء.

وقد يُقال: إن فيها مُلاحظة البُعد عن الشبه، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يبتعد عن كل ما يوجب الشُبهة حوله، ويؤيد هذا أن النبي ﷺ لما كان يمشي مع صفية - رضي الله عنها - فمر به رجلان فأسرعا، فقال: «عَلَى رِسْلِكُمَا فَإِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»[(٢)]. وهذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يقول: ما دمت نزيهًا فلا يهمني أن يُسيء الناس الظن بي. وهذا ليس بصحيح، وليس من حُسن الرعاية لنفسه أن ينزل بها إلى هذا الحد، بل الإنسان مأمور أن يدفع عن نفسه الشبهات واللوم والظن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن العظيم الذي علمه رسول الله ﷺ ذكر، وقد تقدم في التفسير أنه ذكر من ثلاثة أوجه.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه كلما تمسك المسلمون بهذا الكتاب العزيز فإنهم يزدادون عزةً وشرفًا؛ لأن المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن مبين لكل شيء، فكل شيء يحتاج الناس إليه فهو مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١١)، ومسلم (١٣٧٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

قال الله تعالى:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

التفسير

قال المؤلف: [بالياء والتاء]. ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء، الضمير يعود على القرآن، ﴿لتنذر﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المؤلف: [لتنذر به]. فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية؛ وهي: ﴿لتنذر﴾، أما القراءة الأولى ﴿لينذر﴾ فلا تحتاج على هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه مُنذِر، وأن النبي ﷺ مُنذَرٌ به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافًا للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوَّف به، ورغَّب به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾، قال المؤلف: [يعقل ما يُخاطب به وهم المؤمنون]. ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ هل المُراد هنا بالحياة: الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين؛ ولهذا قال ابن كثير - رحمه الله: من كان حيًّا على وجه الأرض. يعني مَنْ كان حيًّا حياةً جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو يُنذر من كان حيًّا، أي: يُنذر كل حي، أو من كان حيًّا حياةً معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يُراد به: مَنْ يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت: ميت الجسم، وميت القلب. أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن؛ لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طُبع على قلبه - والعياذ بالله - فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق، وقوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾. قال المؤلف: [بالعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم كالميتين لا يعقلون ما يُخاطبون به]. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. كان من المتوقع أن يُقال: ويحق القول على من كان ميتًا، أو على الأموات؛ لأن هذا مُقتضى المقابلة، لكن عُدِل عن هذا إلى ذكر الكافرين فقال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمران:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر؛ ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عَدَل الله عز وجل - والله أعلم - عن هذا إلى قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. دون قوله: «ويحق القول على الميتين»، بل قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ومن الأمثلة على هذا - وهو كثير بالقرآن - قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر:٢٠]. لم يقل: (يقضون بالباطل)، بل قال: ﴿لا يقضون بشيء﴾. ليشمل الباطل وغير الباطل، يعني: ليس لهم قضاء إطلاقًا؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم لا يَنتفع به وينتذر إلا من كان حيًّا، أي حي القلب.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من كان ميت القلب - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بالقرآن.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القرآن الكريم حُجة على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. لأنه لن يحق عليهم القول إلا بعد أن تقوم عليهم الحُجة، ويكون كفرهم عن عناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافر لا ينتفع بالقرآن وإنما يكون حُجة عليه، وهكذا كل من كان فيه خصلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتذاره به.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات العلة، وإن شئت فقل: الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾. اللام فكلما رأيت التعليل في كتاب الله عز وجل فهو مُثبت للحكمة في أفعاله تعالى ومشروعاته.



قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١].

التفسير

﴿أَوَلَمْ﴾؟ الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أداة النفي حرفًا مثل: (لم)، أو فعلًا مثل: (ليس)، فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مُقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المؤلف: [﴿يَرَوْا﴾: يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤية العلم، ويمكن أن يُراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد يُنكرهما الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن يُنكر، والحقيقة أنها مُحتملة لهذا وهذا، فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١]. وباعتبار

المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يُشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المؤلف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف]. هل الواو داخلة أو مدخولة؟ المؤلف يقول: (الواو على الهمزة). لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت: سوف يقوم. فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمؤلف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب وهو أن التقدير: (وألم يروا أنا خلقنا لهم)؟ وهذا أحد القولين، فهنا المؤلف – رحمه الله – جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه – رحمه الله – يرى أن في المسألة تقديمًا وتأخيرًا، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وألم يروا).

وقوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ قال المؤلف: [في جملة الناس، ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ عملناه بلا شريك ولا مُعين]. ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: أوجدنا لهم من العدم أنعامًا، والله سبحانه وتعالى مُختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نُجِّرَتْ الخشبة بابًا فقد خلقتها بابًا، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيَّرتها إلى هيئة مُعيَّنة، وهذا نوع من الخلق؛ ولهذا يُقال للمصورين يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم. مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط، ﴿لَهُم﴾ اللام في ﴿لَهُم﴾ للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها.

قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾. أي: مما عملنا. وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى. وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا)، كما قال تعالى في آدم يُخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]. فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليد فقال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. وما أشبهها مما يُضاف فيه الفعل إلى اليد، والمُراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمُراد نفسه، أي: مما عملنا. ولو قلنا: بأنه خلقها بيديه لكانت الأنعام أشرف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. بالجمع فهل الله عز وجل له أكثر من يَدَيْن؟ الجواب: لا، ليس لله أكثر من يَدَيْن، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأنه الأفصح في المُثنى إذا أُضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]. مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المُفيد للجمع – وهنا للتعظيم بلا شك – ناسب الجمع، وأيضًا فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جُمِعَت، وأيضًا فإن هذه الأنعام لا يُحصيها

إلا الله عز وجل فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضًا باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك أنها تفيد إثبات اليد لله عز وجل، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟

قلنا: الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]. ولو كان له أكثر من واحدة لقال: (بل أيديه)؛ لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخلق عز وجل فعطاؤه لا ينفد، ولا يُعَدُّ، وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السُّنة والجماعة.

قوله: ﴿أَنْعَـٰمًا﴾. قال المؤلف: [هي الإبل والبقر والغنم]. كأن المؤلف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١]. ولو قيل: بأن الآية أعم من ذلك؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، وقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾. الفاء مُفرعة على قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾. أي: فعلى كونها خُلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون، وأتى بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار، أي: أن هذا الملك مستمر، وهذا الملك الذي ذكره الله عز وجل يقول فيه المؤلف: [ضابطون]. فهو من ملك التصرف، وليس من الملك الشرعي الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها. أي: أنهم يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** تقرير نعمة الله عز وجل على عباده، بهذه الأنعام؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذه الأنعام ملك لنا ننتفع بها بجميع وجوه الانتفاعات لقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾. فكل وجوه الانتفاعات، فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها؛ لأنها ما دامت لنا، فنحن فيها أحرار إلا ما قام الدليل على منعه. ويتفرع على هذه الفائدة:

أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادة بركوبه، مثل أن نركب البقر؛ ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خُلقت له.

فإن قلت: ما الجواب عن الحديث الصحيح: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ بَقَرَةً يَسُوقُهَا، إِذِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا». قال النبي ﷺ: «فَأَنَا أُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[1].

فالجواب على هذا أن نقول: إن هذا الرجل ركبها ركوبًا يشق عليها، وهي ما خُلقت لتُعذب، وهو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

كذلك حتى لو أن الإنسان ركب الإبل على وجه يُعذبها قلنا له: إنها لم تُخلق لهذا.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. لكن لا يُسمى الله بالعامل، كما لا يُسمى بالصانع أخذًا من قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]. وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشتق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسمًا؛ ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء. أي: باب صفات الله أوسع من باب الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسمًا.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾. وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؛ لأن مُماثَلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلًا وسمعًا، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]. وأما العقل: فإن كل عاقل يُدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، فمثلًا: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويُسميها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، وصفات غير لازمة، ويُسميها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولا يزال خالقًا، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق، فإنه يكون حادثًا بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس؛ لأن الله لم يزل ولا يزال خالقًا. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستوٍ عليه، والذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله عز وجل لا يتجزأ ولا يتبعض، إذ إن الجزء ما جاز وجود أصله بعدمه، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلًا - وحاشا لله عز وجل - أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل؛ ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعاض لله؛ لأن هذا مُنكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقية، ثابتة له على الوجه اللائق به، ولكن لا تُماثِل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتُلي قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصف الله عز وجل باليد الحقيقية، ولا شك أن هذا ضلال

وجناية على النصوص. أما كونه ضلالًا؛ فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق عز وجل يقول عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]. ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]. ويقول: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله، ولولا تأويلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيبًا للنصوص، ونحن نعلم أن المُكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يُرد كذا، وأراد كذا، فنفوا ما أراد الله، وأثبتوا ما لم يُرده، فكان جناية على النصوص من الوجهين: السلبي والإيجابي. السلبي: حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي: حيث أثبتوا ما لم يُرده الله. إذ قال الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]. قالوا: أراد باليدين النعمة أو القوة. نقول - سبحان الله - من الذي أعلمك؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة. من الذي قال لك هذا؟ فنفيك قول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جناية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهودٌ لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله - عز وجل - وأن الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر، وإلا فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقية لائقة به، لا تُماثل أيدي المخلوقين بأي حالٍ من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نُجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]. أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح، (أيد) هنا بمعنى قوة؛ لأن أيدٍ مصدر أد، يئيد، أيدًا، كباع يبيع بيعًا، وكال يكيل كيلًا، ولا يجوز أن نقول هي كقوله تعالى: ﴿أَيْدِينَآ﴾؛ لأن الله لم ينسبها إلى نفسه، فلم يقل: (والسماء بنيناها بأيدينا). وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتعين أن نفسر قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، أي: بقوة. وإذا لم يُضف الله شيئًا إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه. لأنا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكنا نقول على الله بلا علم. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]. اختلف السلف في قوله: ﴿عن ساق﴾، هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه عز وجل؟ فنحن إذا أخذنا بالقاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولا بد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم نكشف عن ساقنا)، بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾. ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في

الصحيحين في حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المُراد به ساق الله؛ فإنه في حديث أبي سعيدٍ الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا(1)، فهنا قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢ - ٤٣]، نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحينئذٍ نقول: إن كلام الله تعالى يُفسَر بكلام الله تعالى، ويُفسَّر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذٍ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المُراد به ساق الله عز وجل، ولكنه نُكِّرَ للتعظيم؛ لأن التنكير قد يُراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة «يس» يقول تعالى فيها: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السُّنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان، وحينئذٍ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٦]، وبين هذه الآية: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾، وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلك:١]. وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهم مُتيسر - ولله الحمد - لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضًا، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضًا، فالخلق مُنسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشرع مُنسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المُضاف يشمل؛ لأنه للعموم؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]. نعم لا تُحصى مع أنه قال: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فهي واحدة، لكن المفرد المضاف يكون للعموم، فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد المضاف وإن كثر، إذًا ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فتدخل، واليدان فإنه تدخل، إذًا لا مُنافاة بين المفرد وبين العدد جمعًا كان أو مُثنى، فقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ اليد مُفرد مُضاف. والضمير مُضاف إليه، والمفرد المضاف يفيد العموم. أي: مُفرد مضاف فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يُطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عُتق الجميع، ما لم يُرد واحدًا.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت بيوته كلها وقفًا ما لم يُرد واحدًا. فالمفرد المضاف يعم.

بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين، والجمع الذي هو (أيدينا) فكيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٢).

الوجه الأول: أن كثيرًا من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١] (إخوة) جمع. مع أن الأم تحجب من الثلث إلى السدس باثنين. وبقول النبي ﷺ: «الاثْنَانِ وَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ» (١) أي: في الصلاة.

ولكن أكثر علماء اللغة – وهو المشهور – يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وحينئذٍ يمكن الجمع.

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إن المُراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ التعظيم، لأن الجمع يدل على التعظيم؛ ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في مقام التعظيم. فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المُراد به الجمع، بل المُراد به التعظيم. فهنا الجمع للتعظيم، وللمناسبة أيضًا؛ لأنه أُضيف إلى ما يُفيد الجمع، فكان الأنسب أن يكون مجموعًا، فهذه المناسبة لفظية، وإرادة التعظيم مناسبة، معنوية. وبهذا يزول الإشكال.

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون: إن لله أيادي كثيرة؟

فالجواب: إن هذا يمنعه المعنى، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر؛ لأنه أبلغ في المدح. فلما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]. فعُلم أنه ليس له إلا يدان اثنتان، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧]، فأثبت القبضة بيد، والسماوات مطويات بيمينه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة؛ ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول في صفة العين: العين وردت مجموعة، ووردت مُفردة، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. فنقول: عين مفرد مضاف فيعم ﴿تجري بأعيننا﴾، وإما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس لله أكثر من عينين اثنتين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبين تمويهاته قال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» (٢). فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن المُراد بالعور هنا العيب، يُريد أن يُثبت أن لله تعالى أعينًا كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾. ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال النبي ﷺ: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى». ولم يقل: (أعور) فقط، فلو قال: (أعور)

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٩٧٢)، والطحاوي (١/ ١٨٢)، والدارقطني (صـ ١٠٥) كذا قال الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٤٨٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٠٣)، ومسلم (٦٦).

فقط، فربما يُحتمل ما قاله هذا القائل، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تُعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الأَضَاحِي: المَرِيضَةُ، وَالْعَجْفَاءُ، وَالْعَوْرَاءُ، وَالْعَرْجَاءُ»(١). فجعل العور غير العيب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين، ثم إذا جاء الحديث: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى». صار قاطعًا للاحتمال قطعًا نهائيًا لايمكن أن يُراد به العيب.

فإذا قال قائل: ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان لله عزوجل أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يُقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب عز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبين أن دلالة حديث الدجال - وهو صحيح - دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم - رحمه الله - في مختصر الصواعق المُرسلة «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَي الرَّحْمَنِ»(٢). وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجةٍ إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

٥ - **و من فوائد الآية الكريمة**: أننا نملك هذه الأنعام ملكًا شرعيًّا، وملكًا حسيًّا قدريًّا.

أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها، ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك، أما الكوني الحسي؛ فلأننا نملك زمامها وضبطها، وهي مُسخرة لنا نقيمها ونُنيخها، ونذهب بها ونرجع بها، وهذا من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بهذا الملك.

٦ - **و من فوائد الآية الكريمة**: أنه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والاستمرار، أي: ملك مستقر تام.



قال الله تعالى:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧٢].

التفسير

﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي: سخرناها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاءون؛ ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذُلِّل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله عز وجل وجوه الانتفاع فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾. الركوب فعول، بمعنى: مركوب، أي: فمنها ما يركبونه، مثل الإبل.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٠٢)، والنسائي (٢/ ٢٠٣)، والترمذي (١/ ٢٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١١٤٨).

﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يُركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يُركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المؤلف، فإننا نقول: منها ما يُركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله عز وجل جعل لهذه الأنعام فوائد مُتعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضًا من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله عز وجل لنا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾. ﴿مِنۡ﴾ في الموضعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟

مُقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكَّنا من الانتفاع بها؛ ولهذا لما ندَّ بعير من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ لِهَذِهِ الإِبِلِ أَوَابِدُ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فَمَا نَدَّ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا»(١). فهذه البعير تمردت على أهلها ولم يُدركوها إلا بالسهم.

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله؛ لقوله: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾. لكنها مفعولة للفاعل مباشرةً. فهي تنسب لله عز وجل تقديرًا وخلقًا، وتنسب إلى الفاعل كسبًا وعملًا، فهذه الإبل المُذللة الذي ذللها هو الله، إذًا أفعالها صادرة بخلق الله عز وجل. وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد: هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالًا؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالريح ليس باختياره، فيُقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء، ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضًا: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالًما له، ويلزم عليه أن مدح الطائعين لغو لا فائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يُجبر عليه بدون اختياره، ويترتب عليه أيضًا: أن ذم العاصين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضًا مُخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمأنينة واختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعًا، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية إن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غرّ أصحابه أن الله عز وجل ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد، إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٠٧)، ومسلم (١٩٦٨).

نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

أصحاب المذهب الثاني: الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون لله عز وجل إرادة ، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس لله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبدًا بأن أحدًا يُجبره على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله عز وجل وخلقه عن أفعال الخلق، واعتقادهم أن الإنسان مستقل بها يُحدثه؛ ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث التي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مُستقلًا بها؛ فلهذا سُمُّوا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئاً في ملك الله عن ملك الله.

المذهب الثالث: أهل السُّنة والجماعة توسطوا بين القولين وأخذوا بالدليلين، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة؛ ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترتب على فعله حكم، فالمجنون - مثلًا - لا يؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يُكلف؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. إذًا فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانا مخلوقين لله تعالى فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيُضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلًا. كما أن الإحراق مثلًا بالنار يُنسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله عز وجل؛ فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرةً، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقًا، وهذا الذي ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة، هو المُطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية.

فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريقٍ واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السُّنة والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد لشُلت الحركة، ولصار الإنسان اتكاليًّا لا يقول ولا يفعل، ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه عز وجل في مهماته ومُلماته، فهو باعتبار أنه مُريد

فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مُدبر، يرجع إلى الله عز وجل، فلا يكون اتكاليًّا، ولا يكون أنانيًّا.

يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكاليًّا يقول: إن قُدر لي شيء صار، بل هو يعمل مُستعينًا بالله مُعتمدًا عليه.

٣ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أنه لنا أن ننتفع بهذه الأنعام بالركوب، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها، فإن كان في ذلك مشقة كان حرامًا؛ لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** جاز الإرداف على الدابة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾. ولكنه مُقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون في ذلك مشقة.

٥ - **و من فوائد الآية الكريمة:** حل هذه الأنعام، أو حل بعضها إذا جعلنا (مِن) للتبعيض، وجعلنا (الأنعام) أعم من (بهيمة الأنعام)، والحل في الأنعام كلها هو الأصل؛ ولهذا لو تنازع شخصان في أن هذا الحيوان حلال أو حرام، لكان القول قول من يقول بالحل حتى يقوم دليل على التحريم وذلك:

أولًا: لعموم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

ثانيًا: لعموم قوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾. فالأصل هو الحل حتى يقوم دليل على المنع، لكن هذا الحل مقيد بشروط الذكاة المعروفة؛ لأنها إذا لم تذك البهيمة الحلال ذكاة شرعية صارت حرامًا لا تحل، فهذا لإطلاق ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾. مقيد بشروط وهو أن يكون مذكًا بذكاة شرعية، ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حَلَّ له ولو لم يذك؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣].

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تتم المصلحة إلا به؛ لأن الأكل مصلحة، ولكن لا أكل إلا بعد الذبح، والذبح من أعظم ما يكون من الإيذاء؛ ولأن الشرع جاء بإباحة وَسْمِ البهائم بالنار من أجل حفظ ماليتها، ولأن الشرع جاء بمشروعية إشعار الإبل والبقر في الهدي؛ ليعلم أنها هدي، وإشعارها هو شق صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم، وعلى هذا إذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنه لا بأس به، مثل ما يفعله بعض الناس الآن في الحَمام إذا أراد أن تُربى عنده؛ فإنه ينتف مُقدم الأجنحة لئلا تطير، حتى تألف المكان وتُربى فيه، يقولون: لو أننا قصصناها قصًّا ما نبت لها ريش بسرعة. فلهذا يختارون أن ينتفوها نتفًا من أجل أن ينبت الريش بسرعة وتستعد للطيران.



قال الله تعالى:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله: [﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿وَمَشَارِبُ﴾. من لبنها، جمع مشرب بمعنى شرب، أو موضعه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم عليهم بها فيؤمنون. أي ما فعلوا ذلك].

المنافع أعم مما قاله المؤلف: [كأصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتشبيه، والأصواف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للبقر والغنم، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تُحصى، ولهذا أتى بصيغة مُنتهى الجموع ﴿مَنَافِعُ﴾. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ إما موضع الشرب كما قال المؤلف، أو الشرب، ولكن الأَوْلَى أن نقول: إن لهم فيها مشارب أي: شربًا، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها، وينتفعون بها شربًا وبيعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. والهمزة للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي: أنهم لم يشكروا الله عز وجل فهم موبَّخون على عدم شكرهم.

وقول المؤلف - رحمه الله: [أي: ما فعلوا ذلك]؛ لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل.

وقد تقدم الكلام على معنى الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

الفوائد

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فأي منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مُباحة لنا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾. لكن بشرط كما أسلفنا أن لا يكون في ذلك مشقة فإن كان فيها مشقة فإنها ممنوعة.

٢ - **ومن فوائدها:** حل ألبان هذه البهائم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

٣ - **يُستفاد من قوله تعالى:** ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. وجوب شكر الله تعالى على هذه النعم، ووجهه أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل مُحرم، أو ترك واجب. وشكر المنعم كما دل عليه الشرع فقد دل عليه العقل، فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ**

فادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُم كافَأْتُمُوه»(١).

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من غيره، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا آلهة مع الله، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله آلهة، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أنهم لم يتخذوا الله إلهًا، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا ألوهية الله تعالى، مع أن هؤلاء يتألهون إلى الله تعالى وإلى غيره، ولكن قد يُقال: إن الفائدة من التعبير بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مع أنهم يُألِّهون الله تعالى ويألهون الأصنام أن الإنسان إذا اتخذ شريكًا مع الله؛ فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأله الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾ جمع إله، والإله بمعنى مألوه. أي: معبود، وفِعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة، منها: غِراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وفِراش بمعنى مفروش. فهؤلاء - والعياذ بالله - يتألهون لهذه الأصنام كما يتألهون لله عز وجل يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾. قال المؤلف رحمه الله تعالى: [يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء، أي: لعلهم يغلبون. والواقع أن مُتخذي الأصنام يتخذونها للأمرين: لتشفع لهم عند الله تعالى فينجو من عذاب الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر:٣].

وهم أيضًا ينتصرون بها عند الحرب والقتال، كما قال أبو سفيان في غزوة أُحد: أُعْلُ هبل. فانتصَر بإلهه واعتزَّ به.

فهم اتخذوا هذه الآلهة للأمرين جميعًا: لدفع ما يكره، وحصول ما يحب. وهذا هو المناسب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٨٢) وأبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عز وجل (١٦٧٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ٤٦ (٢٩٨٥).

لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾. لأن إطلاق النصر على مجرد دفع المكروه هذا وإن كان واردًا - لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة والرفعة أكثر في اللغة العربية. ولكن هل هؤلاء يُنصرون بهذه الأصنام؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. أي: هذه الآلهة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودليل ذلك أنهم يضعون الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى، ويذهبون إلى الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيامة فإنهم كلهم يحصبون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥،٦]. فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعو الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروه، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكروه فما الجواب؟

قلنا: الجواب: أن هذا فتنة من الله عز وجل يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم يحصل بدعاء الصنم وإنما حصل عند دعاء الصنم، أي حصل عنده لا به، فالله عز وجل جعل هذا يحصل عند دعاء هذا الصنم ابتلاءً وامتحانًا، والله عز وجل بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليبلو الإنسان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية لله عز وجل، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]. فابتلى الله الصحابة وهم مُحرمون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير، ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشيةً لله لا عجزًا عن الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعًا طافية على وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، وهذا امتحان من الله عز وجل، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون الله عز وجل معاملة الغر الجاهل يُخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبهم الله تعالى قردة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]. فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو دفع ضرر يمتحنون

ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقينًا؛ لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

قال المؤلف: [﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: آلهتهم. نزلوا منزلة العقلاء ﴿وَهُمْ﴾أي: آلهتهم من الأصنام ﴿لَهُمْ جُندٌ﴾ بزعمهم نصرهم ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ في النار معهم]. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن واو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو (لا يستطعن نصرهم). لكن قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تنزيلًا لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخوطبوا بما يعتقدون.

قوله تعالى:﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ المؤلف - رحمه الله تعالى - مشى على أن ﴿وَهُمْ﴾ الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم ﴿مُّحْضَرُونَ﴾. أي: معهم في النار، فهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع مُحضرون في نار جهنم يُعذبون. وهذا قول فيه بُعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على العابدين ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الأصنام ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: حاضرون. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جندًا لها كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]. فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

الوجه الأول: أنهم ينصرون هذه الأصنام وينتصرون لها ويدافعون عنها.

الوجه الثاني: أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لا يمكن أن ينتصر له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفه والضلال.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾: صحة إطلاق الإله على غير الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ ولكن هل هذه الآلهة حق؟

الجواب: لا، هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]. فهي وإن سموها آلهة وعبدوها كما يعبدون الرب عز وجل فإنها لن تكون آلهة؛قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾

[النجم:٢٣].

٢ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم، ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

٣ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الإنسان المبطل لا بد أن يتعلق بشيء يبرر به باطله، وهو هنا رجاء النصر ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، وكل إنسان مبطل لا بد أن يعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مر كثيرًا في أقوال أهل البدع.

٤ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أن هذه الآلهة لا يمكن أن تنصر عابديها لقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلهة فيُغاثون أحيانًا؟

فالجواب: نعم، يمكن وهو امتحان وفتنة، ولكن هذا الغوث حصل عندها لا بها، وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده، والسبب غيره، فسبب هذا الغوث الفتنة، وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

٥ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء العابدين جند مُحضرون لأصنامهم، يُدافعون عن الأصنام وينتصرون لها، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. وفي هذا من المناداة بسفههم ما هو ظاهر، حيث يستنصرون بمن لا يستطيعون نصرهم، وهم ينصرونها، وهذا من السفه كيف تنصر شيئًا لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه، ولهذا يعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كالدليل على سفه هؤلاء. أي: أنهم ينتصرون لهذه الآلهة وينصرونها مع أنها لا تنصرهم، وهذا الذي قررته بناء على ما اخترناه من أن معنى الآية: (وهؤلاء العابدون للمعبودين جندٌ مُحضرون) أما على رأي المؤلف فهو يرى خلاف ذلك، يرى أن هذه الأصنام جند لهؤلاء، لكنهم مُحضرون في النار جميعًا، وسبق بيان ضعف هذا القول.



قال الله تعالى:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس:٧٦].

التفسير

الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ أي: لا يوقعك في الحزن، والحزن: هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف: هو الهم والترقب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء

المُكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله عز وجل، ويقولون في رسول الله ﷺ قولًا عظيمًا، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنصح الخلق للخلق، فيُحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مُهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. والآيات في تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة:

قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. وهذا طعن في الألوهية.

وقالوا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:٤٣]. وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن مُحمدًا ﷺ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضًا عيب في شخصية الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صُودِمَتْ دعوته في لُبها وأصلها وقيل: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]. والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلًا يحس في نفسه بضغط، لكن إذا كان سيُهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عِيب عيبًا ذاتيًا يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلي الله نبيه مُحمدًا ﷺ في مثل هذه التوجيهات ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. هنا يجب الوقوف على قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لأنك لو وصلت لأوْهَمت أن تكون جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾. من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولونه في رسول الله ﷺ وما جاء به ما يقولون، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله عز وجل لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يُبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

الإسرار الأول: إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

الإسرار الثاني: إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلًا:

هؤلاء قومٌ عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمرٍ من الأمور، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئًا لم يخبر به زملاءه فهذا أيضًا إسرار.

فقوله تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يُجازيهم على ذلك يوم القيامة.



قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يرى بمعنى: يعلم، والمعنى: أو لم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مُقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وألم ير) وقوله: ﴿الْإِنسَانُ﴾. قال المؤلف: [وهو العاصي بن وائل]. وعلى رأي المؤلف تكون (أل) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (أل) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (أل) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني: جنس الإنسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ١ : ٣]. ووجه كون ذلك هو الأصل؛ أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومه، فإذا قال قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾. إنه فلان بن فلان، فنقول الله عز وجل، قال: ﴿الْإِنسَانُ﴾؛ وهو شامل، إذًا فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصي بن وائل مثالًا لمن قال هذا القول، أو لمن رأي هذا الرأي،قوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾. قال المؤلف: [مَنِيٍّ إلى أن صيرناه شديدًا قويًّا. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: شديد الخصومة لنا. ﴿مُّبِينٌ﴾: بينها في نفي البعث]؛ فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المني المهين كما وصفه الله عز وجل، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا يُنشئه الله عز وجل حتى يُعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صَدْر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيمًا، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾. أي: شديد الخصومة؛ لأن فعيل بمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾. أي: بيّن، والذي يظهرأنها ﴿مُّبِينٌ﴾. بمعنى مُظهر، يعني مُظهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاء الله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، فـ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهر للخصومة، خلافًا لقول المؤلف: بينها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان أن الإنسان خلق من ضعف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وهو كذلك.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذا الإنسان الذي خلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مبينة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** النداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خلق من هذه النُطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيمًا لله عز وجل بيِّن الخصومة؟! لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مُخاصمًا لربه عز وجل.

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية سيقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلا بد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جدال محمود، مأمور به: إما وجوبًا، أو استحبابًا.

القسم الثاني: جدال مذموم، منهي عنه.

القسم الثالث: جدال بين بين.

أما الجدال الممدوح فهو الذي يُقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المُجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهيٌّ عنه قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المِرَاء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًا عنه، وذلك إذا كان مع الجدال والمراء والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزُّب. وإن أفضى إلى مصلحة كان مأمورًا به، مثل: أن يكون المجادل مغرورًا بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهيًا في نفسه، مترفعًا على غيره.



قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

التفسير

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾. يعني: هذا الإنسان الذي كان خصيمًا مُبينًا ضرب مثلًا لله عز وجل، يُريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل يبينه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بيانًا لُمبهم في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ يعني: ابتداء خلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾. جملة يحتمل أن تكون جملة خبرية، ويحتمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني: أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مَنِيٍّ ثم كان إنسانًا سويًّا خصيمًا مُبينًا.

المثل بيّنه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. يقول المؤلف ـ رحمه الله: [ونسي خلقه من المني وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن، وخلقه من المني ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعًا لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]. فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالًّا من وجهين:

الوجه الأول: استغرابه قدرة الله عز وجل على الإعادة.

الوجه الثاني: نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من ماء مهين، حتى صار إنسانًا قويًّا خصيمًا مُبينًا.

قوله تعالى:﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. أي: بالية و ﴿مَن﴾ استفهامية، والمراد به النفي، أو الإنكار، يعني لا أحد يُحيي العظام وهي رميم. فالإنسان إذا مات و رَمَّ ، أي: ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذًا رميم، هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟! هذا وجه استغراب هذا الرجل المُنكر. ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. قال المؤلف: [أي بالية، ولم يقل رميمة بالتاء لأنه اسم لا صفة] الرميم: تارة يُراد به الصفة، يعني: اسم المفعول، أو اسم الفاعل مرمومة، أو رامة.

وتارة يُراد بها الاسم يعني: أن العظم إذا بلى يُسمى رميمًا، فلما قصد به الاسم لم يحتج إلى التاء فقيل: (رميم)؛ لأنه مثل أسد، وحجر، وشجر وما أشبه ذلك، لكن لو أريد الصفة لكان يؤنث

فيُقال: (رميمة)؛ لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث؛ لا سيما وأنه قال: ﴿وَهِىَ﴾ وهذه ضمير مؤنث.

قال المؤلف: [روي أنه أخذ عظمًا رميمًا ففتته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعد ما بلي و رَمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نَعَمْ وَيُدخِلُكَ النَار»[1]، المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف؛ (روي) وهو جدير بذلك، لأن هذا الرجل المُنكر سواء أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه مُنكر بكل حال، وليس من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: «نعم ويُدخلك النار» فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده، وفي صحته.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** أن المجادل بالباطل يأتي بالشبهات التي ينصر بها باطله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.فإن هذه شُبهة تلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: (من يُحيي العظام) فقط، بل قال: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾. فكيف تحيا بعد أن رُمَّت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليلبسوا على الناس.

٢ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا الإنسان استهان بربه حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أضرب لكم مثلًا بهذا الشيء الذي يُعجز: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المعارض للحق قد يُصرح بالإنكار بدون مراوغة لقوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ﴾ وأحيانًا «يراوغ». فأيهما أهون؟

الذي يُصَرِّح ويُبَيِّن أهون؛ لأن هذا يمكن أن يُتقى شره، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر، ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أشد من خطر الكافرين الذين يُصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرون الناس ولا يمكن التحرز منهم.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]

التفسير

يقول الله تعالى مبينًا قدرته على إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهذا الذي أنكر أن يُحيي الله العظام وهي رميم ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، واعلم أن الله عز

(١) ابن جرير الطبري في تفسيره ج ٢٢ ص ٣١.

وجل إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام «قل» فهو أمر له بالإبلاغ. ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عمومًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]. فإذا خص شيئًا من الأحكام، أو من الأخبار بـ (قل) كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبليغ هذه المسألة، سواء كانت خبرًا، أو كانت حكمًا. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. لم يقل: (يحيها الله) ليكون الجواب مُتضمنًا للدليل، لأنه لو قال: (يحيها الله) فهِمَ الإنسان أن الله هو الذي يُحييها، لكن إذا قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجواب مُتضمنًا للدليل ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والذي أنشأها أول مرة هو الله عز وجل، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم يُنشئها أول مرة، فإذا كان الله عز وجل أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. ووجه الاستدلال بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانيًا: قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. قال المؤلف: [﴿خَلْقٍ﴾ بمعنى: مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المُراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوقَ إلا بخلق، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. صار في هذا نص على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعصِ عليه، لأنه إذا كان عالمًا لم يبق إلا الإرادة، وإذا أراده وهو بكل خلق عليم، صنع ما علم عز وجل، فكونه بكل خلقٍ عليم دليل على أنه قادر على أن يُعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. هذه القدرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المُستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وانتفى الجهل المُستفاد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار الخلق ممكنًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. فأقوى ما يسوق الحجج ويبينها هو كلام الله، لأن كلام الله عز وجل أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، فحديث الله عز وجل لا شك أنه أصدق الحديث وأتمه، وأحسنه في الإقناع، وإقامة الحجة.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف، فالأشد إحياؤها أول مرة، والأخف الإعادة.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يقر به خصمه، من أجل أن تقوم عليه الحُجة؛ لأنه قال: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والخصم هنا لا ينكر أن الله تعالى أنشأها أول مرة.

فينبغي أن تأتي بالشيء الذي يُقر به خصمك لتقيم الحُجة عليه بإقراره، وهذا أدب من آداب المناظرة، لأنه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر منها:

- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ناظر الذي حاجه في ربه فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فعدل إبراهيم عن ذلك، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. وهذا يُقر به الخصم، ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وهذا لا يمكن للخصم أن يقوم به.

- فالحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة والمحاجة، وأن يأتي خصمه من الوجهة التي يقر بها حتى يُقيم عليه الحُجة؛ لأن المناظرة والمحاجة وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]. مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك فهم على ما هو أعظم أعجز.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، وسبق لنا في التفسير هل الخلق هنا بمعنى المخلوق، أو بمعنى الفعل؟ وذكرنا أنه يُحتمل الأمرين، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني كل خلق فالله عليم به، ومن المعلوم أن العالم بالخلق عالم بالمخلوق كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤]. إذًا يُستفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل خلق، أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور، ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالم بالمخلوق.



❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

❁ التفسير ❁

قال المؤلف: [أي: في جملة الناس ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العناب ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾. ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا هو الله عز وجل، وأراد المؤلف بقوله: [في جملة الناس]؛ أن هذا الجعل ليس خاصًّا بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المؤلف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (أل) للعهد الذهني، ويكون عامًّا أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (أل) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.

فالصواب أن المراد ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾، أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العناب] لا نعرف عن هذا شيئًا هل إنه مُستثنى، وأن العناب لا يمكن أن تأتي منه النار - الله أعلم - على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامةً، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد من رطبٍ بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليبوسة من التنافر العظيم.

فإذا كان الله عز وجل يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذًا هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. «الفاء» هنا عاطفة و «إذا» فجائية، يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عودًا بعود من هذا الشجر تقدح النار، فتوقد منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجئ للعملية، والمفاجأة استفدناها من كلمة ﴿فَإِذَآ﴾ وفي قولنا: ﴿أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد يُنكره، فلا أحد يُنكر أنه يتولد من الشجر الأخضر نارًا يوقد الناس منها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله: [تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يُطفيء النار، ولا النار تحرق الخشب].

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد، شيء حار يابس. فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أن الضدين متنافران، لا يلتقيان أبدًا، وهنا صار أحدهما يتولد من الآخر.

٢ – **ومن فوائدها أيضًا:** الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن التنافر بين الرطب واليابس، والحار والبارد، أعظم من أن يُعاد الخلق، أو تُعاد العظام بعد رميمها، فالقادر على هذا الشيء قادر على إحياء الموتى.

٣ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله علينا بجعله من الشجر الأخضر نارًا، ووجه الدلالة أنه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾، وإلا لكان يكتفي فيُقال: (الذي جعل من الشجر الأخضر نارًا)، لكن ذلك لمصلحتنا، ففيه نعمة من الله عز وجل على عباده بهذه النار. وقد قرر الله هذه النعمة بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١،٧٢] ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق، فأنواعها بل أجناسها لا تُحصى، فضلًا عن أفرادها.

٤ – **ومن فوائد الآية الكريمة:** تقرير الشيء بالواقع؛ فبدلًا أن نلقيه تصورًا في الذهن، نذكر واقعه بالفعل، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، فهو سبحانه وتعالى بيَّن أنه جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا، وهذا يُعطينا تصورًا بأن الله سبحانه وتعالى جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا، نستفيد منها، ثم حقق ذلك بذكر الأمر الواقع ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. أي: تحسونه بواقعكم، وتلمسونه بأيديكم.



قال الله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

التفسير

أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]. وهذا أمر معلوم

بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يُساوون كوكبًا من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يُحصيها إلا الله عز وجل، والسماوات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]. ؟ والذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادرًا على خلق الناس؟ الجواب: بلى والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأَوْلى والأحرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال المؤلف: [الخلاق: الكثير الخلق] فجعل فعَّالًا من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله عز وجل كثير الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضًا: إن فعّالًا هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أننا لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير النجارة، فنجار يعني كثير النجارة، ولكن هل هو مجيدها؟ وهل هو مُستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيُقال نجار؟ وهل النجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق مُتقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

أما إذا قلت: (نجار) على أنها نسبة، أي: صاحب صنعة، فهو أبلغ في الوصف، والنجار، أي: ذو الصنعة المُتقن لها سواء نجر كثيرًا أو قليلًا فهو نجار متقن. فهنا يمكن أن نقول: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾. نحملها على النسبة المفيدة لوصف، الله عز وجل بهذه الصفة العظيمة، أي: ذو الخلق المتقن على أكمل وجه، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق، فلا شك أن خلق الله عز وجل لا يُحصى أجناسًا، فضلًا عن الأنواع، فضلًا عن الأفراد، من ذا الذي يُحصي أجناس الخلق؟ من ذا الذي يُحصي أنواع هذه الأجناس؟ ومن الذي يُحصي أفراد هذه الأنواع؟ لا يستطيع أحد أن يُحصي ذلك.

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة الوصفية كمال الوصف، والثاني: الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلّاقًا، أي: من وصفه الخلق اللازم له، وكذلك كثير الخلق، هل يعجز عن أن يُحيي العظام وهي رميم؟ لا.

قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾. العلم دليل على القدرة على الإعادة؛ لأننا قلنا: إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للجهل، فكلما وصف الله نفسه بالعليم؛ فإن ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق، وكيف ينشئ.

الفوائد:

١ – **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن الله تعالى استدل بقدرته على خلق السموات والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم.

٢ – **و من فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته حيث خلق هذه

السماوات والأرض، بما فيهما من المصالح والمنافع، والأجرام الثابتة وغير الثابتة، وهذا دليل على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، ومع عظمتها وسعتها وكبرها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. أي: من تعب وإعياء.

٣ - **و من فوائد هذه الآية الكريمة:** الرد على الفلاسفة الذين يقولون: بقدم الأفلاك وجه ذلك؛ أنه قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أوجدها من العدم، ومعلوم أن الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلي الذي لا بداية له، فالسماوات والأرض كانت معدومة، ثم أُوْجِدَت بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأما من قال: بقدم الأفلاك، وأنه لم تزل ولا تزال هذه الطبيعة، فإنه ظالم لا يعلم عن هذا شيئًا؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نقلي، بل إن الدليل العقلي والنقلي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك، وأنها حادثة.

٤ - **و من فوائد الآية الكريمة:** جواز إجابة السائل نفسه في الأمر المُحقق المتقرر لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

إذ قد يقول قائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها؛ لأن إجابته دعوى، أو تقرير لدعوى ادعاها.

فيُقال في الجواب: إذا كان الأمر ثابتًا واقعًا فإن إجابته نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يُقرر ما كان واقعًا معلومًا للمخاطب؛ ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٥ - **في هذه الآية فائدة نحوية وهي:** أن جواب الاستفهام المقرون بالنفي، إذا أُريد إثباته يُقال فيه: ﴿بَلَىٰ﴾، ولا يُقال: نعم؛ لأنك لو أجبت بنعم، لكان ذلك تقريرًا لنفي المنفي، مثاله:

لو قلت: أليس زيد بقائم؟ فقلت: نعم، يعني قررت النفي ليس بقائم، فإن قلت: بلى، فقد أثبت القيام.

٦ - **و من فوائد الآية الكريمة:** أن الخلق وصف الله عز وجل الذي هو متصف به أزلًا وأبدًا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية والمخلوق حادث، فهو عز وجل مُتصف بالخلق، ولهذا قلنا: إن النسبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

٧ - **و من فوائد الآية الكريمة:** وصف الله تعالى بالعلم الأزلي؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، ولا شك أن الله تعالى موصوف بالعلم أزلًا وأبدًا، فإن لم يزل ولا يزال عالمًا، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].



قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

التفسير

قال المؤلف: [﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شأنه] يعني: شأنه وحاله إذا أراد شيئًا أن يقول له: ﴿كُن﴾، فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلًا، أو إلى جنود يُساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده عز وجل، بل يقول: ﴿كُن﴾ فيكون. وقوله – رحمه الله: [شأنه] قد ينازع فيها، ويُقال: إن المراد بالأمر أمر التكوين، يعني أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يُكرر كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فجعل الأمر واحد الأوامر. والمؤلف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرين جميعًا نقول: شأنه عز وجل في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤]. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾. قال المؤلف ـ رحمه الله: [أي خلق شيء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد ﴿شَيْـًٔا﴾ بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئًا خلقًا، أو إعدامًا، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها ﴿شيئًا﴾ سواء كان خلقًا، أو إيجادًا، أو إعدامًا وإتلافًا. ولكن الذي حمل المؤلف – رحمه الله – على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يُقال: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أي: إيجاد شيء وخلقه، أو إعدامه.

وقد يعتذر عن المؤلف فيُقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك:٢]. مع أن الموت عدم وفناء، والأمر في هذا سهل، قال: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ﴿كُن﴾ هنا الظاهر أنها: تامة، وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلًا. يعني: ﴿كُن﴾ أي: أن يوجد ويتكون، أو (كن كذا) أي: بأن يكون الطويل قصيرًا، والقصير طويلًا وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل ﴿فَيَكُونُ﴾. قال المؤلف: يقول: [فهو يكون، وفي قراءة بالنصب عطفًا على ﴿يقول﴾]. قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المؤلف – رحمه الله – إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قُرِئَ). في

قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أَن يَقُولَ﴾ للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعقيب، يعني أن الشيء يكون فورًا بدون تأخير، وقد بيَّن الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]. ولمح البصر ليس شيء أسرع منه، وأمر الله عز وجل واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرميمة: كوني إنسانًا سويًّا هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣،١٤]، وقال في هذه السورة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الاستدلال بعموم قدرته عز وجل وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى التامة التي لا يُضاهيها، ولا يُقاربها قدرة؛ لأنه إذا أراد شيئًا لم يتكلف لإحضار المواد، أو غيرها مما يتكون به هذا الشيء، وإنما يقول: ﴿كُن﴾ فيكون.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾، وإرادة الله سبحانه وتعالى كما قال أهل العلم تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية.

فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة.

والكونية: هي التي بمعنى المشيئة.

والفرق بينهما من حيث الأثر:

(١) أن الإرادة الكونية لا بد فيها من وقوع المُراد.

(٢) أن المُراد فيها قد يكون محبوبًا لله، وقد يكون غير محبوب لله.

أما الإراد الشرعية: فقد يقع فيها المراد، وقد لا يقع، ولا يكون المُراد فيها إلا محبوبًا لله.

فإذا قال لك قائل: هل الله يريد الكفر؟

فقل له: أما شرعًا، فلا، وأما كونًا، فنعم.

ولو قال لك قائل: هل الله يُريد الإيمان؟

فقل: نعم يُريده شرعًا، وقدرًا إن وقع، لأنه إذا وقع فقد أراده قدرًا، وإذا لم يقع فلا نعلم هل أراده قدرًا أو لا؟ بل نقول: إنه الآن لم يُرده قدرًا.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القول لله؛ لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن كلام الله عز وجل يكون بحرف؛ لقوله: ﴿كُن﴾ فإن «كن» كلمة مكونة من حرفين، وإثبات أنه بصوت لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فهذا الخطاب موجه لما أراده الله، وهو يقتضي أن يكون هذا المُراد سامعًا لهذا القول، ولا سماع إلا بصوت.

فيكون في الآية رد على الأشاعرة في كلام الله عز وجل حيث يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يسمع من الأصوات والحروف وهو عبارة عن كلام الله، ويرون أن هذا المسموع مخلوق، ولهذا قال بعض المُحققين منهم، أو المنصفين منهم: إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المُعتزلة في كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف فهو مخلوق. فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون خيرًا من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إن ما بين دفتي المصحف كلام الله. فكلهم يقولون: إنه مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون: إنه عبارة عن كلام الله، فإضافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة، وعلى كل حال في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، وحقيقة الأمر أنهم لا يُثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أمر الله عز وجل إذا وجه لشيء فإن هذا الشيء يكون كما أمر؛ لقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.أي: فيكون على ما أمر الله به، في العين، والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿كُن﴾، فكان على حسب ما أراده الله عز وجل.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

❁ التفسير ❁

(سبحان) بمعنى: تنزيهًا، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المُطلقة دائمًا، ومُلازمة أيضًا للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظًا فهي مضافة تقديرًا. و(سبحان) معناها: التنزيه أي: أن الله مُنزه عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلًا يُنزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق، ويُنزه أن يعتري صفاته نقص بأي وجه، فمثلًا: العلم، علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا، ابتداءً؛ لأنه مسبوق بالجهل، وانتهاءً؛ لأنه ملحوق بالنسيان، وشمولًا،لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. لكن علم الله عز وجل كامل من هذه الوجوه كلها ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلمه

الذي هو موصوف به أزلًا وابدًا، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وعلمه شامل لكل شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥] .﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاته الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مُشابهة والفرق واضح:

أولًا: أن المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]. ولم يقل: «ليس كشبهه شيء» وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

ثانيًا: أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئًا.

فمثلًا: الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مُطلقًا فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثًا: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفيًا للصفات؛ لأن كثيرًا من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبه من ثلاثة أوجه.

فتنزيه الله عن كل نقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم نقص يُنافي التنزيه، فإذا ثبت أن الله عز وجل مُنزه عن كل نقص، لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.

قوله:﴿بِيَدِهِۦ﴾ أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك:١].وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله عز وجل، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله عز وجل حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن تثبت اليد، أما إذا قلت بيده بتصرفه وتدبيره مع ثبوت اليد فهذا هو المُراد.

قوله:﴿مَلَكُوتُ﴾ كما قال المؤلف في أصل ﴿مَلَكُوتُ﴾: [ملك لكن زيدت الواو والتاء

للمبالغة] أي: زيدت للمبالغة في مُلك الله لكل شيء، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعدم، ولا يلحق بزوال، بينما ملك غير ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا الشيء ثم ملكه بعد، ومع ملكه إياه فإن هذا الملك قابل للزوال، ثم إن ملكه إياه ليس ملكًا مُطلقًا يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك مقيد، أما ملك الله فهو تام. ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملك كل شيء.

وقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكًا مُطلقًا – مبالغًا فيه بالواو والتاء – قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما شاء، ولهذا فسر المؤلف – رحمه الله – الملكية هنا بالقدرة، فقال: [أي: القدرة على كل شيء]، ولكن هذا الكلام فيه نظر، بل نقول: مالك لكل شيء، وإذا ملكه ملكًا مُطلقًا فهو قادر على أن يتصرف فيه كما شاء.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال المؤلف: [تردون في الآخرة] أي: إليه لا إلى غيره ليُجازيكم، ووجه الدلالة من هذه الجملة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم، ولو قلنا: بعدم القدرة لانتفى الرجوع إلى الله عز وجل، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار وجود الدنيا كلها عبثًا ولعبًا، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله عز وجل، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأننا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثًا، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله عز وجل على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيءٍ قدير، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧]. لكان كافيًا في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

الفوائد:

١ – **من فوائد الآية الكريمة:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقصٍ وعيب، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ ومرَّ علينا في التفسير أن الذي يُنزه الله عنه أمران:

الأول: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين.

فعلمه عز وجل لا يناله نقص، لا من حيث الشمول، ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللحوق، ولا يُماثل علم المخلوقين، وهكذا بقية الصفات.

٢ - **ومن فوائدها:** أن ملكوت السماوات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مرجع الخلائق إلى الله لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله يوم القيامة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية، والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان حكمة الله سبحانه وتعالى؛ وذلك بكون الرجوع إليه، وأنه لا بد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لولا هذا الرجوع لكان خلق الخلق عبثًا لا فائدة منه، إذ إنه لولا هذا الرجوع والمجازاة على هذا العمل في هذا الرجوع لكانت الخليقة خلقت ليفسد في الأرض من يفسد، ويحصل الفتن والشرور والنهاية لا شيء.

٥ - **في هذه الآيات كلها:** ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم وذلك من عشرة أوجه:

الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه فيه استدلالًا بالأشد على الأخف.

الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وعلمه بكل خلق يقتضي أنه سبحانه وتعالى قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الثالث: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب نارًا وهي يابسة محُرقة قادر على أن يُعيد الخلق؛ لأن جعل النار من الشجر الأخضر أبلغ في القدرة.

الرابع: قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فقدرته على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم،قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾.

الخامس والسادس: قوله: ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾،والخلاق صفة لازمة له، وكونه خلاقًا يشمل أن يخلق كل شيء، وكونه عليمًا يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه.

السابع: أنه لا يستعصي عليه شيء، بل إذا أمر بشيء كان في الحال؛ لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثامن: تنزيه الله عز وجل عن كل نقص، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص، فإذا كان الله تعالى مُنزهًا عن كل نقص، كان ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم واقعًا.

التاسع: قوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ومن بيده ملكوت كل شيء فإنه مالك لكل شيء، والمالك لكل شيء قادر على أن يوجد المعدوم، ويعدم الموجود.

العاشر: قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فإن هذا هو نتيجة الخلق أن يبعث الخلق ويرجعون إلى الله، ليُجازيهم بما عملوا.

وإلى هنا انتهى تفسير هذه السورة العظيمة، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم بحمد الله تفسير سورة يس



تفسير سورة الصافات

تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قال الله تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]

التفسير

قال المؤلف -رحمه الله تعالى:

[سورة الصافات مكية، وآياتها ١٨٢]؛ والمكية هي التي نزلت قبل الهجرة، فكل ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وإن نزل في غير مكة.

وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة.

وعليه، فإن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] التي نزلت على النبي ﷺ وهو واقف في عرفة، من المدني، هذا أصح الأقوال في المكي والمدني. أن ما نزل بعد الهجرة مدني، وما نزل قبلها مكي.

أما البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنها آية من كتاب الله مستقلة؛ ولهذا لا تحسب من آيات السورة التي بعدها، حتى في الفاتحة على القول الراجح: إنها ليست من السورة، وعلى هذا فالترقيم الموجود في المصاحف على خلاف القول الراجح، فإن الترقيم الموجود في المصاحف في الفاتحة عدت فيه البسملة آية من آياتها، والصحيح أنها كغيرها من السور أن البسملة فيها آية مستقلة لا تحسب من آياتها، وهي مذكورة قبل كل سورة إلا سورة براءة، فإن سورة براءة لم يتقدمها بسملة، قيل؛ لأنها نزلت بالسيف، والبسملة رحمة فلا يناسب أن يذكر قبلها بسملة.

ولكن هذا ليس بصحيح، بل الصحيح أن الصحابة -رضي الله عنهم- لما كتبوا المصحف أشكل عليهم: هل براءة من الأنفال أو ليست من الأنفال، فتركوا البسملة ووضعوا خطًّا فاصلاً بينها وبين سورة الأنفال دون أن يضعوا البسملة.

ونحن نعلم أن البسملة لو نزلت قبل سور براءة لثبتت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فيكون اجتهاد الصحابة -رضي الله عنهم- في ذلك مطابقًا للواقع؛ أي: مطابقًا لكونها لم تنزل في أول هذه السورة.

أما فمن حيث معناها فإن قول القائل: بسم الله. يعني: بكل اسم ما أسماء الله، وإنما قلنا: بكل اسم من أسماء الله؛ لأن اسم مفرد مضاف فيكون للعموم، فليس قول القائل: بسم الله. يعني: اسمًا واحدًا من أسماء الله، بل يعني: جميع أسماء الله، وهذا يدلك على عظمة هذه البسملة، حيث إنك تبتدئ متبركًا ومستعينًا بكل اسم من أسماء الله عز وجل.

والباء فيها للمصاحبة والاستعانة، فللمصاحبة من أجل حصول بركتها: فإن البسملة فيها بركة؛ ولذلك إذا ذُكِرت على الذبيحة صارت الذبيحة حلالاً طاهرة، وإذا لم تُذكر صارت حرامًا نجسة. إذا ذُكرت قبل الوضوء صار الوضوء صحيحًا، وإذا لم تُذكر صار الوضوء فاسدًا، على قول من يرى أن البسملة من شروط الوضوء، أو من واجبات الوضوء، ولكن القول الراجح في البسملة في الوضوء أنها سنة؛ لقول الإمام أحمد -رحمه الله: لا يثبت في هذا الباب -أي: في باب التسمية في الوضوء- شيء.

وهي إذا ذكرت على الطعام طردت الشيطان عنه، وإن لم تذكر فإن الشيطان يشارك الآكل والشارب.

فالمهم أنها بركة؛ ولهذا نقول: الباء للمصاحبة أي: أن المبسمل يصطحب في بسملته البركة والاستعانة؛ لأنها تعين الإنسان على مهماته.

وأما (الله) فهو العلم الخاص بالله سبحانه وتعالى، لا يسمى به غير الله ومعناها: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. أي: أن إله بمعنى مألوه، أي: معبود.

فإذا قال قائل: أي:ن الهمزة في الله؟

فالجواب: أنها حذفت للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال. كما حذفت من ناس، وأصلها أُناس، وحذفت من شر وخير، وأصلها أشر وأخير.

أما (الرحمن) فهو اسم من أسماء الله، و(الرحيم) كذلك اسم من أسمائه، والفرق بينهما أن الرحمن باعتبار الوصف، والرحيم باعتبار الفعل؛ ولهذا جاءت الرحمن بهذه الصيغة الدالة على السعة، فرحمة الله واسعة شاملة لكل شيء، وأما (الرحيم) فهو الموصول رحمته إلى خلقه.

وتقسم الرحمة باعتبار اسم (الرحيم) إلى قسمين: عامة وخاصة.

أما (الرحمن) باعتبار الوصف فهو عام؛ لأنه ذو رحمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] هذه البسملة مشتملة على جار ومجرور، والجار والمجرور معمول لابد له من عامل، وهو المسمى بالمتعلق، فيقال مثلاً: الجار والمجرور متعلق بكذا، فأي:ن متعلَّق البسملة؟ قال أهل العلم: متعلق البسملة فعل مقدر، متأخر، موافق للمبدوء به في مادته.

فإذا كنت تريد أن تتوضأ كان تقدير هذا المحذوف: باسم الله أتوضأ، وإذا كنت تريد أن تقرأ كان تقديره: باسم الله أقرأ، وعلى هذا فقس، قال النبي ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[1] فقدر الفعل يعني: ليقول: ذبحت باسم الله.

لكن لماذا قدر فعلاً؟ ؛ لأنه الأصل في العمل؛ ولهذا كانت الأفعال تعمل بدون شرط، والأسماء لا تعمل إلا بشروط، كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة وغير ذلك.

وقدر متأخرًا لوجهين:

الوجه الأول: تيمنًا بالبداءة باسم الله.

والوجه الثاني: من أجل الاختصاص؛ لأن تأخير العامل عن المعمول يفيد الاختصاص والحصر.

وقدر موافقًا للمبدوء في مادته؛ لأنه أخص وأدل على المقصود، فأنت إذا أردت أن تتوضأ وقلت: باسم الله أتوضأ، كان أخص مما لو قدرت باسم الله أبتدئ.

قال الله عز وجل: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الواو هنا للقسم، والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة.

فقولنا: «تأكيد الشيء» هذه هي فائدة القسم، أنه يفيد التوكيد بذكر معظم، كأن المقسم يقول: إنني أؤكد هذا، كما أؤكد عظمة المحلوف به، ولا يمكن أن أحلف بهذا العظيم عندي إلا على أمر مؤكد.

وقولنا: «بصيغة مخصوصة» هي صيغة القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

فالواو: أكثرها استعمالاً، والباء أكثرها صيغة، يعني: أن الباء يُحلف بها مع وجود الفعل وحذفه، وتدخل على الظاهرة وعلى المضمر، والتاء أخص من الواو.

فإذًا أعم حروف القسم بالنسبة للاستعمال الباء؛ لأنها تستعمل مع وجود الفعل فتقول: أحلف بالله لتفعلنَّ كذا، ومع حذفه فتقول: بالله لتفعلنَّ كذا.

وتستعمل أيضًا مع الاسم الظاهر مثل: أحلف بالله.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).

ومع الاسم المضمر مثل: إن الله -وبه أحلف- لعَلَى كل شيء قدير، فهنا دخلت الباء على الضمير.

أما الواو فهي أكثرها استعمالاً، لكنها لا تدخل إلا على الظاهر، ولا يذكر معها فعل القسم.

والتاء هي أقلها استعمالاً وتختص بالظاهر، وتختص أيضًا بأسماء معينة، وهي: الله ورب، قال ابن مالك: والتاء لله ورب. فتقول: تالله لأفعلنَّ كذا، وتقول: ترب الكعبة لأفعلنَّ كذا، أو تالرب لأفعلنَّ كذا، ولا يذكر معها فعل القسم، فهي أضيقها استعمالاً.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ الصافات اسم مجرور بواو القسم؛ لأن حروف القسم تجر، والصافات لها معنى ولها مراد، فما دل عليه اللفظ باعتبار اللغة فهو معنى، وما كان مرادًا للمتكلم فهو المراد.

والمعنى في الصافات: أن الأشياء القائمات على خط واحد مستقيم، كل شيء متعدد يقوم على خط واحد مستقيم يسمى صافًّا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] يعني: على خط مستقيم. هذا المعنى للصافات.

لكن ما المراد به؟ قال المؤلف: [الملائكة]، وأُنِّث باعتبارها جماعات، وجماعات مؤنث.

وقد أخذ الزائغون بهذا الاشتباه أي: تأنيث الملائكة، وقالوا: إن الملائكة بنات الله؛ ولهذا تذكر بصيغة التأنيث، ولكن لاشك أن هذا من باب التلبيس والتشبيه. فإن الله تعالى ذكر الملائكة بصيغة المذكر قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يقل: يسبحن بحمد ربهن، وعلى كل حال أنثت الملائكة باعتبارها جماعات؛ لأن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- جماعات مختلفة، كل جماعة لها وظيفة معينة، فمنها من وظيفتهم العبادة الخاصة لله من التسبيح والركوع والسجود وغير ذلك، ومنهم ملائكة موكلون بحفظ بني آدم، وملائكة موكلون بحفظ أعمالهم وكتابتها، وملائكة موكلون بأشياء أخرى، منها ما نعلم ومنها ما لا نعلم.

فإذا قال قائل: من هم الملائكة؟

فالجواب: أنهم عالم غيبي خلقوا من نور، واستعبدهم الله -سبحانه وتعالى- في طاعته، فقاموا بها على أتم وجه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قال قائل: هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، وله ستمائة جناح قد سد الأفق، وأحيانًا يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب: أن هذا على سبيل الندرة، وما كان نادرًا فإنها لا يخرم القاعدة، أو لا يبطل التعريف، والنادر كما يقول العلماء: ليس له حكم.

ما وجه كون الملائكة توصف بالصافات؟

قال المؤلف:

١- [تصف نفوسها في العبادة، أو أجنحتها في الهواء، تنتظر ما تؤمر به]. هذا الصافات، وصفت بها الملائكة؛ لأنها تصف أنفسها للعبادة، يعني: تهيئها لها.

٢- أو يصفون عند الله -عز وجل- كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]

٣- أو تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]

فالطير إذا كان في الهواء وقد وضع أجنحته، لا تتحرك. يقال: إنه صاف.

فإذا قال قائل: (أو) في قول المؤلف هنا للتنويع أو للشك أو ماذا؟

يحتمل أن هذا للتنويع، يعني: أنها تصف هكذا وهكذا أو أنها للشك وللتردد بين قولين، قال بهما المفسرون.

ولكن المعنى الأول أحسن؛ لأن هذا وصف للملائكة، فهي تصف أنفسها للعبادة، وكذا تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به.

وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [الملائكة تزجر السحاب، أي: تسوقه].

إذًا فالموصوف شيء واحد، فالصافات هُنَّ الزاجرات، وقوله: [تزجر السحاب (أي: تسوقه) ولعل هذا على سبيل المثال من زجر الملائكة؛ لأن الملائكة تزجر السحاب أي: تسوقه، وكذلك تزجر الميت الكافر عند موته، تزجر نفسه لتخرج، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، وكذلك لعلها تزجر أشياء أخرى لا نعلمها.

المهم أن المراد بالزاجرات الملائكة.

فإن قيل: وكيف كانت زاجرة؟

نقل: لهذا عدة أوجه منها: زجر السحاب، وزجر النفوس الكافرة عند الموت، عند ذلك مما يأمرها الله به أن تزجره.

وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [أي: قُرَّاء القرآن يتلونه، ﴿ذِكْرًا﴾ مصدر من معنى التاليات]، قوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ عدل المؤلف بهذا الوصف عن الموصوف الأول فقال: [قراءة القرآن يتلونه] أي: النفوس التاليات ولو قيل: إن المراد بها الملائكة أيضًا؛ لأن الملائكة تتلوا القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١-١٦] فالملائكة تتلوا القرآن، فيمكن أن نجعل هذه الأوصاف الثلاثة كلها للملائكة.

والمؤلف -رحمه الله- أعرب ﴿ذِكْرًا﴾ على أنها مصدر من معنى التاليات. فاستفدنا من هذا

فائدة نحوية، وهي أن المصدر قد يكون من اللفظ، وقد يكون من المعنى، فإن كان من اللفظ، فهو مصدر لفظي، وإذا كان من المعنى فهو مصدر معنوي، فإذا قلت: قعدت جلوسًا، فجلوسًا مصدر معنوي. قعدت قعودًا مصدر لفظي، يقول المؤلف: [ذكرًا مصدر من معنى التاليات]، يعني: الذاكرات ذكرًا، فالتاليات عنده بمعنى الذاكرات، وذكرًا مصدر لها من معناها، ولكن الذي يظهر خلاف كلام المؤلف -رحمه الله- وأن ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول للتاليات؛ لأن التاليات اسم فاعل قد استوفى شروط العمل لكونه محلى بأل، وذكرًا مفعول به، أي: فاللاتي يتلين الذكر، والمراد بالذكر: القرآن وسمي ذكرًا:

١- لأنه ذكر لله -عز وجل- فإنه من أفضل الذكر.

٢- ولأنه يذكِّر الإنسان بربه.

٣- ولأنه يذكر الإنسان بأحكام ربه.

٤- ولأنه يذكر الإنسان بنعم ربه.

٥- ولأنه ذكر لمن عمل به أي: شرف ورفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

٦- ولأنه يعظ صاحبه ويذكره، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] فالقرآن ذكر من هذه الوجوه.

الفوائد:

١- **في الآيات الثلاث يقسم الله -عز وجل- بالملائكة باعتبار صفاتها:** صافات، وزاجرات، وتاليات؛ لأن كل صفة منها تدل على عظمة الخالق عز وجل.

٢- **ومنها:** فضيلة الملائكة في أحوالهم الثلاث: الصف، والزجر، والتلو؛ لأنه لا يحلف إلا بما كان أهلاً؛ لأن يحلف به.

فإذا قال قائل: كيف حلف الله -عز وجل- بالمخلوق؟

فالجواب على ذلك: أن الله -سبحانه وتعالى- له أن يحلف بما شاء من خلقه؛ لأنه المالك كما أنه -سبحانه وتعالى- يأمر بما شاء، أرأيت أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم والسجود لغير الله شرك، لكن الله يأمر بما شاء، أرأيت أمره إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام- أن يذبح ابنه وذبح ابنه من أعظم الكبائر وصار بأمر الله طاعة لله -عز وجل- كذلك الحلف بغير الله شرك، ولكن مع هذا لله أن يحلف بما شاء من خلقه، ولكن يجب أن نعلم أن الله لا يحلف بشيء من خلقه إلا كان هذا الشيء من أعظم آياته، فيكون الحلف بهذا المخلوق متضمنًا للحلف بآيات الله -عز وجل- التي هي فعله؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق.

٣- **ومن فوائدها:** أن من صفات الملائكة الصف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:

١٦٥] وقال النبي -عليه الصلاة والسلام: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا»(١).

٤- **ومن فوائدها:** أن الملائكة موكلة بالتصرف: بالزجر كزجر السحاب وزجر الكفار عند احتضارهم لقوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن الملائكة تتلو الذكر أي: تتلو القرآن، وهذا يدل على قيام الملائكة بعبادة الله، وعلى فضيلة القرآن حيث تتلوه الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ الجملة هذه جواب القسم؛ ولذلك كسرت إنَّ هنا لوقوعها في جواب القسم؛ ولأنه اقترن خبرها باللام.

وإذا وقعت إنَّ جوابًا للقسم وجب كسرها، وإذا اقترن خبرها باللام، أو اسمها المؤخر، أو معمول أحدهما باللام وجب كسرها.

قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ الخطاب يقول المؤلف: [يا أهل مكة]، ولكن الصحيح أنه عام يشمل كل من خوطب، ولكن الذي أوجب المؤلف أن يجعله خاصًّا بأهل مكة؛ لأن هذه الآية مكية والمشركون هم أهل مكة.

ولكن لا ينبغي أن يقيد المعنى العام بمكان نزوله، وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المكان.

فالصواب ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يعني: أيها الناس ﴿لَوَاحِدٌ﴾ يعني: لا شريك له، والواحد والأحد وما أشبههما تدل على الأنفراد، أي: أنه -عز وجل- لا شريك له، ﴿إِلَٰهَكُمْ﴾ فِعال بمعنى مفعول، أي: مألوهكم، والمألوه هو الذي يعبد محبة وتعظيمًا، فبمحبته يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبتعظيمه ينتهي عن النواهي، إذًا إن معبودكم أيها الناس لواحد لا شريك له، فالله -عز وجل- لا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، دليل الربوبية قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٠)، والنسائي (٨١٦).

٨٦-٨٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦] ودليل الألوهية قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]

ودليل الأسماء والصفات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالله تعالى واحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، سبحانه وتعالى.

ويرد على هذا أن للمشركين آلهة متعددة؟

والجواب: أن نقول: نعم لهم آلهة لكنها آلهة باطلة، والدليل على أنها باطلة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]

ثم قال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (رب) إما أن تكون عطف بيان، أو خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هو رب السماوات والأرض.

ورب بمعنى خالق، ومالك، ومدبر، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملك السماوات والأرض، وهو المدبر للسماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهذا انفراده بالخلق والتدبير، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧] وهذا انفراده بالملك.

والسماوات جمع سماء وهي معروفة، وعددها سبع سماوات بنص القرآن. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. أي: الأرض كذلك سبع لظاهر القرآن وصريح السنة.

أما ظاهر القرآن ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، [الطلاق: ١٢] فالمثلية هنا بالعدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماء في ذاتها ولا في سعتها وعظمتها، فالسماء أوسع وأعظم، ومادتها غير مادة الأرض؛ ولهذا يصف الله تعالى السماء بالقوة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] ولم يرد ذلك في الأرض. إذًا يتعين أن تكون مماثلة في العدد.

أما السنة فصريحة مثل قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شبرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: ورب ما بينهما، ولاشك أن الذي بينهما مخلوقات عظيمة بدليل أنها جعلت قسيمة وعديلة للسماوات والأرض. فلابد أن تكون شيئًا عظيمًا، ليس هي مجرد ما نرى من السحاب المسخر بين السماء والأرض، بل هناك أشياء عظيمة بين السماء والأرض من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

آيات الله -عز وجل-. نعرف منها السحاب فإنه بين السماء والأرض، والنجوم بين السماء والأرض، والشمس بين السماء والأرض، والقمر بين السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وما اشتهر عن علماء الفلك سابقًا من أن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا، وعطارد وزحل والمشتري في السماوات الأخرى، وهي على هذا الترتيب.

زُحَلٌ شَرِيٌّ مَرِّيخُهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ بِعُطَارِدِ الأَقْمَارُ

أعلاها زحل في السماء السابعة، (شرى) المشتري في السادسة، (مريخه) المريخ في السماء الخامسة، (من شمسه) الشمس في الرابعة، (فتزاهرت) الزهرة في الثالثة، بعطارد في الثانية، الأقمار في السماء الدنيا.

هذا هو المشهور عند علماء الفلك سابقًا، ولكن هذا خلاف الصواب؛ لأن ظاهر النصوص أن الشمس والقمر والنجوم كلها دون السماء ليست ملصقة في السماوات، بل هي في فلك يدور بين السماء والأرض، والقمر هو أقربها إلى الأرض بدليل أنه يكسف ما فوقه كما شاهدناه وشاهده غيرنا، أحيانًا تجده يمر من تحت النجمة فتغيب به، وهذا يدل على أنه تحت النجوم، على كل حال نقول: ما بين السماوات السبع السحاب والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها من أمور لا نعلمها، قد لا نعلم هذه الأمور، ويمكن أن العلم فيما بعد يطلعنا على شيء كثير منها.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: والمغارب للشمس، لها كل يوم مشرق ومغرب]، فكأنه من باب الاكتفاء بذكر المقابل عن مقابله، نظير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني: والبرد، فإن السرابيل التي هي القمص وشبهها تقي الحر والبرد.

والمشارق جمع مشرق، فما المراد بالمشارق؟ هل المراد كما قال المؤلف: مشارق الشمس؛ لأنها كل يوم لها مشرق؟ أو نقول: إن المشارق أعم فتشمل مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما شرق. أيهما أعم؟ الثاني أعم. فتقول: رب المشارق يعني: مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما يشرق، وذكر الله المشارق دون المغارب؛ لأن المشارق أدل على القدرة من المغارب، إذ إن الشروق ابتداء والغروب انتهاء.

وفي الشروق -أيضًا- ولاسيما في شروق الشمس إضاءة ونور يظهر فيه تمامًا كمال النعمة، وقوله: ﴿الْمَشَارِقِ﴾ هنا بالجمع، وفي بعض الآيات جاءت بالتثنية، مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] وفي بعض الآيات جاءت بالإفراد كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فهل هذا تناقض أم ماذا؟

الجواب: لا، وليس في القرآن شيء من التناقض قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فالقرآن لا يمكن أن يتناقض بنفسه، ولا أن يتناقض مع صحيح

السنة، وانتبه نقول: مع صحيح السنة؛ لأنه قد تأتي سنة ضعيفة تناقض القرآن، ومناقضتها للقرآن يدل على ضعفها، لكن مع صحيح السنة لا يمكن، فإن وجد شيء ظاهره التعارض فإنه لابد أن يكون هناك وجه لتصحيح التعارض: إما بإمكان الجمع وهو المرتبة الأولى للعمل بالنصوص التي ظاهرها التعارض، وإما بالنسخ إن علم التاريخ وكان النص مما يدخله النسخ، وإما الترجيح بكون أحدهما أرجح من الآخر، ولابد من هذه المراتب الثلاث. لكن أحيانًا قد لا يتسنى للناظر وجه من هذه الوجوه، فقد يعجز عن الجمع، وقد لا يعرف النسخ، وقد لا يمكنه الترجيح، فموقفه حينئذ التوقف، وأن يقول: الله أعلم، ولا يجوز أن يعتقد بأي: حال من الأحوال أن في القرآن أو صحيح السنة تناقضًا أبدًا، لكن هل له أن يحاول معرفة هذه المراتب، أو إذا أشكل عليه أول مرة وقف؟ يجب أن يحاول النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين، لئلا يقع في نفسه شك فيزيغ والعياذ بالله، فهذه الفائدة جاءت عرضًا، وهي أنه ليس في القرآن تناقضًا لا في نفسه ولا مع صحيح السنة، فإن وجد شيء ظاهره التناقض والتعارض وجب أن نستعمل المراتب الثلاث.

أولًا: (الجمع): فإن لم يمكن (فالنسخ)، فإن لم يمكن (فالترجيح)، فإن لم نصل إلى ذلك (فالتوقف) لكن مع محاولة الوصول إلى مرتبة من هذا المراتب.

فبناءً على هذه القاعدة يمكن أن ننزل الاختلاف الوارد في المشرق والمغرب فنقول: المشرق باعتبار الجهة يعني: جهة الشرق، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] يعني: جهة الشرق والمغرب جهة الغرب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: جهة الله على أحد التفسيرين، وأما المشرقين والمغربين فالمراد مشرقا الصيف والشتاء، ومغربا الصيف والشتاء، فالشمس مثلًا لها منتهى في مشرقها صيفًا، وهو مدار السرطان، ولها منتهى في مدارها شتاء وهو مدار الجدي.

فالفرق بين المشرقين فرق كبير، لا يستطيع أحد من المخلوقين أن يحول الشمس من مدار السرطان إلى مدار الجدي ولا شعرة واحدة، وكذلك نقول بالنسبة للقمر؛ لأنه يدور على هذه المعالم: المشرقين والمغربين.

فالمشارق والمغارب الجمع فيها واضح، إما باعتبار مشارق، كل ما يشرق ومغارب كل ما يغرب من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وإما أنها المشارق اليومية للشمس؛ لأن كل يوم لها مشرق، وهذه المرتبة مرتبة الجمع، فالجمع بينها أن نقول: المشارق باعتبار مشارق كل ما يشرق، أو باعتبار المشارق مشارق الشمس كل يوم، والمشرقين باعتبار مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيهما المشرق والمغرب الجهة.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآيات:** وحدانية الله -عز وجل- في ألوهيته لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** بطلان ألوهية ما سوى الله لقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ فإذا كان واحدًا فما سواه فهو باطل.

٣- **ومن فوائدها:** أهمية التوحيد؛ ولأن الله تعالى أقسم بالملائكة على ثبوت هذا التوحيد؛ ولأن الله تعالى أكده بثلاثة مؤكدات: القسم، إن، اللام. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** التناسب بين المقسم به وعليه، فالمقسم به الملائكة في حال تلك الأوصاف: الصف والزجر والتلو، والمقسم عليه وحدانية الله، والتناسب بينهما: أن الملائكة إنما تفعل ذلك توحيدًا لله -سبحانه وتعالى- وتعظيمًا له.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الربوبية لله -سبحانه وتعالى- لقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** عموم ربوبيته في قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فإن قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ كالدليل على توحده بالألوهية، وذلك أنه إذا كان متوحدًا بالربوبية لزم أن يكون متوحدًا في الألوهية. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فكيف تعبدون غيره ممن لم يخلقكم ولا خلق أحدًا؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]

ولهذا قال أهل العلم: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقضًا؛ لأنه يقال له: كيف تقر بأن الله وحده هو الرب الخالق ثم تعبد معه من لا يخلق؟ وهل هذا لا تناقض؟

وهذه الآية وما شابهها من آيات الكتاب العزيز تدل على التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ولكن كيف تلزمه؟ ؛ لأنه إذا قال: إن الله -سبحانه وتعالى- واحد في الخلق فيجب ألا يعبده غيره.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات أن للسماوات عددًا لقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ وقد بين في مواضع أُخرى بأنها سبع، وكذلك الأرض.

٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى عظم السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن الله أضاف الربوبية إليها في مقام إقامة الحجة، وهذا يدل على عظمتها، وأنها لعظمتها صارت كالدليل الملزم لتوحيد الألوهية.

١٠- **ومن فوائدها:** أن بين السماوات والأرض من المخلوقات العظيمة ما اقتضى أن يكون ما بين السماء والأرض قسيمًا للسماوات والأرض.

١١- **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله -سبحانه وتعالى- بتصريف المشارق والمغارب لقوله:

﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ ولا أحد يستطيع أن يتصرف في هذه المشارق والمغارب لا بتقديم ولا بتأخير ولا بتغيير مكان، لو أن الخلق كلهم اجتمعوا على أن يقدموا طلوع الشمس بدقيقة واحدة، أو يؤخروها، أو يزحزحوها عن مكانها ما استطاعوا، إنما ذلك إلى الله -عز وجل- هو الذي يتصرف فيها، وقد أمرها أن تسير كما أمرها بحكمته فسارت إلى أجل مسمى. فإذا أراد الله تعالى أن يغيرها غيَّرها وردها من حيث جاءت فشرقت من حيث غربت.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ يعني: أن الكواكب تزين السماء، وسنورد على هذا أي:رادًا، وهو أننا ذكرنا قبل آنفًا أن النجوم والكواكب في فلك بين السماء والأرض، وظاهر الآية أن تزين السماء الدنيا بشي لاصق به.

والجواب على ذلك أن يقال: إن الشيء قد يزين بالشيء ولو كان منفصلًا عنه. أرأيت لو وضعت ثريات خارج القصر فإذا نظرت إلى القصر والثريات بينك وبينه فإن هذه الثريات ستكون زينة للقصر مع أنها في الواقع ليست لاصقة به، فكل شيء يحول يكون بينك وبين شيء آخر فإنه سيتصف به الشيء الثاني، وسيكون في نظرك ملاصقًا له.

قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يقول المؤلف: [حفظًا منصوب بفعل مقدر: أي: حفظناها بالشهب] أي: حفظنا السماء الدنيا حفظًا بالشُّهُب كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقال هنا: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ (من كل) قال المؤلف: متعلق بالمقدر وهو حفظناها.

وقوله: ﴿شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ عاتٍ خارج عن الطاعة، وكلمة شيطان نكرة يشمل كل شيطان، بل هو نكرة مضافة إليه.

وقوله: ﴿كُلِّ﴾ فيكون فيه نوعان من أسباب العموم وهو التنكير وإضافة (كل) إليه.

وشيطان قيل: إنه مأخوذ من شاط يشيط، وعلى هذا فالنون زائدة، وقيل: إنه من شطن بمعنى

بَعُدَ، فالنون أصلية، وهذا هو الظاهر أن النون أصلية وهو مأخوذ من شطن إذا بعد؛ لأن الشيطان قد بَعُدَ من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥].

وقوله: ﴿مَّارِدٍ﴾، المارد: هو العاتي القوي العتو، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: الشياطين مستأنف وسماعهم هو في المعنى المحفوظ عنه ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ الجملة -كما قال المؤلف- استئنافية، يعني: أن الشياطين المردة لا يسمعون إلى الملأ الأعلى هذه الجملة المستأنفة هي في المعنى المحفوظ عنه في قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ عن سماعهم إلى الملأ الأعلى، يعني: أن السماء حفظت من الشياطين ألا يسمعوا إلى الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة في السماء، وعُدِّي قال المؤلف: [السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء].

الملأ في الأصل الجماعة، ويطلق في الغالب على الأشراف، كما يمر كثيرًا في المكذبين للرسل أن الله يقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾، فالغالب أن الملأ هم الجماعة الأشراف والأعيان في قومهم.

ولا ريب أن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- أشراف؛ لأنهم عباد مسخرون لعبادة الله في طاعة الله وسيأتينا إن شاء الله في الفوائد هل هم أفضل من البشر، أو البشر أفضل منهم، وهنا يقول: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: الأعلى مكانًا، فإن السماء أعلى من الأرض، ويمكن أن يراد به الأعلى وصفًا فيجمع بين الأمرين، كما أن الله -سبحانه وتعالى- إذا وصف بالأعلى فهو الأعلى مكانًا والأعلى وصفًا.

قال: [وعُدّي السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء]، هذا جواب عن سؤال مقدر، وهو أن ﴿سَمِعَ﴾ في اللغة العربية تتعدى بنفسها، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١] وهنا قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ ولم يقل: لا يسمعون الملأ، أجاب المؤلف عنه بأن الفعل ضمن معنى الإصغاء، والتضمين معناه أن يكون الفعل متضمنًا لمعنى يناسب المعمول، سواء كان مفعولًا به أو مجرورًا، وهل التجوز إذا جاء مثل هذا التعبير هل يكون التجوز بالفعل أي: أنه ضمن معنًى يناسب المعمول الذي تعدى إليه الفعل، أو التجوز في الحرف؟ ذكر أهل النحو في ذلك قولين:

القول الأول: وهو للكوفيين أن التجوز في الحرف.

والقول الثاني: أن الفعل متضمن معنى يناسب الحرف المتعدي إليه.

وأبين مثال لذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الأنسان: ٦] لو أننا أخذنا بظاهر اللفظ لكان المعنى أن هذه العين يُشرب بها، ومعلوم أن العين لا يمكن أن يشرب بها؛ لأنه لا يشرب إلا بالإناء من العين، فالعين لا يُشرب بها وإنما يشرب منها، فهل نقول: إن الباء هنا بمعنى (من)

فيكون تجوز بالحرف، أو نقول: أن يشرب متضمن معنى يروى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى بها عباد الله بعد شربهم منها، ذكرنا في هذا قولين لأهل العلم، ولا ريب أن جعل التضمين في الفعل أولى من جعله في المعمول؛ لأنك إذا جعلت التضمين في الفعل استفدت فائدتين:

الفائدة الأولى: ما دل عليه لفظ الفعل.

الفائدة الثانية: ما دل عليه معنى الفعل المتضمن أياه.

أما إذا جعلت التجوز في الحرف فإنك لا تستفيد إلا معنى واحدًا، وهو نزع الحرف وإحلال حرف آخر مكانه، ولم نستفد شيئًا ويبقي الفعل على ما هو عليه بمقتضى دلالة اللفظ، فالحاصل أن القول بأن الفعل يتضمن معنى يناسب الحرف، أو يناسب المعمول أولى من القول بأن المعمول هو الذي فيه التجوز.

هنا ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ نقول: الفعل يتضمن معنى الإصغاء. يعني: لا يصغون إليهم مستمعين.

وفي قراءة بتشديد الميم والسين: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ وأصله يتسمعون، أدغمت التاء في السين فصارت يسَّمَّعون، والقراءة هذه سبعية؛ لأن في اصطلاح المؤلف أنه إذا قال: في قراءة، فهي سبعية وإذا قال: قُرِئَ، فهي شاذة.

قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [أي: الشياطين بالشهب من كل جانب من آفاق السماء، ﴿دُحُورًا﴾ مصدر دحره، أي: طرده وأبعده وهو مفعول له]، ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، الضمير يعود على الشياطين.

فإذا قال قائل: إنه لم يتقدم ذكر الشياطين؟

فالجواب: بلى، تقدم في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾؛ لأن كل شيطان عام، فيكون دالاً على الجمع، إذًا يقذفون أي: الشياطين المعلوم جمعهم من قوله: ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾، الذي يقذفهم الله -عز وجل- بأمره، يأمر هذه الشهب فتقذفهم، فالقذف هو الرمي بشدة.

قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من الجوانب التي تصيبهم من آفاق الساء، كما قال المؤلف: ﴿دُحُورًا﴾ يعني: طردًا وإبعادًا، وهي كما قال المؤلف مفعول له؛ أي: لأجل الدحور، والمفاعيل خمسة: المطلق، والمفعول به، والمفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه، وأمثلتها:

ضَربتُ ضَربًا أَبَا عَمْرو غَدَاةَ أَتَى ... وَسِرْتُ وَالنِّيلُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِكَ لِي

ضربت ضربًا مفعول مطلق، أبا عمرو مفعول به، غداة أتى المفعول فيه، وسرت والنيل المفعول معه، خوفًا من عقابك لي المفعول له.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم فهم يعذبون في هذه الدنيا بهذه الشهب، ويعذبون

في الآخرة بالعذاب الدائم؛ لأن الشياطين من أصحاب النار.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله: [مصدر أي: المرة، والاستثناء من ضمير (يسمعون) أي: لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ كوكب مضيء ﴿ثَاقِبٌ﴾ يثقبه أو يحرقه أو يخبله]، لما قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وكان هذا النفي عامًّا: يعني: لا يسمع أي: واحد من هؤلاء الشياطين إلى الملأ الأعلى، استثنى الشياطين المردة الذي يخطفون الخطفة؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ يعني: أخذ الشيء بسرعة، وخطفة مصدر يدل على الوحدة، يعني: إلا شيطانًا يخطف الخطفة فهذا يسمع، ولكن هل إذا خطف الخطفة ينجو؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فهنا استثنى من نفي سماعهم إلى السماء، استثنى الذي يخطف الخطفة فهو يسمع، ولكن هل ينجو حتى يصل إلى الأرض؟ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تبعه شهاب ثاقب يعني: كوكب مضيء ثاقب أي: نافذ ينفذ فيه فيخرقه أو يحرقه أو يخبله، وربما ينجو من هذا الشهاب إذا أراد الله -عز وجل-، ويصل على الكاهن ويوحي إليه بما سمع، ثم الكاهن يكذب مع ما سمع كذب مع ما سمع كذبات كثيرة مئة كذبة أو أكثر أو أقل، ثم يحدث الكاهن الناس بما سيكون، فإذا وقع قال: إنه يعلم الغيب، واتخذ من هذا دعاية لنفسه؛ ولهذا كان الكهان في العرب في الجاهلية كانوا معظمين يتحاكم الناس إليهم؛ لأنهم إذا أخبروا من هذه الأمور من علم الغيب وقع ما أخبروا به وصار لهم شأن كبير عند الناس، فصار الشياطين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم لا يمكنه السماع إطلاقًا.

القسم الثاني: قسم آخر يمكن أن يسمع على سبيع الخطف ويحرقه الشهاب.

والقسم الثالث: قسم يسمع على سبيل الخطف، وينجو، وكل هذا بإذن الله -عز وجل- وإرادته تبعًا لحكمته.

وكل هذه الآيات في بيان عظمة السماء، وأن السماء محفوظة محروسة لا يمكن أن يصل إليها أحد.

في هذه الآيات من الفوائد:

١ - بيان أن الله تعالى زين السماء بهذه الكواكب، فإنك إذا رأيت السماء في ليلة صافية ليس فيها قمر ولا حولك إضاءة وجدت لها من الحسن ما لا تتصوره من حسن هذه النجوم، فيها اللامع والخفي والقريب بعضه من بعض والمتباعد بعضه من بعض، والمختلف الأشكال مما يدل على عظمة الخالق عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى جعل هذه النجوم زينة للسماء، وفيها أيضًا فائدة غير الزينة أشار إليها بقولن: ﴿وَحِفْظًا﴾، وفيها فائدة ثالثة غير الحفظ والزينة: الاهتداء ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] فهذه النجوم فيها الفوائد الثلاث.

٢- **ومن فوائدها:** أن السماوات متطابقة بعضها أدنى من بعض؛ لقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ مما يدل على أن هناك سماوات فوقها، وهو كذلك.

٣- **ومن فوائدها:** عناية الله -سبحانه وتعالى- بخلقه حيث زين لهم السقف الذي فوق رؤسهم؛ لأنه لو كان مظلمًا حالكًا لا يرون فيه شيئًا منيرًا لكان في ذلك شيء من الأي:حاش، ولكن الله تعالى اعتنى بهذا فزينه لهم.

٤- **ومنها عناية الله من وجه آخر حيث حفظ السماء الدنيا بهذه الكواكب.**

فإذا قال قائل: ما فائدة هذا الحفظ؟

قلنا: الفائدة لئلا تعبث الشياطين بما ينزل من السماء من الوحي، أو تعبث الشياطين بتغرير الخلق بالكهان وأنهم يعلمون الغيب.

٥- **ومن فوائدها:** أن الشياطين مردة لقوله: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ بناءً على أن كلمة مارد صفة كاشفة، فإن جعلت صفة مقيدة ففيها دليل على أن الشياطين منهم مردة، ومنهم دون ذلك، والآية محتملة لأن تكون مارد صفة لكل شيطان، ومحتملة لن تكون صفة لبعض الشياطين، وأن يكون بعضهم غير مارد.

٦- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى السماع الكامل بحيث ينالون مرادهم، بسبب هذه الشهب التي تحرقهم فلا يستطيع الواحد منهم أن يسمع سماعًا كاملًا يصغي إلى الملأ الأعلى كما يصغي الإنسان إلى شيخه وإلى محدثه، بل تجدهم يأتون إلى السماء خطفًا فيخطفون ما يسمعون دون أن يكون هناك مهلة وتأنٍّ؛ لأنها تخشى من الشهب.

٧- **ومن فوائدها:** أن الشياطين أجسام لقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ لأنه لا يخرق ولا يحرق إلا ما كان جسمًا وهو كذلك، فإن الشياطين أجسام، لكنهم أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة أجسام البشر؛ ولهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ»(١).

كما أن الروح تجري من الجسد مجرى الدم، والروح جسم لطيف فكذلك الشياطين أجسام لطيفة تخترق الأجسام الكثيفة.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله - سبحانه وتعالى- قد يعطي هذه الأجسام اللطيفة قدرة يصلون بها إلى السماء؛ لقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، ولا شك أنهم قد يصلون إلى السماء، وأن لديهم من القوة ما هو أشد من قوة البشر ذوي الأجسام الكثيفة، أرأيتم لما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ

(١)متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين (٣٨) قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] وكان له وقت معين يقوم فيه من مقامه، فقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، يعني: قبل أن يأتي الوقت الذي تقوم فيه، وكان سليمان عليه الصلاة والسلام في الشام، وعرش ملكة سبأ في اليمن، ويقول: آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب والذي دعا الله -عز وجل- بما دعاه به: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. يعني: قبل أن ترسل طرفك ثم ترده؛ لأن الذي تأتي به الملائكة، والملائكة أقوى من الشياطين، فلهذا رآه في الحال. فلما رآه مستقرًّا عنده قال: ﴿هذا من فضل ربي﴾ إلى آخر الآيات.

المهم: أن الشياطين لهم قوة وقدرة توصلهم إلى السماء، والذي أعطاهم هذه القوة والقدرة هو الله عز وجل.

١٠- **ومن فوائدها**: فضيلة الملائكة، حيث وصفوا بأنهم الملأ الأعلى لعلو مكانهم ومكانتهم، ففيهم العلو الحسي والعلو المعنوي.

١١- **ومن فوائدها**: أن الشهب التي تقذف بها الشياطين تأتيهم من كل جانب، فإلى أي: جهة حاولوا الفرار يجدون الشهب، ولا يلزم أن تجتمع هذه الشهب عليهم، قد يكون شهاب واحد يأتيهم من جهة، لكن لو حاولوا الفرار أتاهم شهاب ثانٍ، وهكذا أي: جهة يحاولون الفرار منها سيجدون الشهاب، قال: ﴿ويقذفون من كل جانب﴾.

١٢- **ومن فوائدها**: أن الشياطين ليست أهلًا ؛ لأن تحل السماء أو تقعد فيها أو تقرب منها؛ ولهذا يقذفون لإبعادهم دحورًا.

١٣- **ومن فوائدها**: أن الشياطين مكلفون، يقع عليهم العقاب الدائم لقوله: ﴿ولهم عذاب واصب﴾ يعني: دائم.

١٤- **ومن فوائدها**: أن الشياطين قد تأتي بخبر السماء لقوله: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ ولكن قد يقول قائل: إن الله قال: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾

لكن قد يقول قائل: إن الله قال: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ ثم قال: ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ وحينئذ لا يصل إلى مراده؟

فالجواب: أنه قد دلت النصوص الأخرى على أنه قد يصل إلى مراده، فيصل إلى الكاهن قبل أن يدركه الشهاب.



قال الله تعالى:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١]

التفسير

قال الله -عز وجل: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: قال المؤلف -رحمه الله: [استخبر كفار مكة تقريرًا أو توبيخًا ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الملائكة والسموات والأراضين وما فيهما، وفي الإتيان بمن تغليب للعقلاء].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: اطلب منهم الفتوى، والفتوى في الأصل هي الإخبار بالشيء، ولكنها في اصطلاح الفقهاء: هي الإخبار عن حكم شرعي.

وهنا ليس المراد بذلك الفتوى الشرعية، وإنما المراد بها الفتوى اللغوية، يعني: استخبرهم واسألهم أهم أشد خلقًا أم من خلقنا؟ فسيقولون من خلق الله أشد، كل يعرف أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكذلك الذين يؤمنون بالغيب يقرون بأن ما غاب عنا من مخلوقات الله أعظم مما نشاهد. اللهم إلا أحدًا يريد أن يكابر، ويقول: أنا أشد خلقًا، كما قال الشيطان لله -عز وجل: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وكما قال فرعون لقومه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وإلا فكل يعلم أن المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض والشمس والقمر أعظم من خلق الإنسان.

قال المؤلف: [وفي الإتيان بمن تغليب العقلاء]، أي: في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ولم يقل: أما خلقنا تغليبًا للعقلاء، وذلك أن ما خلقهم الله -عز وجل- فيهم العقلاء وفيهم غير العقلاء، يعني: فيهم من يعقل وفيهم من لا يعقل. فالملائكة والجن يعقلون، والبهائم والجمادات لا تعقل، وإن كانت البهائم أقرب إلى العقل من الجمادات، ومع هذا كل هذه الأشياء لها عقل تدرك بها خالقها -عز وجل-، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أن جبل أحد يحب النبي ﷺ والنبي ﷺ يحبه، وغلب العقلاء مع أنهم الأقل؛ لأنهم أفضل وأشرف.

قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: أصلهم آدم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ لازب يلصق باليد، المعنى أن خلقهم ضعيف فلا يتكبرون بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير].

لما قال: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ بيَّن أصل خلقهم ليبين هل هم أشد أم من خلق الله؟

والحقيقة أن الجملة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ تحتاج إلى وقفة بالنسبة للإعراب. الهمزة للاستفهام و(هم): مبتدأ و(أشد): خبر، (خلقًا): تمييز؛ لأن أفعل إذا جاء الاسم بعدها منصوبًا فهو تمييز، وأما (من خلقنا) فهذا هو المعادل؛ ولهذا فالهمزة هنا للتسوية يعني: أي:ستوي هم ومن خلقنا؟ والجواب: لا، لا يستوون. بل من خلق الله أعظم والله أعلم.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** ما يدل على أن الرسول ﷺ مكلف بالإبلاغ والمحاجة؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ وهو كذلك، فإن الله أمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وأمره أن يجادل قومه قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وأخبر بأنه يحاجهم لقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

٢- **ويتفرغ على هذه الفائدة:** أن وظيفة أهل العلم الذين ورثوا علمه كوظيفته في هذا الباب فيلزمهم محاجّة أهل الباطل ومقارعتهم.

٣- **ويتفرع على ذلك:** أن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله؛ لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق؛ ليدحض به باطلهم، وأحيانًا يكون الغزو الفكري أعظم فتكًا من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم -أحيانًا- بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه، وأحيانًا بالغزو الفكري وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحًا كاملًا، وهم لا يشعرون؛ لأنهم يغرون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات: نسي ما خُلِقَ له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله -عز وجل-. فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشهوات، ولا يسعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يخلق لغيرها.

كذلك يغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدمًا وأشد حضارة وأقوم طريقًا وما شابه ذلك. فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لاشك أنه موجود، وأن كثيرًا من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري. إنهم لو غزوا البلاد الإسلامية غزوًا عسكريًّا لحلوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلوب الناس نافرة منهم مبغضة لهم، لكن المشكل أن يغزو الناس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم، وهم جالسون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشكل، وهذا هو الدمار؛ ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من

كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مساويًا إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغزو العسكري، فأنا أحثكم - بارك الله فيكم- وأحث نفسي على أن نعد العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة؛ حتى نحمي المسلمين من شر هؤلاء؛ لأن سلاحهم أعظم فتكًا وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر، وربما من خرج منكم إلى البلاد الأخرى، عرف أكثر مما أعرف مما أدى إلى الأنحراف في العقيدة، والانجراف وراء الشهوات التي أصبحت بعض البلاد الإسلامية كأنها بلاد كافرة، وهم الأن يحاولون أن يغزو هذه البلاد بكل ما استطاعوا، حتى إننا نجد -أحيانًا- في الصحف ينشر الدعوة إلى اضمحلال أخلاق المسلمين وعاداتهم، ينشر أحيانًا دعاية للأزياء الأوربية والإفرنجية، وبهذا اللفظ يفتح معرض للأزياء الغربية، أو الأزياء الأوربية، أو الموضات الأوربية، أو ما أشبهه، كل هذا لأجل أن يفسدوا أخلاقنا، وإذا فسد الخلق فسدت العقيدة، وإذا فسدت العقيدة زال تعلق المسلمين بربهم، وحينئذ صاروا أضعف الأمم، نسأل الله الحمآية والسلامة.

٤- **ومن فوائدها:** أمر الله -تعالى- النبي ﷺ أن يتحدى هؤلاء المكذبين بالاستفتاء: أهم أشد خلقًا من خلقنا؟

٥- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي في المجادلة أن يؤتي بما يقر به الخصم؛ ليكون حجة عليهم؛ لأنهم سيقرون بأن من خلق الله أشد خلقًا منهم، فإذا أقروا بذلك قامت عليهم الحجة.

٦- **ومن فوائدها:** عظمة الله -سبحانه وتعالى- بعظمة خلقه؛ لأن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق؛ ولهذا إذا شاهدنا قصرًا جيدًا في بنائه وهندسته، عرفنا أن الذي بناه كان جيدًا ماهرًا، والعكس بالعكس.

٧- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى خلق بني آدم أو إلى أصل خلقهم بأنهم خلقوا من طين لازب، يلصق باليد مهين لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- حيث خلق هذا الإنسان الخصيم المبين من هذا الطين ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى إمكان البعث، وأن الله قادر عليه، وأنه القادر على هذه المخلوقات التي هي أشد خلقًا منهم، وعلى خلقهم من الطين قادر على إعادتهم قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات الخلق لله في قوله: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾.

١١- **ومن فوائدها أيضًا:** تفاوت الخلق في العظم؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ فتكون المخلوقات متفاوتة في عظمها ودلالتها على قدرة الله؛ لأن ما كانت أعظم كان أدل على القدرة.

١٢- **ويتفرع على هذه الفائدة:** أنه كما تتفاضل الآيات الكونية كذلك تتفاضل الآيات الشرعية؛ ولهذا كان أعظم السور في كتاب الله سورة (الفاتحة) وأعظم آية (آية الكرسي) و(قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، فالآيات الكونية تتفاضل بعضها أدل على القدرة من بعض، وكلها دليل على القدرة حتى الذباب أهون شيء يدل على قدرة الله -عز وجل-، وكذلك الآيات الشرعية.



قال الله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٢-١٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ في هذه الآية قراءتان بفتح التاء، فيعود الضمير على رسول الله ﷺ، وبالضم على الله سبحانه وتعالى، هذا هو القول الصحيح، وإذا كان عائدًا إلى الله -عز وجل- فهل هو عجب حقيقي أو مجازي؟ الصحيح أنه حقيقي وأنه كسائر الصفات، فإذا قال قائل: إن العجب هو حالة تطرأ على الإنسان لفعل مالا يخطر له على بال، أو لحصول ما لا يخطر له على بال، فكيف يمكن أن يوصف الله به؟

فالجواب أن نقول: إن أنواع العجب ثلاثة أقسام: عجب استحسان، وعجب إنكار، وعجب استفهام، والعجب الذي بمعنى الاستفهام لا يكون في حق الله؛ لأنه يكون لخفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم. مثال: للعجب الذي يحمل عليه الاستحسان «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»، مثال عجب الأنكار من الله ﴿عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ هذا عجب إنكار.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ المراد بالآية أي: آية؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، وأما قول المؤلف كانشقاق القمر فهذا للتمثيل فقط.

قال: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ولم يقل: يسخرون؛ أي: سخرية مع تكبر وتعالٍ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (إن) نافية بمعنى ما، وخبرها ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ صفة لسحر، وهذا النوع من الاستثناء يسميه النحويون استثناء مفرغًا؛ لأن ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها، فإذا كان ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها سمي استثناء مفرغًا. تقول: ما قام إلا زيد، وما أكرمت إلا المجتهد، وما مررت إلا بعلي، فإذا كان الذي قبل (إلا) يتطلب ما بعدها

سمي استثناء مفرغًا. فـ﴿مُبِينٌ﴾ بمعنى بيِّن ظاهر، وأبان تأتي لازمة ومتعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى «بان»، تقول: أبان الصبح، (أي: بان وظهر)، وإذا استعمل متعديًا بمعنى أظهر. تقول: أبان الحق، (أي: أظهر).

الفوائد:

١- في هذه الآيات من **الفوائد:** إثبات العجب لله -عز وجل- على قراءة ضم التاء، وهو من صفات الله الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، وكل شيء يتعلق بمشيئته فهو من الصفات الفعلية عند أهل العلم.

فإذا قال قائل: ما الذي يُعلمنا أنه يتعلق بمشيئته؟

فالجواب: أن كل صفة علقت على سبب فهي من الصفات الفعلية؛ لأن الأسباب حادثة، وما يترتب على الحادث فإنه حادث، وعلى هذا فنقول: الرضا من الصفات الفعلية؛ لأن له سببًا، والغضب والكراهة والسخط وما أشبهه، وطريق أهل السنة والجماعة في مثل هذه الصفة، إثباتها لله على الوجه اللائق به لا وجه القصور والنقص.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** علو منزلة الرسول ﷺ على قراءة الفتح، حيث اعتبر الله -عز وجل- تعجبه تعجبًا ينوه عنه في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ومعلوم أن الذي يُنَوِّهُ عن أحواله عظيم عند من نوّه عنه، بخلاف من لا يُؤْبه له ولا يُهتم به؛ ولهذا في أوساط الناس إذا غضب الملك ليس كغضب سائر الناس، تجده مثلًا يقال: تحدث الملك فغضب، لكن لو يأتي واحد من عامة الناس لو تفجر من الغضب ما تحدث الناس عنه، فتحدث الله -عز وجل- عن عجب الرسول ﷺ يدل على علو منزلته عند الله وعلى عظم شأنه ﷺ.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء القوم الذي أنكروا الحق زادوا في طغيانهم حتى صاروا يسخرون من الحق وأهل الحق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ يعني: من تعجبك من أحوالهم يسخرون مما جئت به، ويسخرون بك، وهذه عادة أعداء الرسل، ويسخرون من الرسل ومما جاءوا به، ومما يفعلونه أيضًا.

قال الله تعالى عن نوح: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]

٤- من هذه الفائدة نأخذ فائدة أخرى: وهو أنه يجب على الدعاة إلى الحق أن يصبروا على ما ينالهم من الناس من السخرية؛ لأن أعداء الرسل أكثر من أولياء الرسل. فالدعاة إلى الحق يجب عليهم الصبر إذا سمعوا من يسخر بهم، سواء كان هؤلاء الساخرون من الكفار، أو من أولياء الكفار؛ لأنه يوجد من المسلمين من هو من أولياء الكافرين، فالواجب على الدعاة أن يصبروا؛

لأن الرسل الذين هم أهل الحق، وقادة الحق، وأئمة الحق قد سخر الناس منهم، فكيف بك أنت، فالواجب عليك أن تصبر، والواجب على كل داعية أن يصبر على ما يحصل له من السخرية، وليعلم أن العاقبة للمتقين.

٥- **ومن فوائدها:** عتو هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ لكونهم ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتعظون، وذلك لقسوة قلوبهم وعتوهم -نسال الله العافية- عكس المؤمنين الذي إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليهم صمًّا وعميانًا.

٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء المكذبين إذا رأوا الآية الدالة على صدق الرسل ازدادوا سخرية وترفعًا ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وهذا فوق السخرية السابقة الذي قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾، وكان المفروض أنهم إذا رأوا الآيات أن يستسلموا، ولكنهم على العكس من ذلك إذا رأوا البية يستسخرون والعجب من قوم النبي -عليه الصلاة والسلام- الذي كذبوه أنهم قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فانظر إلى العتو -والعياذ بالله- كان الذي ينبغي أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا له، أما أن يقولوا هكذا فهذا أكبر دليل على أنهم -والعياذ بالله- طاغون معتدون.

٧- **ومن فوائد الآيات:** أن المعادين للرسل يصفون ما جاءوا به بالصفات القبيحة تنفيرًا للناس منهم، يؤخذ من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم في ذلك كاذبون يعلمون أنه ليس بسحر، لكن قالوا هذا تنفيرًا للناس عن طريق الرسل.

وهل وُرِّثَتْ هذه المقالة؟ الجواب: نعم، ورثت هذه المقالة، من أول من جاء من الرسل إلى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة، قال الله -تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] كل أعداء الرسل يقولون: هذا ساحر أو مجنون.

هذه الكلمة وأريد جنس هذه الكلمة لا نوعها ورثت، فصار أهل الباطل الأن يلقبون أهل الحق بألقاب السوء، انظر مثلًا إلى أهل التعطيل يلقبون أهل الإثبات بقولهم: حشوية مجسمة مشبهة وما أشبه ذلك، فهم يقولون مثل هذا الكلام من أجل أن ينفروا الناس عن طريق الحق، كذلك -أيضًا- أعداء أهل الحق يقولون هؤلاء رجعيون، هؤلاء متحجرون، هؤلاء متشددون، هؤلاء متزمتون، هؤلاء متنطعون إلى غير ذلك من الألقاب، لكن أهل الحق الذين هم أهله لا يزدادون بهذه الألقاب إلا قوة وثباتًا على ما هم عليه؛ لأنهم يعلمون أنهم منصورون بنصر الله -عز وجل-، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] و،ا كررت كثيرًا بأن انتصار الإنسان ليس انتصار شخصه فقط، قد ينصر الإنسان في حياته ويتبين له النصر، وقد ينصر

بعد مماته، بنصر ما قاله من الحق، ويكون كل من عمل بالحق الذي جاء به أو الذي بينه يكون له مثل أجره، وهذا انتصار. كل إنسان يحب أن ينتصر الحق بينَّه للناس في حياته أو بعد مماته.



قال الله تعالى:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ المراد بهذا الاستفهام الاستبعاد وا؛ لأنكار، يعني: أننا ننكر ونستبعد أننا نبعث إذا كنا ترابًا وعظامًا، وفي قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ عدة قراءات.

أولًا: تحقيق الهمزتين تقول: أإذا.

ثانيًا: تسهيل الثانية.

ثالثًا: إدخال الألف في التحقيق.

رابعًا: إدخال الألف في التسهيل.

قوله: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فيها قراءتان أيضًا:

١- تسهيل الواو.

٢- فتحها.

الفوائد:

١- **في هاتين الآيتين:** دليل على قوة إنكار هؤلاء المكذبين للبعث؛ وذلك لأنهم أتوا به بصيغة الاستفهام المؤكد بإن، وهذا كقول أخوة يوسف له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠] يعني: أتؤكد أنك يوسف. فهؤلاء قالوا: أي:ؤكد لنا أئنا مبعوثون، وإذا دخلت همزة الاستفهام على هذا دل على أنهم يؤكدون إنكارهم بالبعث.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يأتون بالشبه؛ لأنهم يقولون: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعني: أويبعث أيضًا آباؤنا الأولون، وهذا لقوة إنكارهم؛ لأنهم كما قال الله عنهم في سورة الجاثية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهل الذين قالوا: إنكم تبعثون قالوا: إن البعث يكون في الدنيا حتى تقولوا ائتوا بآبائنا؟ نعم لو قالت الرسل:

إنكم يبعثون في الدنيا، أو إن آباءكم يبعثون في الدنيا صحَّ أن يقولوا: ائتوا بآبائنا، لكن الرسل يقولون: إن البعث لهم ولآبائهم يكون يوم القيامة، فهذه الشبهة التي أوردوها لا تزيدهم إلا سفهًا إلى سفههم، حجتهم التي ادعوها قالوا: إنكم تقولون إن آباءنا يبعثون هاتوهم أو ابعثوهم، وهذه ليست حجة؛ لأن الرسل ما قالوا إن آباءكم يبعثون الأن في الدنيا حتى تتحدوا بقولكم ائتوا بآبائنا، إنما قالوا يبعثون يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠] فهم يقولون: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؛ ليتوصلوا إلى الحجة الداحضة، فيقول الناس: إن هؤلاء يقولون: إن الناس يبعثون نحن وآباؤنا دعوهم يأتوا بآبائنا، والجواب على هذه الشبهة واضح جدًا، وهو أن الرسل لم يقولوا: إن آباءهم يبعثون الأن، وإنما يكون البعث يوم القيامة، وحينئذ تبطل حجتهم وينادون على أنفسهم بالسفه والعدوان، فإنهم ألزموا الرسل ما لم يلتزموه وما لم يقولوه.

٣- من فوائدها: أن الجدَّ يسمى أبًا؛ لأنهم قالوا: ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وآباؤهم الأولون أجداد سابقون، فالجد يسمى أبًا، ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أن الجد يسقط الأخوة أشقاء كانوا أم لأب أم لأم، وإسقاط الجد للإخوة من الأم بالإجماع، أم الأخوة الأشقاء، أو لأب ففي إرثهم معه خلاف، والصحيح بلا شك أنهم لا يرثون مع الجد، وأنه لم هلك هالك عن أب أب أب أب أب، أي: الجد السادس وعن أخ شقيق فلا شيء للأخ الشقيق؛ لأن الجد أب، والأب يحجب الأخوة؛ ولأن هذا الابن النازل بعض من الجد السابق، بخلاف الأخ فليس بعضًا منه، ومعلوم أن الأصل الذي هذا فرعه أولى بالميراث من شخص ليس أصلًا له ولا فرعًا له، وهذه المسألة تحقق إن شاء الله في الفرائض.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أمر الله نبيه أن يجيب عن الاستفهام السابق بقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾، يعني: تبعثون، ونعم حرف جواب يجاب به الإثبات للتصديق، ويجاب به النفي كذلك للتصديق، فهو حرف جواب للتصديق: سواء كان الكلام نفيا أو إثباتًا.

والخلاصة: أن (نعم) يجاب بها للتصديق سواء كان نفيا أو إثباتًا.

فإذا قلت: أقام زيد؟ وأجبت: بنعم، فهذا لتصديق القيام، يعني: أنه قد قام.

وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فأجبت: نعم يعني: لم يقم. فصدقت النفي.

و(بلى) لا يجا ب بها في الإثبات، وإنما يجاب بها في النفي لتكذيبه، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فالجواب: بلى، يعني: قد قام، خلافًا لما نفيت.

وأما (لا) فلا يجاب بها إلا في الإثبات لتكذيبه، فإذا قلت: أقام زيد؟ فقلت: لا، يعني: لم يقم.

فهذه أحرف الجواب الثلاثة وأعمها (نعم)؛ لأنها تكون في الإثبات وتكون في النفي، وأما (بلى) و(لا) فكل واحدة مختصة بشيء (بلى) في النفي و(لا) في الإثبات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ هذه للتصديق يعني: نعم تبعثون؛ ولهذا قدر المؤلف ذلك في قوله تبعثون، يعني: أنكم ستبعثون يوم القيامة بعد أن كنتم ترابًا وعظامًا ولكنكم لا تبعثون كما أنتم عليه في الدنيا في عزة وترف، بل ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، والجملة هنا حال من نائب الفاعل في الفعل المقدر بعد الجواب، نعم تبعثون وأنتم داخرون.

والدخور بمعنى الصغار والذل، يعني: أنهم يبعثون يوم القيامة على وجه الصغار لا على ما كانوا عليه في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] بعد أن كان الواحد منهم في الدنيا يقلب مقلتيه كما شاء، فهم في الآخرة ينظرون في طرف خفي، مملوء بالخجل والخزي والعار -والعياذ بالله-.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة دليل على أهمية جواب هؤلاء الذين يتساءلون إذا ماتوا وكانوا ترابًا وعظامًا أي:بعثون أو لا؟ وجه ذلك أن الله أمر نبيه أمرًا خاصًّا بجوابه، وإذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأمر خاص فإنه دليل على أهمية ذلك الأمر؛ لأن الأصل أن جميع القرآن قد أمر أن يبلغه -عليه الصلاة والسلام-. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فإذا جاءت آية يقول الله فيها «قل» فهذا أمر خاص بتبليغهم، فيدل على العناية بهذا الشيء وأنه ذو أهمية.

٢- **ومن فوائدها:** أنه يجب الرد على شبهات أهل الباطل؛ لأن الله لم يقل: اتركهم، بل قال: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن المكذبين بالبعث يحشرون يوم القيامة صاغرين لقوله: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾، وقد ذكرنا في أثناء التفسير عدة آيات تدل على أنهم يحشرون يوم القيامة أذلاء، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]

٤- **ومن فوائد الآية**: أن المؤمنين بذلك يحشرون يوم القيامة أعزة، ووجه أنه إذا كان جزاء هؤلاء المكذبين أنهم يحشرون على وجه الصغار والذل، فإن العكس يكون بالعكس، والجزاء من جنس العمل، فيحشر المؤمنون يوم القيامة أعزاء.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٩-٢٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يعني: إذا كان الأمر كذلك أنهم يبعثون فهل يحتاج الأمر إلى علاج وإلى مدة؟ الجواب: لا، فإنما هي أي: زجرتهم للبعث زجرة واحدة، هذا هو الأصح في مرجع الضمير؛ ولهذا قال المؤلف [ضمير مبهم يفسره زجرة] فيكون الضمير مرجعه مستفاد من الخبر، أي: فإنما الزجرة لبعثهم زجرة واحدة، وهذا الذي قدره المؤلف لمرجع الضمير هو الصواب فيكون مرجع الضمير هو الخبر، وقال بعضهم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: البعثة التي يبعثونها؛ أي: ما بعثتهم إلا زجرة واحدة أي: بزجرة واحدة، ولكن ما قدره المؤلف أولى ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، قال المؤلف: [أي صيحة يزجرون بها]، فيقال: اخرجوا يعني: من القبور. إذا قيل اخرجوا من القبور. خرجوا خروج رجل واحد لا يتخلف منهم أحد، ولأي:خرجون ببطء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] فالمسألة لا تحتاج إلى تكرار طلب للخروج ولا إلى مهلة في زمان، بل بمجرد ما يقال: اخرجوا. فإذا هم قيام ينظرون، وهذا من تمام قدرة الرب -عز وجل-.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (الفاء) حرف عطف و(إذا) فجائية؛ أي: ففي الحال مفاجئة، هم ينظرون، و(إذا) الفجائية اختلف النحويون فيها: هل هي حرف لا محل لها من الإعراب أو هي ظرف؟ ونحن لا يهمنا أن نقدرها حرفًا أو ظرفًا، المهم أن نعرف المعنى، وهي أنها تدل على المفاجئة يعني: يأتي بسرعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يدل على أنهم بمجرد أن يخرجون يكونون أحياء يشعرون، وليس كالطفل الذي يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فالناس في الدنيا يخرجون من بطون أمهاتهم لا

يعلمون شيئًا، ولكن بعدئذ يجعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة. سمعًا يسمعون به ويعرفون، وإلا فالسمع موجود به منذ خلق، وبصرًا يبصرون به ويعرفون؛ ولهذا تجد الصبي أول ما يولد لا يلتفت إلى شيء، تمر من عنده بالمصباح من أسطع ما يكون ولا يدري ما هو؟ ثم شيئًا فشيئًا يبدأ يعرف الألوان إذا اختلفت عليه ويتابع النظر، ولكن الذي يبعثون من القبور لا ينتظر بهم هكذا؛ أي: لا تنمو أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم شيئًا فشيئًا، ولكن بمجرد ما يخرجون فإذا هم ينظرون.

قال المؤلف: [فإذا هم أي: الخلائق أحياء ينظرون ما يفعل بهم] فإذا قال قائل: إن المؤلف قال [الخلائق] مع أن سياق الآية يقتضي أن المراد هؤلاء المنكرون ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فإذا أخذنا بالسياق قلنا: إن الضمير يرجع إلى هؤلاء وآبائهم، وإذا نظرنا إلى الواقع قلنا: إن الضمير يرجع إلى جميع الخلائق، والواقع أن جميع الخلائق تخرج بهذه الصيحة فإذا هم ينظرون، وأفادنا المؤلف بقوله ما يفعل بهم، أفادنا أن النظر هنا نظر العين، وليس بمعنى الأنتظار، مع أن الآية تحتمل أن يكون المعنى النظر بالعين وأن يكون المعنى الأنتظار.

والنظر يأتي بمعنى الأنتظار، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [الزخرف: ٦٦] ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى ينتظرون.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قالوا أتى بالفعل الماضي مع أن القول مستقبل، لتحقق وقوعه، وهذا كثير في اللغة العربية، والقرآن الكريم يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] فإن أمر الله لم يأت بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] لكن أتى هنا بمعنى يأتي، وعبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

فقوله عز وجل هنا: ﴿وَقَالُوا۟﴾ ؛ أي: ويقولون، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

وقول المؤلف -رحمه الله-: [قالوا أي: الكفار] صحيح ولو أنه قال: وقالوا أي: المنكرون للبعث الذي قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ لكان أدق في التفسير؛ لأن الكافر أعم من المنكر للبعث، قد يكفر بغير إنكار للبعث، لكن المسألة فيها شيء من التسامح في التعبير.

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قال المؤلف: [ياء للتنبيه ويل مصدر لا فعل له من لفظه]، ولكن يحتمل أن تكون ياء حرف نداء، وأنهم نادوا الويل، كأنهم قالوا: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك، والويل معناه هنا شدة التحسر والعذاب، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]؛ أي: حسرة وعذاب. فهنا يا ويلنا؛ أي: يا حسرتنا ويا عذابنا احضر فهذا أوانك، ويحتمل كما قال المؤلف: إن (ياء) للتنبيه، ولكن إذا قال قائل: هل تأتي ياء للتنبيه؟ الجواب: نعم، فإذا طلب منا مثال لا يحتمل إلا التنبيه، قلنا كقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] فإن ياء هنا للتنبيه؛

لأن ياء لا تدخل على الحروف، وإنما تدخل على الأسماء، ولكن جيء بها للتنبيه، وقوله -رحمه الله: [ويلنا هلاكنا]، ولكن الويل كما قلت أخص من مجرد الهلاك، بل هو التحسر والعذاب، والويل مصدر لا فعل له من لفظه، ولكن من معناه.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، قال المؤلف: [وتقول لهم الملائكة هذا يوم الدين] فجعل المفسر -رحمه الله- (هذا يوم الدين) من كلام الملائكة.

ولكن الصحيح أنه من كلام المنكرين يعني: أنهم في ذلك اليوم يقرون بيوم الدين، ولكن لا ينفعهم الإقرار حينئذ، فهم يقرون بهذا اليوم إذا شاهدوه، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ المشار عليه الوقت الذي هم فيه ذلك اليوم الحاضر، والدين يعني: الجزاء، واعلم أن الدين يطلق على الجزاء، ويطلق أحيانًا على العمل، وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الأنفطار: ١٨، ١٩] المراد بالدين الجزاء.

وهنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ المراد به الجزاء؛ أي: هذا يوم الجزاء، قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

الجملة هذه يحتمل أن تكون من كلامهم، ويحتمل أن تكون من كلام الملائكة، فإن كانت من كلامهم فالمعنى أن بعضهم يقول لبعض: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ توبيخًا وتقريعًا وتنديمًا.

وإذا كان من كلام الملائكة فلا إشكال فيه؛ لأنهم يخاطبون قومًا يكذبون به، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بعد ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنه إذا أدين الناس وحوسبوا وجوزوا انفصلوا، انفصل بعضهم عن بعض: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قد يفصل بين المرء وأبيه، وبين المرء وأمه، وبين المرء وأقاربه: هؤلاء في الجنة وهؤلاء إلى النار. فإذًا سُمي يوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بن الخلائق، فيصرف قوم إلى النار، ويصرف قوم إلى الجنة، وسُمِّي يوم الفصل أيضًا؛ لأنه يفصل بين الخلائق بالحكم بينهم بالعدل، بأخذ حق المظلوم من الظالم، كما يفصل القاضي في الدنيا بين المتخاصمين، فيعطي المظلوم حقه من الظالم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ كنتم أي: فيما مضى، أما الآن فيصدقون به؛ لأنهم قالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ لكن فيما مضى يكذبون بهذا اليوم، ويقولون: كيف يمكن أن تبعث الخلائق بعد أن كانوا عظامًا وترابًا؟!

فإذا قال قائل: ما الفائدة من قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؟

قلنا: الفائدة من أجل زيادة التحسر على هؤلاء؛ لأنهم إذا قيل لهم: الذي كنتم به تكذبون فسوف يتحسرون، ويقولون: يا ليتنا لم نكذب، فيكون في هذا زيادة الم في نفوسهم، ومن جهة

أخرى: التوبيخ لهؤلاء ولومهم على تكذيبهم حيث كذبوا بالحق، ففي ذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التحسر فيه.

والفائدة الثانية: التوبيخ واللوم على تكذيبهم بالحق.

قال المؤلف -رحمه الله: [ويقال للملائكة: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قرناءهم من الشياطين ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غيره من الأوثان ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وسوقوهم على ﴿صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ طريق النار]. أعوذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، الخطاب من الله -والعلم عنده- إلى الملائكة، ومعنى احشروا؛ أي: اجمعوا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وسُمِّي يوم الجمع وسُمِّي يوم الحشر؛ لأن الناس يحشرون فيه ويجتمعون، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

قال المؤلف: [ظلموا أنفسهم بالشرك] ولكن ينبغي أن يقال: ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- حذف المفعول به، وحذف المفعول به يؤذن بالعموم، فهم في الحقيقة ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، ولاسيما الرؤساء منهم الذين أضلوا أتباعهم فإنهم ظلموهم بتلبيس الحق بالباطل وإضلالهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، قال المؤلف: [قرناءهم من الشياطين] كل زوج قرين، ومنه الزوج وزوجته فإنهما قرينان، وقيل المراد بالأزواج: الأصناف والأشكال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨]؛ أي: أصناف، والمعنى متقارب؛ لأن الغالب أن القرين من جنس المقارن، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: والذي كانوا يعبدون في الدنيا؛ ولهذا أتى بالفعل الماضي ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؛ أي في الدنيا، وجملة (كانوا يعبدون) صلة الموصول، والعائد محذوف، وتقديره: وما كانوا يعبدونه من دون الله.

وقول المؤلف: من الأوثان، إذا قال قائل: كيف تحشر الأوثان وهي جماد؟ وليس عليها حسبا ولا عقاب؟

فالجواب: أنها تحشر إلى النار وتلقى في النار إهانة لعابديها، أما هي فلا شعور لها، لا تشعر بإهانة ولا كرامة، ولكن عابديها هم الذين يشعرون بالإهانة إذا كانت معبوداتهم تلقى في النار، فتلقى هذه المعبودات في النار؛ إهانة لعابديهم وبيانًا لكونها لا تنفعهم في أحوج ما يكونون إلى

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٢٧).

نفعها، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذه الآية عامة، وخصت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأننا لو أخذناها على عمومها لكان في الناس من يعبد الأنبياء، وكان في الناس من يعبد الملائكة، فهل يحشر هؤلاء المعبودون مع هؤلاء العابدين؟ فالجواب: لا، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وعلى هذا فالعموم هنا مخصص بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾.[الأنبياء: ١٠١]

وقيل: إن العموم باق على ما هو عليه، لكنه عام أريد به الخاص، أريد به هؤلاء الذين أنكروا البعث، والذين أنكروا البعث لم يعبدوا الملائكة ولا الرسل إنما كانوا يعبدون هبل واللات والعزى ومناة، وهبل واللات والعزى ومناة كلها في النار.

وعلى كل حال سواء قلنا: إن هذا عام أريد به الخاص؛ أي: الذين يخاطبون الرسول -عليه الصلاة والسلام- وينكرون البعث. أو قلنا: إنه عام مخصوص، فإنه لاشك أن الذين يُعبدون من دون الله وهم من أولياء الله لن يحشروا إلى النار ولن يدخلوها.

قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: دلوهم، وهذه هدآية الدلالة وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] فإن الذي يساق يهدي أيضًا، أرأيت الرجل يسوق بعيره ويهديها، هؤلاء يساقون وفي نفس الوقت يقال اذهبوا من هنا، اذهبوا من هنا حتى يصلوا إلى النار، وقد ذكر الله أن هؤلاء يساقون إلى النار في حال يحتاجون معها إلى الماء، بل يضطرون إلى الماء، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] عطاشًا، فإذا جاءوا لم يجدوا إلا النار المحرقة -والعياذ بالله- وهذا يكون كالصفعة على وجوههم حيث جاءوا وهم يرجون أن يشربوا، ولكنهم يفاجئون بما يزيدهم لهبًا وعطشًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ صراط بمعنى طريق، والصراط نوعان: صراط حسي وهو ما تمشي عليه الأقدام، وصراط معنوي وهو ما تمشي عليه القلوب، فمن استقام في الصراط المعنوي على دين الله استقام في الصراط الحسي يوم القيامة حتى يصل إلى الجنة، ومن كان غير مستقيم في الدنيا على شريعة الله لم يكن مستقيمًا في الآخرة على طريق الجنة ولكن على طريق النار.

والصراط هنا حسي ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار، فالجحيم إذًا من أسماء النار، وأسماء النار في القرآن كثيرة متعددة.

الفوائد:

١- **بيان قدرة الله -عز وجل-** حيث تخرج الخلائق كلها بزجرة واحدة، وتخرج الخلائق كلها فورًا بدون تأخير، ففيه دليل على القدرة من وجهين:

الوجه الأول: عدم تكرار الأمر.

والوجه الثاني: سرعة الائتمار والامتثال لأمر الله -عز وجل-.

٢- **ومن فوائدها:** أنَّ الناس يخرجون يوم القيامة فينظرون، إما من نظر العين أو من الأنتظار، وأي:ا كان فإنه يدل على أنهم يخرجون إلى أمر غريب لم يألفوه؛ لأنهم كانوا في الأول في قبورهم ثم حشروا إلى شيء غريب لم يكونوا يعرفونه من قبل؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يدعون يوم القيامة بالويل والثبور والهلاك؛ لقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤]

٤- **ومن فوائدها:** تحقق هذا القول وأنه أمر واقع كالحاضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ فعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.

٥- **ومن فوائدها:** أن الناس يحشرون يوم القيامة فيجازون على أعمالهم، يؤخذ من قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وتكون هذه النتيجة للخلائق أن يحشروا يوم القيامة وأن يجازوا على أعمالهم وأن يكون هذا الجزاء نهائيًا ليس وراءه عمل ولا دونه أجل؛ لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن يوم القيامة يوم فصل؛ أي: حكم بين الناس وتميز بعضهم عن بعض؛ لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** تقرير هؤلاء المكذبين لقوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ووجه التقرير أن الإنسان إذا شاهد ما كذب به سوف يقول لمن حمله على هذا التكذيب أو وافقه عليه: هذا الذي كنت به تكذب، فيكون في ذلك زيادة في التحسر والندم على عدم التصديق بهذا اليوم.

٨- **ومن فوائدها:** أن الناس يوم القيامة يميز بعضهم من بعض، ويجمع بعض الأصناف والأشكال والنظراء إلى بعض؛ لقوله: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وهذا من الفصل الذي ذكره الله في كتابه لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين لا ينفعهم اجتماعهم وحشر بعضهم إلى بعض؛ لقول الله -سبحانه وتعالى- في آية أخرى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] في الدنيا إذا شاركك أحد في العذاب نفعك، إما بأن يتحمل عنك جزءًا من هذا العذاب، وإما أن تتسلى به، إما بأن يتحمل عنك جزءًا من هذا العذاب، وإما أن تتسلى به؛ لأن وقوع المصائب على غيرك تسليك، وتساعدك على تحمل هذه المصيبة والصبر عليها، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

١٠- **ومن فوائدها:** إهانة هؤلاء المشركين بحشر أصنامهم إلى النار، وجه ذلك أن إهانة

المعبود إهانة للعابد، وأنا أضرب لكم مثلًا: لو أن سيدًا تحته أرقاء أو رجلًا تحته عائلة، أهين هذا الرجل الذي تحته العائلة، أو الرجل الذي تحته الأرقاء فإن ذلك إهانة للعائلة وللأرقاء؛ لأنهم يقولون: هذا كبيرنا وعظيمنا الذي نعظمه، فإذا أهين فهو إهانة لنا، وإن لم يكن إهانة حسية، لكنها إهانة نفسية معنوية، فتهان هذه الأصنام إهانة لعابديها.

١١- **ومن فوائدها:** جواز ذكر العموم، وإن دخل فيه من ليس فيه إذا بين في موضع آخر، ويتفرع على هذا أنه لا يشترط في البيان مقارنته للمبين؛ لأن الذي يمتنع في البيان هو تأخيره عن وقت الحاجة، فإذا بين في وقت الحاجة زال هذا المحظور، وهذا قد بين في آيات كثيرة في القرآن بأن المؤمنين لا يدخلون النار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وكل الآيات التي في وعد المؤمنين والمتقين تمنع من دخول هؤلاء في النار وإن كانوا يُعبدون من دون الله.

١٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين المشركين يحشرون إلى طريق جنهم، كما أنهم في الدنيا اختاروا طريق أهل النار، فإنهم في الآخرة يجازون بمثل ذلك، فيدلون إلى طريق الجحيم، ويصدون عن طريق أهل النعيم.



قال الله تعالى:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٩]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قفوهم يعني: أوقفوهم، من وقف يقف، والأمر: قف، ووقف تستعمل لازمة ومتعدية، فإذا قلت: مشي ف؛ لأن، فوقف، هذا لازم، وإذا قلت: وقفت القول، أو وقفت زيدًا عند المكان الف؛ لأني فهذا متعد.

قفوهم لاشك أنه متعد، ووجه أن نصبالمفعول به الهاء، والواو في ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فاعل.

وهنا فائدة: أن حرفالمضارعة لا تحسب من بنية الفعل؛ ولهذا يقال: إذا أردت أن تصوغ فعل الأمر: فأتِ بفعله مضارعًا مجزومًا، ثم احذف حرف المضارعة، وهذه تفيد طالب العلم، فمثلًا: إذا أردت أن تأتي بفعل الأمر من: خاف. فتقول: خف؛ لأن المضارع المجزوم: يخف. احذف

حرف المضارعة: خف.

مثال آخر: نامَ الأمر: نَم، نجريها على القاعدة لم يَنَمْ. احذف ياء المضارعة. نَمْ.

الأمر من: مَال؟ مِلْ. على القاعدة. لم يَمِل. احذف ياء المضارعة (مِلْ)؛ لأن الأمر مقتطع من المضارع، ووجه ذلك أنك تأتي بالمضارع مجزومًا ثم تحذف حرف المضارعة. الأمر من «خَشِيَ»: اخْشَ. لماذا؟ ؛ لأنه لا يمكن أن تبدأ بالسكون؛ لأنه لو حذفنا ياء المضارعة لبقي خاء ساكنة، والشين مفتوحة، والخاء الساكنة لا يمكن أن تنطق بها. إذا وجدت كلمة أولها ساكن، تأتي بهمزة الوصل، فتقول: «اخْشَ»، وفعل الأمر من رمى: «ارْمِ»؛ لأن المضارع (لم يَرْمِ) أوله ساكن لابد أن يؤتي بالهمزة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [احبسوهم عند الصراط]؛ الأمر من الله -عز وجل- والخطاب للملائكة فيما يظهر؛ لأن الملائكة هي التي تدبر الخلائق بأمر الله، فيقال للملائكة: قفوا هؤلاء المكذبين المشركين بالله ﴿وَقِفُوهُمْۖ﴾ يعني: وقفوهم؛ أي: احبسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [عن جميع أقوالهم وأفعالهم] وكلمة ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ إما أن تكون كما قال المؤلف عامة يعني: إنهم مسئولون عن أقوالهم، وأفعالهم، وشركهم، وانحرافهم، وعن كل أحوالهم أو إنها مبينة بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ فيكون المسئول عنه شيئًا واحدًا وهي أنهم يوقفون ويسألون هذا السؤال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا كما قال المؤلف: [ويقال لهم توبيخًا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضًا]، فالآية في الحقيقة محتملة المعنيين:

المعنى الأول: أنكم مسؤولون عن كل الأحوال والأعمال.

المعنى الثاني: أنكم مسؤولون هذا السؤال وهو: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ كنتم في الدنيا تتناصرون والذي ينصرهم العابدون، ينصرون هذه الأصنام كما مر علينا في آخر سورة يس، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] فالعابدون ينتصرون للآلهة، كما قال أبو سفيان قبل أن يسلم في غزوة أحد قال: اعلُ هبل، يفتخر به وينتصر له، فيقال لهم يوم القيامة: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يعني: أي شيء لكم يمنعكم من التناصر؟ والجواب واضح يفيده قوله: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون أذلاء، وهذه الجملة المصدرة بـ«بل» تفيد الأنتقال من أسلوب إلى آخر، يعني: أنهم لا يتناصرون؛ لأنهم اليوم مستسلمون هم وأصنامهم أذلاء صاغرون.

الاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ المراد به التوبيخ والتهكم يعني: أي:ن نصر بعضكم بعضًا الذي كان في الدنيا أفلا تتناصرون اليوم؟ والجواب: لا يمكن أن يتناصروا؛ لأنهم أذلاء مستسلمون ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون لحكم الله فيهم جزاءً ولحكم الله فيهم قدرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: أقبل بعضهم أي: اتجه بعضهم إلى بعض،

وجملة يتساءلون حال من الفاعل والمجرور، والفاعل في (بعضهم) والمجرور في (على بعض).

أقبلوا يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا تلاومًا وتخاصمًا، فصاروا بعد أن كانوا في الدنيا على وفاق وأخلاء صاروا في الآخرة أعداء ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا على وجه التوبيخ وا؛ لأنكار، ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: الأتباع منهم للمتبوعين، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال المؤلف -رحمه الله- [عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق فصدقنا واتبعناكم، المعنى أنكم أضللتمونا]؛ أي: صار بعضهم يسال بعضًا، الأتباع يسألون المتبوعين، والمتبوعون يسألون الأتباع، وكل يسال بعضهم بعضًا؛ لأنهم وقعوا في حيرة.

يقول بعضهم لبعض وهم الأتباع يقولون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للمتبوعين ﴿إِنَّكُمْ﴾ يعني: في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا﴾ يعني: في خطابكم لنا ودعوتكم أي:انا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، عن للمجاوزة يعني: تأتوننا إتيانًا صادرًا عن اليمين، فما المراد باليمين؟

قيل: إن المراد باليمين الحلف؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] جمع يمين، فمعنى عن اليمين عن الحلف؛ أي: أن المتبوعين يحلفون للأتباع أنهم على حق، وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقيل: إن المراد باليمين هو التفاؤل، يعني: أنكم تعدوننا خيرًا، وتقولون: اتبعونا فإنكم إن اتبعتمونا؛ نلتم العزة والغلبة فتعدوننا بالخير وأنتم كاذبون علينا.

وقيل: المراد باليمين القوة، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ أي: القوة، وقيل: باليد اليمنى على كل حال.

إذنْ باليمين فيها ثلاثة أقوال:

١ - الحلف.

٢- الخير.

٣- القوة.

والحقيقة أن كل هذه الوجوه واقعة من المتبوعين، فهم يقسمون للأتباع أنهم على حق، وهم يتكلمون معهم عن طريق القوة؛ لأنهم متبوعون، وهم كذلك يعدونهم بالخير، يقولون: اتبعونا تكن لكم العزة والغلبة وما أشبه ذلك، فالآية شاملة لهذه الوجوه الثلاثة. يقول الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا عن هذه الجهة الحلف أو القوة أو الخير.

والمؤلف -رحمه الله- يقول في تفسيرها [عن الجهة التي كنا نأمنكم بها]، وكلامه هذا صالح للوجوه الثلاثة؛ لأن الناس يؤمنون إذا حلفوا، ويؤمنون إذا وعدوا بالخير، ويؤمنون إذا كانوا أقوياء؛ لأن الغالب أن الضعيف يرى أن القوي على حق، وأنه بلغ هذه المرتبة لكونه محقًّا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: المتَبَعون] لو

عبر -رحمه الله- بقوله المتبوعون لكان أوضح؛ لأن المتَّبَعون قد يقرأها الإنسان المتَّبَعُوْن يعني: الأتباع، والواقع أن الذي قال هم المتبوعون. ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: المتبوعون للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَل﴾ هنا في إبطال ما ادّعوه في قولهم: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، يعني: بل لم نأتكم عن اليمين ولكنكم لم تكونوا مؤمنين ولو كنتم مؤمنين لصدق قولكم إنا أضللناكم، أما أنكم غير مؤمنين من الأصل فالجناية منكم على أنفسكم.

ولهذا يقول المؤلف -رحمه الله: [﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الأيمان إلينا]، وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الأيمان إلينا]، تبرأ المتَّبوعون الأن من الأتباع وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم، قالوا كما يقول الشيطان: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] هؤلاء المتبعون يقولون كما قال الشيطان، يقولون للأتباع: أنتم الذين أضللتم أنفسكم، أما نحن فلم نضلكم؛ لأننا لم نخاطب قومًا مؤمنين، فأضللناهم بعد أيمانهم، إنما نخاطب قومًا انقادوا إلى الكفر باختيارهم، فاللوم عليهم ؛ لأنفسهم أما نحن فلا، وهذا مبين لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

الفوائد:

في الآيات المتقدمة فوائد:

١- منها: أن هؤلاء المكذبين إذا ساقتهم الملائكة إلى النار فإنهم يهينونهم عدة إهانات، فيقفونهم على الصراط، يعني: عنده، ومن المعلوم أن الأيقاف فيه إهانة للأنسان، بحيث يكون في يد غيره كالآلة.

٢- **ومن فوائدها أيضًا:** أنهم يهانون إهانة أخرى معنوية، فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ يعني: أي شيء يمنعكم اليوم من التناصر بعد أن كنتم في الدنيا تتناصرون؟ وفي هذا من الإهانة والتوبيخ والتنديم ما هو ظاهر.

٣- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء في ذلك الموقف أذلاء مستسلمون كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ وكانوا في الدنيا مستكبرين لا يقبلون الحق، بل يجادلون ويقدمون رقابهم للقتل ضد الحق والعياذ بالله، لكنهم في الآخرة مستسلمون.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين يلوم بعضهم بعضًا، ويسب بعضهم بعضا، قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ لقوله: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** بيان الأساليب التي يستعملها المضللون، وأنها أساليب متنوعة تارة بالقوة، وتارة بالتغرير والتلطف والأيعاد بالخير، وتارة بالتغرير والتوكيد على أن ما هم عليه حق، وإذا نظرت إلى واقع النصارى اليوم وغيرهم من أهل الضلال المضلين عرفت كيف تنطبق هذه الآية على هؤلاء الدعاة إلى الشر؟ فالنصارى -مثلًا- المضللون الذين يسمون أنفسهم بالمبشرين، لكننا نقول إنهم مبشرون بالعذاب الأليم، يعدون الناس الخير ويفتحون المدارس ويغدقون الأموال على الناس من أجل تضليلهم، وإخراجهم، ويستغلون فرصة الفقر والجهل في مثل هذه الأمور.

٦- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المتبوعين يعيدون التوبيخ على التابعين، حيث يقولون لهم: بل لم تكونوا مؤمنين، فالبلاء من عند أنفسكم لا من عندنا.

٧- **ومن فوائدها:** أن من لم يكن أي:مانه راسخًا، فإن الدعاية الباطلة تؤثر عليه؛ لأن المؤمن أي:مانًا راسخًا تضلله الدعاية ولا يمكن أن يتحول عن أي:مانه الذي كان عليه لقوله: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولو كنتم مؤمنين حقًا أي:مانًا ثابتًا ما أثَّر عليكم إضلالنا.

والمؤمن يرضى أن يموت ولو بأن يلقى من شاهق ولا يكفر بالله -عز وجل-، لكن الذي أي:مانه غير راسخ ولا ثابت هو الذي تضلله هذه الدعايات.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصافات: ٣٠ - ٣٢]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ (ما) نافية و(كان) فعل ماض يرفع المبتدأ وينصب الخبر، و(من سلطان) اسمها المؤخر مجرور بحرف من الزائد إعرابًا، و(لنا) خبر مقدم. خلافًا لمن قال: إن (ما) حجازية و(كان) زائدة؛ لأنك لو قلت: (وما لنا عليكم من سلطان) لصح الكلام؛ لأن (كان) هنا مراد وجودها؛ لأنها تدل على زمن مضى، بخلاف ما لو سقطت فإنها لا تدل على الزمن الماضي، فإن الجملة لا تدل على الزمن الماضي، فيتعين هنا أن تكون (ما) نافية و(كان) فعل ماض غير زائد.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: من قوة وقدرة تقهركم على متابعتنا]، واعلم أن السلطان بمعنى السلطة، وهو في كل موضع بحسبه فتارةً يراد بالسلطان العلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:

٢٣]؛ أي: من دليل وبرهان، وتارةً يراد به القدرة والقوة والغلبة كما في هذه الآية، يعني: ليس لنا عليكم من سلطان نقهركم حتى تتبعونا، بل أنتم اتبعتمونا باختياركم وإرادتكم فكأنهم يقولون: لا تلومونا ولوموا أنفسكم، كما قال الشيطان لما قضي الأمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فهؤلاء المتبوعين يجعلون اللوم كله على الأتباع، ونحن إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن اللوم يكون على الأتباع وعلى المتبوعون، أما المتبوعون فإنهم زينوا لهم أعمالهم ودعوهم واستضعفوهم حتى أمالوهم إلى الباطل، وأما الأتباع فإنهم لم يجبروا على ذلك ولم يسخروا عليه، بل هم الذين تبعوا هذا باختيارهم، فكان على كل واحد من اللوم ما يتناسب وفعله، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، ﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الأنتقالي لا لإبطال ما سبق، بل للأنتقال من شيء إلى آخر فكرروا عليهم، قالوا في الأول: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وقالوا الأن: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ والطاغي هو الذي تجاوز حده، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يعني: لما تجاوز حده، فهم يصفونهم بأنهم طاغون أي: متجاوزون لحدهم الذي ينبغي أن يكونوا عليه وهو اتباع الرسل لا اتباع هؤلاء المضلين، وقول المؤلف [ضالين] فيه نظر؛ لأن الطغيان أمر زائد على الضلال.

فالصواب: أن ﴿طَٰغِينَ﴾ بمعنى المتجاوزون للحد الذي ينبغي أن يكونوا عليه من أتباع الرسل.

قوله تعالى: [﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعًا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ بالعذاب أي: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] [السجدة: ١٣].

هذا على ما قال المؤلف هو المراد بقولهم: ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ولكن الظاهر أن المراد بقول الله المشار إليه هو قوله لإبليس ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]؛ لأن الآية التي أشار إليها المؤلف فيها بيان أن الله -سبحانه وتعالى- قدر بحكمته أن يملأ النار من الكافرين، لكن ليس في الخطاب الموجه للشيطان وأتباعه، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فإن هذا هو الذي فيه الوعيد المباشر لمن اتبع الشيطان، فتفسير قولنا بالآية الثانية أولى من تفسيرها بما قال المؤلف، ثم قال: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [﴿إِنَّا﴾ جميعًا ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب بذلك القول، ونشأ عنه قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ المعلل بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ علينا الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين، ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أيضًا يعود الضمير على الأتباع والمتبوعين. كأنهم يقولون إنا لم نخلص أنفسنا فكيف نخلصكم، ثم قال: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ يعني: جعلناكم من أهل الغي بصدكم عن طريق الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ هذا تعليل لقولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛لقولهم أي:

بقول هؤلاء الذي نقله الله عنهم.

الفوائد:

في هذه الآيات عدة من الفوائد:

١- تبرأ كل من التابع والمتبوع يوم القيامة من هؤلاء الضلال، فالمتبوعون أو الأتباع يجعلون اللوم على المتبوعين والمتبوعون يجعلون اللوم على الأتباع.

٢- **ومن فوائدها:** أن المتبوعين ليس لهم سلطان يكرهون به الأتباع، بل الأتباع هم الذين اختاروا؛ لأنفسهم الضلالة.

٣- **ومن فوائدها:** فيها دليل على أن هؤلاء المشركين والكافرين أعلم بالواقع من الجبرية وأشباههم الذين يقولون: إن الإنسان يجبر على عمله. فإن هؤلاء يقرون بأن الإنسان يفعل باختياره لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الأتباع يوم القيامة لا ينتفعون باتباع المتبوعين، بل إن المتبوعين يوبخونهم على طغيانهم فيقولون: أنتم الذين تجاوزتم الحد بترككم أتباع الرسل ثم اتباعنا.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات قول الله -عز وجل- وأنه يقول: لقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، والقول هو الكلام الذي يستفاد منه فائدة، فيتفرع على ذلك أن كلام الله بحرف وصوت، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للأشعرية الذي يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأن ما يسمع من هذه الحروف والصوت فإنما هو مخلوق خلقه الله تعالى تعبيرًا عما في نفسه.

٦- **ومن فوائدها:** إقرار المكذبين للرسل بالربوبية لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ويتفرع على ذلك الرد على عامة المتكلمين، الذين يفسرون التوحيد بتوحيد الربوبية فقط، فيقولون: إن التوحيد هو أن تؤمن بأن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له.

ففي هذه الجمل الثلاث لم يذكروا توحيد الألوهية، يعني: لم يقولوا: واحد في ألوهيته لا شريك له،، وإنما جعلوا التوحيد ما يتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الصفات فقط، على ما في هذا الكلام من إجمال يحتاج إلى تفصيل، لكن فيه حذف توحيد الألوهية، وهذا التوحيد الذي زعم عامة المتكلمين أنه هو التوحيد الذي جاءت به الرسل. لاشك أن المشركين كانوا يقرون به ولا ينكرونه، ومع هذا حكم عليهم النبي ﷺ بالشرك واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وأراضيهم.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين من أتباع ومتبوعين كلهم ينالهم العذاب لقوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي: ذائقون عذاب ربنا الذي حق علينا.

٨- **ومن فوائدها:** التحذير من مصاحبة أهل الغواية لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾، وقد حذر النبي ﷺ من مصاحبة الصاحب السوء فقال: «مثل الجليس الصالح كحامل المسك وإما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[1].

٩- **ومن فوائدها:** إطلاق الشيء على مسببه لقوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ لأنهم ليسوا هم الذين أغووهم، وإنما هم سبب إغوائهم، فإن الهداية والإضلال بيد الله -عز وجل-،لكن هؤلاء كانوا سببًا في غواية هؤلاء فأضافوا الفعل إليهم في قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٣-٣٧]

التفسير

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا من قول الله - تبارك وتعالى - وإن واسمها في إنهم، ومشتركون خبرها، وفي العذاب متعلق بـ(مشتركون)، ويومئذ يجوز أن تكون متعلقة بـ(مشتركون)، ويجوز أن تكون متعلقة بحال من الضمير في إنهم.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تقوم القيامة، فالتنوين عوضًا عن جملة محذوفة، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين يشتركون يوم القيامة في العذاب؛ أي: في أصله، وإن كان بعضهم أشد عذابًا من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]

واشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم؟ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] بينما الناس في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب أو المصائب فإن بعضهم يسلي بعضًا ويقويه ربما يتحمل جزءًا من العذاب. لكن في الآخرة لا ينفع هذا، كل منهم يرى أنه أشد الناس عذابًا -والعياذ بالله- ولا ينفعه مشاركة غيره له.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [أي: لاشتراكهم في الغواية].

تفسير المؤلف تعليل لاشتراكهم في العذاب؛ لأنهم اشتركوا في الغوآية.

والمعنى: أن هؤلاء مشتركون في العذاب كل يعذب بقدر ذنبه فلا يظلم ربك أحدًا، ولا يمكن أن يسلم الأتباع من التبعة، وأن يسلم المتبوعون من التبعة، وأن هؤلاء انقادوا للضلال باختيارهم، وهؤلاء خدعوهم وغروهم، فكان على كل واحد من العذاب ما يستحقه وإن اشتركوا في أصله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ [إنا كذلك كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين]، هكذا قدر المؤلف كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين.

ويحتمل أن يكون المعنى: إنا كهذا الفعل نفعل بالمجرمين وهم مجرمون. إعراب هذه الجملة ﴿إِنَّا﴾ إن واسمها وجملة ﴿نَفْعَلُ﴾ خبرها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى (مثل) منصوبة على المفعولية المطلقة، يعني: إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، وهذا التركيب يرد كثيرًا في القرآن، وإعرابه أن تجعل الكاف اسم بمعنى (مثل) وأن تجعلها منصوبة على أنها مفعول مطلق للفعل الذي يليها.

وقوله: ﴿نَفْعَلُ﴾ وصف الله نفسه بالفعل على سبيل التعظيم، حيث عاد الضمير إليه بصيغة الجمع، ومعلوم أنه سبحانه واحد، ولكنه وصف نفسه بهذا من باب التعظيم.

وقوله: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المجرم هو الذي اكتسب الجرم وهو الإثم، فكل مجرم فإن الله تعالى يفعل به هكذا، ولكن الجرم نوعان: جرم لا عمل صالح معه فهذا يفعل به هكذا قطعًا وليس أهلًا للعفو، وجرم معه عمل صالح فهذا تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ [النساء: ٤٨].

قال المؤلف: [﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ غير هؤلاء أي: نعذبهم، التابع منهم والمتبوع]، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا مجرمين؛ لأنهم استحقوا من العذاب ما استحقه غيرهم.

[﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء بقرينة ما بعدهم ﴿كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾] ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، القائل الرسل بدليل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ وربما نختار العموم يعني: إذا قالت لهم الرسل أو غيرهم حتى غير الرسل ربما ينصحونهم ويقولون لهم: قولوا لا إله إلا الله، ولكنهم يجيبون بها الجواب الباطل.

وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذه الجملة هي كلمة التوحيد، التي دعت إليها جميع

الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وإعرابها أن نقول: لا نافية للجنس، وإله اسمه، وخبرها محذوف تقديره حق، وإلا أداة استثناء، ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إله بمعنى مألوه، والمألوه هو المعبود حبًّا وتعظيمًا، الذي تألهه القول وتنيب إليه وتخشع له، وإله أعني هذه الصفة فعال بمعنى مفعول تأتي كثيرًا في اللغة العربية مثل: البناء الفراش، بمعنى المبني، المفروش.

فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

ولو أورد علينا مورد، بأن هناك آلهة دون الله تعالى فالجواب: أن ألوهيتهم ليست حقًّا، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وقد فسر عامة المتكلمين (لا إله إلا الله) بقولهم: لا قادر على الاختراع إلا الله. هذا تفسيرهم لها، كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في التدمرية يقولون: (لا إله إلا الله)؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا الله، ففسروها بما يقتضي توحيد الربوبية، وهذا التفسير غير حق. فإذا فسرنا معنى لا (إله إلا الله)؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا الله يعني: على الخلق إلا الله، وهذا التفسير غير صحيح وباطل من أصله.

والدليل: أن المشركين لا يستكبرون عن أن يقولوا: إنه لا خالق إلا الله، بل يقرون بذلك، إذًا من فسره بهذا التفسير فقد أخطأ.

والمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ ما فسروه بهذا؛ لأنه لو فسروا بهذا ما استكبروا عنه.

إذنْ فهذا التفسير يعتبر تفسيرًا باطلًا، ليس فيه قصور ولا نقص، بل في البط؛ لأن من الأصل.

مسألة: ما الفرق بين قولنا: لا معبود بحق إلا الله، وقولنا: لا معبود حق إلا الله؟

الجواب: إذا قلنا: لا معبود بحق إلا الله لم يأتِ الخبر، وصار (بحق) تعلق بمعبود، يعني: لا أحد يعبد بحق إلا الله، ويكون الخبر على هذا هو (الله)، وهذا مشكل على قواعد النحو؛ لأن (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات.

وإذا قلنا: لا معبود حق. صارت (حق) خبر (لا) ولا تكون متعلقة بالمعبود؛ ولهذا قال بعضهم في تقديرها: لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح؛ لأن هناك موجودًا يعبد سوى الله، ولكن الصحيح أن نقول: لا معبود حق. كما لو قلت: لا أحد قائم إلا زيد. تكون قائم هي الخبر. لا معبود حق إلا الله.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (الله) علم على الذات المقدسة لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي أسماء الله تعالى غالبًا تبعًا له، ولا يأتي هو تبعًا لغيره إلا نادرًا، فالأكثر أن الأسماء تأتي

كلها صفة لله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤] بسم الله الرحمن الرحيم، وربما تبعًا لها في مثل قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١-٢] فهنا أتت هذه الكلمة العظيمة (الله) تبعًا لما قبلها. أي:ن جواب ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؟ جواب (إذا) ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ولكن قد يقول قائل: لماذا لم تجزم؟ كيف جعلتموها جوابًا لـ أن (إذا) ولم تجزموها مع أنها فعل مضارع، الجواب أن (إذا) حرف شرط غير جازم.

وقوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يتعالون كبرًا وفخرًا، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويأنفون من ذلك أي: من قول هذه الكلمة؛ لأنهم يرون في أنفسهم أنهم أعظم وأكبر؛ ولهذا قال: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: يستكبرون عن قولها فلا يقولونها ويستكبرون عمن قالها فلا يستجيبون له، فكبرياؤهم -والعياذ بالله- من الناحيتين.

الناحية الأولى: الاستكبار عن قول هذه الكلمة.

والثانية: الاستكبار عن الاستجابة لمن دعاهم إليها، ويقولون مع استكبارهم النفسي يقولون بألسنتهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾ في همزتيه أربع قراءات على حسب ما قال المؤلف:

١- أن تحقق الهمزتين.

٢- أن تسهل الثانية.

٣- أن تدخل ألفًا بينهما في حال التحقيق.

٤- أن تدخل ألفًا بينهما في حال التسهيل.

وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ الاستفهام هنا للنفي، وأكدوا هذا النفي بقوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟﴾ أكدوه بإن واللام، يعني: هل يمكن أن نترك آلهتنا لهذا القائل الذي وصفوه بهذين الأمرين: شاعر ومجنون؟ أي: لأجل قول محمد ﷺ يعني: لا يمكن أن نترك آلهتنا من أجل قول هذا الشاعر المجنون، والشاعر هو من يقول الشعر، والمجنون ضد العاقل، ومن المعلوم أن قولهم هذا كذب، ومع كونه كذبًا فهو متناقض، وجه التناقض أن المجنون كيف يكون شاعرًا؟ المجنون لا يمكن أن يأتي بكلام نثر منتظم، فكيف يأتي بكلام نظم يهز المشاعر؟ ويقال: إنه صدر من شاعر؟! لكن -والعياذ بالله- العمى إذا حل في القلب صار الإنسان لا يدري ما يقول، ربما يقول قولًا يتناقض وهو لا يدري.

ومن المعلوم أن الله تعالى كذبهم في هذا القول، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١-٢] بل أنت أعقل العقلاء، فكذبهم الله -عز وجل- في قولهم هذا، وهم بلا شك كاذبون، فالنبي ﷺ أعقل الناس، والنبي ﷺ أتى بقول ليس بشعر، بل أتى بكلام الله -عز وجل-

؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ (بل) هذه للإضراب الإبطالي؛ أي: بل كذبتم فيما قلتم، وإنما جاء رسول الله ﷺ بالحق، والباء هنا للمصاحبة يعني: جاء مصحوبًا بالحق، فقوله حق وما جاء به أيضًا حق، فكون النبي ﷺ يقول: هذا من عند الله . نقول: هذا حق هو صادق، وما يشتمل عليه القرآن فهو حق وضده الباطل، فالحق هنا وصف لقول النبي -عليه الصلاة والسلام- إنه رسول الله، ووصف لما جاء به، فيكون وصفًا للخبر والمخبر به، فخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن هذا القرآن من عند الله نقول: حق، وما جاء به أيضًا فهو حق؛ وذلك ؛ لأن القرآن مشتمل على كمال العدل وكمال الصدق، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فتكون الأحقية هنا من جهتين: من جهة الخبر، ومن جهة المخبر به، الخبر أن قول النبي ﷺ: هذا من عند الله حق ليس فيه كذب، المخبر به: أن ما جاء به الرسول ﷺ فكله حق متضمن للحق، ليس فيه باطل، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فالصدق وصف للأخبار، والعدل وصف للأحكام، والقرآن كله إما خبر وإما حكم، فخبره صدق وحكمه عدل.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [الجائين به، وهو أن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ صدّق أي: النبي ﷺ المرسلين الذين أرسلوا من قبله] وكيف صدقهم؟ نقول لتصديقه المرسلين وجهان:

الوجه الأول: أن مجيئه مطابقًا لما أخبروا به، فيكون ذلك تصديقًا، كما لو قلت: سيقدم زيد غدًا، فإذا قدم صار مصدقًا لقولك وصار مجيئه مصدقًا لقولك.

الوجه الثاني: صدق المرسلين؛ أي: قال: إن الرسل صادقون، وكلنا يعلم أن من دين رسول الله ﷺ أن يقول الأنسان: آمنا بالله وبرسل الله ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، [البقرة: ٢٨٥] فتصديق رسول الله ﷺ لمن سبقه يكون على هذين الوجهين:

أولًا: أن مجيئه تصديق لما أخبروا به من أن سيبعث، وآخرهم عيسى -عليه الصلاة والسلام-، قال لقومه، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

والثاني: أنه وصف ما جاءت به الرسل السابقون بأنه صدق.

قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال: [الجائين به، وهو أن لا إله إلا الله] في تفسير المؤلف -رحمه الله- شيء من القصور؛ لأنه صدّق المرسلين في هذا وفي غيره، وكأن المؤلف -رحمه الله- خصها بقول (لا إله إلا الله) بناءً على السياق، حيث كان السياق في التحدث عن (لا إله إلا الله) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: صدَّقهم بأن لا إله إلا الله، ولكن الأولى الأخذ بالعموم فصدقهم

في هذا وفي غيره.

الفوائد:

١- أن الأتباع والمتبوعين كل منهم مشترك في العذاب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، والفائدة من ذلك أنه لن ينجو الأتباع ولا المتبوعين.

فإن قال قائل: هل الاشتراك يقتضي المساواة؟

فالجواب: لا. بل لكلٍّ درجاتٌ مما عملوا.

٢- **ومن فوائدها:** إذلال هؤلاء المتبوعين الذين كانوا في الدنيا يعتلون على الخلق؛ لأنه جمع بينهم وبين من يستعبدونهم في الدنيا، ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لأن الآخرة دار عدل.

٣- **ومنها:** أن الله -سبحانه وتعالى- لم يظلمهم بهذا العذاب؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ فهم لم يعذبوا إلا لجرمهم.

٤- **ومن فوائدها:** أن الناس عند الله سواء، فكل من استحق عقابًا أو ثوابًا فهو له؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾؛ يعني: لم نفعل بهؤلاء وحدهم، بل حكمنا هذا شامل لكل مجرم.

وكذلك يقال في الثواب: إن الله -سبحانه وتعالى- يثيب كل عامل بعمله بمقتضى الأوصاف التي يستحق بها هذا الثواب.

٥- **ومنها:** إثبات الفعل لله -عز وجل-؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ﴾ والله -سبحانه وتعالى- فعَّالٌ لما يريد، والفعل يقتضي التجدد بحسب المفعول، فخلق الله للسماوات والأرض لم يكن أزليًّا، وإنما كان حين خلق السماوات والأرض، وخلق الله للجنين في بطن أمه لم يكن أزليًّا، بل هو حادث حين حدوث هذا الجنين.

٦- **ونتنقل من هذه الفائدة إلى فائدة تتفرع عنهاوهي:** إثبات أفعال الله الاختيارية خلافًا لمن أنكر ذلك، وقال: إن الله لا يقوم به فعل اختياري، وعللوا ذلك بعلة باطلة، قالوا: ؛ لأن الفعل الاختيار يقتضي الحدوث، والحادث لا يقوم إلا بحادث، والله -سبحانه وتعالى- أزلي أبدي، ولاشك أن هذا القول قول باطل. فإن الحادث قد يقوم بغير الحادث كما في أفعال الله. أليس الله تعالى خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش، فحدث الاستواء بعد خلق السماوات والأرض؟ أوليس الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير؟ بلى، فحصل النزول بعد مضي ثلثي الليل، ومع ذلك فإن الله لم يزل ولا يزال موجودًا. ثم إن الإنسان بنفسه يجد أن أفعالًا منه تتجدد مع سبقه عليها. فا؛ لأنسان مثلًا فعله اليوم ليس فعله بالأمس وهو سابق على أفعاله فتقوم به الأفعال الحدوثية مع سبقه عليها، فإذا جاز هذا في المخلوق، فهو في الخالق من باب أولى؛ لأنه كمال.

٧- **ومن الفوائد:** تمام سلطان الله -عز وجل- وقوته، وجه ذلك أن هؤلاء المجرمين

معروفون بالعتو والكبرياء والغطرسة، كما في فرعون وغيره من الملأ، ومع ذلك فإن الله قاهرهم، يعذبهم ويفعل بهم ما يشاء مما تقتضيه حكمته.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أن هؤلاء المجرمين في غآية ما يكون من العتو، فإنهم إذا قيل لهم هذه الكلمة العظيمة التي لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بهن، يستكبرون عنها، ويرون أنهم أكبر قدرًا من أن يقولوها، أو أن يصدقوا من قال بها؛ لأنه قد سبق أن قلنا في التفسير يستكبرون عن الخبر والمخبر به.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الخضوع لما تقتضيه هذه الكلمة؛ لأن الله ساقها في القوم المستكبرين عنها مساق الذم، وعلى هذا فمن قبلها وخضع لها فقد نفي عن نفسه الذم وقام بما يجب عليه.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من قال: (لا إله إلا الله) بإخلاص فلابد أن يخضع لأوامر الله ولا يستكبر، ومن ثم جاءت نصوص كثيرة تعلق دخول الجنة على قول (لا إله إلا الله)، ومن المعلوم أن دخول الجنة لا يترتب على مجرد قولها، إذ إن المنافقين يقولونها ومع ذلك لا يدخلون الجنة، لكن المراد بمن قالها خاضعًا لما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة من اتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله لا صلاة ولا نذر ولا سجود ولا ركوع ولا حج، كله يجب أن يصرف لله -عز وجل-؛ لأنه هو المعبود حقًّا.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أن هؤلاء كذبوا بما تقتضيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فالأول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، والثاني إذا قيل: آمنوا بمحمد قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾. فلم يقوموا بـ (لا إله إلا الله)، ولم يقوموا بمحمد رسول الله، والله -عز وجل- يقرن دائمًا بين هاتين الكلمتين في آيات كثيرة، انظر إلى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨-٦٩] ففي الأول الإشارة شهادة أن لا إله الله، وفي الثاني ﴿لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ شهادة أن محمدًا رسول الله؛ ولهذا أيضًا جعل النبي ﷺ هاتين الشهادتين ركنًا واحدًا من أركان الإسلام، فقال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وأيتاء الزكاة..» (١)؛ لتلازم هاتين الشهادتين؛ ولأن مبنى العبادة كلها على الأي:مان بهاتين الشهادتين إذ إن مبنى العبادة على الإخلاص والمتابعة، اللذين يتحقق بهما شهادة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

١٣- **ومن الفوائد:** أن هؤلاء المستكبرين لم يكفهم الاستكبار عن الحق حتى قدحوا فيمن جاء بالحق. يؤخذ من قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ فلم يكفهم أن تركوا الحق حتى هاجموا وقدحوا فيمن جاء به، وقد ورثت هذه الطريقة -أي: القدح بمن جاء بالحق- فأهل البدع يسمون أهل السنة بكل عيب ووصف قبيح، سموهم المشبهة والمجسمة والحشوية والغثاء والنوابت والعامة، وما أشبه ذلك من الكلمات التي تفيد القدح، ولكن جعل الله -سبحانه وتعالى- لكل نبي عدوًّا من المجرمين، ولكل متبع نبي عدوًّا من المجرمين، فورث هؤلاء الأصفياء صفوة الخلق وهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وورث هؤلاء الأشقياء أشقى الخلق الذين يقدحون في الرسل.

١٤- **ومن الفوائد:** شدة انتصار هؤلاء المشركين لآلهتهم، انظر كيف قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾ وهذا يدل على شدة انتصارهم لها وحميتهم الجاهلية، وقد سبق في سورة «يس» أن الله تعالى قال عن هذه الآلهة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] فالأصنام والآلهة لا تنصرهم، وهؤلاء جند محضرون لنصر هذه الآلهة.

١٥- **ومنها:** وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

أن رسول الله ﷺ جاء بالحق، فكل دينه مشتمل على الحق فيما يتعلق بمعاملة الله تعالى أو فيما يتعلق بمعاملة عباد الله.

وقد قال الله تعالى في وصف القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] هذه الكلمة لو صنفت عليها مجلدات ما استوعبت مدلولها ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أي: جادًا أو تركًا ولو أنك تتبعت الشريعة بقدر ما تستطيع لوجدت أن هذا الوصف منطبق على جميع خصال الشريعة، كل خصال الشريعة أقوم من كل شيء، وهنا يقول: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ ضد الحق هو الباطل، والباطل إما كذب في الأخبار، وإما جور في الأحكام؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وذكرنا لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معنى آخر غير كون ما جاء به حقًّا، وهو أنه ﷺ صادق فيما جاء به فما جاء به حق، وهو صادق في قوله: إنه من عند الله، وليس بكاذب.

١٦- **ومن فوائدها:** الثناء على ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسم -؛ لقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ بل والثناء على الرسول ﷺ حيث وصفه بأنه جاء بالحق ولاشك أن من وصف من عند الله بأنه جاء بالحق لاشك أن هذا من أعظم المناقب والأوصاف الحميدة.

١٧- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن النبي ﷺ آخر الرسل؛ لقوله؛ ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فإن «أل» للعموم فتقتضي كل رسول، وهذا يشير وليس بصريح إلى خاتم النبيين، كما قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، الآية لها مدلول عظيم، قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، وكان مقتضى السياق أن يقول: «ولكن رسول الله وخاتم الرسل»، أو يقول: «ولكن نبي الله وخاتم النبيين»، لكن قال رسول الله؛ لأن وصف الرسالة أعلى من وصف النبوة، وخاتم النبيين يعني: لن يأتي بعده لا رسول ولا نبي وهو كذلك، فهو -عليه الصلاة والسلام- أفضل الرسل، ولن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

١٨- **ومن فوائدها:** أنه يجب علينا أن نصدق من سبق من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأن نبينا ﷺ صدق المرسلين؛ فيجب علينا نحن أن نصدق؛ لأنه يجب على المأموم متابعة الإمام، فإمامنا محمد -صلوات الله وسلامه عليه- فيجب علينا أن نتبعه.

١٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن الرسل السابقين أخبروا به؛ لقوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولاشك أن الرسل السابقين أُعلموا به، وأن آخرهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- بشر به، أما الأول فدليله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] فإن المراد بذلك محمد ﷺ.

فإنه جاء مصدقًا لما معهم، فكان عليهم أن يؤمنوا به بمقتضى هذا العهد، وانظر إلى ليلة المعراج حيث صلى الرسل، بل الأنبياء صلوا جماعة، وكان إمامهم محمدًا ﷺ مما يدل على أنه أفضلهم، فإن الإمامة في الصلاة تقتضي الإمامة التي فوق الصلاة.

٢٠- **ومن فوائدها:** تناقض هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ حيث وصفوه بأنه شاعر مجنون؛ لأن المجنون لا يمكن أن يكون شاعرًا فهم يتخبطون خبط عشواء، إلا أن يدعي مدع بأن الكلام مقسم؛ أي: أن بعضهم يقول: شاعر، وبعضهم يقول: مجنون، وينسب القول للجميع، وإن كانوا لم يقولوا به ؛ لأنهم راضون به، إن ادعى مدع ذلك فله وجه، لكن إن كان القائل يجمع بين الوصفين فقد تناقض.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٥]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: أحدهما (إن) والثاني: اللام، وقوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾ هي الخبر وحذفت النون منها من أجل الإضافة؛ لأن المضاف تحذف منه النون إذا كان مثنى أو جمعًا، ويحذف منه التنوين إن كان مفردًا.

وقوله: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأليم هنا بمعنى المؤلم، وفعيل تأتي بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الـــدَّاعِي السَّمِيـــعُ ... تُؤَرِّقنِي وَأَصْحَابِي هُجُـــــوعُ

السميع بمعنى: المسمع.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ فيه التفات، وذلك أن مقتضى السياق أن يقول: «إنهم لذائقو العذاب»؛ لأن الحديث كله جاء عن الغائب. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ فكان مقتضى السياق أن يقول: إنهم لذائقوا العذاب الأليم، ولكن كان في السياق التفات من الغيبة إلى الخطاب فما فائدة هذا الالتفات؟

ذكرنا فيما سبق أن كل التفات فإن له فائدة مشتركة، وهي تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد سها المخاطب أو القارئ، ولكن إذا تغير الأسلوب فإنه ينتبه لماذا تغير؟ وما وجه التغير؟ فتشترك جميع الالتفاتات في كل موضع بأن الغرض من ذلك التنبيه، ثم ينفرد كل موضع بما يختص به، فهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الخطاب أبلغ في الزجر، ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ أبلغ من إنهم لذائقوا العذاب الأليم؛ ولهذا إذا تأملنا قصة الخضر مع موسى -عليه الصلاة والسلام-، أول ما عتب عليه قال له: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥] الخطاب لاشك أن فيه قرعًا للذهن مباشرًا، فيكون اشد وقعًا من ضمير الغيبة.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ هذا فيه حق اليقين؛ لأن هؤلاء تُوُعِّدوا بهذا العذاب وتوعدهم بالعذاب هو علم يقين ثم رأوا النار كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، وهذا عين اليقين ثم قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ وهذا حق اليقين، فاجتمع في وعيد هؤلاء المراتب الثلاث: العلم، والعين، والحق.

قوله تعالى: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ المراد به عذاب جهنم -والعياذ بالله-؛ لأنه مؤلم، وقد أخبر الله -عز وجل- عن أي:لام هذا العذاب بأنواع عظيمة، ذكرها الله في كتابه، وذكر منها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا في السنة، قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ما تجزون من هذا العذاب إلا شيئًا قدمتموه أنتم ؛ لأنفسكم، وهنا قال المؤلف في تقدير الآية: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]، وهذا أمر

معلوم؛ لأن الذي عملوه كان وبان، إذ إن العمل كان في الدنيا ومضى، والجزاء في الآخرة، فهم لم يجزوا العمل نفسه، وإنما جوزوا جزاء العمل، ومن ثَمَّ قال المؤلف: إلا جزاء ما كنتم تعملون.

وإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يُعبَّرَ عن الجزاء بالعمل؟

قلنا: الفائدة في ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يعلم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما تدين تدان، فإذا عبر عن الجزاء بالعمل فإن هذا معناه أو مقتضاه أن هذا الجزاء بقدر العمل.

الفائدة الثانية: قوة التوبيخ لهؤلاء؛ لأن الجزاء من فعل غيرهم، فإذا عبر عنه بالجزاء فإنه يكون أهون بعض الشيء، لكن إذا عبر بالعمل عن الجزاء صار أشد في التوبيخ، كأنه يقال لهم: هذا فعلكم أنتم بأنفسكم؛ ولهذا عبر عن الجزاء بالعمل.

وقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من حيث الإعراب: نقول: إن (الواو) نائب فاعل في (تجزون)، و(ما): اسم موصول في محل نصب مفعول آخر؛ لأن جزاء تنصب مفعولين، ولكن هل هي من باب ظن التي مفعولاها أصلهما المبتدأ والخبر، أو من باب (كسا) التي مفعولاها ليس أصلهما المبتدأ والخبر؟

الجواب الثاني: ؛ لأنه لو قدرت أن الواو مبتدأ، و(ما) خبر، ما صح الكلام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: المؤمنين استثناء منقطع]، قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ هذا استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع هو الذي يحل محله، (لكن).

فإن قيل: لماذا لم يعبر بـ(لكن بدل إلا؟ ما دام أن المعنى على الاستدراك؛ لأن الاستثناء منقطع فلماذا لم يؤت بحرف الاستدراك الأصلي الذي هو لكن؟

قلنا في الجواب على ذلك: إنه أتى ليفيد قوة اتصال الثاني بما بعده؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، والأصل في (لكن) الأنقطاع. فإذا جاءت (لكن) فصلت بين ما قبلها وما بعدها، لكن إذا جاءت (إلا) صار في ذلك إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها وهو كذلك، فإنه لما ذكر جزاء المجرمين، ذكر جزاء المخلصين، وهذا من كون القرآن العظيم مثاني تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكر الوعيد ذكر الوعد، وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وإذا ذكرت الجنة ذكر النار، وهكذا، فهو مثاني؛ لأنه لو جاء الكلام على نسق واحد في ذكر الخوف والنار لغلب على القارئ جانب الخوف وأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، ولو جاء الكلام على نسق واحد في الوعد والترغيب لأدى ذلك إلى الرجاء فيقع الإنسان في الأمن من مكر الله -عز وجل-. فكان القرآن يأتي بهذا وبهذا، جنبًا إلى جنب، من أجل أن يكون الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ المراد بالعبودية هنا عبودية الشرع؛ لأن العبودية نوعان:

عبودية القدر، وعبودية الشرع.

فعبودية القدر شاملة لكل أحد. يعني: للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فالكل خاضعون لقدر الله -عز وجل-، لا يمكنهم الفرار منه ولا مصادمته ولا الاستكبار عنه.

أما عبودية الشرع فهي خاصة بمن أطاع الله -عز وجل- وتعبد لله بشرعه، فيخرج منها الكافرون؛ لأن الكافر لا يتعبد لله بشرعه، بل هو مستكبر عن شرعه، هذه الآية: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ من عبودية الشرع يعني: إلا الذين تعبدوا لله بشرعه وأخلصهم الله تعالى لطاعته، فهؤلاء ليسوا كمن سبق.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [أي: المؤمنين] ولكن المخلص فيه نوع اصطفاء أخلصهم الله لنفسه فكانوا عبادًا لله لا لغيره؛ لأن التزام طاعة الله هو تحقيق عبادة الله تعالى، وا؛ لأنسان العاصي لله تعالى عنده من الخروج عن عبادة الله بقدر ما حصل منه من المعصية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فهذا يدل على أن كل إنسان عصى الله فهو إنما يعصيه لهوى في نفسه، فإنه قد نقص من عبودية الله بقدر ما فعل من المعصية.

إذًا فالمخلص فيه نوع من الاصطفاء. أخلصهم الله لنفسه فكانوا عبادًا لله تعالى حقًّا؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وعباد الله المخلصون هم الذين أخلصهم الله لنفسه، فلم يجعل للشيطان عليهم سلطانًا، كما قال تعالى في حق الشيطان: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فالمخلص محفوف برعاية الله سبحانه وتعالى وحمايته عن الشيطان، والمخلص أشد وقعًا من المؤمن.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أولئك الضمير يعود على عباد الله المخلصين، وأتى بأولئك الدال على البعد مع قرب ذكرهم ولم يقل: (هؤلاء)، بل قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ تعظيمًا لشأنهم وبيانًا لعلو مرتبتهم، والإشارة بالبعيد تأتي لتعلية الشأن وتعظيمه، كما قال الفرزدق يخاطب جريرًا:

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِم ... إِذَل جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ المَجَامِعُ

قال: أولئك آبائي أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لشأنهم وتعلية لهم.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (أي: عطاء)، قال المؤلف -رحمه الله- [في الجنة]، والأولى أن تطلق كما أطلق الله -عز وجل-.

وقد يقال: يجازون أيضًا في الدنيا، لكن ظاهر سياق الآية: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يدل على أنه المراد الرزق الحاصل لهم في الجنة.

وقوله: ﴿رِزْقٌ﴾ بمعنى عطاء ﴿مَّعْلُومٌ﴾، يقول المؤلف: [بكرة وعشيًّا]، فكأنه يشير على أن

المراد بالمعلوم معلوم الوقت ولو قيل: إنه أعم فهو معلوم الوقت ومعلوم النوع ومعلوم في الدنيا ومعلوم عند ملاقاته لكان أشمل، فإن هذا الرزق معلوم في الدنيا؛ لأن الله تعالى أعلمنا به وهو أيضًا معلوم الوقت؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وهو معلوم العين والنوع إذا لا قوة. كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فهو معلوم لديهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، ﴿فَوَاكِهُ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [بدل أو بيان للرزق وهو ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ الصحة]، ﴿فَوَاكِهُ﴾ بالرفع بدل، أو بيان للرزق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون ﴿فَوَاكِهُ﴾ بالرفع بدل، أو بيان للزرق؛ لأن كلمة رزق أعم من الفواكه، فيكون ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل بعض من كل؛ لأن الرزق أعم.

قوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ هنا لم تنون؛ لأنها ممنوعة من الصرف صيغة منتهى الجموع. ﴿فَوَاكِهُ﴾ على وزن فواعل.

وقال المؤلف -رحمه الله- في الفاكهة: [هي ما يؤكل تلذذًا لا لحفظ صحة]؛ يعني: أن الفاكهة ما يأكله الإنسان للتلذذ لا للتقوت به، فهو عبارة عن أكل كمالي، وهكذا أهل الجنة يأكلون ما يأكلون فيها من باب التفكه لا لحفظ الصحة؛ لأن صحتهم مضمونة، فإن لهم أن يصحوا فلا يسقموا أبدًا، وأن يعيشوا فلا يموتوا أبدًا، فيكون كل ما يأكلونه في الجنة من قسم الفاكهة؛ لأن أهل الجنة؛ كما يقول المؤلف: [مستغنون عن حفظها -أي: حفظ الصحة- بخلق أجسامهم للأبد]؛ ولهذا جاء في الحديث «أنهم لا يبلون ولا يتغوطون، وإنما يخرج ما يأكلونه رشحًا -يعني: عرقًا- كريح المسك» فيتنعمون بهذا الأكل عند أكله وعند خروجه؛ لأنه يخرج رشحًا كرائحة المسك، كما لو طُلِي الإنسان بالمسك، فإنه يجد لذة ورائحة طيبة.

قوله تعالى: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله في جنات النعيم، وجملة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ جملة اسمية تفيد الثبوت والاستمرار؛ يعني: هم مكرمون في هذه الجنة من كل وجه من قبل الله -عز وجل-، يكرمهم الله -سبحانه وتعالى- فينظرون إليه، ويعدهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ومكرمون من قبل الملائكة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

مكرمون من جهة الخدم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مكرمون من كل وجه لا يجدون يومًا من الأيام أو لحظة من اللحظات شيئًا من الإهانة، بل هم في غاية الإكرام من كل وجه، فإن الله -عز وجل- أكرمهم وأباح لهم النظر إلى وجهه، ويتحدث إليهم عز وجل، وهذا غاية ما يكون من السرور، لا شيء أسر ولا أنعم ولا أفضل من مناجاة الله -عز وجل-، وهم ينظرون إلى وجهه.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الجنات جمع جنة، والجنة في اللغة العربية البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه، أي: يستره ويغطيه، وأصل هذه المادة الجيم والنون

أصلها من الستر؛ ولذلك تجد كل معانيها تعود إلى هذا، فالجنان القلب وهو مستتر، والجنة ما يجتن به المقاتل ويستتر به عن السهام، والجن عالم غيبي مستتر، والجنة بستان مستور بالأشجار، ولكن لا نفسر جنَّة النعيم بهذا، بل نقول: هي «الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»؛ لأنك لو قلت: إنها البستان الكثير الأشجار فإن الشوق إليها والنظر إليها يضعف، إذ إن المخاطب يتصور أن هذه الجنة كبساتين الدنيا، فيجول في بساتين الناس أي: بستان أعظم؟ بستان ف؛ لأن بن ف؛ لأن فلا يتجاوز قلبه أو يتصوره هذا البستان، مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله -عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[١]. فالأحسن أن نفسر جنة الخلد بأنها الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا من باب إضافة الشيء إلى نوعه؛ أي: جنات نعيم لا بؤس فيها ولا شقاء، نعيم للقلب وهو السرور، نعيم للبدن؛ لأنهم يحلون فيها في أبدانهم، ومنعمون في قلوبهم، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الأنسان: ١٢] وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الأنسان: ١١] فالنضرة في الوجه وهو الحسن، والسرور في القلب، فكان الحسن فيهم ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا سميت جنة النعيم لتنعم الإنسان فيها ظاهرًا وباطنًا، فقلبه منعَّم بالسرور، وبدنه منعَّم بالنضرة ولباس الحرير.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير وهي الكراسي التي يجلس عليها، ولكن ليست كسرر الدنيا، بل ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥] مخروزة من الذهب، ولا يمكن أن تتصور حسن هذه السرر؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وما لم يخطر على قلب بشر لا يمكن أن يتصوره الإنسان؛ لأنه فوق ما يتصور، فكل شيء تقدره من النعيم والحسن فالجنة أعلى وأعظم، وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال من الضمير المستتر في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾؛ يعني: حال كونهم متقابلين، وهذا يدل على كمال أدبهم وسعة مجالسهم. على كمال الأدب؛ لأنهم متقابلون لا يولي أحدهم قفاه للآخر، كذلك أيضًا يدل على سعة المجالس؛ لأنهم إذا كانوا كثيرين وصاروا متقابلين لابد أن تكون الدائرة واسعة، إذًا فالمجالس واسعة مهما جاء من الناس، فإنها تسعهم ويتقابلون فيها، والظاهر أن جلوس الإنسان مع أهله وخاصته على هذا الوجه متقابلين لكمال أدبهم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ يطاف: فعل مضارع مبني للمجهول، ولم يذكر من يطوف عليهم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

لكن ذكر في آية أخرى أنه ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الأنسان: ١٩] نسأل الله من فضله، ولدان يعني: غلمان صغار كأنهم لؤلؤ مكنون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا من جمالهم وصفائهم وحسنهم. منثورًا لتفرقهم في خدمة أسيادهم، واللؤلؤ إذا نثر تبعثر في الأرض فهم متبعثرون في خدمة أسيادهم كل له عمل، وهذا يَسرُّ الإنسان أن يجد هؤلاء الغلمان كل في عمله، ليس فيهم متعطل، وليس فيهم منتظر للآخر. ليسوا كغلمان الدنيا يتزاحمون كل واحد ينتظر الأجر، بل كلٌّ في خدمة معينة، وهذا ألذ ما يكون للسيد إذا رأى هؤلاء الغلمان قائمين بخدمته على هذا الوجه، ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الأنسان: ١٩]

وقوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ قال المؤلف: -رحمه الله- [هو الأناء بشرابه]، الكأس معروف وهو الأناء بشرابه، وقد بين الله -سبحانه وتعالى- أن هذا الكأس دهاق ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]؛ أي: مملوءة، ومع ذلك مملوءة بقدر معلوم ليست كبيرة، فإذا شربها الإنسان تعب، وإن أبقى منها فضلة صارت غير شهية، وليست صغيرة بحيث لا ترويه، وهم لا يعطشون، ولكن تلذذًا، بل قال الله تعالى: ﴿مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]؛ يعني: جُعِلَتْ بقدر ما يتلذذ به الشارب لا كبيرة ولا صغيرة.

وقوله: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [من خمر يجري على وجه الأرض كأنهار الماء]، المعين في الأصل الماء الجاري، والمراد هنا بكأس من معين أي: من خمر ﴿مَّعِينٍ﴾ كعين الماء يجري، وقد بين الله -سبحانه وتعالى- في سورة القتال أنهار الجنة ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، أنهار تجري، والذي خلق من هذا الطائر الذي يشبه الذباب هذه الكميات الكثيرة من العسل قادر على أن يخلق أنهارًا من العسل في الجنة وليس هذا بغريب، وليست هذه الأنهار تأتي من نحل، لكن تأتي بقول الله: كن فيكون، عسل مصفى لا شمع فيه ولا شوائب من أحسن ما يكون رؤية وطعمًا ورائحة، وقد قال ابن القيم -رحمه الله- في النونية بناءً على حديث ورد في ذلك:

أنهارُهَا في غَيْرِ أُخْدُودٍ جَـــرَتْ ... سبحـــاَن مُمْسِكُهَاَ عَن الفيضـــانِ

يعني: ليست كأنهار الدنيا تحتاج إلى أخدود تمنعها من الذهاب يمينًا وشمالًا، أو حفرة تحفر للنهر؛ لئلا تجري على سطح الأرض، بل على حسب ما يريده أهلها من غير عمال يوجهونها حفرًا أو إقامة أخدود، بل تجري على ما تريد من غير تعب.

قال: سبحان ممسكها عن الفيضان، والذي أمسك البحر أن يغرق أهل الأرض -وهو ليس بشيء بالنسبة للجنة- قادر على أن يمسك هذه الأنهار لا تزيغ يمينًا ولا شمالًا.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد كثيرة منها:

١- أن هؤلاء المكذبين أو المستكبرين عن قول (لا إله إلا الله) سيذوقون العذاب؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟﴾ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين وهما: إن، واللام.

٢- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء عذاب مباشر، كما يباشر الإنسان الأكل؛ لقوله: ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾، والأصل في الذوق أن يكون في الطعام الذي يؤكل، ثم أُطْلِقَ على كل شيء محقق وقوعه.

٣- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء -والعياذ بالله- أليم؛ أي: مؤلم، وهو ألم لا يمكن للأبدان في الدنيا أن تتحمل جزءًا منه؛ لأنهم -والعياذ بالله- يعذبون بنار أشد من نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب. فهو عذاب أليم ألمًا لا نظير له في الدنيا، ولا يمكن أن يتخيله الإنسان لشدته، نسأل الله أن يجيرنا منه.

٤- **ومن فوائدها:** كمال عدل الله -عز وجل- حيث جعل الجزاء من جنس العمل؛ لقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بخلاف الملوك في الدنيا أو أولياء الأمور في الدنيا فإن جزاءهم على العمل قد يكون أكثر مما يستحق، قد يغضب الإنسان فيجازي من له سلطة عليه بأكثر مما يستحق، أما الله -عز وجل- فإنه لا يجازي الإنسان إلا بعمله.

٥- **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء، ولازمه إثبات البعث؛ لأن الجزاء الكامل على العمل إنما يكون يوم القيامة، فيكون في الآية دليل على إثبات البعث وإثبات الجزاء.

٦- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبر عليه فتحرك الإنسان بالقول أو بالفعل كتحركه الاضطراري، بل كتحرك الريشة بالهواء، ولكن هذا القول ترده النصوص والعقول.

٧- **ومن فوائدها:** أن القرآن مثاني، تثنى فيه المعاني، حتى يكون الإنسان بين الخوف والرجاء فيما إذا ثني الترغيب والترهيب كما في هذه الآيات ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** شرف القائمين بأمر الله تعالى حيث أضافهم الله إلى عبوديته في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، ولاشك أن فخرًا ل؛ لأنسان أن ينسب إلى عبادة الله؛ ولهذا يذكر الله -سبحانه وتعالى- وصف نبيه محمد ﷺ في أشرف مقاماته بالعبودية عند ذكر إنزال القرآن عليه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ووصفه بالعبودية في مقام الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال في المعراج: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾

[البقرة: ٢٣] هذا تحدي للمكذبين للرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يأتوا بمثل ما جاء به.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله -سبحانه وتعالى- يمنّ على من يشاء فيخلصهم لنفسه حتى لا يكونوا عبيدًا لغيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا أبلغ من المخلصين، وإن كان لكل منهما مزية، ولكن المخلص الذي أخلصه الله -عز وجل- لنفسه فلم يكن له إرادة سوى ربه هذا أبلغ.

١٠- **ومن فوائدها:** أن عباد الله -عز وجل- ينقسمون قسمين:

عباد مخلصون، وعباد غير مخلصين.

فالعباد بمعنى: عبودية القدر هؤلاء غير مخلصين، بل هم كا؛ لأنعام، بل هم أضل، وأما العباد لله تَعَبُّد شَرْع فإن هؤلاء هم المخلصون.

١١- **من فوائدها:** أن هؤلاء المخلصين لهم عطاء عند الله -عز وجل- معلوم عنده وعندهم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فإن الله تعالى أخبر عباده بما ينالونه يوم القيامة من أنواع الثواب.

فإن قال قائل: هل هو معلوم بالحقيقة أو بالمعنى؟

فالجواب: أنه معلوم بالمعنى، أما الحقيقة فليس بمعلوم يعني: أننا لا نعلم كنه هذا النعيم، أو هذا الرزق؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أَعْدَدتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَينْ رأَتْ، وَ لاَ أذنٍ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ»[(١)].

إذًا لا نعلم من نعيم الآخرة إلا الأسماء فقط، أما الحقائق فإنها ليست معلومة، كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»[(٢)]، لكن الحقائق تختلف اختلافًا عظيمًا.

فهو معلوم المعنى لا معلوم الحقيقة والكنه؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بحق اليقين.

١٢- **ومن فوائدها:** أن أهل الجنة يأكلون هذا الرزق تفكهًا وتنعمًا لا اقتياتًا يحتاجون إليه؛ لقوله: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وفي الدنيا يأكل الإنسان الطعام أحيانًا اقتياتًا للحاجة إليه، وأحيانًا تفكهًا وتلذذًا. أما في الآخرة فكل طعامها تلذذ.

١٣- **ومن فوائد الأيات:** أن أهل الجنة مكرمون من وجوه ثلاثة:

١- من قبل الله -عز وجل-.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢/ ٢١)، كذا قال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٨).

٢- من قبل الملائكة -عليهم الصلاة والسلام-.
٣- من قبل الخدم، الغلمان.
فهم مكرمون من كل وجه.

١٤- **ومن فوائدها:** أن جزاء الله تعالى للمحسن أكثر من عمله بكثير؛ لأن إحساننا نحن للعمل لو نسب إلى ثواب الله -عز وجل- لم يكن شيئًا. قال النبي -عليه الصلاة والسلام: «لَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم فِي الجَنةِ خَيرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا»[1]. ثم إحساننا مهما بلغ فهو منتهي بالموت، لكن ثواب الله لا انتهاء له. ثواب الآخرة لا منتهى له. إذًا يتبين من ذلك أن فضل الله -عز وجل- وجزاءه أكثر بكثير من عمل العامل، فيكون هذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

١٥- **ومن فوائدها:** أن الجنة أصناف وأنواع تؤخذ من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ﴾ ولكنها تشترك كلها في أنها جنات نعيم.

١٦- **ومن فوائدها أيضًا:** أن الجنة كلها نعيم، نعيم للبدن، ونعيم للقلب، فنعيم القلب بالسرور وا؛ لأنبساط والفرح الدائم الذي لا يعتريه هم ولا غم ولا حزن، والبدن ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١] ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ (٨) لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ [الغاشية: ٨-٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنعم نفس البدن، وما يلبسه أيضًا من الزينة والحلي كذلك منعم فيه.

١٧- **ومن فوائدها:** سعة محلات أهل الجنة لكونهم متقابلين على السرر؛ لأن التقابل يؤدي إلى سعة المكان لاسيما مع كثرتهم.

١٨- **ومن فوائدها:** كما أدب أهل الجنة حيث كانوا يتقابلون بحيث لا يقفو أحدهم الآخر، بل كلهم يكونون مستقبلي بعضهم بعضًا، وهذا لاشك أنه من كمال الأدب، والأدب كما أنه حسن في أهل الجنة فهو حسن في أهل الدنيا أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤] ولاشك أن الإنسان إذا كان مؤدبًا كان محبوبًا عند الناس، فالجفاء وعدم المبالاة بالناس خلق ذميم، ومن ثم ننظر في مسائل نعلمها:

الأولى: مسألة السلام نجد كثيرًا من الناس مع أنهم حريصون على العبادة لكنهم لا يبالون بالسلام لا ابتداء ولا ردًّا، وهذا خلاف حال المؤمن مع أخيه، فمن حق المسلم على أخيه إذا لقيه أن يسلم عليه، ويسلم عليه سلامًا حقيقيًّا مقرونًا بالبشاشة، أما أن يسلم عليه برأس أنفه لولا حرف الصفير ما علمت أنه يسلم، فهذا ليس بسلام، وأقبح من ذلك أن يسلم الإنسان على أخيه بصوت بين واضح المخارج مسموع، ثم يرد ذلك عليه بصوت لا يسمع، بل يرد عليه بأنفه أو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٥٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٨٨١).

بيده... فإن هذا لاشك أنه حرام عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فلابد أن يكون إما مثل وهو أدنى الواجب، أو أحسن وهو الأكمل.

الثانية: نجد بعض الناس يستدبر إخوانه ولا يهتم بهم، وهذا خطأ، ولا ينبغي، وأنا أراه بعض الأحيان إذا سلمت من الصلاة يأتي واحد من الناس يتقدم ما يشعر أن وراءه بشر مثله لماذا تتقدم عليه؟ هذا مما يوجب اختلاف القلوب؛ ولهذا قال الرسول -عليه الصلاة والسلام- في القوم عند صف الصلاة قال: «لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبِكُم»(١) فعل الاختلاف في التقدم والتأخر سببًا لاختلاف القلوب، أنا لو كنت بجنب هذا الرجل شعرت بأن هذا الرجل أهانني، حيث تقدم عليَّ وو؛ لأني ظهره.

ويتعلل بعض الناس بأنه فيه ضيق وأنه يحب أن يريح رجليه، فيتقدم ليتربع.

فنقول: إذا كنت هكذا: إما أن تتقدم كثيرًا ثم تكون بعيدًا وإما أن تتأخر. يقول: لا أقدر أتأخر؛ لأن ورائي صفًّا يقضون الصلاة، نقول: إذن قم وتقدم بعيدًا حتى لا تستدبر الناس، أما إن تستدبر عباد الله بعد أن فرغوا من الصلاة وتجعلهم وراء ظهرك فهذا لاشك أنه سوء أدب وأن الذي إلى جانبك سوف يشعر بأنك أهنته.

الثالثة: يوجد عند بعضنا، أن الصغير لا يقدر الكبير، يتقابل اثنان عند باب المسجد أو عند باب الدار ثم يتقدم الصغير بعجلة ليدخل قبل الكبير وهذا ليس فيه توقير الكبير، فتوقير واحترام الكبير من الخصال الطيبة ومن صفات المؤمن. فكون الإنسان لا يبالي ولا يهتم بغيره لاشك أنه خلاف الأدب.

فأهل الجنة -اللهم اجعلنا منهم- يكونون على السرر متقابلين، يجعلونها دائرة حتى يقابل بعضهم بعضًا.

١٩- **ومن فوائدها:** راحة أهل الجنة حيث كانوا متفرغين على السرر، يتحدث بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم إلى بعض على وجه التقابل.

٢٠- **ومن فوائدها:** أنه في حال جلوسهم على السرر فالخدم تطوف عليهم بأنواع الملذات والمشروبات، ومنها أنها تطوف عليهم بكأس معين، كأس الخمر الصافي الخالي من الشوائب، وهذا الكأس يكون مقدرًا على حسب ما يحتاجه الشارب، ليس كبيرًا فيتعبه، ولا صغيرًا فينقص من لذته، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الانسان: ١٥-١٦]



---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٣٢)، وأبو داود (٦٧٤)، والنسائي (٨٠٧).

قال الله تعالى:

﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٦ ـ ٤٩].

التفسير

قوله تعالى: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أشد بياضًا من اللبن] هكذا قال المؤلف: إنها أشد بياضًا من اللبن، والواقع أن الآية لا تدل على أنها أشد بياضًا، وإنما جاء أشد بياضًا من اللبن في وصف حوض النبي ﷺ الذي يكون في عرصات القيامة، فقد جاء في وصفه أنه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، أما الخمر في الجنة فوصفه الله تعالى بالبياض فقط، قال: ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ و﴿لَذَّةٍ﴾ لذيذة وهنا عبّر بلذة المصدر عن اسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لأن لذيذ يصلح لاسم الفاعل واسم المفعول؛ لأن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالمشتق من المصدر، فأنت إذا قلت: ف؛ لأن عدل. أبلغ من إذا قلت: ف؛ لأن عادل. كأنك جعلته هو العدل بنفسه، فهنا وصف هذا الخمر أو هذه الكأس بأنها لذة يعني: كأنها هذه اللذة لا الشيء المتصف باللذة، فالتعبير بالوصف عن الموصوف أبلغ من التعبير بالموصوف؛ لأنه تعبير بالأصل عما تفرع منه، فالمشتق متفرع من المصدر، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ هذا من باب التوكيد يعني: أنهم في حال شربهم إياها يتلذذون بها. قال المؤلف: [بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب]، أما خمر الآخرة فهي لذة للشاربين، وهي سالمة من الآثار السيئة كما قال تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُنزَفُونَ ﴾ قال المؤلف رحمه الله: [بفتح الزاي: وكسرها من نزف الشارب وأنزف؛ أي: يسكرون بخلاف خمر الدنيا].

قال الله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾؛ يعني: ليس في هذه الكأس، والمراد الخمر الذي فيها غول، ورفعت غول مع أن (لا) نافية؛ لأنه يشترط لعملها عمل (إنّ) الترتيب؛ يعني: أن يتقدم الاسم على الخبر، فإن تأخر وجب الرفع، وقوله: ﴿غَوْلٌ﴾؛ أي: [ما يغتال عقولهم]، ففسر المؤلف الغول بأنه ما يؤثر على العقل؛ أي: يسكرون، والسكر هو اغتيال العقل، فالقول الراجح في هذه الآية أن المراد بالغول ما يغتال أبدانهم من صداع في الرأس ووجع في البطن فخمر الآخرة لا غول فيها بخلاف خمر الدنيا، فإنه يكون فيها صداع، ويكون فيها وجع للبطن، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره، أما النزف فقال: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ يقولالمؤلف: [من نزف الشارب وأنزف إذا سكر

بخلاف خمر الدنيا]، فإن الإنسان يسكر فيها ويزول عقله. أما في الآخرة فهي خالية من هذا، إذًا يصدق عليها ما وصفها الله -عز وجل- في قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الأنسان: ٢١]؛ أي: مطهرًا من كل ما يحصل من خمر الدنيا.

قال: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ (عندهم)؛ أي: عند أصحاب الجنة الذين هم عباد الله المخلصون؛ لأن الله قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ثم ذكر ما هم من الثواب فيكون الضمير عائدًا على عباد الله المخلصين، ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [حابسات الأعين على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن].

قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قاصرات اسم فاعل مضاف إلى فاعله؛ أي: التي قصرت أطرافهن على أزواجهن؛ يعني: أنهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهذا لاشك أنه من نعمة الله على الزوج، ومن كمال السعادة ألا تنظر المرأة إلى غير زوجها؛ لأنها إذا نظرت إلى غير زوجها فسوف يلقى الشيطان في قلبها مودة هذا المنظور وكراهة الزوج، فإذا كانت قد قصرت طرفها على زوجها فإن هذا من كمال السعادة الزوجية.

ومن وجه آخر أنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: قاصرات أطراف أزواجهن؛ أي: أن الزوج لا ينظر إلى سواها، فهو قد قصر طرفه عليها، وذلك لكمالها وحسنها في نظره، وحيئئذ يكون لقاصرات الطرف معنيان:

المعنى الأول: أنهن قد قصرن أطرافهن على أزواجهن.

المعنى الثاني: أن أزواجهن قد قصروا أطرافهم عليهن وكلا المعنيين صحيح.

قوله تعالى: ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء: والمعنى أنهن حسنات العيون، وحسن العين يكون بأمرين:

١- سعة الأعين.

٢- حسن الأعين؛ يعني: أن العين واسعة مع سعتها فإنها جميلة حسنة، ولاشك أن حسن العين يوجب حسن الوجه ويزيده حسنًا إلى حسنة، كالقلادة مثلًا تزيد المرأة حسنًا إلى حسنها، وقال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [أي: في اللون بيض للنعام ﴿مَّكْنُونٌ﴾ مستور بريشه لا يصل إليه غبار ولونه وهو البياض فيه صفرة أحسن ألوان النساء]. لما وصف هؤلاء النساء بأنهن عين وصف بقية أجسامهن فقال: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وكأنَّ هذه للتشبيه، والبيض في الآية الكريمة مُنكَّر، ولكن المؤلف حمله على بيض معين، وهو بيض النعام، وبيض النعام أبيض في صفرة، قالوا: وهذا أحسن ألوان النساء، والذي خصصه ببيض النعام؛ لأن هذا هو المعروف عند العرب.

وقيل: إن البيض مطلق، والمعنى أنهن يشبهن في البياض والرقة البيض، وليس المراد البيض المقشور، بل البيض الذي هو بياض البيضة لرقته وبيانه وحسنه، وهو ﴿مَّكْنُونٌ﴾ بما على البيضة

من القشرة، وهذا الأخير هو الأقرب لظاهر اللفظ؛ لأن الله -عز وجل- أطلق قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ ولو كان المراد ما قاله المؤلف -رحمه الله تعالى- بيضًا معينًا لقال: كأنهن البيض المكنون، لتكون «ال» دالة على معهود ذهني، فالصواب أنه عام، وأنهن لرقتهن وبياضهن ونعومة الملمس كأنها البيض؛ أي: البياض الذي في البيض وهو مكنون بقشره، أما على رأي: المؤلف فهو المكنون بالريش الذي تضعه النعامة على بيضها حتى لا يأتيه الغبار.

الفوائد: يستفاد من هذه الآية:

١- **صفة هذا الخمر أو الكأس من المعين وأنه أبيض**؛ لقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن خمر الآخرة في غاية ما يكون من اللذة، ووجه ذلك أنه عبَّر باللذة عنه، والتعبير بالمعنى عن المتصف به أقوى من التعبير بالمشتق من ذلك المعنى، فإذا قلنا: ف؛ لأن عدل فهو أقوى من قولنا ف؛ لأن عادل؛ ولهذا يرون أن النعت بالمصدر أوكد من النعت باسم الفاعل.

٣- **ومن فوائدها:** أنها لذيذة حين الشرب خلافًا لخمر الدنيا فإنها كريهة حين الشرب؛ ولهذا قال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ فتفيد أنهم في هذه الحال يتلذذون بها غاية اللذة. أما خمر الدنيا فإنها كريهة، ولكن الإنسان يتلذذ بها بما ينتج عنها من السكر نسأل الله العافية.

٤- **ومن فوائدها:** أن خمر الآخرة ليس فيها ضرر عقلي ولا بدني. قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كما يتلذذون بالشراب، يتلذذون أيضًا بالنساء والزوجات؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾.

٦- **ويستفاد أيضًا:** أن هؤلاء النساء حاضرات لا يغبن عن أزواجهن؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾. أما في الدنيا فإن الزوجات قد يكن عند الإنسان، وقد يغبن باختياره، وقد يغبن بغير اختياره. أما في الجنة فإنهن حاضرات لا يغبن عن أزواجهن؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُمْ﴾.

٧- **ربما نأخذ من هذا أيضًا فائدة:** أنهن لا يذهبن إلى غير أزواجهن، وذلك بتقديم الخبر ﴿وَعِندَهُمْ﴾ والمعروف في قواعد البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٨- **ومن فوائدها:** كمال أدب هؤلاء النساء لكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

٩- **ومن فوائدها:** أن المرأة إذا نظرت إلى غير زوجها فإن ذلك فتنة؛ لأن الله امتدح نساء الجنة بكونهن قاصرات الطرف على أزواجهن.

ويتفرع على ذلك أنه يجب على الإنسان أن يراعي زوجته في هذا الباب بحيث يمنعها من التطلع إلى غيره، سواء كان هذا التطلع إلى الرجل مباشرة، أو بواسطة الوسائل الإعلامية. فيمنعها من مشاهدة مجلات الأزياء الخبيثة التي يحصل بها الشر والفساد.

ويتفرع على هذه الفائدة أيضًا: أن يمنعها من الخروج إلى الأسواق إلا لحاجة؛ لأن المرأة إذا

خرجت إلى الأسواق ورأت الناس فربما تعجب بأحدهم ويتعلق قلبها به فتعزف عن زوجها، وينقلب حبها لزوجها ضعيفًا، أو ربما يفقد، لكن نساء أهل الجنة لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

١٠- **ومن فوائدها:** بناء على المعنى الثاني في ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أن نساء أهل الجنة في غاية الكمال والجمال بحيث لا ينظر الرجل إلى سواها؛ لأنها تقصر طرفه عن غيرها، وهنا ذكر الله -عز وجل- صفتهن الحسية، ولهن صفة معنوية ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خيرات الأخلاق، حسان الأجسام، فتكون نساء أهل الجنة جامعات بين الحسن الظاهر والحسن الباطن.

١١- **ومن فوائدها:** حسن أعين هؤلاء النساء؛ لقوله: ﴿عِينٌ﴾ وحسن العين يكون بجمال الشكل والسعة والاستدارة، وشدة السواد في شدة البياض، وغير ذلك مما يكون جمالًا في العين.

١٢- **ومن فوائدها:** استعمال التشبيه التحسيني؛ لقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وهذا تشبيه تحسين وعكس ذلك التشبيه التقبيحي قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يراد به تحسين هؤلاء النساء.

١٣- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالقياس بالتشبيه، فالتشبيه يؤخذ منه استعمال القياس؛ لأن القياس إلحاق فرع بأصل؛ أي: تشبيه في الحكم وإعطاؤه حكمه.



قال الله تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

سبق أن أهل الجنة على سرر متقابلين، لكن الإقبال هنا فسر بقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ يعني: صار بعضهم يسأل بعضًا مع اتجاه بعضهم إلى بعض، كما هو الأدب في المخاطبة أنك إذا خاطبت شخصًا فلا تخاطبه إلا وأنت مقبل عليه، بجملتك، فهم كذلك ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله-: [عمّا مر بهم في الدنيا] وإن شئت فقل: يتساءلون عن كل أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الآية مطلقة، وما أطلقه الله فإنه لا ينبغي أن يقيد، ويكون ما ذكر من القصة مثلًا من الأمثال التي يتحدثون بها.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾؛ يعني: من جملة ما يتحدثون به ما يجري لبعضهم من محاولة صده عن سبيل الله تعالى وكفره بالله -عز وجل-.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ في الدنيا؛ لأن (كان) فعل ماضٍ ﴿لِي قَرِينٌ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله- [صاحب ينكر البعث] هذا القرين هل هو قرين جني أو إنسي؟.

قيل: إنه جني؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾.

وقيل: إنه إنسي يعني: يقارنه ويوسوس له، والآية تحتمل معنيين، والقاعدة عندنا في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر، ولا مرجح لأحدهما فإن الواجب حملها عليهما، ولاشك أن ل؛ لأنس شياطين كما أن للجن شياطين، وأن شياطين الأنس يوسوسون كما يوسوس شياطين الجن، إذًا فالآية عامة، قرين إما من الأنس، أو من الجن، أو منهما جميعًا، وقول المؤلف: [قرين صاحب] مشكل إذ كيف يكون المؤمن مصاحبًا لمشرك؛ لأن الواجب أن يكون بين المؤمنين والكافرين التباعد وعدم المصاحبة؛ لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]؛ ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]

لكن قيل: إن المراد بالقرين هنا هو الشريك في المال، أو سفر أو ما أشبه ذلك، وليس المراد بذلك الصحبة التي تستوجب الموالاة أو المحبة. يقول هذا القرين: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾.

قال المؤلف: [تبكيتًا]؛ يعني: يبكته ويلومه ويوبخه كيف تصدق بذلك؟

وقيل: بل يقول هذا نفيا، وإنكارًا والآية تحتمل هذا وهذا، تحتمل أن هذا الفريق إذا عرض عليه المؤمن أن يؤمن بالبعث قال له هذا الكلام استبعادًا وإنكارًا له، ويحتمل أنه يبكته ويلومه ويوبخه على أن يصدق، يقول: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾. ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ مرَّ علينا أن مثل هذا الاستفهام المقرون بإن أو غيرها من أدوات التوكيد أنه استفهام يؤكد فيه المستفهم الأنكار، يقول: كيف تثبت وتصدق وتؤكد كذا وكذا مع أنه ليس بصحيح؟ ومنه قول أخوة يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾. هذا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾؛ يعني: كيف تصدق تصديقًا مؤكدًا بأن واللام في هذا الأمر البعيد المنكر؟ وقوله: [بالبعث] إنما قيّد المؤلف ذلك بالبعث؛ لقوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ فيكون الذي خصص التصديق بالبعث قرينة السياق.

قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [في الهمزتين في الثلاثة مواضع ما تقدم]؛ أي: أربع قراءات:

١- تحقيق الهمزتين.

٢- تسهيل الثانية.

٣- إدخال ألف في التحقيق.

٤- إدخال ألف في التسهيل.

يقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أنكر ذلك أيضًا فانظر إلى هذا القرين المشؤوم - والعياذ بالله- الذي يبكّت ويوبخ وينكر هذا الامر المؤكد الذي دل عليه الكتاب والسنة والعقل، فيقول كيف نبعث ونجازي بعد أن كنا ترابًا وعظامًا؟ ومناسبة الابتداء بالتراب قبل العظام؛ لأنه أبلغ في الحيلولة؛ أي: بدأ بالأبعد فالأبعد فكونهم تراب أبعد من أن يخلقوا من كونهم عظامًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ يقول هذا الرجل لأصحابه الذين معه في الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، والاستفهام هنا للعرض يعني: يعرض عليهم أن يطلعوا معه إلى هذا القرين، وإنما عرض عليهم ذلك من أجل أن يتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم؛ لأن الإنسان إذا رأى هذا القرين الذي كان معه في الدنيا. يقول له ما ذكر، إذا رآه في النار وهو في أكمل النعيم لاشك أنه يزداد شكرًا لله -عز وجل- على نعمته إذ لو شاء لجعله مثله، لاسيما وأن هذا الرجل يحاول بكل ما يستطيع أن يصد هذا عن سبيل الله -عز وجل-، فيكون للاطلاع فائدة عظيمة، وهي معرفة قدر نعمة الله عليهم بهذا النعيم، وليس المراد بهذا الاطلاع الشماتة بهذا الرجل؛ لأنه لو كان المراد الشماتة لكان في هذا نوع فخر على هذا الرجل واستطالة، ولكن المراد أن يعرفوا قدر نعمة الله عليهم؛ لأن الأشياء تتبين بضدها. ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. قال المؤلف -رحمه الله: [فيقولون: لا].

أتى بهذا من قوله: ﴿فَاطَّلَعَ﴾ ولم يقل: فاطلعوا.

ولكن الجزم بأنهم قالوا: لا. فيه نظر، لاحتمال أنهم سكتوا، ولما علم أنه لا رغبة لهم في الاطلاع ذهب واطلع، ويحتمل أنهم مشوا معه ووقفوا ولكن لم يطلعوا؛ فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنهم قالوا: لا. لاسيما وأن المعروف من أدب أهل الجنة بعضهم مع بعض أنه فوق هذا المستوى الذي يطلب منهم ويعرض عليهم عرضًا أن يطلعوا إلى هذا الرجل الذي كان يبكته وينكر البعث؛ لينظر ماذا فعل الله به؟ وما فعل الله بهذا المصدق حتى يتبين بذلك قدر نعمة الله عليه، وكمال حكمته بتعذيب هذا الرجل المنكر، يبعد أن يقولوا: لا، فإما أن يقال: إنهم قاموا واطلعوا، ولكنه لما كان هو المعني بهذا الأمر نسب الأمر إليه، فقال: ﴿فَاطَّلَعَ﴾، ويحتمل أنهم قاموا معه ولم يطلعوا، بل وقفوا عند المكان الذي وقف عليه، ويحتمل أنهم سكتوا وعرف أنهم يريدون ذلك، ثم تقدم. المهم أن لا نجزم بهذا القول الذي قاله المؤلف -رحمه الله-.

قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [ذلك القائل من بعض كوى الجنة]، كُوّة؛ يعني: أن هذا الرجل اطلع على هذا ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ رأى قرينه رؤية عين ﴿فِي سَوَآءِ

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: وسط النار يعذب؛ ولهذا قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

قال المؤلف: [قال له تشميتًا]، هذا ما ذهب إليه -رحمه الله- إنه قال ذلك يشمت به، ويحتمل أنه قال: تحدثًا بنعمة الله ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ولكن الله منَّ عليَّ فلم تستطع أن ترديني، وهذا هو الأقرب، وقوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾ هذا قسم بحرف التاء، والقسم هو: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، وكان القسم تأكيدًا؛ لأن المقسم كأنه يقول بلسان حاله: إن منزله هذا عندي وقدره عندي أؤكد به ما أخبرت به إذا كان خبرًا، أو ما سأفعله إن كان إنشاء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ﴾ يقول المؤلف: [إن من مخففة من الثقيلة]؛ أي: فأصلها إنَّ، وهي تفيد التوكيد، وإنها قال مخففة من الثقيلة؛ لأن (إن) تأتي على أوجه متعددة:

و﴿كِدتَّ﴾ قال المؤلف -رحمه الله: [قاربت]؛ لأن كاد تدل على المقاربة، فهي من أفعال المقاربة، وقد اشتهر عند النحويين أن نفيها إثبات، وإثباتها نفي.

فإذا قلت: كاد يفعل، فهذا إثبات لكنه يدل على أنه لم يفعل.

وإذا قلت: لم يكد يفعل كذا، فهذا نفي لكنه يدل على أنه فعل؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]

لكن هذا الذي اشتهر ليس بصحيح، فهي كغيرها من الأفعال: إثباتها إثبات، ونفيها نفي. فإذا قلت: كاد يفعل كذا، فإنها إذا كانت بمعنى قارب تدل بمادتها على أنه لم يفعل؛ لأن من قارب الشيء لم يدخل فيه.

وعلى هذا فإثباتها إثبات.

فهي أثبتت المقاربة: والمقاربة تدل على عدم الفعل.

وأما لم يكد يفعل كذا، فهذه تدل أيضًا على انتفاء الفعل، وأنه ما قارب أن يفعل هذا الشيء، لكن إن وجد قرينة تدل على الفعل مثل: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فالإثبات جاء من كلمة ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ لا من كلمة ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، فهل نقول إنه يراها؟ لا، بل نقول لا يقارب أن يراها، يعني: هذا الظلمات العظيمة لو تضع يدك إلى جنب عينك ما رأيتها. فهذا القول المشهور ليس بصحيح، بل نقول: إن (كاد) كغيرها من الأفعال إثباتها إثبات، ونفيها نفي، لكن معناها معنى قرب. قال: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ (اللام) هذه للتوكيد، لكن يعبر عنها بعض النحويين بقولهم: اللام فارقة، أو اللام لا الفرق، يعنون بذلك أنها تفرق بين «إن» فإنها تدل على أنها مخففة من الثقيلة وليس بنافية؛ لأن النفي لا يؤكد باللام.

وهل تجب هذه اللام الفارقة في خبر «إن»؟

نقول في هذا تفصيل: إن كان المعنى واضحًا فإنها لا تجب، وإن كان المعنى خفيا فإنها تجب؛ أي: إن احتمل السياق أن تكون «إن» للنفي وجب الإتيان بها باللام الفارقة، وإن لم يكن يحتمل لم يجب.

فقول الشاعر:

وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

هذه لم تأتِ بها اللام؛ لأن السياق يراد به مدح هؤلاء الجماعة أو هؤلاء القبيلة، والمدح لا يناسبه النفي، وإنما يناسبه الإثبات، لكن إذا قلت إنْ زيد قائم؛ وجب عليك الإتيان باللام فتقول: إنْ زيد لقائم ؛ لأنك لو لم تأتِ باللام لاحتمل أن يكون معنى قولك: إنْ زيد قائم. ما زيد قائم؛ ولهذا سماها بعض النحويين (لام الفرق) أو (اللام الفارقة).

ولهذا قال ابن مالك:

وَخَفِّفَتَ إِنْ فَقَلَ العَمَلَ ... وَتَلْزِمِ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلْ
وَرُبَّمَا اسْتَغْنَى عَنْهَا إِنْ بَدَا ... مَا نَاطِقٌ أَرَادَهُ مُعْتَمِدَا

فبيّن -رحمه الله- أن اللام تلزم إذا أهملت، أما إذا أعملت فالأمر واضح.

وخلاصة هذه المسالة النحوية أن نقول: «إن» المخففة من الثقيلة تعمل ولكن عملها قليل، فإذا أهملت وجبت اللام في خبرها إلا إذا كان المعنى واضحًا. فإذا قلت: إن زيدًا قائمًا، لم تجب اللام؛ لأن إن النافية لا تنصب المبتدأ فالمعنى واضح أنها مخففة، وإذا قلت: إن زيد قائم: وجب الإتيان باللام؛ لأنك لو حذفتها احتمل أن يكون للنفي وأن يكون للإثبات.

وإذا كان الرجل يمتدح شخصًا ويقول: إنْ زيد كريم، فلا يحتاج إلى اللام؛ لأن المدح يقتضي أن تكون «إن» مخففة من الثقيلة لا نافية والله أعلم.

الفوائد:

١- **كمال سرور أهل الجنة**، وأنهم يتحادثون ويتساءلون عما جرى في الدنيا، والتحدث عما جرى على الإنسان فيما سبق فيه لذة وراحة للنفس. أرأيت إذا تحدثت عن صباك ماذا تفعل وأنت صبي تجد في ذلك لذة وراحة ويذهب عنك الوقت وأنت لا تشعر به، فهم يتساءلون: ماذا حصل لنا في الدنيا؟ وكيف وصلنا إلى هذه النعمة؟ إلى غير ذلك من الأحاديث الممتعة الشيقة؛ ولهذا قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** كمال أدب أهل الجنة في أنهم عند المحادثة يقبل بعضهم على بعض؛ لقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وهذا من كمال الأدب أن تقبل إلى محدثك خلافًا لمن عندهم سوء أدب تجده عن المحادثة: وهو على يمينك تصد عن اليسار، وأنت تسأل عن حاله، حتى مهما

كان الأمر فإنه من سوء الأدب ولو فرض أنك تنظر إلى اليسار لاشتغالك بأمر مهم كأنك تنظر إلى طفل صغير تخشى عليه أن يقع في بئر، أو ما أشبه ذلك فإننا نقول: لا تحدثه وأنت صادٌّ عنه، إذا فرغت من هذا النظر فأقبل عليه.

وهل يؤخذ من ذلك أن من سوء الأدب أن تسلم على الإنسان من ورائه؟ فأحيانًا يكون الإنسان واقفًا حوله جماعة يسلمون عليه كلهم أمامه، ولكن يأتي واحد من ورائه يسلم عليه، فهذا المسلم عليه بين أمرين: إما أن يقبل عليه فيستدبر الآخرين، وإما أن يبقى مستقبل الآخرين، ويسلم عليه مستدبرًا له. فنقول: ليس له حق أن يُسلم من ورائه، والناس يسلمون من أمامه، وأقول: إذا أردت أن تسلم فاذهب مع الناس، وربما أنه يريد أن يتجاوز الآخرين حتى يسلم ويمشي، وأعتقد أنه من سوء الأدب ما دام الناس كلهم مقبلين على الإنسان كيف تسلم عليه من وراء، فأنت تريد أن تقطع حديثه مع هؤلاء لأجل أن يقبل عليك، وإذا كان انتظار الدور معروفًا في مصالح الناس فليكن حتى في السلام.

وعلى كل حال: كون أهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يدل على أن الإنسان إذا أراد أن يحادث غيره فليكن مقبلًا عليه، أما أن يحادثه من وراء فهذا ليس من الأدب.

٣- ومن فوائدها: جواز التحدث بنعمة الله، بل نقول جواز في الأصل وإلا فإن التحدث من الأمور المطلوبة، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لأن هذا الرجل تحدث عما أنعم الله به عليه من الهداية مع أنه كان له قرين يريد أن يغويه.

٤- ومن فوائدها: جواز غيبة الشخص الداعي إلى الضلالة، من قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ولاشك أن هذا القرين يدعو إلى الكفر،فتجوز غيبة الداعي إلى الضلال أو الكفر في الدنيا، للمصلحة العظيمة وهي تحذير الناس منه، حتى لا يقعوا في شركه.

٥- فيها أيضًا من الفوائد: أن دعاة الضلال يأتون بالشبه التي توجب ضلال الناس؛ لأن هذا الداعية إلى الضلال يقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ فيلبس عليه ويقول: كيف يبعث من كان ترابًا وعظامًا من أجل أن يجازى؟! ولاشك أن مثل هذه الشبهة تنطلي على عامة الناس.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه يجب الحذر من تشبيه أهل الضلال، وأن لا تدخل شبههم إلى قلب الإنسان، وقد ذكر ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- أنه قال: اجعل قلبك بمنزلة الزجاجة الصافية، أو القارورة الصافية، ولا تجعله كالإسفنج يتشرب كل ما ورد عليه؛ لأن الزجاجة الصافية يرى الشيء من ورائها صافيًا، ولكن ما يدخل إليها شيء، لو تضعها وسط الماء ما دخل إليها شيء، لكن الإسفنج يتشرب ويقبل كل ما يرد عليه ولو نقطة واحدة انتفخ منها، فا؛ لأنسان يجب عليه أن لا يتشرب الشبهات، وأن يكون قلبه صافيا خالصًا لا يدخل

إليه شيء من هذه الأشياء.

فإن قال قائل: قد لا أملك هذا الأمر فما موقفي إذا أورد عليَّ شخص شبهة من الشبه؟

الجواب على ذلك أن نقول: إن أي:راد شيطان الأنس للشبه كأي:راد شيطان الجن، وقد أمر النبي ﷺ إذا وردت على قلب الإنسان شبهات أن ينتهي عنها، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وعلى هذا فالدواء أن أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقوم عن المكان ولا أبقى في جدال وصراع، وليس عندي علم أدفع به شبهاته، بل أقوم عن المجلس، أما أن أبقى وأنا ليس عندي علم أدفع به الشبهات فإنه ربما يؤثر عليّ، والقيام من هذا المكان الذي تلقى فيه الشبهات هو الإعراض، أو الأنتهاء الذي أمر به النبي -عليه الصلاة والسلام- من ورد على قلبه شيء من الشبهات.

٦- **ومن فوائد الأيات**: أنه قد يكون أعدى عدو ل؛ لأنسان من كان مقارنًا له؛ لقوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

ويتفرع على هذا الفائدة:

٧- **الاحتراس من القرناء**: وألا نلقي إليهم بالمودة والإسرار إلا بعد أن نخبر حالهم؛ لأن كثيرًا من الناس يتلطف إليك ويمشي معك لا من أجل أن يستفيد منك ولا من أجل أن تستفيد منه، بل من أجل أن يرى ما عندك فيقومك إما في نفسه وإما عند غيره.

فليس كل قرين ل؛ لأنسان يكون ناصحًا له. بدليل هذا ﴿لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ فاحذر القرناء لا تركن إليهم إلا بعد أن تعرف صدق نصحهم ومودتهم، وحينئذ فا؛ لأنسان مدني بالطبع، لابد ل؛ لأنسان من قرين وصاحب يشكو إليه أموره، ويفضي إليه بأسراره، ويستشيره في أموره، لابد من هذا، لكن احذر، لا تركن إلى شخص إلا وقد عرفت صدقه.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: مجزيون ومحاسبون كما مر.

٩- **ومن فوائد قوله تعالى**: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أن هذا الذي أنعم الله عليه بالنجاة يطلب من إخوانه في الجنة ويعرض عليهم الاطلاع من أجل معرفة قدر نعمة الله عليهم، فإن الشيء لا يتبين إلا بضده.

هذه فائدة نقول في خلاصتها: إنه يندب ل؛ لأنسان أن ينظر في ضلال من ضل ليتبين في ذلك قدر نعمة الله عليه في الهدآية. فإن الأشياء إنما تتبين بضدها.

١٠- **ومن فوائدها**: أن أحوال يوم القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، فإن هذا ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحبه في سواء الجحيم.

فيتفرع على هذه الفائدة: أن كل ما ورد من أحوال يوم القيامة مما تستبعده النفوس لعدم مشاهدة

نظيره في الدنيا لا ينبغي أن يكون محل استبعاد، فمثلًا ثبت في الصحيح أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل[1] ولو أن الشمس دنت إلى الخلائق في هذه الدنيا من ذلك لأحرقتهم، لا يقول قائل: كيف يمكن أن يبقوا والشمس تدنو منهم إلى هذا الحد؟! كذلك أيضًا ورد أن الناس يختلفون يوم القيامة بالنسبة للعرق. فمنهم يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حقويه، ومنهم من يلجمه، وهم في مكان واحد ربما يستبعد الإنسان وجود هذا؛ لأنه لا يشاهد نظيره في الدنيا، فنقول: لا تستبعد؛ لأن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا. ففي يوم القيامة المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكافرون في ظلمة، والمكان واحد فلا يستفيد هؤلاء من نور هؤلاء، مع أنه في الدنيا لو كان أحدنا معه نور في يده ليضيء طريقه ؛ لأنتفع به من كان حوله، فلا تستبعد في الآخرة أن يكون مثل هذا الأمر؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، فهذا الرجل ينظر من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فيرى صاحب، ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

١١- **ومن فوائدها أيضًا:** أن هذا المطلع يخاطب صاحبه في أسفل السافلين، ويكلمه فكل واحد منهم يخاطب الآخر، وهذا أيضًا لا يجوز أن يستبعد؛ لأن أحوال الآخرة غير أحوال الدنيا؛ ولأننا ربما شاهدنا في هذه الدنيا ما يشابه هذه الحال بواسطة الاتصالات الحديثة، فا؛ لأنسان قد يخاطب صاحبه وهو في مشرق الأرض والآخر في مغربها ويخاطبه وينظر إليه.

١٢- **ومن فوائدها:** بيان توبيخ هؤلاء المفسدين في يوم القيامة؛ لأنه وبخهم بقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ وقد جاء في آية أخرى بأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]

١٣- **ومن فوائدها:** أن هذا القرين السيئ كان يحاول بكل جهده أن يهلك صاحبه؛ ولهذا من شدة دعأيته كاد أن يهلك هذا ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** أن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين؛ لأنه وصف ذلك بالردى ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ وهذا هو الحق، فإن الهلاك الحقيقي هو هلاك الدين، أما الدنيا فإنها إنما خلقت للفناء، وما خُلق الناس للبقاء في الدنيا ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾. ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] فالهلاك الحقيقي هو هلاك الدين: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المزمر: ١٥]



---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠).

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٧ - ٦١]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ لولا: حرف امتناع لوجود. إذا قلت: لولا زيد لقمت. امتنع القيام لوجود زيد؛ لأنها حرف امتناع لوجود.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ قلنا: إن لولا حرف امتناع لوجود. فالموجود النعمة، والممتنع: كونه من المحضرين.

قال أهل النحو: ولولا: خبر المبتدأ بعدها يحذف وجوبًا في الغالب. قال ابن مالك: وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتم.

إذًا (نعمة) مبتدأ والخبر محذوف، وتقديره ولولا نعمة ربي عليّ، أو كائنة أو ما أشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾. النعمة: هي ما يكون با؛ لأنعام؛ أي: أثر إنعام الله -عز وجل- على العبد، وتنقسم إلى قسمين: نعمة عامة، ونعمة خاصة:

أما النعمة العامة فهي الشاملة لكل أحد من المؤمن والكفار، والبر والفاجر، فكل الناس يعيشون بنعمة الله عز وجل، وأما النعمة الخاصة فهي التي أنعم الله بها على المؤمنين، ومنها قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ثم هذه النعمة الخاصة أيضًا فيها ما هو أخص، وهي نعمة الله على الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومنها قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] فإن هذه النعمة أخص النعم.

والنعمة في هذه الآية ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ من الخاصة؛ لأن نعمة الله العامة كائنة حتى على هذا القرين الرديء، ولكن هذه نعمة خاصة.

قال المؤلف -رحمه الله: [﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليَّ بالأي:مان لكنت من المحضرين معك في النار]. اللام واقعة في جواب لولا؛ لأن (لكنت) هي جواب لولا، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، وإن شئت فقل: لكنت من المحضرين معك في العذاب؛ ليكون أشد، فإن العذاب أعم وأشد من عذاب النار، وإن كان من في النار فهو معذب -والعياذ بالله-.

قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ الهمزة في ﴿أَفَمَا﴾ للاستفهام، والفاء: عاطفة

و(ما): نافية حجازية ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي هنا عاملة لتمام الشروط.

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ هذا الاستفهام يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ : [هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله ـ تعالى ـ من تأبيد الحياة وعدم التعذيب]. أي أنهم يتلذذون بانتفاء الموت عنهم، ولا شك أن انتفاء الموت والخلود والتأبيد من أكبر ما يسر به الإنسان. ولهذا جاء في الحديث: «أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ جِيءَ بِالْمَوْتِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ويُنَادَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُون نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتَ، فَيُذْبَح، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، فَيَزْدَادَ أَهْلَ النَّارِ غَمًّا إِلَى غَمِّهِم، وَيَزْدَادَ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِم»(1)؛ لأنهم أمنوا من الموت، فهنا يتحدثون بهذه النعمة، وهي انتفاء الموت عنهم ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦] وعلى هذا فالاستثناء منقطع، يعني لكن موتتنا الأولى حصلت وتمت في الدنيا.

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ معطوفة على: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ أي: وكذلك ما نحن بمعذبين، فانتفى عنهم الموت المستلزم للتأبيد، والعذاب المستلزم للتنعيم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه ما ذكر من النعيم لأهل الجنة، ومنه انتفاء الموت والتعذيب ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

اللام: مؤكدة وإن: مؤكدة وهو: ضمير فصل.

وعلى هذه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات «إن»، و «اللام» «ضمير الفصل» ثم إن المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فيدل على أن هذا الفوز فوز خاص بأهل الجنة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الخاص على هذا الوجه هو الفوز العظيم، فإذا قيل: ما هو الفوز؟ قلنا: إن الفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ مأخوذ من العظمة؛ لأنه لا فوز أعظم من ذلك، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن ضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١ ـ التوكيد. ٢ ـ الحصر. ٣ ـ التمييز بين الخبر والصفة؛ لأنك إذا قلت مثلاً: (زيد فضال) فإن الفاضل يحتمل أن تكون صفة وتكون خبرًا، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون خبرًا، وحصل بذلك التمييز بين الخبر والصفة، ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

﴿ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ لمثل هذا المشار إليه ما ذكر من النعيم، وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا﴾ قال بعضهم: إن (مثل) هنا زائدة أي: لهذا فليعمل.

وقيل: بل هي غير زائدة بل أصلية، وأن (مثل) يؤتى بها للتعظيم والمبالغة، إذا كان الإنسان يطلب منه أن يعمل العمل لمثل هذا، فما بالك بنفس هذا.

يقولون: إن المثل ملحق بمثيله إلحاقًا، كالمشبه ملحق بالمشبه به. فمرتبة المشبه به أعلى من مرتبة المشبه.

المثيل الذي قيل: هذا مثل هذا أعلى من مماثله؛ لأنك إذا قلت: هذا مثل هذا، فقد ألحقت الأول بالثاني.

فإذا قيل: لمثل هذا وصار الإنسان مطلوبًا منه أن يعمل لمثل هذا الشيء، فطلبه أن يعمل لهذا الشيء نفسه من باب أولى.

فيقولون: إن هذا من باب التوكيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإن مثل ليست بزائدة، ولكنه جيء بها للمبالغة إذا كان مثله ـ سبحانه وتعالى ـ لو فرض له مثل ـ لا يماثله شيء، فما بالك به هو نفسه؟ فيكون هذا من باب التوكيد.

إذن: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا﴾ نقول: هذا من باب التوكيد والمبالغة أي أن الإنسان مطلوب منه أن يعمل لمثل هذا، فكيف بنفس هذا الشيء، فتكون مثل على هذا ليست بزائدة، بل هي أصلية، وفائدتها التوكيد والمبالغة.

ولهذا يقال للشخص: مثلك لا يبخل، ويريدون: أنه لا يبخل، لكن أتوا بمثل من باب المبالغة يعني إذا كان المتشبه بك لا يبخل فأنت من باب أولى وأحرى، فمثل هذا التركيب في اللغة العربية يقصد به المبالغة، وليس هناك زيادة.

إذن لمثل هذا الفوز العظيم والنعيم العظيم ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ و (الفاء) عاطفة و (اللام) لام الأمر.

وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ أي: بشرع الله فإن هذا لو تذهب فيه النفوس والأنفاس والنفائس لكان ذلك رخيصًا في جانب هذا الفوز العظيم.

فالواحد منا يسعى جهده ليحصل الدرهم والدينار فيشبع به بطنه، ويكسو به عورته، وينعم به بدنه ذلك النعيم الزائف الزائل، وتجده يسهر في الليل ويتعب في النهار من أجل الوصول إلى هذا الغرض، لكن ثواب الآخرة أعظم وأعظم، ومع ذلك فعملنا قليل، وقد وبخنا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] فالذي ينبغي له العمل حقيقة بل الذي يجب على العاقل أن يعمل له هو ثواب الآخرة.

وهذه الآية: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] هذا هو محل التنافس، وهذا هو محل العمل، وهو الجدير بذلك.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: قيل: يقال لهم ذلك، وقيل: هم يقولونه - وعلى كل حال - فسواء هم الذين يقولونه، أو يقال لهم فإنه يفيد أن هذا الجزاء وهذا النعيم، وهذا الفوز هو الذي ينبغي أن تفنى فيه النفوس والأنفاس والنفائس.

الفوائد:

١ - أن التحدث بنعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - مشروع ومأمور به بشرط أن يكون المقصود به الثناء على الله - تعالى - لا الافتخار على عباد الله.

٢ - **ومن فوائدها:** أن نجاة الإنسان من عذاب الله من أكبر النعم، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣] حيث جعل إكمال الدين من إتمام النعمة، وبالدين تكون النجاة من النار والفوز بدار القرار، فمن أكبر النعم بلا شك بل هي أكبر النعم أن يمن الله على الإنسان بالنجاة من النار ودخول الجنة.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هذا المؤمن قال: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إلى الله، وهذه الربوبية من الربوبيات الخاصة، وقد مرَّ علينا أن الربوبية عامة وخاصة، وقد اجتمع في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧ - ٤٨] الأولى عامة، والثانية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي تربية أخص من الربوبية العامة؛ لأن الله - تعالى - يربي هذا العبد تربية خاصة أكثر من الربوبية العامة.

٤ - **ومن فوائدها:** جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ ولم يقل: ولولا ربي.

لكن قد يقول قائل: إن نعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا كان المراد بها فعل الله فهي من صفات الله فإضافة الشيء إليها كإضافته إلى الله، لقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[1]. لكن إضافة الشيء إلى سببه على أقسام:

القسم الأول: أن يكون السبب معلومًا حقيقة حسًا أو شرعًا فنقول: مثلاً: لولا فلان أنقذني من الغرق لهلكت.

ولا بأس بذلك، لكن بشرط أن تشعر في قلبك أن فلانًا قد سخره الله لك ولم يستقل بفعله، ومن ذلك أي: من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم قول النبي - عليه الصلاة والسلام - في عمه أبي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) وفي غير موضع من صحيحه، مسلم (٢٨١٦).

طالب: «لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1] فقال: «لو لا أنا» فأضاف الشيء إلى السبب المعلوم.

القسم الثاني: أن نضيف الشيء إلى الله ـ تعالى ـ وإلى سببه المعلوم فهذا جائز، ولكن بشرط أن يكون معطوفًا بحرف لا يقتضي التسوية، فلا يقول: لولا الله وفلان؛ لأن هذا شرك، لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرجل الذي قال له: ما شاء الله وشئت: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟»؛ لأن الواو تقتضي التسوية، فلا يجوز أن يسوى غير الله بالله، بل هو شرك، لكنه شرك أصغر إن كان شركًا لفظيًا، وأكبر إن اعتقد أن هذا السبب مساوٍ لله ـ سبحانه وتعالى ـ في حصول المسبب؛ لأنه إذا جعل شيئًا غير الله مساويًا له فهو شرك أكبر.

أما إذا أضيف بحرف لا يقتضي التسوية بل يقتضي الترتيب، فهذا نوعان: نوع جائز لا إشكال فيه، ونوع فيه بعض الشبهة، فإذا عطف بثم مثل: لولا الله ثم فلان فهذا جائز لا إشكال فيه؛ لأنك جعلت فلانًا تابعًا تبعية متأخرة، حيث عطفته بثم الدالة على التراخي.

أما إذا عطفته بفاء التي تقتضي الترتيب والتعقيب مثل: لولا الله ففلان.

فهذا محل نظر، لكن الأقرب أنه جائز؛ لأنك أتيت بالفاء الدالة على الترتيب.

القسم الثالث ـ أن تضيفه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحده، وتغفل السبب بالكلية، فتقول: لولا الله لهلكت فهذا جائز.

القسم الرابع: أن تضيفه إلى الله بذكر السبب، وتبين أن السبب مجرد سبب، مثل أن تقول: لولا أن الله أنقذني بفلان لهلكت، فهذا جائز.

القسم الخامس: أن يضيفه إلى سبب غير معلوم لا شرعًا ولا حسًّا فهذا شرك، لكن قد يكون أكبر وقد يكون أصغر.

فإذا قال: لولا فلان، يعني صاحب القبر أنقذني لهلكت فهذا شرك أكبر؛ لأن فلانًا لا يستطيع أن ينقذ.

وإن أضافه إلى سبب غير معلوم شرعًا ولا عرفًا ولا حسًّا لكنه ليس كالأول مثل: التمائم المعلقة على المريض من غير القرآن، فهذا شرك لكنه أصغر وليس بأكبر.

وهذا ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ إذا كان المراد بذلك فعل الله فهو من باب إضافة الشيء إلى فعل الله، وهو كإضافته إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وإن كان المقصود بذلك المنعم به فهو إضافة إلى شيء مخلوق، لكنه سبب صحيح، وإضافة الشيء إلى سببه الصحيح جائز.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

٥ - **من فوائد الآيات:** أن أهل الجنة لا يموتون فيها؛ لقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهذا غاية ما يكون من النعيم، فهو نعيم لا يشوبه تنغيص؛ لأن نعيم الدنيا مهما بلغ يشوبه

التغنيص: إذا ذكر الإنسان أن هذا النعيم سوف يزول، أو يزول هو عنه، لا شك أنه يتكدر عليه صفوه، ولهذا قال الشاعر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُــهُ بِادِّكَــارِ المَــوْتِ وَالْهَرَمِ

ما دام الإنسان يتذكر إما موتًا وإما هرمًا فإن العيش لن يطيب له، لكن من نعمة الله أن الإنسان يغفل عن هذا الشيء ولا يتذكر إلا الحالة التي هو عليها. لكن العاقل يكون حازمًا فيعمل لمستقبله.

فإذا قال قائل: هل لهذه الآية نظير في القرآن؟

فالجواب: نعم، قوله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦] والاستثناء في هذه الآية كالاستثناء في الأولى، أي أنه منقطع. يعني لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

وقد يقول قائل: إن الاستثناء فيها متصل.

وإذا قيل: ما وجهه؟ قلنا: إن قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء من حال هؤلاء الذين قال الله عنهم: إنهم لا يذوقون الموت؛ لأن نعيم أهل الجنة متصل آخره بأوله، فإن أهل الجنة منعمون حتى في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فلا تظن أن الحياة الطيبة للمؤمنين في الآخرة فقط، بل هي في الآخرة وفي الدنيا أيضًا لكن المشهور أن الاستثناء منقطع.

٦ - **ومن فوائدها:** انتفاء التعذيب عن أهل الجنة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ومن المعلوم أن هذه صفة سلبية، والصفة السلبية في مقام المدح لابد أن تتضمن ثبوتًا؛ لأن الصفة السلبية في غير مقام المدح ليست مدحًا، فإنه قد يقال: الجدار لا يُعذب.

وليس في هذا مدح للجدار. فلابد أن تكون هذه الصفة متضمنة لثبوت كمال، فما هو كمال النعيم؟ لما ذكروا انتفاء الموت فزال عنهم التنغيص به وذكروا أيضًا انتفاء التعذيب؛ لأن الإنسان قد يبقى في حياته معذبًا، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لكمال حياتهم وكمال نعيمهم؛ لأنهم لا يلحقهم مع البقاء تعذيب.

٧ - **من فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أن الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار كرامة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيترتب على هذه الفائدة: أن الإنسان مهما فاز في الدنيا فإن فوزه ليس بشيء بالنسبة إلى فوز الآخرة؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ولهذا نظير في القرآن مثل قوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] هذا الفوز ليس بحصول المال ولا الجاه ولا الرئاسة ولا بحصول الأولاد والزوجات، الفوز حقيقة هو الوصول إلى دار النعيم المقيم. أسأل الله - تعالى - أن يجعلني وإياكم ممن وصلها.

٨ - **ومن الفوائد:** أن الذي ينبغي أن يعمل له العامل، ويكدح له الكادح، ويتعب فيه التاعب هو هذا النعيم؛ لقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فغيره لا تعمل ولا تتعب نفسك في أمر لا ينفعك في الآخرة، وليس معنى هذا أن نقول: لا تعمل للدنيا، بل اعمل للدنيا لكن اجعل عملك في الدنيا من أعمال الآخرة.

فكيف يمكن هذا؟ يمكن أن تطلب المال من أجل أن تتعفف به عن الناس، من أجل الإنفاق على أهلك، تطلبه من أجل الصدقة به، تطلبه من أجل الاستعانة به في طلب العلم، تطلبه من أجل الجهاد في سبيل الله، فيكون طلب الدنيا طلبًا للآخرة ويكون هذا العمل عملاً للوصول إلى الجنة.

٩ - **ومن فوائدها:** وصف غير الله - تعالى - بالعظم فيقال: العظيم للشيء العظيم، أيًا كان، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] ويدل عليه - أيضًا - أن الله وصف العرش بأنه عظيم ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] وعلى هذا فالصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق لا بأس أن يوصف بها المخلوق، ولكن يجب أن يعلم بأن بين وصف المخلوق بها ووصف الخالق بها كما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وأنه لا يلزم من الاشتراك في الاسم الاتفاق في المسمى.

١٠ - **ومن الفوائد:** سفه أولئك القوم الذين يعملون للدنيا دون الآخرة؛ لأن الله - تعالى - قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فالذين يعملون للدنيا وهم في غفلة عن الآخرة لا شك أنهم سفهاء، وأنهم أمضوا أعمارهم فيما ليس فيه فائدة، بل فيما فيه خسارة، وقد قال الله - تعالى - : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يحكي الله - تعالى - عن الكفار بأن قلوبهم في غمرة، يعني مغمورة، وأتي بفي الدالة على الظرفية، للدلالة على أن الغمرة - والعياذ بالله - قد أحاطت بهذه القلوب، في غمرة من هذا، لكن أعمال الدنيا ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾. لا يعملون لغيرها وهي من دون ذلك، وأتى بمن الدالة على البعد في الدون عما خلق له الإنسان، هؤلاء قلوبهم في غمرة مما وعد الله به أهل الجنة، وتوعد به أهل النار، لكن أعمال الدنيا التي هي دون ذلك بمراحل كثيرة هم لها عاملون، وهذا كقوله - تعالى - في توبيخ من يعذب يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] في الدنيا في غفلة عن اليوم الآخر، وكأن هذا اليوم لا يأتي، أما اليوم فقد كشف عنك الغطاء، فبصرك حديد قوي، تبصر الأشياء على حقيقتها في الآخرة، فهنا أمر الله أن نعمل لهذا، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ

ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾ وأما ما دون هذا فلا ينبغي للإنسان العاقل أن يفني عمره ويتعب جسده وفكره في العمل له. **فإذا قال قائل**: هل معنى ذلك أن أترك العمل للدنيا؟

فالجواب: لا. ولو قلنا: بهذا لكان قول الله - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥] وكان قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ ﴾ [المزمل:٢٠] وكان وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:١٩٨] عبثًا ولغوًا، بل نقول: اعمل للدنيا، لكن الموفق يستطيع أن يجعل عمل الدنيا عملاً للآخرة.

والغافل بالعكس يجعل عمل الآخرة عملاً للدنيا.

١١ - ومنها أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم يحتاج إليه الإنسان من أجل أن يستعد لنشاط المستقبل، وأن يستريح من تعب الماضي، وأما أهل الجنة فلا ينامون؛ لكمال حياتهم، فليس عندهم تعب، ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٨] فهم لا ينامون؛ لأنهم لا يحتاجون إليه، ولأن النوم يصد عن النعيم والتنعم بما أعد الله لهم.

١٢ - ما أشرنا إليه آنفًا في قوله: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾:

أنه ينبغي للعاقل أن يذهب أنفاسه ونفيسه ونفسه في العمل لهذه الغاية الحميدة، ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾.

١٣ - **ومن فوائدها**: الإشارة إلى أن العمل لغير هذا ليس من الحكمة وليس من العقل، بل العقل والحكمة تقتضي أن يكون عمله للغاية العظيمة: للوصول إلى الجنة.

١٤ - في الآية رد على الجبرية حيث وجه الأمر إليهم ونسب العمل إليهم؛ لأن الأمر بالشيء لمن لا يستطيعه لا شك أنه ظلم وتكليف بما لا يطاق، وإثبات العمل - أيضًا - لمن لا إرادة له يعتبر مدحًا لغوًا؛ لأن هؤلاء إذا كانوا مجبرين فلا ينبغي أن يُمدحوا على محبوب ولا أن يذموا على مكروه.



قال الله تعالى:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ [الصافات:٦٢].

التفسير

قال المؤلف - رحمه الله -: [المذكور لهم ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ وهو ما يعد للنازل من ضيف وغيره ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾.]

(أم) هنا متصلة و (أم) المتصلة هي التي تذكر بين متعادلين، ويحل محلها «أو».

والمنقطعة التي تذكر بين شيئين متجانبين، ويحل محلها «بل» مثل ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بمعنى بل، أي: لا تأمرهم أحلامهم بهذا، ولكن هم قوم طاغون.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

(الجواب: ذلك بلا شك، ولكنه ذكر إما على سبيل التهكم بمن تنعموا في الدنيا ونسوا نعيم الآخرة، وإلا فلا أحد يشكل عليه أن ذلك خير من شجرة الزقوم، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] فإنه من المعلوم لكل أحد أن الله خير، لكن هذا ذكر على سبيل التهكم بهؤلاء، وأن معبوداتهم ليس فيها خيرٌ إطلاقًا.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿نُّزُلًا﴾ تميز؛ لأنها جاءت بعد اسم التفضيل، فإن خير اسم تفضيل، حذفت منها الهمزة لكثرة الاستعمال، وأصل خير «أخير»، مثل شر أصلها «أشر»، ﴿نُّزُلًا﴾.

النزل: هو ما يعد للضيف من التكرمة: كالأكل والشرب والفراش والمسكن وما أشبه ذلك، ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المعدّة لأهل النار، وهي من أخبث الشجر المرّ بتهامة، ينبتها الله في الجحيم كما سيأتي].

شجرة الزقوم: شجرة خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، مرة الطعم، إن نظر إليها إنسان لم يسرّ بها، وإن تذوقها فهي مرة، وإن شمها فهي كريهة، فهي إذن بشعة المذاق، كريهة الرائحة، مشوهة المنظر، ومع ذلك إذا وصلت إلى بطونهم فإنها لا تفيدهم شيئًا فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، فيتزقمونها تزقمًا، والعياذ بالله.

الفوائد:

١ ـ من فوائدها: التهكم بعقول هؤلاء الذين يفضلون عمل الدنيا على عمل الآخرة.

حيث قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ ولا شك أن الجواب عند كل إنسان أن يقول: ذلك خير.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إقامة الدليل على ضلال الإنسان بالغاية التي يؤول إليها أمره، فهؤلاء الذين فضلوا طريق أصحاب الجحيم اختاروا أن يكون نزلهم يوم القيامة شجرة الزقوم، ولا شك أن هذا ضلال بيّن، وسفه بعيد.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لأن شجرة الزقوم تكون في يوم القيامة.

٤ ـ **ومن فوائدها:** القدح والثناء بالسوء على هذه الشجرة؛ لأنه وصفها بأنها شجرة زقوم يتزقمها الإنسان تزقمًا يعني يبتلعها ابتلاعًا مكروهًا؛ لأنها ـ أي: هذه الشجرة ـ كريهة المنظر، مُرَّةُ الطعمِ، قبيحة الرائحة، ولهذا يتكرهونها لكن لضرورتهم إليها وشدة جوعهم يأكلونها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الصافات: ٦٣]

❁ التفسير ❁

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: للكافرين من أهل مكة، إذ قالوا: النار تحرق الشجر فكيف تنبته.]

شجرة الزقوم جعلها الله فتنة للظالمين أي: اختبارًا يُختبرون بها، وفتنة أي: سببًا للضلال؛ لأن الفتنة تطلق على الاختبار وتطلق على ما كان سببًا للضلال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [البروج:١٠] أي: كانوا سببًا في إضلالهم، ويقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] أي: اختبرناهم. أو إن شئت قل أضللناهم؛ لأن الله اختبر آل فرعون ولكنهم ضلوا ـ والعياذ بالله ـ فأضلهم الله.

وقوله: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: اختبارًا لهم وسببًا لضلالهم، اختبارًا لهم؛ لأنهم لو آمنوا لصدقوا ولم يعترضوا، وسببًا لضلالهم ؛ لأنها جعلتهم يتخذون من هذا طعنًا فيما أخبر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، يقولون: (هذا محمد يزعم أن الأشجار تنبت في النار، والعادة أن النار تحرق الأشجار فكيف تنبت في النار؟!)

ومعلوم أن الجواب على هذا يسير بالنسبة لنا، نقول: إن الله على كل شيء قدير، وهي شجرة نارية توافق طبيعتها النار ولا تناقضها، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ المراد بالظالمين هنا الكفار، ولا شك أن الكفر ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ومعلوم أيضًا أن الظلم يختلف، فهو درجات متفاوتة عظيمة، منها ما يصل إلى الكفر، ومنها ما يصل إلى الفسق، ومنها ما هو دون ذلك.

سؤال: يقول بعض الناس: كيف يعذب الله إبليس وهو مخلوق من النار في النار؟!.

الجواب أن يقال: إن مادته لم تجعله نارًا. كما أن مادة الطين لم تجعل الآدمي طينًا.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان الحكمة في مخلوقات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد

يفتن العبد بما يظهره من آياته.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن المكذب بما أخبر الله به يعتبر من المفتونين الذين فتنهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأضلهم.

٣ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن ذلك من الظلم، ولكن هذا الظلم هل هو ظلم لله ورسله أو ظلم؛ لأنفسهم؟

الجواب: أنه ظلم؛ لأنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] فكل من حاد عن الصراط المستقيم فإنه ظالم لنفسه؛ لأن الواجب عليه أن يحسن رعاية هذه النفس، فيقودها إلى ما فيه الخير والصلاح، ويذودها عما فيه الشر والفساد، وإذا كان الإنسان يجب عليه أن يرعى من ولاّه الله عليهم من بني آدم ومن البهائم، فوجوب رعاية نفسه من باب أولى، ولهذا بدأ بالنفس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

٤ ـ ومن فوائد الآية: إطلاق الظلم على الكفر، مع أن الظلم أعم من الكفر، ولكن المراد به هنا الظلم المطلق الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فالظلم المطلق هو ظلم الكافر، والظلم المقيد هو ظلم الفاسق، فالمعاصي ظلم لكنها ظلم مقيد، فمثلاً يقال: هذا ظالم نفسه بأكل الربا، هذا ظالم نفسه بفعل الزنا، هذا ظالم نفسه بالاعتداء على الخلق، وهكذا، أما الظلم المطلق فهو ظلم الكافر؛ لأن الكافر ـ والعياذ بالله ـ لم يأتِ بعدل إطلاقًا حتى يقال: إن ظلمه ظلم مقيد.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]

التفسير

هذه الجمل عن شجرة الزقوم بينها انقطاع بلاغي؛ لأن الاتصال هو العطف بالواو، وهنا كل جملة مستقلة، والحكمة من ذلك أن يعلم الإنسان عن هذه الشجرة من كل آية بصفة مستقلة، كأن كل صفة مستقلة تغني عن بقية الصفات.

فكونها فتنةً للظالمين هذا من أعظم ما يكون من الأوصاف التي يخاف منها عند إنكار هذه الشجرة، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها]، وهل هذه الشجرة واحدة للشخص، أو هي واحدة بالنوع والجنس؟ في ذلك احتمالان:

الأول: يحتمل أنه شجرة كبيرة تملأ النار كلها، ويتفرع منها أغصان في دركاتها كما هو ظاهر كلام المؤلف.

الثاني: يحتمل أنها شجرة متعددة، لكن أفردت باعتبار نوعها، كما تقول ـ مثلاً ـ إذا شاهدت شجرة: هذه مذاقها مر، مذاقها حلو، مذاقها كذا، لا تريد هذه الشجرة الواحدة، بل تريد هذا الجنس وهذا النوع، فشجرة الزقوم يحتمل أنها شجرة واحدة قد ملأت النار بأغصانها والله على كل شيء قدير، وإلا فإن النار بعيدة القعر، كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ فسمعنا وجبة فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[1] يعني سبعين سنة وهو يهوي في النار ما وصل إلى قعرها، هذه الشجرة إذا قلنا: إنها واحدة وأن أغصانها ملأت دركات النار فالله على كل شيء قدير، وإن قلنا: إنها واحدة بالجنس والنوع فليس في ذلك إشكال.

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وما ظنك بهذه الشجرة النارية التي تخرج في أصل الجحيم، فيكون لمنبتها أثر فيها؛ لأن المنبت يؤثر على النابت، حتى إن النوع الواحد إذا غرس في هذه الأرض اختلف عما إذا غرس في أرض أخرى وهو نوع واحد، هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم سوف يكون لمنبتها أثر فيها، ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ :﴿فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ولم يقل: في الجحيم، ليبين أنها عميقة الجذور ـ والعياذ بالله ـ في النار.

الفوائد:

١ ـ أن شجرة الزقوم خبيثة المنبت؛ لقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ والخبيث المنبت يكون هو خبيثًا أيضًا؛ لأن العادة أن النبات يكون على حسب أرضه، كما يكون على حسب مائه أيضًا.

٢ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حيث خلق هذه الشجرة في وسط النار، مع أن المعروف أن النار تحرق الأشجار، ولكن الله على كل شيء قدير، فها هي نار إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحرق الأجسام بلا شك، ولكن لما قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] لم تحرقه، بل كانت بردًا وسلامًا عليه.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الشجرة تنتشر إما أغصانها ـ كما قال المؤلف ـ أو أنواعها في النار كلها؛ لأن الله أخبر أن أهل النار يأكلون منها، ومعلوم أن النار دركات بعضها أسفل من بعض، فيلزم من ذلك أن تكون هذه الشجرة إما ذاتها ومنتشرة أغصانها، وإما نوعها موجودًا في جميع النار.



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧١).

قال الله تعالى:

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]

التفسير

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [المشبه بطلع النخل كأنه رءوس الشياطين أي: الحيات القبيحة المنظر].

قوله: ﴿طَلْعُهَا﴾ يعني: الثمر الذي يشبه طلع النخل كأنه رءوس الشياطين، والشياطين جمع شيطان، وهل المراد الشيطان الحقيقي، أو المراد نوع من الحيات كما قال المؤلف؟ إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: إن المراد الشيطان الحقيقي، واحتمال أن يكون المراد نوع من الحيات قبيحة المنظر وارد؛ لأن السيء من الحيوان قد يسمى شيطانًا، كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الكلب الأسود شيطان»(١).

ولكن الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول: المراد بالشيطان: الشيطان المعروف، وإنما شبهت برءوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها؛ لأن كل أحد يعرف أن ما ينسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يتخيل فكرًا، لا بما يعلم حسًّا، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه في القبح ولا حاجة إلى أن نقول: إنها حيات، حتى لو قلنا: بأنها حيات فهل هذه الحيات معلومة لكل أحد؟ إن حيات لا يعرفها إلا النادر من الناس لا ينفر الناس منها، بل إن المؤلف لما قال: [إنها حيات]، هبطت قيمة هذا القبح في نفس الإنسان، لكن كأنها رءوس الشياطين، يقشعر جسم الإنسان ويقف شعره عندما يسمع هذا التشبيه القبيح، وعلى هذا فالصحيح أن المراد بذلك رءوس الشياطين الحقيقية، ولكنها شبهت بها للعلم بأنها قبيحة عند جميع الناس وأنها منفرة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية الكريمة**: بيان أن هذه الشجرة لها طلع، ولكن طلعها أقبح ما يكون من الطلع؛ لأنه يشبه رءوس الشياطين.

٢ ـ **ومنها**: أن من أغراض التشبيه ما يسمى عند البلاغين بالتقبيح، فيشبه الشيء بما يستقبح نفسيًّا، وإن لم يكن معلومًا حسيًّا ؛ لقوله: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن رءوس الشياطين مستكرهة مستقبحة؛ لأنه شبه بها القبح، والتشبيه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٤)، والترمذي (٣٣٨)، والنسائي (٧٥٠)، وأبو داود (٧٠٢).

إلحاق الشيء بما هو أعلى منه في الصفة التي ألحق فيها؛ لأن المشبه دون المشبه به.

٤ - **ومن فوائدها:** إثبات أن للشياطين رءوسا.

٥ - **ومن فوائدها:** الرد على من يقول: إن الشياطين والجن هي قوى الشر، والملائكة قوى الخير، وليس هناك أجسام تحس، ووجه الدلالة أنه أثبت للشياطين رءوسا، ولا يمكن أن يكون في الأمور المعنوية التي لها قوى.

٦ - **ومن فوائدها:** ضلال من يعتمد على العقل في إثبات الأشياء أو نفيها؛ لأن الاعتماد على العقل يؤدي إلى أن يرد الإنسان ما ثبت في الكتاب والسنة من أجل ما يدعي أنه عقل.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات:٦٦]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار.

﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ مع قبحها لشدة جوعهم، الجملة هنا اسمية مؤكدة بـ (إنّ) و (اللام) لإفادة أن أكلهم مستمر؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وأكدت بـ (إنّ) و (اللام) للدلالة على أنهم يأكلون منها أكلاً مؤكدًا مع أنها قبيحة المنظر، كريهة الطعم والرائحة، لكن - والعياذ بالله - الجوع الشديد يضطرهم إلى أن يأكلوا منها قصرًا من غير شهوة ومن غير لذة، لكن لملء بطونهم فقط، وأكد أكلهم منها لئلا يقول قائل: إنها ما دامت على هذا الوصف فلن يأكل منها أحد، ومع ذلك فإن الإنسان لو كان في الدنيا ربما يفضل الموت على الأكل من هذا.

لكن في النار يعذبون بالأكل فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ يعني: أنهم لا يشبعون ولا يقتصرون على الضرورة، وأنت عندما يعرض لك في الدنيا وأنت جائع جوعًا شديدًا لحم منتن لا تملأ منه البطن وإنما تأكل بقدر الضرورة فقط، لو حاولت أن تملأ بطنك أبت عليك نفسك، ولو أنك ملأته لأوشك أن تتقيأه، لكن في النار يعذبون بذلك فلا يأكلون بقدر الحاجة بل يملأون بطونهم، يأكل ويقول: هات هات، كما أنهم يجبرون على شرب الحميم ويشربونه شرب الهيم، شرب الإبل الهائمة العطشى، وهذا من شدة عذابهم - والعياذ بالله - أن تصل بهم الحال إلى الجوع الشديد الذي يضطرهم إلى أكل هذه الشجرة الخبيثة يملأون بطونهم منها، وإلى العطش الشديد الذي يضطرهم إلى شرب الحميم، وهو الماء الحار الذي لا يستفيدون منه، بل قد قال الله - تعالى - : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال - عزَّ وَجَلَّ - في اغتسالهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩ - ٢٠] تصل حرارته إلى ما في البطون مع حيلولة بقية الجسم دونها لكن تصل الحرارة إلى ذلك، كما قال الله - تعالى - : ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة:٦ - ٧] تصل إلى القلوب، - نسأل الله السلامة، اللهم نجنا من النار - .

يقول تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ قوله: ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ «ال» هنا للعهد الذهني، ولا يمكن أن نقول: إن «ال» للعهد الذكري؛ لأنه؛ سبق ما يدل على البطن؛ لأن العهد الذكري لابد أن يتقدم نفس اللفظ، وهنا لم يتقدم اللفظ، لكن تقدم ما يدل عليه في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ﴾؛ لأنه لا يأكل إلا من له بطن.

الفوائد:

١ - **من فوائدها:** إثبات أكلهم منها على سبيل التأكيد ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي تأكيد الشيء المستبعد أمام المخاطب من أجل اطمئنان نفسه وإقراره به، ولهذا قال علماء البلاغة: إن المخاطب له ثلاث حالات:

١ - ابتداء. ٢ - وشك. ٣ - وإنكار.

١ - ففي الابتداء لا يحسن أن تؤكد له الخبر، بل تلقيه إليه غير مؤكد؛ لأنك إذا أكدته بدون سبب للتأكيد فقد يشك، ويقول: لولا أن هذا الرجل كاذب ما ذهب يؤكد الخبر بدون سبب، فالفصاحة أن تلقيه إليه مجردًا من التأكيد.

فمثلاً: إذا أردت أن تخبر بقدوم زيد، تقول: قدم زيد، إذا كنت تخاطب رجلاً خطاب ابتداء، ليس عنده شك في قدومه ولا إنكار.

٢ - أن يكون عند المخاطب شك في الأمر فهنا يحسن أن يؤكد، ولكن لا يجب، فهذا الرجل الذي تخشى أن يكون شاكًا بقدوم زيد لاستبعاده إياه، يحسن عندما تخبره أنه قادم أن تؤكد له، فتقول: قد قدم زيد، أو إن زيدًا قادم.

٣ - أن يكون منكرًا ففي هذه الحال يجب أن يؤكد له الخبر من أجل أن يزول عنه الإنكار ويطمئن إلى مدلول الخبر، كما لو كنت تخاطب شخصًا ينكر أن يكون فلان قدم البلد فتقول له: لقد قدم، وإن رأيت أنه يحتاج إلى زيادة. قلت: والله لقد قدم.

هذا باعتبار حال المخاطب أي أنه يحسن توكيد الخبر، أو تجريده من التأكيد، وعدمه باعتبار حال مدلول الخبر فإذا كان المدلول أمرًا هامًّا فإنه يؤكد حتى وإن كنت تخاطب من لا ينكر، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ - ٢] وأشباه ذلك مما أقسم الله به على البعث وهو يخاطب المؤمنين، فهنا نقول: تأكيد هذا الخبر مع إقرار المخاطب به يقصد بذلك بيان أهميته، وأنه أمر يجب أن يتأكد في قلب الإنسان، وأن يثبت فيه ويرسخ.

قال أهل العلم: وقد ينزل المقر منزلة المنكر لفعله فعل المنكر مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥] وهل الموت متردد فيه أو منكر؟ أبدًا، لا يتردد فيه ولا ينكره أي أحد من الناس، إذن فلماذا يؤكد؟؛ لأن المخاطب قد تكون حاله حال المنكر لعدم استعداده للموت، فيؤكد له الخبر.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ هنا أكد الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنهم سيأكلون؛ لأن المقام مقام استبعاد للأكل، فقد يستبعد الإنسان أن يأكل هؤلاء من هذه الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم وطلعها كأنه رءوس الشياطين.

فأكد الله ذلك بـ (إن) و (اللام) وأتى أيضًا بالجملة الاسمية الدالة على استمرار أكله.

٣ - من فوائد الآية الكريمة: أن الله يعذب أهل النار بالأكل من هذه الشجرة بكونهم لا يشبعون؛ لقوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فلا يأكلون منها بقدر الضرورة كما يأكل المضطر من الميتة بقدر الضرورة، ولكن يأكلون أكلاً يملأ بطونهم، كلما فرغ البطن قليلاً أكلوا.



❁ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧]

❁ التفسير ❁

(ثم): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، مما يدل على أنهم إذا أكلوا عطشوا، وإذا عطشوا لا يأتيهم الماء في الحال، بل يأتيهم بعد مهلة بيّنها الله - عَزَّ وَجَلَّ - بقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] فهم ليسوا إذا أكلوها وعطشوا بها أُعْطُوا الماء بسرعة، بل يستغيثون ويدعون أن يأتيهم ماء يبرد عليهم لهيب العطش، ولكن إذا أعطوا هذا الماء يعطونه شوبًا من الحميم، يعني: ماءً حارًّا حرارة عظيمة، والشوب: وهج النار.

وهذا الوهج يبينه الله في الآية التي سقتها إذا قرب الماء من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم - والعياذ بالله - شواها حتى إن لحومها لتتساقط من شدة حرارته، فإذا شربوه فإن أمعاءهم تستقبله لكنها تتقطع به ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] كل هذا سيكون، ليس خبر الأولين، ولهذا يجب علينا إذا قرأنا مثل هذه الآيات أن نشعر بأن هذا هو علم اليقين، وأنه سيكون حق اليقين، هذا الأمر بعد أن يعطشوا ويستغيثوا لا يغاثون بماء بارد ولا بماء عذب، بل بشوب من حميم أي: ماءً حارًا، فيشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبًا له، فسر المؤلف - رحمه الله -

الشوب هنا بالخلط، ومنه شبت الماء باللبن أي: خلطته، وهو يصلح بهذا وهذا، فهو خلط، وهو أيضًا وهج حرارة هذا الحميم كل ذلك يكون، فالوهج يكون قبل الشرب، والشوب بعد الشرب.



قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]

التفسير

يعني ثم بعد ذلك مرجعهم إلى الجحيم، والجملة جملة اسمية لم يقل: ثم يرجعون، بل قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ مؤكدة بمؤكدين وهما: (إنّ) و (اللام)، وهذا الترتيب فيه إشكال، فهل هو ترتيب ذكري أو معنوي؟ المؤلف يرى: أنه ترتيب معنوي، أي أنهم يخرجون من النار لشرب الحميم، ويحتمل أن يكون ترتيبًا ذكريًّا يعني بعد أن ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما لهم من هذا العذاب بين أن مرجعهم يوم القيامة إلى هذا الجحيم لا يرجعون إلى سواه.

أما المؤلف ـ رحمه الله ـ فيقول: [يفيد أنهم يخرجون منها لشرب الحميم وأنه خارجها،] وهذه الفائدة فائدة ضعيفة بالواقع، وكوننا نستفيد هذه الفائدة من هذه الجملة ليس بمتعين، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] فكيف يقال: إنهم يخرجون ويشربون الحميم ثم يردون، هذا بعيد جدًا، لكن إما أن نجعل الترتيب هنا للترتيب الذكري، أي أن الله بعد أن ذكر أنواعًا من العقوبات لهم بين أن مآلهم إلى الجحيم الذي فيه هذه العقوبات.

والترتيب الذكري موجود في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ سَادَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جَدُّهُ

وسيادة الأب سابقة على سيادته، وسيادة الجد سابقة على سيادة الأب.

أو يقال: إنهم كما قال الله عنهم: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وأنهم يقربون من أبوابها ويسقون هذا الحميم فيقربون لتتطلع نفوسهم إلى الخروج، فيكون عندهم بعض الأمل، فإذا أمّلوا هذا الأمل ثم ردوا إلى أصل الجحيم صار هذا أشد عذابًا عليهم؛ لأن حصول اليأس بعد الأمل أشد من بقاء اليأس؛ لأن الأمل يرفع اليأس، وإذا أعيد إلى العذاب عاد اليأس، فكان أشد وقعًا.

أرأيت لو أن رجلاً مغلولاً بين يديك، وصرت تحاول فك عنقه، فإنه يفرح، لكن إذا عدت ثم شددته ربطًا وأتيت بغلٍّ آخر ازداد يأسًا وغمًّا إلى غمّه، بعد أن رأى بصيص الأمل يعاد فيهان.

هؤلاء - والعياذ بالله - كلما أرادوا أن يخرجوا منها حصل لهم بعض الأمل أعيدوا فيها، فيكون ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: إلى أصل الجحيم الذي كانوا قد أملوا أن يخرجوا منه حين قربوا من أبوابها.

الفوائد:

من فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشجرة إذا أكلوها - والعياذ بالله - عطشوا وطلبوا الماء طلب المضطر إليه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف:٢٩] فهم يعطشون كثيرًا ويسألون سؤال المضطر، يستغيثون بالله - عَزَّ وَجَلَّ - فإذا أُغيثُوا أُغِيثُوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - والعياذ بالله - ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يعني: مع هذا الأكل القبيح المستكره المبتلى بمحبته يشربون عليه من الحميم الذي يخالطه، وقد سبق أن هذا الحميم يُقَطِّع أمعاءهم

٢ - **ومن فوائد قوله:** ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أن هؤلاء الذين في النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وهذا فيه زيادة تعذيبهم؛ لأن الإنسان إذا انفتح له باب الأمل والرجاء، ثم عاد إلى الخيبة صار ذلك أشق وأشد عليه مما لو استمر في خيبته، فيكون في هذا زيادة تعذيب له. ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء لن يذوقوا نعيمًا أبدًا؛ لأن مرجعهم ومآلهم إلى الجحيم، فلا يمكن أن يخرجوا منها، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن ظاهرها يفيد تأبيد النار؛ لأنه المرجع النهائي، وهذا يقتضي أنه ليس هناك سواه، وهذا القول أعني: أن النار مؤبدة هو القول المتعين الذي لا يجوز اعتقاد سواه، وذلك؛ لأن الله - تعالى - ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع: في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن.

ففي سورة النساء يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨ - ١٦٩].

وفي سورة الأحزاب يقول الله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤ - ٦٥].

وفي سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبعد هذه الآيات الثلاث من عالم الغيب والشهادة لا يجوز العدول عن القول بمدلولها، فإذا كان الساكن خالدًا خلودًا مؤبدًا لزم أن يكون المسكون كذلك، أي: مؤبدًا لا يمكن فناؤه، والقول بجواز فناء النار أو بوجوب فناء النار، قول ضعيف جدًا، وقد علق شيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله - على ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «شفاء العليل» حيث ذكر الخلاف عن

بعض السلف بأنه قول ضعيف جدًا، واستغرب أن يقع هذا من ابن القيم ـ رحمه الله ـ؛ لأنه قول منافٍ للقرآن، ولكن لكل جواد كبوة.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]

التفسير

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء الظالمون الذين يعذبون بهذا العذاب ﴿أَلْفَوْا﴾ أي: وجدوا آباءهم ضالين تائهين عن الحق، وألفى بمعنى وجد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥] ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا سيدها.

ثم قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ هم وجدوا آباءهم ضالين بعد أن قامت عليهم الحجة بضلال آبائهم، ولكن لم يتبعوا الحجة.

قال: ﴿فَهُمْ﴾ يعني: بعد أن وجدوا آباءهم ضالين ـ والعياذ بالله ـ هم ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

أي: يساقون ويزعجون، وهرع بمعنى عجّل وأسرع في الشيء، فهم على آثار آبائهم وعلى ما كانوا عليه من الشرك والظلم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أي: يساقون بشدة ويسرعون إلى اقتفاء آثارهم، وقد جاءتهم الرسل بالحجة، ولكن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]

فهم علموا أن آباءهم ضالون، ومع ذلك بقوا على ما هم عليه، بل صاروا يسابقون ويتمسكون أشد بما كان عليه آباؤهم.

الفوائد:

١ ـ أن هؤلاء المكذبين اتبعوا آباءهم على الضلال؛ لقوله: ﴿أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ فضلوا مثلهم.

٢ ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى ذم التقليد المخالف للحق؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر هذا تنديدًا بهم وتوبيخًا لهم أن يجدوا آباءهم ضالين ثم يتبعوهم ويدعوا طريق الحق.

فإذا كان التقليد للضرورة بحيث إن الإنسان لا يتمكن من الوصول إلى الحكم عن طريق الاستدلال، فهنا يجوز التقليد للضرورة؛ لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] ولم يقل: فاستنبطوا من القرآن والسنة إن كنتم لا تعلمون؛ لأن من لا علم

عنده لا يمكن أن يستنبط بنفسه، ولو حاول استنباط الأحكام من الأدلة وهو ليس عنده علم فسوف يضل ويتخبط خبط عشواء، فالإنسان الذي ليس عنده علم فرضه التقليد، والذي عنده علم فرضه الاجتهاد، وهذا القول وسط بين من يشددون في الإنكار على التقليد، وبين من يشددون في الإنكار على المجتهدين، فيكون التقليد للضرورة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** إطلاق الآباء على الأجداد؛ لأن الظاهر أن قوله: ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى.

وإطلاق الأب على الجد ولو كان بعيدًا معروف في الكتاب والسنة، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾

[الحج:٧٨] فسمى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبًا مع أنه جد بعيد، ويتفرع على هذه القاعدة: ترجيح القول بأن الجد من قِبَلِ الأب يسقط الإخوة مطلقًا أي: سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم في باب الميراث، وهو القول الراجح؛ لأنه أب، وهذا القول هو قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، وروي عن ثلاثة عشر صحابيًّا، وهو مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو القول الراجح المتعين، ووجه ذلك أن القائلين بالتوريث أتوا بتفصيلات لو كانت هي الشرع لوجب أن تبين في كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

٤ ـ **ومن فوائدها:** قبح عمل هؤلاء المقلدين، حيث كانوا يهرعون على آثار آبائهم في الضلال، أما في الحق فإنهم ينكصون على أعقابهم.

فيتفرع على هذا حظر هؤلاء الناس الذين إذا جاء الحق موافقًا لأهوائهم أسرعوا إليه، وإذا كان غير موافق نكصوا عنه، وصاروا يتباطئون فيه، وهؤلاء فيهم شبه ممن قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ [النور:٤٩].

إذا كان الحق لهم أتوا إليه مذعنين، وإذا كان الحق عليهم نكصوا، وحاولوا أن يلووا أعناق النصوص لتوافق أهواءهم.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١].

التفسير

هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم المقدر، ففي هذه الآية الكريمة تأكيد

ضلال من خالف الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وفيها تسلية النبي ﷺ؛ لأن كل ما سبق فيه التحدث عن أخبار قريش، فأراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يسلي رسوله ﷺ بأن قومك ليسوا أول من ضل، بل قد ضل قبلهم أكثر الأولين.

وفيها تأكيد لخبر هؤلاء الأمم الماضية التي قد يشك في خبرها من يشك.

كما أن فيها أيضًا زيادة تهديد لهؤلاء المكذبين؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ وأكد ـ أيضًا ـ هذه الجملة بالوجوه الثلاثة التي قد أشرنا إليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: لا كلهم، فإن من الأولين من اهتدى، ولكن أكثرهم ضل حتى قال رسول الله ﷺ حين عرضت عليه الأمم: «رأيت النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» وقوله: ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقين، فكل من سبق هذه الأمة فإنه يعتبر من الأولين.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة:** دليل على أن الأمم السابقة قد ضل أكثرهم، وهو كذلك، وقد تقدم أن الرسول ﷺ رأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.

٢ ـ **ومن فوائدها:** تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذكر المماثل للذين كذبوه؛ لأن الإنسان يتسلى ويتأسى بغيره.

٣ ـ **ومن فوائدها:** عناية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ برسوله ﷺ حيث كان، يضرب له من الأمثلة ما يسليه بها؛ لأن سلو الإنسان بغيره يهون عليه الأمر ويزيده قوة واندفاعًا فيما يدعو إليه.

٤ ـ **ومن فوائدها:** تهديد هؤلاء المكذبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢]

التفسير

هذه الجملة مؤكدة بما سبق بالقسم، واللام، وقد.

وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾

يعني رسلاً منذرين، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

[النساء:١٦٥] لكنه هنا لم يذكر البشارة؛ لأن المقام مقام تهديد، فكان طي البشارة أنسب والاقتصار على الإنذار أنسب، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾

والرسول قال أهل العلم: الذي أوحي إليه بالشرع وأُمِرَ بتبليغه، فإن قلت: ماذا نصنع في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] حيث قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] فهو يقتضي أيضًا أن النبي وهو الذي أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بالتبليغ قد أرسل.

فالجواب: أن تقدير الآية: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبأنا من نبي. فهو على حد قول الشاعر:

(عَلَفْتُها تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا)

فالماء البارد لا يعلف ولكنه يسقى، وهو على تقدير: وسقيتها ماء باردًا.

ومن المعلوم أن حذف ما يعلم جائز، كما قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيته:

وَحَذْفُ مَـــا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تَقُولُ: زَيْـــدٌ بَعْدَمَا عِتْكُمَا

وقوله: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ اسم فاعل من أنذر ينذر، والمنذر المخوف، أي: مخوفين من خالف بالعقوبة وحرمان الثواب، فالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كلهم ينذرون من خالفهم بالعقوبة، وحرمان الثواب؛ لأن العاصي يحرم من ثواب الطاعة، إذ لو شاء لأحل محل المعصية طاعة، وكذلك يعاقب بما تقتضيه هذه المعصية.

الفوائد:

١ ـ في الآية الكريمة دليل على أن الله ـ تعالى ـ أقام الحجة على كل أمة ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] فكل الأمم قامت عليهم الحجة.

٢ ـ **ويستفاد من الآية:** أن من لم تبلغه الرسالة فلا حجة عليه؛ لأنه لم يبلغه الإنذار، وهو كذلك، ولكن ما حكمه في الدنيا والآخرة؟

فنقول: أما في الدنيا فَيُحْكَم بما يتعبد به ويتدين به، فإن كان يتدين باليهودية فهو يهودي، وإن كان بالنصرانية فهو نصراني، أو بالمجوسية فهو مجوسي، أو بالشيوعية فهو شيوعي، أي أننا لا نجري عليه أحكام المسلمين في هذه الحال؛ لأنه يدين بغير الإسلام، وليس لنا إلا الظاهر.

أما في الآخرة فحكمه إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأصح الأقوال في هذا: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمتحنهم بما يشاء، فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

فإذا قال قائل: وهل في الآخرة تكليف؟ أليس التكليف ينقطع بالموت؟

فالجواب: نعم، في الآخرة تكليف، قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢] ودعوتهم إلى السجود تكليف.

٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي في الخطاب أن يذكر ما يناسب المقام، وأن يحذف ما تكون الفصاحة في حذفه، وجهه أنه اقتصر هنا على ذكر الإنذار بالنسبة للرسل مع أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - حالهم الإنذار والتبشير، قال الله - تعالى - : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

٤ - **ومن فوائد الآية:** رحمة الله - سبحانه وتعالى - بالخلق، حيث لم يكلهم إلى عقولهم في تعبدهم لربهم - عَزَّ وَجَلَّ - ، وجهه أنه أرسل إليهم الرسل، وأرسل إليهم الرسل أيضًا ليس مجرد أن يقولوا: اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير، بل قرن دعوتهم بالإنذار والتبشير، ليكون ذلك حافزًا لهم على فعل الأوامر واجتناب النواهي.



قال الله تعالى:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:٧٣].

التفسير

الخطاب هنا موجه لواحد مذكر فمن هو أهو الرسول - عليه الصلاة والسلام - أم من يصح أن يوجه إليه الخطاب؟ الجواب: الثاني أعم.

أي: فانظر أيها المخاطب، أو أيها السامع كيف كان عاقبة المنذرين، وهنا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾

ولم يقل: (ماذا كان) أي: انظر إلى الكيفية وإلى الغاية؛ لأن من نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، لو قال: ماذا كان عقابهم؟ لكان الجواب: الهلاك.

لكن كيف عقابهم؟ انظر إليه: إلى الكيفية. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠] فانظر إلى كيفية العاقبة لتستفيد بهذا النظر شدة العقوبة وملاءمتها للذنب؛ لأن الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] أي إن عقوبته ملائمة لذنبه، وأنت إذا تأملت هذا وجدت الأمر كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، فمثلاً كانت عاد تفتخر بقوتها وتقول: من أشد منا قوة؟ فأهلكوا بألطف الأشياء وهي الريح، أرسل الله عليهم ريحًا فدمرتهم، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ ، وكان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأهلك بما كان يفتخر به وهو الماء،

وهكذا كلما تأملت هلاك القوم المكذبين للرسل وجدت أن عقوبتهم مناسبة تمامًا لذنوبهم.

إذن (انظر كيف) أبلغ من (انظر ماذا كان عاقبتهم)، وجه ذلك أنها تدل على شدة الأخذ وعلى مناسبته للذنب، ثم إنك إذا نظرت إلى الكيفية ستنظر إلى العاقبة لكن إذا قيل: انظر إلى عاقبتهم، لم تأمر إلا بالنظر إلى عاقبتهم فقط.

وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ الجملة هنا استفهامية ولكنها في حل نصب مفعول، (انظر)، وهذا النظر بالقلب، والغالب أن النظر بالعين يعدي بـ (إلى) فيقال: نظر إليه، وأن نظر القلب يكون متعديًا بنفسه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:١٠١] يعني بالقلوب، أما بالأعين فلا يفيد إذا لم يتأثر بذلك القلب.

وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ المنذرين هنا اسم مفعول، الذين أنذوا وخوفوا، ولكن لم يخافوا ولم يؤثر فيهم الإنذار، فكيف كان عاقبتهم، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أي: عاقبتهم العذاب]. يعني: أن العاقبة كانت وخيمة ـ والعياذ بالله ـ، عوقبوا بالعذاب المدمر المهلك.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة:** تنبيه العاقل إلى النظر في عواقب المكذبين، وكذلك النظر في عواقب المجيبين، فإن الإنسان مأمور بالنظر في حال هؤلاء وهؤلاء، فإذا نظر في عواقب المجيبين وأنها عواقب حميدة صار منهم، وإذا نظر إلى عواقب المكذبين حذر منهم وابتعد عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الله لا يعاقب على الذنب إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، فهم أنذروا فكانت العاقبة.

٣ ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه ينبغي للناظر أن ينظر إلى كيفية العقوبة، لتكون أعظم في تصوره من وجه، وليعرف حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في مناسبة العقوبة للذنب من وجه آخر.

فينظر إلى هذين الأمرين لبيان هذه العقوبة وشدتها ولبيان مناسبتها للذنب، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٤]

التفسير

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فسرها المؤلف: باسم الفاعل أي:

المؤمنين، إشارة إلى أن المخلص هنا اسم فاعل؛ لأن المفسِّر يطابق المفسَّر فيقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء هنا منقطع؛ لأن ما بعده من غير جنس ما قبله.

وإذا كان ما بعد إلا من غير جنس ما قبلها فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع يكون علامته أن يحل محل لكن، ولكن لماذا يؤتى بـ (إلا) بدل لكن؟ إشارة إلى قوة اتصال ما بعدها بما قبلها، فهي تفيد الاستدراك مع ارتباط ما قبلها بما بعدها، من حيث المعنى وإن كان هذا يختلف عن ذلك.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المراد بالعبودية هنا الخاصة.

بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وسبق لنا قريبًا بيان أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة.

أي: المؤمنين، فإنهم نجوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة.

وهذا على قراءة كسر اللام، أو؛ لأن الله أخلصهم له على قراءة فتح اللام، فأفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن في الآية قراءتين:

المخلصين والمخلَصين، لكن لم يصرح بهما، وإنما أتى بمضمونهما.

ففي الآية قراءتان ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والمخلَصين لإخلاصهم لله؛ لأنهم أخلصوا القصد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رب العباد، إليه الوجه والعمل، فلم يلتفتوا إلى ما سوى الله، والإنسان المخلص لله الذي أخلص قلبه له يوفق وتكون عاداته عبادات؛ لأنه دائمًا مع الله ودائمًا يتفكر في آيات الله، ودائمًا يحب القرب من الله، فيسعى إلى أن يكون قوله وفعله وتركه كله لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا في الحقيقة هو الرابح الذي ربح الوقت وربح العمر، ولم تضع عليه لحظة من اللحظات إلا وهو كاسب فيها، ولكن أكثر الناس في غفلة عن هذا الشيء، لم يخلصوا أنفسهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل إن من الناس من قد تكون العبادات في حقه عادات يقوم ويتوضأ ويصلي؛ لأن هذه عادته كأن هذه العبادات عمل يومي يقوم به، ولهذا لا نجدها تؤثر في القلب للغفلة الشديدة عن الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فهم مخلصون لله بالعبادة، وكذلك مخلصون أخلصهم الله، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [لها] أي: العبادة ولو قيل: معنى أسمى من هذا لكان أولى، أخلصهم الله لنفسه واختصهم من بين سائر العباد، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧] الذين اصطفاهم الله وجعلهم صفوة عبادة لنفسه، وهذا أبلغ في الثناء مما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: من أن الله أخلصهم للعبادة، بل نقول: أخلصهم له من بين سائر العباد.

الفوائد:

١ ـ **في الآية الكريمة**: إشارة إلى أن المخلِص أو المخلَص ـ وهما متلازمان إخلاصهم هم وإخلاص الله لهم ـ إلى أن عاقبتهم النجاة، وجهه الاستثناء، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإن هؤلاء

عاقبتهم النجاة وعاقبتهم حميدة.

٢ ـ **ومن فوائدها:** حث الإنسان على أن يكون من هؤلاء العباد لينجو.

٣ ـ **ومن فوائدها:** فضيلة الإخلاص؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ والإخلاص هو الذي أمرنا به ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:١٤] ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

٤ ـ **ومن فوائدها:** تشريف هؤلاء المخلصين بإضافة عبوديتهم إلى الله ـ تعالى ـ، فإنه لا شك أنه مني ضاف إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينال الشرف، ولهذا شرف الله ـ تعالى ـ بيته بإضافته إليه فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦] وشرف الله المساجد بإضافتها إليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:١١٤] وسماها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيوت الله «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ» وهذا لا شك تشريف للمضاف.

٥ ـ **ومن فوائدها:** بيان نعمة اللهَ على هؤلاء العباد، حيث أخلصهم لنفسه فلم يكن لهم مقصود إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فإن قال قائل: أليس هؤلاء العباد لهم مقصود؟ فهم يأكلون قصدًا ويشربون قصدًا ويتمتعون بالمساكن وبالنساء قصدًا، فقد دخل في قصدهم قصد ما سوى الله، فما الجواب؟

الجواب: أنهم يتقربون إلى الله بهذا القصد. فمثلاً في الأكل: يأكل الإنسان تشهيًا بلا شك شهوة ودفعًا للضرورة، لكن يمكن أن يكون هذا الأكل عبادة من وجوه:

أولاً: إذا قصد به امتثال أمر الله؛ لأن الله أمر بالأكل والشرب.

ثانيًا: إذا قصد به حفظ صحته وقيام بنيته؛ لأن الإنسان مأمور بمراعاة نفسه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(١).

ثالثًا: إذا قصد بذلك الاستعانة بهذا الأكل والشرب على طاعة الله، ولاسيما إذا كان معينًا إعانة مباشرة، كما في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»(٢).

رابعًا: إذا قصد بذلك التبسط بنعم الله ـ تعالى ـ، فإن الله ـ تعالى ـ يحب من عبده أن يتبسط بنعمته؛ لأن الكريم يحب أن يتبسط الناس بكرمه، ومن أشرف وقت عند الكريم أن تطرق بابه الضيوف ليكرمهم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٣٩)، الترمذي (٢٤١٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري(١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

لكن البخيل بالعكس فإذا قصد الإنسان التنعم بنعمة الله والتبسط بها لا شك أن هذا قربة لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الله يحب إذا أنعم على أحد نعمة أن يرى أثر نعمته عليه.

فمن العلماء من يقول إذا قامت الحجة سواء فهم المدعو أو لم يفهم فلا عذر له، ومنهم من يقول: لابد أن تقام عليه الحجة ويفهمها، أما إذا قيل لهم: بعث رسول يدعو إلى الهدى ولكنه ما فهم هذا الشيء فإنها لا تقوم عليه الحجة؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤] بعد أن بين أنه ينقسم الناس بهؤلاء الرسل إلى ضال ومهتدٍ، والمسألة تحتاج إلى تأمل في الواقع: هل يكتفى بمجرد قيام الحجة؟ وعليه أن يبحث عن المعنى، فيقال: أنت فرطت، لماذا لم تأتِ تستفهم؟ فأنت مقصر.

أو يقال: إن الرجل إذا قامت عليه الحجة وبلغته لكن على وجه مهوش فهذا معذور لاسيما إذا مات في زمن لم يتمكن فيه من البحث والاستفسار، - على كل حال - هي مسألة لها غور عظيم، وتحتاج إلى مراجعة كلام أهل العلم في هذه المسألة مراجعة تامة؛ لأنها في وقتنا الحاضر تدعو الحاجة إلى فهمها، إذ إن فيه كثيرًا من المسلمين على هذا الوجه، يعنيك بُين لهم الحق أو عرض لهم الحق عرضًا مهوشًا كما يوجد بين أهل البدع الآن، مثلاً فيه ناس عندها بدعة الرافضة أو بدعة الخوارج أو بدعة الأشعرية أو بدعة المعتزلة.

بدع كثيرة مهوش على الناس فيها، ولبس فيها الحق بالباطل، فكثير من الناس يقولون: إن الحق معهم، وهم على بدعة وضلالة.

فالمسألة في الحقيقة تحتاج إلى بحث تام في هذا الموضوع ومراجعة كلام أهل العلم، لاسيما العلماء المتحررون في أفكارهم مثل شيخ الإسلام - ابن تيمية - والشيخ محمد بن عبدالوهاب ومن أشبههم - رحمهم الله.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥ - ٨٢]

التفسير

هذه الجملة كالتفصيل؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهنا شرع الله - عَزَّ وَجَلَّ - يبين كيف كان هذا الضلال؟ ومتى كان؟ كان من أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وهو نوح - عليه الصلاة والسلام - ، ونوح أ ول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدليل الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣] إذن ليس هناك نبي مرسل قبل نوح - عليه السلام -.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

فإذا كانت النبوة والكتاب في ذريتهم، فليس قبل نوح أحد أوتي النبوة والكتاب، والمراد بالنبوة نبوة الرسالة، أما نبوة الوحي والعبادة فقد سبقت لآدم، فإن آدم نبي مكلم لكنه ليس نبيًّا مرسلاً.

وأما من السنة فقد صح عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: «أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ وَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»[1].

فنوح - عليه الصلاة والسلام - هو أول الرسل ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم ليلاً ونهارًا، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥، ٦] يدعوهم سرًّا وعلنًا ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٩] ولكنهم - والعياذ بالله - لا يزيدهم ذلك إلا نفورًا واستكبارًا مع قوة الرسالة والآيات العظيمة نكصوا واستكبروا، وما آمن معه إلا قليل، ولما رأى - عليه الصلاة والسلام - ، ما حصل من قومه وأيس منهم دعا عليهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦ - ٢٧].

وقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠] فأجاب الله - تعالى - دعاءه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ فانتصر الله له وأجاب دعاءه، قال الله - تعالى - : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١ - ١٢] ماء ينزل من السماء، وماء ينبع ويفور من الأرض فورانًا عظيمًا، يشمل كل الأرض حتى التنور الذي هو موضع إيقاد النار صار يتفجر ماء، والسماء تهطل بماء منهمر عظيم، فالتقى الماء حتى بلغ قمم الجبال، ولم ينجُ منه أحد إلا من كان مؤمنًا فإنه مع نوح - عليه الصلاة والسلام - في السفينة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٠) وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٩٤).

فنوح هو أول الرسل وآخرهم محمد ﷺ، قال الله - تعالى -: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] ولم يقل: وخاتم المرسلين، مع قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٠] إشارة أنه لا يمكن أن يأتي بعده لا نبي ولا رسول.

الجملة: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات كما سبق: القسم، واللام، وقد، ونقول: في توجيه التوكيد ما قلنا: فيما سبق.

وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ﴾ الفاء: حرف عطف تفيد الترتيب والتعقيب، واللام: موطئة للقسم، وتقدير الكلام: فوالله لنعم المجيبون.

والمجيبون: فاعل نعم، ونعم وبئس وشبههما. تحتاجان إلى فاعل وإلى مبتدأ لتكون جملتهما خبرًا عنه. هذا المبتدأ يسمى المخصوص. بالمدح أو بالذم.

فأين المخصوص في هذه الآية؟ يقول المؤلف رحمه الله (نحن) أي: فلنعم المجيبون نحن، وصدق ربنا - عَزَّ وَجَلَّ - نعم المجيب: الله - سبحانه وتعالى - فإن إجابته ليست كإجابة غيره؛ إجابة محققة، لكن بشرط أن تتم شروط الإجابة وأن تنتفي الموانع.

فإن لم تتم شروط الإجابة فإنه لا يجيب - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لأن إجابته كسائر أفعاله مبنية على الحكمة، والحكمة وضع الشيء في موضعه، فإذا تمت شروط الاستجابة صار للاستجابة محل فحلت الإجابة. وإذا لم تتم لم يكن للإجابة محل، فلم تتحقق الإجابة.

ولابد من انتفاء الموانع وسيأتي - إن شاء الله - تعالى - ذكر هذه الشروط والموانع عند ذكر الفوائد، فالله - تعالى - أثنى على نفسه بأنه نعم المجيب وصدق ا لله العظيم، فإنه - تعالى - نعم المجيب: يجيب عباده إذا اقتضت الحكمة ذلك بوجود الشروط وانتفاء الموانع.

وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [له نحن أيدعانا على قومه فأهلكناهم بالغرق]. دعا الله على قومه فأهلكهم بالغرق، فغرقوا عن آخرهم.

وذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لَوْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مُنْجِيًا أَحَدًا مِنَ الْغَرَقِ لأَنْجَى أُمَّ الصَّبِيِّ»(١).

وأم الصبي امرأة كان معها صبي فلما رأت الماء يتزايد خافت على نفسها من الغرق، فلجأت إلى جبل فارتفع الماء حتى وصل إليها، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء، ثم ارتفعت حتى وصلها الماء حتى بلغت قمة الجبل فوصلها الماء، فلما رأت الماء قد وصلها وألجمها رفعت الصبي فوق يدها لتغرق قبله، قال النبي ﷺ فيما يذكر عنه: «لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ»(٢)؛ لأن هذا

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «إسناده مظلم وموسى ليس بذاك».

(٢) انظر ما قبله.

من أبلغ ما يكون في الرحمة، أن تجعل موتها قبل موته، ترفعه على يديها حتى يدركها الغرق قبله.

فهؤلاء وغيرهم من الأمم ولا ينفعهم الإيمان إذا رأوا البأس، وانظر إلى فرعون لما أدركه الغرق قال الله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] لكن ما نفعه ذلك، قيل: له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس:٩١] لم يكن أحد من الأمم نفعهم إيمانهم لما رأوا البأس ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

قال أهل العلم: والحكمة من ذلك: أن نبيهم خرج منهم مغاضبًا أن قبل أن يؤذن له، فلم تحق عليهم الكلمة لعدم تمام الإنذار في حقهم، فلهذا لما آمنوا كشف الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم إلى حين، وسيجدون ما يستحقونه من العقوبة أو المثوبة.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الأهل هنا هل نقول: المراد المؤمنون؟ أو نقول: إن الأهل هم خاصة الرجل؟؛ لأن هناك فرقًا بين آل وأهل، آل: أتباع، وأهل: هم الخواص، خاصة الرجل كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣] أهل البيت الخاصة لا يشمل الأمة كلها.

فهل نقول: المراد أهله الذين هم خاصته؟ هذا هو الأقرب من الآية، لكن في آيات أخرى تدل على أن الذي نجا هو ومن آمن معهم.

يستثنى من أهل نوح ابنه الذي كفر به فإنه أدركه الغرق، ولما سأل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربه قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥ ـ ٤٦] ويستثنى من ذلك امرأته كما قال الله ـ تعالى ـ في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] أي: بالكفر لا بالفاحشة والزنا؛ لأنه من المستحيل أن يجعل الله امرأة نبي تزني؛ لأن الزنا خبث، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور:٢٦] فخيانة امرأة نوح وامرأة لوط كانت بالكفر، والكفر قد يكون في امرأة النبي وهو لا يعلم، ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني: أخفت الكفر عن نوح وعن لوط ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

فـ (أهل) هنا ليس على عمومه، وإنما هو عام مخصوص؛ لأن العام الذي أريد به الخاص لابد أن يكون معلومًا للمخاطب أنه لم يرد به إلا الخاص من أول الأمر، فأما الشيء الذي لم يعلم إلا بنص آخر فإن هذا يسمى عامًا مخصوصًا.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الكرب: ضد السعة، والإنسان المكروب هو الذي أصابه ما يُكْرَب به، ولا شيء أعظم من كرب الموت.

وهذا الكرب الذي أصاب قومه كرب عظيم؛ لأنه غرق، يموت الإنسان وهو ينظر، وموت الإنسان بمرض يعلم أنه لا قدرة له على إزالته، لكن بالغرق يموت وهو يؤمل أن ينجو، ولهذا تجده بكل قواه يحاول النجاة ولكن لا تحصل، فكأنه يموت ويقطعه الموت وهو ينظر إليه، فلهذا صار كربًا عظيمًا؛ لأنه بالغرق، ومثله الموت بالحرق بالنار فإن الإنسان يموت بأمر يشعر بنفسه أنه يستطيع التخلص منه، ولكن يعجز فيكون وقع الموت عليه أشد، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ في الآية إشكال إعرابي، وهو أن الباقين منصوبة مع أنها بعد ﴿هُمُ﴾ وهم يكون مبتدأ، والمبتدأ خبره مرفوع، وجاءت منصوبة هنا؛ لأن (هم) ضمير فصل وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، وعلى هذا فتكون الباقين المفعول الثاني لجعلنا؛ لأن جعلنا من أفعال التصيير، فهي بمعنى صيرنا وتنصب مفعولين: المفعول الأول ذريته، والمفعول الثاني الباقين.

وقوله: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ (هم): ضمير فصل، وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، لكن له محل من المعنى، فهو يميز بين الخبر والصفة، ويفيد التوكيد، ويفيد الحصر.

﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ أي: نسله فقد جعل نسل نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هم الباقين، ولهذا يقال: إن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الأب الثاني للبشرية، والأب الأول آدم ـ عليه الصلاة والسلام.

ويقال: إن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبو الأنبياء ولا يقال: أبو البشرية؛ لأن البشر لم ينحصروا في ذرية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكنه أبو الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بعده كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الحديد:٢٦] فما قبل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأنبياء فهم من ذرية نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؛ وما بعد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذرية إبراهيم ونوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ؛ لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ذرية نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [فالناس كلهم من نسله ـ عليه السلام ـ وكان له ثلاثة أولاد: سام، وهو أبو العرب والفرس والروم، وحام: وهو أبو السودان، ويافث: وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك].

ما ذكره ـ رحمه الله ـ هو المشهور عند المؤرخين أن أولاد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانوا ثلاثة: سام، وحام، ويافث، لكن لم يأتِ هذا بسنة صحيحة عن النبي ﷺ ولا في القرآن ما يدل على ذلك، فالأولى أن نقول: إن الناس بعد نوح من ذريته، وأما هذا التقسيم فيحتاج إلى دليل، وليس هناك دليل من كتاب الله ـ تعالى ـ ولا سنة رسوله ﷺ على ذلك، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أن الأمم السابقة لا يعلمهم إلا الله، فقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فإذا نفى الله علم

أحد بهم إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجب أن يتلقى علمهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا من غيره، فنرجع إلى الوحي، وعلى هذا ما في كتب المؤرخين من أحوال الأمم الماضية إذا لم يكن عليه دليل من الكتاب والسنة فإنه مما يتوقف فيه، ولا يلزم به، كحديث بني إسرائيل، فهؤلاء الثلاثة الأبناء لنوح ممن يتوقف فيهم، ونحن لا يهمنا الباقون من أولاده ثلاثة أو ثلاثون، المهم أن نؤمن بما دل عليه كتاب الله وهو أن ذرية نوح هم الذين بقوا، وأما من آمن معه فإما أنه ليس له ذرية أو قد يكون لهم ذرية ولكن لم تبق، فالله أعلم، ومن الجائز أن يكون له ابن ثم ينقطع نسله، فلا نعلم لكن الذي بقي نسله هو نوح.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني: أبقينا له ثناء حسنًا، ولم يقل: تركنا له بل قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ إشارة إلى أن تركنا مضمنة معنى يناسب حرف الجر المذكور، فلابد أن يضمن تركنا معنى مناسب لعلى، والمعنى المناسب لعلى هو الثناء، يعني: أثنينا عليه ثناءً متروكًا في الآخرين، وهو كذلك.

فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليه ثناء من أفضل الثناء، قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ :﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] هذا ثناء أعظم ما يكون من الثناء، وأشرف ما يكون من الفخر أن الله يصف واحدًا من بني آدم فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يعنيك قائمًا بالعبودية، وقائمًا بالشكر، ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

فالله أبقى عليه ثناء حسنًا في الآخرين إلى آخر الأمم بل إلى يوم القيامة؛ لأن هذا الكتاب سيبقى إلى أن يرفعه الله عند قرب قيام الساعة.

وقوله: ﴿الْآخِرِينَ﴾ [من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة]، والظاهر من الآيات الكريمة أن جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يذكر فيهم نوح بالثناء الحسن، فتكون الأنبياء كلهم والأمم يطرون نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أثنى الله به عليه؛ لأنه مذكور في كل الكتب ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (سلام) مبتدأ، ونُكِّر من أجل التعظيم أي: سلام عظيم؛ لأنه سلام من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وهذا السلام معناه: أن الله سلَّمه من القوادح التي تقدح فيه، وحل محل هذه القوادح من البشر الثناء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، فجمع الله له بين أمرين: الثناء، وبين تسليمه مما يقدح فيه، ولهذا نقول: ﴿سَلَامٌ﴾ بمعنى تسليم، أي أن ا لله سلمه من كل ما يضره من القوادح التي تقدح فيه من بني آدم.

وقوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ المراد بالعالمين هنا: مَن بعد نوح لا مَن قبله فيما يظهر، وعلى هذا فيكون عامًّا يراد به الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ المراد بالجمع ﴿إِنَّا﴾ التعظيم، فإن الله واحد ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه إذا ذكر اسمه بما يدل على الجمع فالمراد به التعظيم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكل من أحسن فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجزيه كما جزى نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد جزى الله نوحًا بأمرين: بما ترك عليه في الآخرين، وبما سلمه في العالمين.

فكذلك من كان مؤمنًا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، محسنًا في عبادته، وإلى عباده فإن الله ـ تعالى ـ يجزيه كما جزى نوحًا، وذلك تجد أن الله ـ تعالى ـ وضع في قلوب الناس وألسنتهم الثناء على أئمة المسلمين على الرغم من أن الناس منهم من يقدح فيهم؛ لأن كل واحد من أهل الخير لابد أن يقدح فيه واحد من أهل الشر ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] وكذلك كل من تمسك بهدي نبي فإن له عددًا من المجرمين ـ بلا شك ـ.

لكن يقيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا المؤمن من يبدل هذا القدح بالثناء، ومن يدفع هذا القدح.

ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا، والإحسان ينقسم ـ كما تقدم ـ إلى قسمين:

١ ـ إحسان في عبادة الله ـ تعالى ـ.

٢ ـ إحسان إلى عباد الله ـ تعالى ـ.

فالإحسان في عبادة الله لا نفسره بأحسن من تفسير رسول ا لله ﷺ حيث قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)].

والعبادة في قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» عباد طلب كأنك تراه، ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تشتاق إليه النفوس، فإذا كان يعبد الله كأنه يراه فسوف يلح في العبادة ليصل إلى محبوبه وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» يعني إن لم تصل إلى هذه الدرجة وهي عبادة الرغبة والطلب، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فاعبده عبادة هرب وخوف منه، وهذا ليس كالأول؛ لأن هذا يعبد الله خوفًا منه، والأول يعبده طمعًا، فالمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثانية، ولهذا جعلها النبي ﷺ في الدرجة الثانية، إن لم تكن تراه وتعبده كأنك تراه فإنه يراك. فإياك أن تخالفه أو تقع في معصيته.

أما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه، وبعضهم قال: (هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه).

بذل الندى: يعني العطاء، وكف الأذى: ألا تؤذي أحدًا لا بقولك ولا فعلك، وطلاقة الوجه: ألا تقابل الناس بوجه عابس مكفهر؛ لأن الإنسان مهما كان إذا لقي الناس بوجه عابس مكفهر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فليس محسنًا إليهم، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتب النبي ﷺ وهو أفضل الخلق حين حصل له ما حصل مع عبد الله بن أم مكتوم، ـ رضي الله عنه ـ مع أن الرسول ﷺ حصل له ما حصل اجتهادًا منه، فقال الله ـ تعالى ـ في ذلك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس:١ ـ ١٠] كلمات عظيمة لكنها مع ذلك خففها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن بدأها بضمير الغيبة فقال: ﴿عَبَسَ﴾ كأنما يتحدث عن شخص آخر لا عن الرسول ﷺ، ولم يقل: عبست وتوليت؛ لأنه كما مر علينا كثيرًا بأن المخاطب بصيغة الخطاب أعظم وأشد من التحدث بضمير الغيبة.

أما قولهم: الإحسان إلى عباد الله هو: بذل المعروف إليهم بالمال والبدن والجاه.

أما بالمال فظاهر، وبالبدن أن تخدمهم، ومع هذا إذا خدمت الإنسان وأعنته فأنت مأجور، كما قال الرسول ﷺ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»(١).

ومن البذل البدني: طلاقة الوجه؛ لأنها تتعلق بالبدن.

أما الجاه بأن تنفع الناس بالتوسط والشفاعة فيما فيه الخير لهم ولك.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية من الفوائد:** بيان تأكيد الشيء بالقسم إذا دعت الحاجة إليه، وأن هذا من فصيح الكلام؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكد هذا بالقسم واللام وقد.

٢ ـ **ومن الفوائد:** حث النبي ﷺ وغيره على دعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأن الله إذا ناداه عبده بالدعاء أجابه.

٣ ـ ومن فوائدها : إثبات سمع الله ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٤ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بلجوئه إلى ربه عند حلول المضايق.

٥ ـ **ومن فوائدها:** الثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكمال الإجابة؛ لأن الثناء على المجيب يستلزم الثناء على الإجابة. فإجابة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليست كإجابة غيره، بل هي إجابة فضل وإحسان، قد يعطي الإنسان أكثر مما سأل.

٦ ـ **ومن فوائدها:** بيان رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في إجابة دعوة الداعي. ولكن لإجابة الدعاء شروط لابد أن تتحقق، وهي:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

الشرط الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأن يخلص الإنسان في دعائه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقلب حاضر صادق في اللجوء إليه، عالم بأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قادر على إجابة الدعوة، مؤمل الإجابة في الله. ـ سبحانه وتعالى ـ.

الشرط الثاني: أن يشعر الإنسان حال دعائه بأنه في أمس الحاجة، بل في أمس الضرورة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الله ـ تعالى ـ وحده هو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

الشرط الثالث: أن يكون متجنبًا لأكل الحرام، فإن أكل الحرام حائل بين الإنسان والإجابة.

فهذه الشروط لإجابة الدعاء، إذ لم تتوفر فإن الإجابة تبدو بعيدة، فإذا توافرت ولم يستجب الله للداعي، فإنما ذلك لحكمة يعلمها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولا يعلمها هذا الداعي، فعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، وإذا تمت هذه الشروط ولم يستجب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإنه إما أن يدفع عنه من السوء ما هو أعظم، وإما أن يدخرها له يوم القيامة فيوفيه الأجر أكثر وأكثر؛ لأن هذا الداعي الذي دعا بتوفر الشروط ولم يصرف عنه السوء ما هو أعظم، يكون قد فعل الأسباب ومنع الجواب لحكمة، فيعطي الأجر مرتين مرة على دعائه ومرة على مصيبته بعدم الإجابة فيدخر له عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ما هو أعظم وأكمل.

٧ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على إجابة الدعوة؛ لأن الإجابة تستلزم القدرة عليها؛ لأن العاجز لا يمكن أن يجيب.

٨ ـ **ومن فوائدها:** بيان عظمة الله، وذلك بالإتيان بالواو في صفته بقوله: ﴿ٱلْمُجِيبُونَ﴾ فإن هذه قطعًا ليست للجمع؛ لأن الله واحد ولكنها للتعظيم.

ومن فوائد قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

١ ـ بيان أن قومه أصيبوا بكرب عظيم وهو الهلاك بالغرق، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجّى نوحًا وأهله.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث حل العذاب بهذه الأمة، فنجى قومًا وغرق قومًا.

٣ ـ **ومن الفوائد:** كمال عدله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث جازى كل واحد بما يستحق، فمن استحق النجاة نجّاه، ومن استحق الهلاك أهلكه.

٤ ـ جواز إطلاق العام وإن كان مخصوصًا؛ لأن قوله: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ يشمل المؤمن والكافر منهم، وقد دلت آية أخرى على أن من أهله ممن لم ينجُ.

ومن فوائدا قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

١ ـ أن نوحًا هو الذي بقي نسله من بني آدم فكل من بقي من بعد نوح فهو من نسله، ولهذا يسمى الأب الثاني للبشرية.

وهنا سؤال وهو أن يقال: إن النبي ﷺ ذكر أن الله خصه أنه بعثه إلى الناس كافة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وظاهر هذه الآية الكريمة أن نوحًا بعث إلى البشر جميعًا؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وذريته كانوا مباشرين له لم يكونوا في مكان آخر؟ ما وجه ذلك؟

والجواب على ذلك: أن هذه الآية لا تستلزم ما ذكر، فقد يكون هناك أمم في أماكن بعيدة لكنها فنيت ولم يبق إلا ذرية نوح، وتكون الأمم البعيدة التي لم تشملها دعوة نوح لها رسل ثم فنيت هذه الأمم والرسل الذين بعثوا إليها ولم يبق إلا ذرية نوح.

ومن فوائد قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾

١ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العبد بثناء الآخرين عليه؛ لأن الإنسان إذا مات انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم يثني ثناءً حسنًا، وقسم يثني ثناء سيئًا، وكل من تتفق الأمة عليه بالثناء وأعني بالأمة أمة الإجابة، فأمة الإجابة كثيرًا ما يتفقون على الثناء على شخص معين، لكن أمة الدعوة التي فيهم الكافر والمؤمن والفاسق والعاصي لا يتفقون على الثناء على شخص؛ لأن كل من قوي إيمانه ودعوته إلى الله فسيجد مضادًا من أعداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ، لكن أهل الخير والإيمان يحبون الداعية إلى الله ويثنون عليه ما يستحق.

وفي قوله: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ من **الفوائد:**

١ ـ أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد برأه الله في الآخرين، حيث يقولون القول الذي فيه سلامته من القدح، فيكون الله قد جمع له بين الثناء الحسن ودفع الثناء السيئ؛ لقوله: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إطلاق العام وإرادة الخاص؛ لأن قوله: ﴿فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لا يتناول مَنْ قبل نوح، فإن الظاهر أنه لم يسبق له ذكر فيما سبق.

ومن فوائد قصة نوح ـ عليه السلام ـ ككل:

*ـ إدخال البشارة على رسول الله ﷺ وأصحابه، حيث يكون لهم أسوة في نوح ومن نجا معه، وتهديد المكذبين له، حيث يكون لهم إنذار لما جرى للمكذبين لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن فوائد قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

١ ـ أن المحسن يجازى بمثل ما جوزي به نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك بإنجائه من الهلاك وسلامة عرضه من الذكر السيئ، وكلما كان الإنسان أكثر إحسانًا كان أكثر ثوابًا وأسلم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات القياس؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: مثل هذا الجزاء نجزي كل محسن.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الجزاء والعقوبة والثناء والقدح على الأوصاف لا على الأشخاص؛ لأنه هنا علّق الجزاء على الإحسان، ولهذا لم يأتِ شيء من أحكام

الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقيدًا بشخص لشخصه أبدًا حتى خصائص الرسل ليست من باب خصائص الأشخاص، لكن من باب خصائص الأوصاف؛ لأن فيهم وصفًا زائدًا على غيرهم، وهو وصف النبوة والرسالة فخصوا ببعض الأحكام المناسبة لمقامهم، أما أن يخص شخص بعينه؛ لأنه فلان ابن فلان مثلاً فهذا لا يوجد في الشريعة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرتب الأحكام ويعلقها على الأوصاف لا على الأشخاص.

٤ ـ **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإشارة إلى كمال هذين الوصفين وهما العبودية والإيمان، وأنهما أشرف وصف يتصف به الإنسان أن يكون عبدًا لله مؤمنًا به؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: نوحًا، ونوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أولي العزم من الرسل، فإذا كان من مناقبه وفضائله أن يكون من عباد الله المؤمنين دَلَّ ذلك على فضيلة العبودية والإيمان.

ومن فوائد قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾:

١ ـ بيان حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث أغرق هؤلاء المكذبين لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بل المكذبين لرسله؛ لأن الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

وتكذيب قوم نوح ليس من أجل نوح، ولكن من أجل ما جاء به، ولهذا كان تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل؛ لأنه تكذيب لجنس الرسالة وليس لشخص المرسل.

٢ ـ **ومن فوائدها:** إقامة العدل بإغراق هؤلاء المكذبين؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يغرقهم ظلمًا، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣]

التفسير

هذه الجملة مكونة من (إنَّ) واسمها وخبرها، واسمها متأخر: إبراهيم والخبر مقدم «من شيعته»، واللام هنا لام التوكيد، أي أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والشيعة تطلق في اللغة على كل من شايع الإنسان وتابعه وأعانه وناصره فهو شيعته.

وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من شيعة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: من أتباعه وأشكاله وناصري ما جاء به من الشرع، فإن نصر الشرع في أي: زمان ومكان فإنه ناصر لجميع

الشرائع؛ لأن تأييد الشرع الذي جاء من الله في أي: زمان ومكان تأييد لشرع الله كله، ولهذا نحن نفرح بانتصار الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم ولو كانوا في زمن بعيد، ولو كانوا ليسوا من الذين أرسلوا إلينا خاصة، فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من شيعة نوح أي: من مؤيديه وأتباعه فيما جاء به، وليس في نفس الشريعة، ولكن في الجنس أي أنه يؤيد وينصر الوحي الذي هو من جنس الوحي الذي جاء به نوح - عليه الصلاة والسلام -، ولهذا قال المؤلف: - رحمه الله - [أي: ممن تابعه في أصل الدين] وهو قبول وحي الله - عَزَّ وَجَلَّ - والعمل به والدعوة إليه، إذ جميع الرسل بعضهم لبعض شيعة؛ لأنهم كلهم يتناصرون ويؤمنون بالوحي كله.

وقوله - رحمه الله -: [وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح]. وقوله: [وإن طال الزمان بينهما] هذا صحيح ولا شك أن بين نوح - عليه الصلاة والسلام - وإبراهيم زمانًا طويلاً، لكن تقييدها بما ذكره المؤلف يحتاج إلى دليل صحيح، إما من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، ولا نعلم لهذا أصلاً في القرآن ولا في السنة، فإن قيل: فإنما هو ما نقل عن بني إسرائيل فإننا لا نصدق به ولا نكذب به.

وقوله: [وكان بينهما هود وصالح]، دليل ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - يقرن قصة هود دائمًا بقصة نوح، ومن بعدها قصة صالح، وهذا مما يدل على أن هؤلاء الثلاثة قبل إبراهيم.

أما نبي الله إدريس فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان قبل نوح، ولكنه قول ضعيف جدًا؛ لأنه سبق لنا أن نوحًا - عليه الصلاة والسلام - هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، والقول بأن إدريس قبله قول ضعيف، بل هو باطل في الواقع، فنوح أول الرسل، وإدريس يظهر - والله أعلم - أنه من أنبياء بني إسرائيل.



قال الله تعالى:

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٤ - ٩٦]

التفسير

قال المؤلف ـ رحمه الله [أي: تابعه وقت مجيئه] يحتمل ما قال المؤلف، وأن ﴿إِذْ﴾ متعلقة بقول ﴿شيعته﴾ أي: وممن شايعه حين جاء ربه بقلب سليم إبراهيم.

ويحتمل أن ﴿إِذْ﴾ استئنافية، وأن تقدير الكلام: اذكر إذ جاء ربه بقلب سليم، وهذا هو الأصح، فالصحيح أنها ليست متعلقة بذلك، وأنه من شيعته وقت المجيء، بل هو من شيعته وقت المجيء وغيره، لكن أراد الله ـ تعالى ـ أن ينوه بهذا الوصف العظيم لإبراهيم، ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ومتى مجيئه لربه فالمراد جاء ربه حين لاقاه بعد الموت، أو جاء ربه حين آذاه قومه وهددوه بالإحراق، أم نطلق كما أطلق الله.

الأولى أن نطلق كما أطلق الله ونقول: جاء ربه في الوقت الذي يعلم الله مجيئه فيه بقلب سليم.

قال المؤلف: [سليم من الشك وغيره]، والصحيح أن السلامة أعم مما قال المؤلف، فهو سليم من الشبهات، ليس فيه شك بأي وجه من الوجوه، بل هو على علم ويقين بما آمن به.

وسليم من الشهوات ليس في قلبه هوى يخالف ما جاء به الوحي، وهذه هي سلامة القلب أن يكون سالمًا من الشبهات التي تعرض له، والشكوك فيكون مؤمنًا حقًّا، ويكون سالمًا من الشهوات، والشهوات هي: الإرادات المخالفة لما جاء به الوحي، وليس كل قلب يهوى ما جاء به الوحي.

فالقلوب جوَّالة يمينًا وشمالاً، أحيانًا قلب الإنسان نفسه يتجول، في بعض الأحيان يكون مقبلاً غاية الإقبال على الوحي محبًّا له مطبقًا له، وأحيانًا يجد فتورًا عن الإقبال على الوحي وفتورًا عن تطبيق ما جاء به الوحي، ولهذا ينبغي للإنسان دائمًا أن يسأل الله ـ تعالى ـ الثبات على الأمر وثبات القلب؛ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الله يقلبهما كيف يشاء.

فعلى الإنسان ألا يغتر بنفسه ولا يعجب بعقيدته، بل عليه أن يسأل الله دائمًا الثبات؛ لأن القلب يعتريه شبهات ويعتريه شهوات، فأحيانًا يكون الإنسان مؤمنًا حقًّا ثم يلقي الشيطان في قلبه شبهة فيعمى ـ والعياذ بالله ـ ، ويضل، وأحيانًا يكون الإنسان صالحًا مستقيمًا على أمر الله فيلقي الشيطان

في قلبه شهوة فيضل، ويتبع الشهوات، فالقلب السليم: هو السالم من الشبهات والشهوات، فيكون إذا سلم من ذلك مستقيمًا على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ نقول: فيه كما قلنا: في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أنه جملة استئنافية لبيان حال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فكان قلبه سليمًا صالحًا في نفسه، ومع ذلك يحاول إصلاح غيره قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [موبخًا لهم]، فالاستفهام هنا

بمعنى التوبيخ، والتوبيخ يستلزم الإنكار عليهم وزيادة؛ لأنك قد تنكر على الإنسان بدون توبيخ، ولكن إذا وبخته فإن توبيخك مستلزم للإنكار عليهم.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ سمى الله هذا الأب في سورة الأنعام فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام:٧٤] وكان أبوه مشركًا ووعده - عليه الصلاة والسلام - أن يستغفر له، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] فاستغفر له، ولكنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ومحاورته بينه وبين أبيه في سورة مريم واضحة كيف كان يخاطبه بالرفق واللين، ولكن ذلك يخاطبه بالشدة والعنف، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي﴾ [مريم:٤٦] أيدعني واتركني ﴿مَلِيًّا] أي: زمنًا طويلاً.

وقوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذه الجملة استفهامية، ولكن هل (ذا) ملغاة، أو اسم موصول؟ يجوز الوجهان، فإن جعلناها اسمًا موصولاً أعربنا «ما»: مبتدأ، و «ذا» خبره، وجعلنا العائد محذوفًا، والتقدير: ما الذي تعبدونه.

وإن جعلناها ملغاة فإننا نعرب «ماذا» جميعًا، ونقول: «ماذا» اسم استفهام، مفعول مقدم لتعبدون، أو نقول: «ما» اسم استفهام مقدم لتعبدوه و (ذا) لا محل لها من الإعراب، حرف أو بمنزلة الحرف، ليس لها محل من الإعراب، والمعنى أنه أنكر عليهم وقال: ما الذي تعبدون؟ هل تعبدون إلهًا حقًّا أو تعبدون إلهًا باطلاً؟ ﴿أَئِفْكًا﴾ قال المؤلف - رحمه الله -: [في همزتيه ما تقدم] وهو التحقيق، وتسهيل الثانية، وإدخال الفاء بينهما في التحقيق والتسهيل، فتكون القراءات أربعًا.

قال المؤلف: [إفكا مفعول له، وآلهة مفعول به لتريدون. والإفك أسوأ الكذب أي: تعبدون غير الله].

المؤلف - رحمه الله - أعرب لنا هذه الجملة فقال: إن «إفكًا» مفعول له أي: مفعول لأجله، وأن قوله: «آلهة» مفعول لتريدون، و «دون الله» صفة لآلهة والاستفهام في قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ كالذي قبله، يعني أتريدون آلهة غير الله من أجل الإفك والكذب، ويحملكم على هذا الإفك، وهو أسوأ الكذب.

والمعنى: أتريدون آلهة دون الله تعبدونها، فالإرادة هنا بمعنى القصد، والآلهة بمعنى المألوهة أي: المعبودة تريدون ذلك للإفك الذي أفكتموه وهو أسوأ الكذب، ولا شك أن أسوأ الكذب وأظلم الكذب من جعل مع الله إلهًا آخر فإنه أكذب الكاذبين، وأظلم الكاذبين، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وهنا قال: ﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ أي: سواه وغيره، وربما تشعر بدون المنزلة أنها لا تساوي الله - عَزَّ وَجَلَّ - فكيف تريدونها آلهة وتقصدونها.

وقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستفهام هنا استفهام تهديد على كلام المؤلف، يعني ماذا تظنون أن الله فاعل بكم إذا عبدتم غيره، أتظنون أن يترككم؟ والجواب: لا.

ويحتمل أن المعنى إذا اتخذتم مع الله غيره إلهًا فما ظنكم به؟ أتظنون أنه يقبل هذه الشركة؟ فالله -عَزَّ وَجَلَّ- لن يقبل، قال الله -تعالى-: في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُه وَشِرْكَه»(١).

أو ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ فما ظنكم بعظمته وجلاله، لو كنتم عظمتموه حق تعظيمه ما أشركتم به غيره.

فالاستفهام في قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ تشمل كل هذه المعاني:

١- ما ظنكم به أن يترككم هملاً بدون عقاب.

٢- ما ظنكم به إذا اتخذتم معه غيره أنكم تنقصتموه.

٣- ما ظنكم به أنه يرضى أن تعبدوا معه غيره، كل هذا أمر إن كانوا يظنونه فقد أساءوا الظن بالله، ولم يقدروا الله حق قدره، ولك هذه الظنون تلزمهم إذا اتخذوا مع الله غيره ولا يمكن أن يفروا عنها.

وقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبق لنا أن المراد بالعالم هنا ما سوى الله -عَزَّ وَجَلَّ- فكل ما سوى الله فهو عالم، وسُمّوا عالمًا؛ لأنهم علم على الله، فيستدل بمخلوقاته، -سبحانه وتعالى- عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، [فصلت:٣٧]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] إلى آخر ما استدل الله به على نفسه من آياته.

فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربوبية هنا عامة، ولم يقل: ما ظنكم بالله إشارة إلى أن هذه الآلهة المعبودة مربوبة لله -عز وجل-، فكيف تكون معبودة من دونه؟

وقد ضرب الله -سبحانه وتعالى- مثلاً في الإنسان المملوك هل يرضى سيده أن يشاركه أحد فيما يختص به؟ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨] الجواب: لا، فليس لنا مما ملكت أيماننا من شركاء فيما رزقنا الله.

وتأمل قوله: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يتبين لك أن هذا رزق الله ومع ذلك يحتكره الأسياد عن العبيد ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ وهذا هو محط الاستفهام، والجواب: لا.

وإنما قلنا: هذا محط الاستفهام؛ لأنهم شركاء فيما رزقهم الله، لكن بقدر القوت والضرورة، فالعبد يشارك سيده، يأكل ويشرب ويلبس كما يفعل السيد، وهذا كله مشاركة في رزق الله لكن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١)، وابن ماجه (٤٢٠٢).

هل هم مساوون لأسيادهم في ذلك؟ لا، إذا كان هكذا فلماذا تساوون غير الله مع الله في عبادته؟ فالمهم أنه - عليه الصلاة والسلام - أراد إقامة البرهان على أن هذه الآلهة لا تصح أن تكون آلهة؛ لأنها مربوبة لله - عَزَّ وَجَلَّ - والمربوب عبد لا يصح أن يكون ربًّا.

قال المؤلف - رحمه الله -: [وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم، زعموا التبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيد إبراهيم: اخرج معنا ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾. إيهامًا لهم أنه يعتمد عليها ليعتمدوه].

قوله - رحمه الله -: [قالوا للسيد إبراهيم]. تسمية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالسيد فيه نظر، ولو أنه قال: إبراهيم الخليل أو الرسول، أما السيد في هذا المقام فمما لم يرد، ولا شك أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - سيد من سادات الخلق، لكن أن نعبر عنه بهذا الوصف عند ذكره -- عليه الصلاة والسلام - وندع وصفه بالرسالة أو بالعبودية فهذا فيه نظر.

وهذا الكلام المتقدم الذي ذكره المؤلف أنه محذوف من باب الإيجاز بالحذف يحتاج إلى دليل يثبت أن هؤلاء القوم صنعوا طعامًا ووضعوه عند هذه الأصنام للتبرك عليه، وأنهم أرادوا أن يأكلوه بعد رجوعهم وطلبوا خروج إبراهيم معهم، كل هذا يحتاج إلى دليل، وذكرنا فيما سبق أن قصص الأنبياء السابقين لا يعلمها إلا الله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نتلقى أخبار هؤلاء إلا من الوحي، إما بالكتاب وإما بالسنة، وما جاء من أخبارهم من غير هذا الطريق - أي: طريق الوحي - فإننا نتوقف فيه ما لم نعلم مناقضته للشرائع، فإن علمنا مناقضته للشرائع وجب علينا رده، فإذن نقتصر في القصة على ما ذكره الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأن إبراهيم - عليه السلام - في يوم من الأيام نظر نظرة في النجوم من أجل محاجة قومه وإظهار عجزهم، فهو كما ذكر الله - سبحانه وتعالى - في سورة الأنعام عن محاجة إبراهيم لقومه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبًا فقال: (هذا ربي)، فلما أفل - أي: غاب - قال: لا أحب الآفلين؛ لأن الرب لا يمكن أن يغيب عن مربوبه، فلما غاب هذا النجم علم أنه ليس برب؛ لأن الرب لابد أن يكون له كمال الرعاية لمن كان ربًّا له، فلما رأى القمر بازغًا، قال: هذا ربي والقمر أظهر وأبين من الكوكب، فلما أفل قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، وهذا تعريض لقومه بالضلال.

فانظر التدرج كيف يكون؟ قال: لا أحب الآفلين، يعني هو تبرأ من ذلك، ثم عرَّض بأن قومه ضالون ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] وهو صحيح، فالشمس أعظم من القمر، فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون، فأعلن بشركهم وبالبراءة منهم، وهذا من كمال محاجته.

فلا يبعد أن تكون هذه الآية ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ من جنس المحاجة المذكورة في سورة الأنعام.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أي: إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك؛ لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم فلما نظر قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وإنما نظر فيها وهو لا يعتقد - عليه الصلاة والسلام - من باب التورية، وهذا تورية بالفعل، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنه يرى شيئًا وهو لا يريده، أو أنه معرضًا عن شيء وهو قد وضع باله عليه.

فهذا من التورية بالفعل؛ لأنك أظهرت لغيرك خلاف ما يراه، والتورية بالقول أظهرت لغيرك خلاف ما يسمعه، فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ورّى بالنظر بالنجوم ثم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وفسّر المؤلف - رحمه الله - (سقيم) بمعنى سأسقم وهذه تورية قولية؛ لأن ظاهر اللفظ (إني سقيم) يعني الآن، ولا أستطيع الخروج معكم، ولكنه يريد سأسقم؛ لأن اسم الفاعل صالح للزمان الحاضر والزمان المستقبل، فيصح أن تقول: إني حاضر الآن، وإني حاضر غدًا، فلما كان صالحًا للأمرين، ونظر نظرة في النجوم وقال: إني سقيم، تولوا عنه وتركوه وهو يريد - عليه الصلاة والسلام - بفعله هذا أمرًا سيتبين فيما بعد ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال في خفية إلى آلهتهم وهي الأصنام التي يعبدونها.

قال المؤلف: [وعندها الطعام]. فأخذ المؤلف من قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أن الطعام عندها؛ لأن عرض الأكل عليهم يدل على أن الأكل كان موجودًا.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: مال بخفية وانطلق بخفية، والروغان كما هو معروف هو: سرعة الإنسان لكن على وجه لا أحد يحسن به، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ و «ألا» هنا للعرض، وهذا القول ليس على سبيل الإلزام، ولا يمكن أن يلزمها بأن تأكل؛ لأنه يعلم أنها لن تأكل، ولكنه قاله على سبيل الاستهزاء والسخرية، وإلزام هؤلاء العابدين بأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، لا؛ لأنها مستغنية عن الطعام ولكن؛ لأنها لا تعقل ولا تعلم، والذي لا يعقل ولا يعلم لا يمكن أن يكون معبودًا، ثم إن صح وضع الطعام عندها من قبلهم فإن هذا دليل على أنها ليست صالحة للألوهية؛ لأن الإلة مستغن عن غيره، ولهذا أقام الله - تعالى - الدليل على أن عيسى ابن مريم وأمه ليس بإلهين بكونهما يأكلان الطعام، وأنه - سبحانه وتعالى - وحده الإله الحق بكونه يُطْعِم ولا يُطْعَم، فاحتياج ما يعبد إلى الطعام دليل على نقص وأنه لا يصح أن يكون إلهًا.

لكن هم من سخافتهم يجعلون هذا الطعام عندها كأنها تحتاجه وتأكله وتتصرف فيه.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ الاستفهام هنا للتحقير، أي أنه يحقرها لكونها لا تنطق، وخاطب هذه الأصنام مخاطبة العقلاء في قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ولم يقل: ما لكن. تنزلاً مع أصحابها الذين يجعلونها من ذوات العلم وذوات القبول الدفع عنهم

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ يعني: أي: شيء يمنعكم من النطق إن كنتم آلهة؟

فإذا قال قائل: هذا الخطاب لهذه الأصنام هل كان في غيبة عابديها؟ إن قلت: نعم، فما فائدة هذا الخطاب؟ وإن قلت: لا، فكيف الجواب عن قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾؟

والجواب: أن نقول: إن عابديها لم ينصرفوا كلهم عنها، بل كان عندها من الحراس ما يقتضي أن يتكلم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هذه الأصنام بمثل هذا الكلام، وإلا لو لم يكن عندها أحد لكان كلامه هذا لغوًا لا فائدة منه، لكن عندها من الحراس من يستطيع أن يعلم عنها ما علمه إبراهيم، بسبب أنه عرض عليهم الأكل، وإن هذه لم تنطق، وإذا كانت لم تنطق وليس لها إرادة ولا شعور لم تكن صالحة للعبادة.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ في أول الآيات يقول: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: مال بخفية (وإلى) للغاية أما هنا فقال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ وإنما قال: «عليهم» دون «إليهم» لوقوع ذلك الضرب على هذه الأصنام ليكسرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هذه الآلهة، وكما أشرت أولاً أنه خاطبها مخاطبة العاقل فأتى بميم الجمع.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، قوله: «ضربًا» مصدر في موضع الحال، أي: فراغ عليهم ضاربًا باليمين، ويجوز أن تكون مصدرًا لفعل محذوف، والتقدير: فراغ عليهم يضرب ضربًا.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ ﴿بِالْيَمِينِ﴾ [بالقوة] لا يتعين، بل يجوز أن يكون باليمين أي: باليد اليمنى، وضرب بها؛ لأن اليد اليمنى هي آلة العمل غالبًا، ولأن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى في الغالب، ولهذا تجد من النادر أن يكون بعض الناس أعسر ـ يعمل بيده اليسرى عمله بيده اليمنى ـ، ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ لما بلغ قومه ما صنع أقبلوا ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يسرعون على وجه الجماعات بدليل قوله: ﴿فَأَقْبَلُوا﴾ بالواو فهم أقبلوا إليه مسرعين للإنكار عليه، لماذا كسرها؟ وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء عنهم: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩] فجعلوا ذلك ظلمًا وعدوانًا، فجاءوا يزفون لينتصروا لآلهتهم، وهكذا العابدون للأصنام ينتصرون للأصنام، والأصنام لا يستطيعون نصرهم، لكن هم جند محضرون لها.

فهؤلاء أقبلوا يزفون إلى إبراهيم لينتصروا لآلهتهم، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قويًا في ذات الله، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، والاستهزاء بهم: كيف تعبدون شيئًا أنتم تنحتونه بأيديكم؟ وهل يليق عقلاً أن يكون المعبود مصنوعًا لعابده؟ هذا لا يليق، ولا يفعل هذا إلا أسفه السفهاء.

شيء تصنعه أنت بيدك ثم تعبده وتتضرع إليه وتنيب وتتعلق به وترجو منه النفع والضرر، هذا من السفه، لكن ـ والعياذ بالله ـ الإنسان إذا أعمى الله بصيرته لا يغنيه بصر العين، وكانوا في الجاهلية يفعلون شبه هذا الفعل، كانوا إذا نزلوا أرضًا في سفر جمعوا أربعة أحجار، ثلاثة منها للقدر، وواحدًا للعبادة، فصار هذا الحجر المعبود مساويًا لمناصب القدور، وبعضهم كانوا يعجنون إلهًا من العجوة يعني: من التمر، يعبدونه من دون الله، فإذا جاعوا أكلوه، ولم يقولوا: أطعمنا، أو هيئ لنا طعامًا.

هو نفسه يؤكل، هذا من السفه، كذلك قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ صنعوا أصنامًا بأيديهم ثم صاروا يعبدونها.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [أصنامًا] إشارة إلى أن ﴿تَنۡحِتُونَ﴾ تنصب مفعولين:

أحدهما: العائد للموصول الذي تقديره: ما تنحتونه.

والثاني: هذا المحذوف الذي قدره المؤلف: أتعبدون ما تنحتون أصنامًا.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [من نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده، وما مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ إذا كان الله هو الخالق فهو أحق بالعبادة، هل الأحق بالعبادة من خلقكم أو من خلقتموه؟ من خلقكم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قول المؤلف: [من نحتكم ومنحوتكم]. أتى ـ رحمه الله ـ بالمصدر وأتى باسم المفعول من نحتكم إشارة إلى أن (ما) يجوز أن تكون مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا جعلناها مصدرية صار التقدير: من نحتكم، وإذا جعلناها موصولة صارت: من منحوتكم.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم وعملكم، صارت (ما) مصدرية.

وإذا جعلنا التقدير: والله خلقكم ومعمولكم، صارت (ما) موصول.

وإذا جعلنا (ما) موصولة فلابد من عائد يعود على (ما) وهو في الآية محذوف؛ أي: وما تعملونه، واللازم واحد على الاحتمالين، فإذا قلنا: إن المعنى: «والله خلقكم وعملكم» فإن خالق العمل خالق للمعمول.

وإذا جعلنا المعنى: «والله خلقكم ومعمولكم»، فإنه إذا كان الله قد خلق المعمول وهم الذين باشروا عمله دل ذلك على خلق العمل وخلق العامل أيضًا.

وعلى كل تقدير في الآية إقامة الحجة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها معمولة، وقوله: [وقيل: موصوفة].

الموصوفة هي التي يعبر عنها بالنكرة بالموصوف.

يعني خلقكم وصنمًا تعملونه، أو وأصنامًا تعملونها، ولا نقول: والذي تعملون بل نقول:

وأصنامًا تعملونها، وأفادنا المؤلف ـ الآن ـ أن لـ (ما) ثلاثة معانٍ: أن تكون مصدرية، وموصولة، وموصوفة، وهذه ثلاثة من عشرة؛ لأن (ما) لها عشرة معان كما قال الناظم.

مَحَامِلُ مَا عَشْرٌ إِذَا رُمْتَ عَدَّها فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِن الشِّعْرِ
سَتَفْهِم شَرْطُ الوَصْلُ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِ

(ستفهم) الاستفهامية مثل: ما هذا؟

(شرط) الشرطية ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] (الوصل): موصولة.

(فاعجب): التعجبية مثل: ما أحسن هذا!!

(لنكرها): النكرة الموصوفة. أو النكرة الواصفة.

تقول: مررت بما معجب لك، أي: بشيء معجب لك.

وتقول: عرفته نوعًا ما، يعني نوعًا قليلاً، فهي نكرة واصفة.

(بكف): كافة مثل: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] فهنا كفت (ما) عن العمل.

(ونفي): نافية: ما حضر زيد.

(زيد): زائدة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧] ويا طالبًا خذ فائدة: ما بعد إذن زائدة.

(تعظيم) يعني أنها تأتي للتعظيم، وهذه غير التعجب مثل أن تقول: مررت بما مذهل، أي: بعظيم مذهل.

وربما نقول: إن ما التعجبية فيها نوع من التعظيم فإنها تدل على التعظيم والتعجب.

(مصدر): المصدرية ومنه هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

فهذه محامل (ما) عشرة وينبغي لطالب النحو أن يحفظ مثل هذه الأبيات؛ لأنه تحصل له المعاني.

الفوائد:

١ ـ ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ من فوائد هذه الآية وما بعدها: أن أصل دين الأنبياء واحد، فكلهم شيعة للآخر مقوٍّ لدعوته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، أي: رسول كان إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون.

٢ ـ أن الأنبياء وإن طال الزمن بينهم، فإنهم إنما يأتون بالوحي من الله؛ لأنه إذا طال الزمن تناسى الناس العهد واضمحل وانتهى، ولكن إذا كان بوحي من الله فإنه يتجدد بحسب تجدد هذا الوحي؛ لأن بين إبراهيم ونوح أزمانًا طويلة.

٣ - **ومن فوائدها:** الثناء على إبراهيم - عليه السلام - ووجهه أنه كان شيعة لمن كان يدعو إلى توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وكل من كان شيعة لمن يدعو إلى الله فإنه بلا شك محل ثناء.

٤ - (١) ومن فوائد قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الثناء على إبراهيم - أيضًا - بكونه جاء الله - سبحانه وتعالى - بقلب سليم، وهذه الصفة وإن كانت سلبية لكنها تتضمن كمالاً؛ لأن القلب إذا سلم من الشبهات والشهوات صار خالصًا لله تعالى: قصدًا وإرادة وعملاً، ففيها الثناء على إبراهيم بسلامة القلب.

٥ - (٢)**ومن فوائدها:** عناية الله - سبحانه وتعالى - بإبراهيم، - عليه السلام - وذلك بإضافة الربوبية إليه ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ وهذه ربوبية خاصة، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر من الربوبية العامة؛ لأن المربوبين بالربوبية العامة شملتهم الرحمة العامة، لكن الربوبية الخاصة يكون لهم الرحمة الخاصة.

٦ - ١ - **ومن فوائد قوله:** ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بيان قوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وأنه لم تأخذه في الله لومة لائم؛ لأن رجلاً يخاطب أباه وقومه بهذه العبارة قوي في ذات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، إذ إن العادة أن الإنسان يحابي أباه وقومه، لكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يحابهم، بل أنكر عليهم، وقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾.

٧ - ٢ - **ومن فوائدها:** أن قرب النسب من أهل الخير لا يفيد الإنسان شيئًا، فإبراهيم بالنسبة لأبيه أقرب شيء؛ لأنه بضعة منه، ومع ذلك لم ينتفع به أبوه، بل كان مشركًا، يحاج ولده على ذلك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان:١٤ - ١٥] فهذا يدل على تباين ما بين الابن والأبوين، حتى إنهما ليجاهدانه على الإشراك بالله، ومع ذلك قال الله - تعالى -: ﴿عِلْمٌ فَلَا﴾.

٨ - ٣ - **ومن فوائدها:** صحة نسبة القوم إلى الرسول وإن كذبوه؛ لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ والانتساب بالنسب لا يعني التبرؤ من الدين فيصح أن ينتسب الإنسان إلى أبيه الكافر، ولا يقال: إن هذا من باب الموالاة، بل هذا من باب الحقيقة، والنسب لا يزول باختلاف الدين أبدًا، وانظر إلى قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦] فأضافهم إليه مع نسبة تكذيبه إليهم، وهذا يدل على أن الإنسان قد يكون من قوم كافرين وينسب إليهم، وأن ذلك لا يخدش في دينه.

٩ - ٤ - **ومن فوائدها:** سفه هؤلاء القوم حيث كانوا يعبدون مع الله غيره، ولهذا أنكر عليهم من كان من أعقل الخلق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ وقد أرشد الله إلى هذا في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وملة إبراهيم هي

الحنيفية المبنية على الإخلاص، فكل من خالف ذلك فقد سفه نفسه، أي: أوقعها في السفه، الذي هو ضد الرشد والعقل.

١ - ومن فوائد قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أن كل من زعم أن مع الله إلهًا يعبده فهو آفك كاذب؛ لقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن دعوى كون هذه آلهة لا يعطيها سمة الألوهية؛ لأن الكذب لا يقلب الحقائق عن أصلها، فلو قلت مثلاً: قدم زيد، وهو لم يقدم لم يكن قادمًا، فهذه الآلهة وإن جعلوها آلهة لن تكون آلهة، كما قال الله - تعالى - في آية أخرى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣].

٣ - **ومن فوائدها:** أن عابدي الآلهة من دون الله يقصدونها قصدًا حقيقيًا بقلوبهم، كما يتجهون إليها بجوارحهم ولهذا قال: ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾.

فليسوا يعبدونها مجرد عادة، ولكنهم يعبدونها قصدًا وعبادة، حتى إنهم نسوا الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

١ - **ومن فوائد قوله:** ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ الإنكار الشديد من إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على قومه، حيث سألهم موبخًا لهم: ما الذي تظنونه برب العالمين إذا عبدتم غيره؟ هل تظنونه ناقصًا لا يستحق أن يعبد وحده؟ هل تظنونه غافلاً عن عملكم فيدعكم بدون عقوبة؟ هل تظنونه يرضى بأن يُعبد معه غيره؟ كل هذا لم يكن، فظنكم ظنٌّ خاطئ.

٢ - **ومن فوائدها:** عموم ربوبية الله - سبحانه وتعالى - ؛ لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إقامة الحجة على الخصم بما لا ينكره ؛ لقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأن العالم تشمل حتى آلهتهم التي يعبدونها، فإذا كانت آلهتهم مربوبة فكيف يمكن أن تكون معبودة؟

هذا تناقض، وقد مرّ علينا أن من أقر بانفراد الله بالربوبية لزمه أن يقر بانفراده بالألوهية وإلا صار متناقضًا.

إذ لا يستحق العبادة إلا الرب الخالق المالك المدبر، ومن لم يكن كذلك فإنه لا يستحق أن يُعبد.

١٤ - **ومن فوائدها:** أن الخلق علم وآية ودليل على خالقهم، والخلق باعتبار كونه آية على وجود الله وقدرته وكمال سلطانه وتدبيره أمر معلوم، لكن قد يكون آية على معنى خاص، فمثلاً نزول المطر آية على الرحمة، والنكبات والخوف والنقص في الأموال والأنفس آية على عقوبته وغيرته وانتقامه ممن عصاه، فهناك معنىً عامًا تشترك فيه جميع الآيات، وهو كونها دالة على وجود الخالق - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال ربوبيته وسلطانه، وأنه لا يعارضه شيء من هذه المخلوقات.

وهناك معنىً خاص للآية وما تدل عليه بعينها، كدلالة الغيث على الرحمة، ودلالة الجدب على الانتقام ممن عصاه.

١ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ جواز التورية، وهي أن يظهر للمخاطب ما لا يريده، ويفهم منه المخاطب معنىً غير المراد، والتورية قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون جائزة، وقد تكون مكروهة، وقد تكون محرمة، فتجري فيها الأحكام الخمسة.

فإذا توقف على التورية إنقاذ معصوم من هلكة صارت واجبة، مثل أن يأتي شخص ظالم يسأل عن إنسان يريد أن يقتله وأنت تعرف مكان هذا الإنسان فهنا يجب عليك أن توري؛ لأن في ذلك إنقاذن للمعصوم من الهلاك، وقد تكون مستحبة كما لو سألك سائل عن عمل صالح عملته تخشى أن تقع في الرياء إن أخبرته به فهنا التورية مستحبة.

وقد تكون مباحة، كما لو ورّيت على شخص يريد منك شيئًا لا تريد أن تعطيه، مثل أن يقول: يا أخي أقرضني مثلاً مائة ألف ريال. وأنت تعرف أن هذا الرجل مماطل لا يفي بالواجب، فهنا تكون التورية مباحة.

وقد تكون مكروهة كما إذا كانت لغير سبب، فالصحيح أنها مكروهة لما يخشى فيه من نسبة الإنسان إلى الكذب؛ لأن الإنسان إذا ورّى ثم ظهر الأمر على خلاف ما فهمه السامع نسبه إلى الكذب، فهذه مكروهة لا يبيحها إلا السبب.

وقد تكون محرمة كما لو تخاصم رجلان إلى القاضي فادّعى أحدهما على الآخر بدعوى، فالمدعي عليه البينة، والمنكر عليه اليمين، فعجز المدعي عن البينة فحلف المدعي عليه عند القاضي وقال: والله ما له عندي شيء. فالقاضي في مثل هذا التعبير يفهم براءة هذا المدعي عليه.

والمدعى عليه أراد بها أن تكون اسم موصول. يعني: «والله الذي له عندي شيء»؟ هذه التورية نقول: إنها حرام؛ لأنها تتضمن جحد الحق الواجب عليه أداؤه.

فإذا قال قائل: ما الأصل فيها الإباحة أو الكراهة؟

فالأقرب أن الأصل فيها الكراهة، ولكن قد تكون مباحة، وقد تكون مستحبة، وقد تكون واجبة، وقد تكون حرامًا.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز إسناد الوصف إلى الإنسان باعتبار المستقبل، تؤخذ من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فإنه الآن ليس بسقيم، لكن كل إنسان عرضة؛ لأن يسقم، على أنه يمكن أن يريد بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف باعتبار قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] فيكون الوصف هنا حاليًّا.

١ - **ومن الفوائد في قوله:** ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أن هؤلاء القوم لما قال لهم هذا القول، وبعد أن نظر نظرة في النجوم اقتنعوا، فيتفرع على ذلك أن الإنسان المبطل قد يقتنع بالشيء ولو كان باطلاً في حقيقته وهو كذلك، فالإنسان المبطل إذا ورّى له في باطله ظن أنه حق فأخذ به واعتبره.

١ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ إلى آخر الآيات بيان قوة

إبراهيم - كما سبق - حيث ذهب بسرعة وخفاء إلى هذه الآلهة ليكسرها، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - لم يكسرها إلا بعد أن أقام البينة على من كان عندها بأن هذه ا لآلهة لا تصلح أن تكون آلهة. لأنها لا تعقل، لا تنطق، ولا تعرف ما ينفعها ولا تجلب لنفسها نفعًا، فلغيرها من باب أولى، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز التورية كما سبق؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - يعلم أن هذه الأصنام لا تأكل ولا تنطق، لكن أراد بهذا السؤال إقامة الحجة على من كانوا عندها يحرسونها وينتصرون لها: بأن هذه الأصنام غير صالحة للعبادة؛ لأنها لا تعرف ما ينفعها ولا يضرها، ولا تجلب لنفسها نفعًا ولا تدفع عن نفسها ضُرًّا.

١ - **ومن فوائد قوله تعالى:** ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ بيان قوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أنه لما ينبغي للإنسان إذا عمل عملاً أن يكون فيه جادًّا وحازمًا، فيفعله بقوة لا بتوان وكسل، خلاف لا يقوم به بعض الناس من الأعمال، حيث تجده يواجه عمله بضعف وتوانٍ وكسل.

والإنسان في الحقيقة مع نفسه على ما اعتاد، إذا اعتاد الحزم والقوة وألا يدع عملاً لوقت مستقبل صار حازمًا في أعماله مدركًا لآماله، أما إذا كان كسولاً متهاونًا يقول: أدع هذا الشيء إلى غدٍ. فإن الأعمال سوف تتراكم عليه، وسوف يجد في النهاية أنه عاجز عنها؛ لأنه إذا أخر عمل يوم إلى غد اجتمع عليه غدًا عملان: عمل الماضي وعمل الحاضر، فإن أخَّره مرة أخرى اجتمع عليه ثلاثة أعمال، وهكذا حتى يعجز ويكل، ولهذا منع الإنسان الذي عليه قضاء رمضان أن يؤخره إلى ما بعد رمضان الثاني؛ لأنه إذا أخره إلى الثاني تراكمت عليه الديون ثم عجز بالتالي عن قضاء هذه الديون.

١ - **ومن فوائد الآية الكريمة** في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ بيان شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم؛ لأن قوله: ﴿فَأَقْبَلُوا﴾ يدل على الترتيب والتعقيب والسببية أيضًا، أي: بسبب ما عمل بهذه الآلهة أقبلوا إليه ﴿يَزِفُّونَ﴾. والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ففيها دليل على شدة انتصار هؤلاء لآلهتهم مع بطلان هذه لآلهة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الاجتماع له أثر حتى في الباطل ؛ لقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: جميعًا، والناس إذا اجتمعوا صار بعضهم لبعض ظهيرًا. ومعلوم أن الإنسان ينتصر ويقوى بغيره.

٣ - ويتفرع على هذه الفائدة أن الإنسان إذا أراد عملاً مهمًّا وخشي أن يعجز عنه بنفسه فالأفضل أن يستعين بغيره ولا يقول: إن هذا استعانة بغير الله - تعالى - ؛ لأن الله قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٢ - ٦٣] ولا يعد هذا نقصًا في التوكل على الله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - سيد المتوكلين، ومع

ذلك فإن الله ـ تعالى ـ قال له: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وهذه مسألة يغفل عنها بعض الناس، تجده يهم بالأمر العظيم ولكن لا يتخذ له مناصرًا، هذا التصرف فيه نظر ولكن يجب أن تراعي الحكمة في هؤلاء المناصرين، هل الحكمة أن يذهبوا جميعًا، أو أن يتفقوا على رأي وإن تفرقوا في الذهاب؟ أقول: إنه يجب أن تستعمل الحكمة هنا؛ لأنه قد يكون من الحكمة أن يذهبوا جميعًا، وقد يكون من الحكمة أن يذهبوا متفرقين لكن يتفقون على رأي واحد، وهذه ترجع في الواقع إلى العمل الذي يريدون الاتفاق عليه، وإلى المواجه التي يريدون أن يواجهوه.

فإن بعض الناس قد يتأثر بالجماعة الكثيرة، ويخضع لهم، وبعض الناس قد تأخذه العزة بالإثم، ويظن أن هذا من باب التظاهر عليه، فلا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً.

والمهم أن الاجتماع على الشيء سبب للعزة والانتصار، ولكن كيف يعالج الشيء الذي اجتمعنا عليه؟ هل يعالج على سبيل الاجتماع أو الانفراد؟ هذا يرجع إلى ما تقتضيه الحال، والإنسان ينبغي أن يستعمل الحكمة في ذلك.

٤ ـ من فوائدها: أن أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم ؛ لقوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ وإذا كان أهل الباطل يسرعون إلى نيل غرضهم فينبغي أن يكون أهل الحق أسرع منهم؛ لأن أهل الحق منصورون وأهل الباطل مخذولون.

٥ ـ ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم ينتصرون لأصنامهم ومعبوداتهم مع أنها باطلة، فينبغي أن يكون أهل الحق الذين ينتصرون لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أشد منهم انتصارًا في دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا نظرت إلى واقع المسلمين اليوم وجدت أنهم متفرقون، فكل عالم لا يأوي إلى عالم ولا يشاوره ولا يأخذ برأي ه، بل إنه مع الأسف بما يضاده في رأي ه مع علمه بأنه على حق، لكن يكون فيه شبه من اليهود الذين حسدوا العرب على ما أعطاهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من النبوة العظيمة التي جعلها فيهم، فإن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويؤملون النصر عليهم باتباع محمد ﷺ فلما جاء محمد كفروا بمحمد؛ لأنهم يظنون أنه يأتي من بني إسرائيل وأتى من العرب، وهم يظنون هذا تمنيًا وإلا فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

١ ـ ومن فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الإنكار على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، والاحتجاج على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، أي: كيف تنحتونه أنتم وتصنعونه أنتم، ثم بعد ذلك تعبدونه أليس الأولى من الناحية العقلية أن يكون هذا المنحوت هو الذي يعبدكم؛ لأنكم أنتم الذين نحتموه، وأوجدتموه، ولكن عقولهم منتكسة فصار الأمر بالعكس يعبدون ما ينحتون.

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إقامة الدليل على أن الله وحده هو الذي يستحق أن يعبد ؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخالق هو الذي يجب أن يُعبد.

كيف تعبد من لم يخلقك وتدع من خلقك؟ أو تعبد من لم يخلقك مشركًا له مع من خلقك؟ ولهذا أقام الله البرهان على أنه لا يصح أن يعبد سواه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] ولم يقل: اعبدوا الله، إقامة للدليل عليهم بالربوبية.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن أعمال العباد مخلوقة لله ؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سواء جعلنا (ما) مصدرية، أم موصولة، إن جعلناها مصدرية فالأمر واضح: خلقكم وخلق عملكم، وإن جعلناها موصولة فلأن خلق المعمول فرع عن خلق العمل، فإذا كان معمولك الذي باشرت أنت عمله مخلوق لله فكيف بعملك الذي كان من عند الله، وفي هذه الآية رد على القدرية الذين أنكروا أن يكون لله ـ سبحانه وتعالى ـ شأن في أعمال بني آدم، وقالوا: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه إرادة ولا خلق.

٣ ـ وفي الآية رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ حيث أضاف العمل إليهم، وإضافة العمل إلى الإنسان تقتضي أنه هو العامل وهو الفاعل حقيقة وهو كذلك.

فالإنسان حقيقة هو الذي يعمل ويفعل ويريد ويختار، ففي الآية الكريمة رد على الطائفتين المنحرفتين، وأهل السنة والجماعة قالوا: إن الإنسان له قدرة واختيار وإيجاد لعمله، ولكن الذي خلقه وخلق هذه القدرة والإرادة هو الله، ففعله يضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا، ويضاف إليه إيجادًا ومباشرة، فهو مضاف إلى العبد باعتبار، ومضاف إلى الله باعتبار آخر.

٤ ـ **ومن فوائدها:** ما سبقت الإشارة إليه وهو إقامة الحجة على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل، فإذا كان الله خلقهم وخلق ما يعملون فكيف يعبدون هذا المخلوق لله ويجعلونه شريكًا مع الله في العبادة؟!

تم بحمد الجزء الحادي عشر

ويليه الجزء الثاني عشر ويبدأ بتفسير قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٧ـ ٩٩]



الفهرس

تفسير سورة الصافات

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعًا وترتيبًا وإفادة من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري